دراسات فى الحضارة الإسلامية

(بمناسبة القرن الخامس عشر الهجرى)

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية

المجلد الأول

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٥

عفاف توفيق

الاخراج الفنى

مدخـل

فى قيمة حصاد حضارة أمم الاسلام
خلال أربعة عشر قرنا هجريا
ومكانة هذا الحصاد فى حضارة الانسانية

عندما استقر رأينا فى لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للفنون والآداب فى مصر على اصدار كتاب يحصى ثمرات جهود المسلمين فى ميادين الحضارة خلال أربعة عشر قرنا هجريا وضعنا خطتنا على أن يكون هذا الكتاب شاملا لميادين الحضارة كلها ، ولكن الظروف لم تأذن لبعض زملائنا الذين سألناهم أن يكتبوا فى ميادين تخصصهم من هذه الحضارة فى انجاز ما طلبناه منهم ؛ فرأينا ان نجمع ما تيسر لنا من الفصول وننسق بينها وندفع بها الى المطبعة بناء على موافقة كريمة من الهيئة المصرية للكتاب على ان تتولى هى نشر الكتاب ؛ فمالايدرك كله لا يترك جله ، خاصة وان الفصول التى تجمعت لنا فصول قيمة جديرة بالنشر ، وعولنا على أنه اذا تجمعت لنا الفصول الباقية أصدرناها فى مجلد ثان بالتعاون مع الهيئة المصرية العامة للكتاب أيضا ، وهى مشكورة أصدق الشكر على مايسرت لنا من أمر نشر هذا الكتاب . ولايسعنا فى هذه المناسبة الا ان نستمطر رحمات الله سبحانه وتعالى على الشاعر الأديب الكبير صلاح عبد الصبور ، الرئيس السابق لهيئة الكتاب ، فقد كان ــ أفسح الله له فى رحاب الجنة ــ هو الذى أفسح لنا صدره وأجابنا الى ما سألناه اياه من نشر هذا الكتاب .

★ ★ ★

وسأحاول فى هذا المدخل ان ألقى نظرة على حصاد الجهد الحضارى لأمم الاسلام خلال الأربعة عشر قرنا هجريا التى انقضت من عمر الاسلام المديد . ولا أقول « تراثا » كما تعودنا أن نقول ، لأن التراث لا يكون الا لميته ، وأمة الاسلام ــ صاحبة هذا التراث الحضارى . لازالت فى عنفوان حيويتها وشبابها

المتجدد ، ومادام هذا حالها فان حضارتها أيضا فى عنفوان حيويتها ، ومن ثم فان ثمارها تسمى حصادا ولاتسمى تراثا ، لأن الحصاد يتجدد ، وكذلك الجهد الحضارى لأمة الاسلام ٠

★ ★ ★

وأول ما يتجلى لنا عند النظر الى حضارة الاسلام بصورة عامة هو وحدتها أى تشابهها فى الروح والخصائص المميزة لها أيا كان ميدانها ، فسواء نظرنا الى الفقه او الشريعة أو الفلسفة أو الطب والصيدلة أو العمارة فاننا نحس ان بينها ــ وعلى اختلافها فى الطبيعة الخاصة بكل منها ــ خيطا رفيعا رابطا يحس به الانسان لأول وهلة ، وهذا الخيط غير المنظور هو الذى يشعرنا بأن هذه كلها ميادين من حضارة واحدة ، فاذا نظرنا جليا وجدنا ان ذلك الخيط يرجع فى نهاية الأمر ــ أو بدايته بتعبير أصح الى الاسلام فالاسلام عقيدة وشريعة ونظام اجتماعى وخط سلوكى وحضارة ٠ والأربعة الأولى هى القوائم التى قام عليها بناء الحضارة الاسلامية فى شتى صورها وأشكالها ٠

فلننظر مثلا فى ميدان من ميادين الانتاج الفكرى الاسلامى وهو التاريخ ــ وقد كتب فيه الأستاذ الدكتور أحمد شلبى فصلا ممتعا فى الكتاب الذى أنشرف بتقديمه ، فنجده قد بدأ من السيرة النبوية . وتدوين السيرة بدوره نابع من الحرص على معرفة السنة ، والسنة هى كل ماصدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو استهجان أو استحسان ٠ فالسيرة كلها سنة ومن هنا جاء الحرص على الدقة العلمية فى تدوينها منذ البدايات الأولى فقد سار أصحاب الروايات فى المغازى على أصول التدقيق البالغ فى الخبر ومصدر الخبر ، ومن هنا ، وبعد محاولات جزئية قام بها أصحاب الروايات الأولى قام محمد بن اسحاق بن يسار المطلبى بكتابة سيرة كاملة للرسول صلوات الله عليه ، وسيرة ابن اسحاق تعتبر فى نطاق التاريخ الاسلامى أول وأوفى سيرة للرسول كتبها مؤرخ من مؤرخى الرعيل الاول من أعلام العلم فى القرن الهجرى الثانى ، وهى فى نفس الوقت أول سيرة أو ترجمة حياة مطولة كاملة تكتب فى تاريخ علم التاريخ فى الدنيا ، فلم يكتب الفرس أو الهنود أو الاغريق أو الرومان سيرة مطولة كاملة لرجل من رجالهم ، لا ، ولا فعل هذا المؤرخون المسيحيون مع حياة السيد المسيح ؛ وحياة المسيح بن مريم عليه السلام لم يكتبها كاملة من المنظور التاريخى المتعارف عليه واحد من كتاب المسيحية الأول : لا أصحاب الأناجيل ولا آباء الكنيسة ، فهى حتى فى الأناجيل يحدد أقاويل لعيسى بن مريم عليه السلام من أشعة متفرقة من ضوء تنير جانبا دون جوانب من حياته ٠ وما فى القرآن الكريم عن حياة عيسى بن مريم أوفى من كل مافى الأناجيل ٠

أما عندنا فان الاسلام يقوم أساسا على كتاب هو القرآن الكريم • وقد بذل المسلمون غاية الجهد في تدوين نص القرآن سليما من أدنى تحريف أو زيادة أو نقص وبذلوا جهودا كبرى فى المحافظة على هذا النص سليما على مر العصور ، ومن ثم ضبطوا نفس مقاييس الضبط قدر الطاقة عندما بدأوا جمع الأحاديث النبوية وتدوينها • وما دامت السيرة فى جملتها حديثا فقد روعى فى تدوينها قواعد الضبط والاحكام والتحقق من مصادر الأخبار ، وهى الاسناد • وقد تفنن المسلمون الأول فى كتابة السيرة ، واعتزموا هذا المنهج من الدقة والضبط فى كل حالة ، فألف الواقدى كتابه فى « المغازى » ، وهى الأعمال التى قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنشر الدعوة ، سواء أكانت غزوات يقوم بها بنفسه أم سرايا يرسلها تحت قيادة من يختاره من أصحابه أم بعوثا أى جماعات صغيرة من المسلمين توفد لغرض محدد أم جماعات من الدعاة ترسل الى بعض قبائل العرب للدعوة السلمية دون حرب أو عنف وكتب ابن سعد كتاب « الطبقات » فى تراجم الصحابة بادئا الكتاب بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وتقع فى جزءين كاملين ، ثم أعقب السيرة بالبدريين من الصحابة فبقية الصحابة والتابعين ، وختم الكتاب بجزء خاص عن النساء ، وألف البخارى « صحيحه » الذى جمع فيه كل ماتيسر له جمعه من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأضاف الى « الصحيح » كتاب « الرجال » عن الصحابة الذين أسند اليهم أحاديثه . وهكذا تعددت أساليب كتابة السيرة النبوية واستبطانها من كل جوانبها ، فان تفاصيل المغازى وصور الكتب التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتبها لوفود العرب كما أورد نصوص معظمها ابن سعد فى الطبقات ، وتراجم الصحابة ، وأحاديث الرسول جميعا ، كل هذه فنون من التاريخ اهتدى اليها المسلمون الأول بالفطرة السليمة والحرص البالغ على تدوين سيرة الرسول كاملة •

★ ★ ★

ومن هنا ، من تلك البداية الاسلامية عرف المسلمون فنونا شتى من فنون كتابة التاريخ وأصبحت الدقة والضبط والصدق أساسا من أسس العلم كله عند المسلمين سواء فى علوم الدين أم فى علوم الدنيا ، وسواء فى الناحية النظرية أم التطبيقية ، فاننا نجد أن الدقة والضبط هما الأساس فى كل العلم الاسلامى والجهد الحضارى الاسلامى كله ، وصانع الزخرفة المسلم شعاره الصدق والأمانة فى العمل والتزام روح الاسلام فى كل خط من خطوط أعمالهم ، وعمائر عظيمة مما يزين عواصم الاسلام من التاج ومحل فى اجرا بالهند الى قبة الصخرة فى القدس الى مجموعة السلطان قلاوون المعمارية فى القاهرة الى المساجد العثمانية البديعة فى مدائن تركيا الى مساجد قرطبة وفاس ومراكش ، كل هذه أعمال ما كانت لتتم لولا الصدق والأمانة والدقة والايمان العميق

بالاسلام ، وقد قال ذلك المعمارى التركى العظيم سنان بن عبد الله بن عبد المنان عندما فرغ من مسجد السليمانية ومجموعته المعمارية فى استامبول فعندما انتهى من رفع القبة الى أعلى · من قبة أيا صوفيا قال الحمد لله الذى يسر لنا التفوق على ما أنشأ أهل الشرق وبنوا مع دعاواهم العريضة فى التفوق على أهل الاسلام فى المعمار ، وكل ذلك بعون الله وبركة ديننا ونبينا صلى الله عليه وسلم ·

★ ★ ★

ومنذ عصر الراشدين ، وقبل أن يكتمل بناء دولة الاسلام انطلق المسلمون فى آفاق العلم والعمل الحضارى ، وكلما دخلت فى الاسلام أمة دخلت فى نفس الوقت ميدان الحضارة والعمل العلمى النظرى والتطبيقى ، وتحت راية الاسلام عمل العرب والمصريون والايرانيون وأهل الشام وأهل العراق وأهل المغرب والأندلس ، ثم الأتراك بشتى طبقاتهم ومن تلاهم شرقا الى المحيط الهادى فى بناء صرح حضارة واحدة متعددة الميادين والأشكال هى حضارة الاسلام ·

ولقد صنعت أمم الاسلام مجتمعة هذا البناء الحضارى من تراثها الماضى بعد أن بعث بعثا جديدا بفضل الاسلام · ومن الخطأ المتواتر قولهم : ان العرب لم يحملوا الى غيرهم من الأمم الا الاسلام ، حقا ان الاسلام أثمن ما حمل العرب الى الناس ، ولكنهم أيضا حملوا اللغة العربية ، وهى أداة حضارية من الطراز الأول ، وحملوا كذلك حصيلة تجارب حضارية خاصة بهم ، أنشأوها وتمت على أيديهم فى الجاهلية ، مثل استنباط الماء من الأرض وتسييره فى قنوات فى باطن الأرض أو على سطحها وقواعد سليمة وأعشاب بحرية فى علاج أمراض الانسان والحيوان وكان عندهم ادراك أصيل ــ مبالغ فيه أحيانا ــ لقدر الانسان وكرامته لهم منطق فى التفكير واقعى وعملى وسليم ودقيق ومعرفة فطرية بطبائع البشر وميل صادق لمحبتهم والتعاون معهم مادام ذلك التعاون لاينقص من قدر العصبية العريقة ، وكانت لهم قريحة صافية تحسن النظر الى الأمور وتصل الى لبابها دون تعقيد ، وكانت لهم فى أنفسهم أخلاق وقيم وتقاليد حسنة ، وأضافوا الى البناء العام مواد حضارية أخرى لم ندرسها حق الدراسة من ناحية ثم ان المجال لايتسع لاحصائها فى هذا المدخل من ناحية أخرى · كل هذا حمله العرب وأدخلوه فى حضارة الاسلام ــ ولازلنا بعيدين عن تقدير فضل العرب الحقيقى فى بناء الحضارة الاسلامية حق قدره ·

وقد أفاد العلم بعد الاسلام فى هذه الخصال كلها وأضفى عليها طابعا اسلاميا زادت معه قيمة وفائدة · وعندما اتسعت رقعة الاسلام ودخلت فيه امم وحضارات شتى ، استعربت وأسلمت غالبية هذه الأمم واكتسبت الخلال العربية الاسلامية ، وبعضها أسلم ولم يستعرب وبعضها استعرب ولم يسلم

ولكن هؤلاء جميعا اكتسبوها خلال العصور وصبوا ما لديهم من عناصر حضارية على قالبه فنشأ من هذا كله ذلك التسبيح الحضارى الفريد الذى هو تسبيح الحضارة الاسلامية ذات الصور والأشكال واللغات المتعددة ولكنها واحدة فى الروح والطابع ٠

★ ★ ★

هذه الوحدة فى الروح والطابع هى التى أعطت المجتمع الاسلامى مثلا خصائصه أيا كان مكانه وزمانه ، وخصائص هذا المجتمع أنه مجتمع الأسرة السليمة القويمة المتراحمة البعيدة عما ينافى سلامة الطبع والخلق والتصرف ، لأن الاسلام أحكم بناء الأسرة وحدد روابطها وضوابطها سواء أكانت معنوية أم مادية ، وجعلها أساس المجتمع كله ، واعتبر الجماعة الاسلامية كلها أسرة كبيرة أى أمة تحكمها نفس المعنويات والقواعد والنظم ٠ وقد نجحت الأمة الاسلامية وازدهرت وثبتت أقدامها طالما تمسكت بهذه القواعد والأساس سواء فى حياة الأسرة أم فى حياة الأمة ، وتدهورت عندما قصرت فى مراعاتها أو أهملتها أو لم تفهمها أو عندما انحرف بها حكامها عن قواعد الخلق الاسلامى، فنشأت من ذلك الأهواء والتناقضات واختلال الموازين والانحرافات ، وهذا هو السبب الرئيسى فيما تسميه بتدهور الدولة ــ أو الدول ــ الاسلامية أو ركودها وتراجعها ٠

★ ★ ★

وقد تنبه أهل العلم والفهم والدين من المسلمين من بادىء الأمر الى أن المدخل الى فساد أمر الأمة انما يكون من ناحية السياسة ، لأن السياسة تنازع على السلطان على الأرض والناس ، والاسلام قد افترض من أول الأمر أن جماعته أمة يحكمها القانون الخلقى والضمير الاسلامى اليقظ الواعى قبل أن يحكمها السلطان السياسى ، فالسلطان كله لله ، ولا سلطان لأحد على أحد الا بما قدره الله فى القرآن وفصله الرسول فى السنة من أصول وحدود ٠ اما وقد دخلت الميدان من أواسط العصر الراشدى سياسات وأفكار وآراء غير اسلامية وغير عربية ، ودخلت معها الأهواء والمطامع ، فلم تعد النظم السياسية بالأطر الصالحة لسلامة الجماعة الاسلامية وصيانتها وتبين لهم ان الأطر السليمة التى لاتتغير هى أطر العقيدة والشريعة،وهم أهلها والعارفون بها،ومن ثم فقد بدأ أهل الدين والعلم والفقه فى صيانة الأمة من عواصف السياسة والاقتصاد بها عن أهواء أهل الحكم ومطامعهم ، ومن هنا نشأ ذلك الانفصال الكبير بين الدولة والأمة فى تاريخ الاسلام ، فوضعت الدول ما شاءت ان تضع من السياسات واحتشفت ما ارادت لها مطالب السياسة من دروب الخطأ والخطر ، وقامت

الدول وسقطت ، وبقيت الأمة الاسلامية سليمة محتفظة بنفسها وطبيعتها وأخلاقياتها ، ولما كانت الحضارة بشتى مظاهرها من صنع الامم فى المكان الأول ، فقد كانت الحضارة الاسلامية فى شتى ميادينها ذات طابع اسلامى واحد، لأنها من صنع الأمة . حتى ما أمر الملوك والسلاطين بعمله أو بنائه فقد تم بيد ناس من أفراد الأمة ، واستطاعت الأمة بذلك أن تسير فى طريقها رغم الأزمات السياسية التى تعرضت لها بلا نهاية بل رغم الكوارث الكبرى التى عصفت بالدول ، ولكنها لم تعصف بالأمة وحضارتها الا فى حالات نادرة . ففى عصور الاضطراب والخطر السياسيين البالغين مثل عصور الحروب الصليبية مثلا ، ظلت الأمة سائرة فى طريقها مواصلة بناء حضارتها ، ولا يتجلى هذا بصورة تهم المتأمل كما تتمثل فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، فهو قرن التدهور السياسى البالغ وهو فى نفس الوقت قرن الازدهار الحضارى العظيم ، لأن التدهور السياسى من صنع السياسيين وأهل الدول ، أما الحضارة فهى من عمل الأمة .

★ ★ ★

وتأكيدا لهذا المعنى نجد الكثيرين من الفقهاء تصوروا ان خلاص المسلم وسلامة دينه لا تكون الا فى الزهد فى الدنيا والبعد عن متاعها الذى وصف بأنه بهارج لا طائل تحتها أو « لهو ولعب وزينة » كما ورد فى القرآن الكريم ، ولكن غالبية الناس انصرفوا فى حدود ما أباح الله سبحانه الى كسب المال وجمعه والاستمتاع به وبناء الدور واتخاذ الضياع وآلات الحياة واحتاجت الدولة الى الوجهة والفخامة والقوة والتنظيم وما الى ذلك وسخرت فى انشاء ذلك من شاءت من أفراد الأمة المتخصصين فى الفنون والصنائع ، وكل هذه مطالب حضارية مادية برع فيها المسلمون الى جانب ما أبدعوا فيه من وجوه الحضارة المعنوية كالفلسفة والكلام والتصوف والتقشف والتعمق فى فهم الدين ، والاجتهاد فى استخراج الأحكام للفصل فى الخصومات وتطبيق هذه الأحكام وكل ما يدخل تحت مفهوم الفقه ثم البحث فى شئون الكون والأرض مما نشأ عنه علم الفلك وعلم الجغرافية ، والبحث فى الأبدان وعللها والسعى فى مداواتها فنشأ عن ذلك علم الطب وعلم الأدوية والأعشاب وهو الصيدلة ، وفى كل هذه الميادين ومثالها أبدع المسلمون علما وتطبيقا ، واذا كانت السياسة قد ضيعت على المسلمين الكثير من مكاسبهم وثمرات عملهم الا ان العلماء بجهدهم عوضوا الكثير من هذه الخسائر ، فاذا كان رجال السياسة قد تقاسموا بلاد الاسلام دولا وامارات بينهم فان أهل العلم ظلوا يرون ان دولة الاسلام الواحدة بلا تقسيمات أو حدود أو سدود لازالت قائمة ، واذا كان المسعودى يقول ان مملكة الاسلام تمتد من غانة الى فرغانة ، فقد كانت هذه هى الحقيقة فكل هذه المساحة

كانت أرضا اسلامية مفتحة الابواب لكل مسلم . فكان المسلم يستطيع أن يجوب خلال بلاد الاسلام طولا وعرضا دون ان يفقد الشعور بانه - حيثما كان يسير في وطن اسلامي واحد تسكنه أمة واحدة هي أمته . ومهما اختلفت لغات أهل هذا الوطن فقد كانت للأمة الاسلامية صاحبة هذا الوطن لغة واحدة يستطيع جميع أفرادها التفاهم بها وهي العربية . واذا كنا نتحدث اليوم عن وحدة العالم الاسلامي فان المراد بذلك ان تلك الوحدة ضارية . فالحضارة بشتى أشكالها هي التي أوجدت ذلك العالم الاسلامي والعلماء هم الذين نسجوا نسيجه سواء برحلاتهم في طلب العلم أم بخروجهم في قوافل الحج ، وقد كان الحج من أكبر عوامل وحدة أمة الاسلام ، فان الكعبة المشرفة هي مجمع المسلمين جميعا في موسم الحج وهي متجه أنظارهم خارج ذلك الموسم وقوافل الحج - وهي في نفس الوقت قوافل تجارة وحضارة كانت في معظم الأحيان تنقل طرف الحضارة ومظاهرها ومبتكراتها من طرف الى طرف في عالم الاسلام الواسع . والى العلم والعلماء من ناحية والحج وقوافل الحجاج والتجارة وقوافل التجار من ناحية أخرى يرجع الفضل في تعميق هذا صنع ذلك النسيج الحضاري الواحد الذي عاشت فيه أمة الاسلام رغم القلق السياسي والحروب والمنافسات والصراعات التي لم تتوقف قط بين أهل السياسة وطلاب السلطان .

وهذه العوامل - جهود العلماء ونشاط التجار واتصال مسير قوافل الحج هي التي عملت على تطوير حضارة الاسلام في شتى ميادينها ومواصلة روح الابتكار فيها ، فقد كان أهل العمل في عمل دائم وكذلك كان أهل الصنائع وكانت ثمرات علم العلماء وحصاد جهد أهل الصنائع تنتقل من ناحية من نواحي عالم الاسلام الى ناحية ويحتك بعضها ببعض ، ومن احتكاكها ينشأ التطور والتحسن والتقدم ودونت ثمرات ذلك كله في كتب حملها الناس من صقع الى صقع داخل أمة الاسلام . وانتقلت مبتكرات الصناعة والفنون من ناحية الى ناحية فنشأ من ذلك العمل الدؤوب - المقصود حينا وغير المقصود حينا آخر - وحدة الحضارة الاسلامية وتشابه خصائصها العامة وتفاصيلها ، بل تشابه الذوق الاسلامي العام في المأكل والملبس والمسكن والمسجد بل في الموسيقى والزخرفة والتصوير وهذا الحصاد الحضاري ذو الطبيعة الواحدة ، زمانا بعد زمان كان في النهاية من أكبر العوامل في المحافظة على وحدة العالم الاسلامي واعطائه الطابع الحضاري المميز في اطار العقيدة الاسلامية السمحاء وهي عقيدة توحيد واتحاد في آن معا .

من هنا يمكن الحديث عن حضـــارة اســلامية عامة واحــدة فى الروح والخصائص العامة ، فكما ان الفقه الاسلامى علم واحد فكذلك الشعر عند الشعوب الاسلامية واحد ، سواء أكان عربيا أم تركيا أو ايرانيا ، فهو متشابه فى القوالب والخصائص الفنية بل فى الموضوعات التى يتناولهــا الى حد كبير ، وكذلك الفلسفة والطب والصيدلة والفلك والعمارة بفنونها المختلفة والموسيقى وآلاتها وما يعزف عليها . كل هذه متشابهة متقاربة فى عالم الاسلام كله . ولم يقصد أحد الى ذلك قصدا بل هى حقيقة فرضت نفسها فرضا ، وقد شرحنا أسباب ذلك فى قائمة هذا المدخل ، وبينا العوامل التى أدت الى اطرادها وتوكيدها زمانا بعد زمان ، ثم يتولى الأساتذة الاجلاء الذين يكتبون فصول هذا الكتاب بيان تفاصيلها ، كل فى ميدانه ، وقد كان الأمل أن يشمل الكتاب الميادين كلها ، ولكن هذا ماتيسر ، وفيه غناء الى ان يشاء الله فتكتمل هذه الصــورة لحصاد حضارة الاسلام فى أربعة عشر قرنا .

★ ★ ★

ولابد لنا ، قبل الفراغ من هذا المدخل من الوقوف لحظات عند موضوعين هامين يهمنا التنبيه عليهما فيما نحن بصدده من الكلام عن الحضارة الاسلامية ، الأول هو موضوع أصالة الحضارة الاسلامية والثانى موضــوع استمرارها والمحافظة على سـماتها فى مواجهة تيــار الحضــارة الغربيــة الجارف فى أيامنا هذه .

فاما عن الموضوع الأول فقد أكثر المؤلفون ، مابين عرب ومسلمين وغير عرب أو مسلمين فى القول بأن الحضارة العربية فى صميمها حضارة نقل وان الابتكار فيهــا قليل ، وكمــا عــزم بعض ثقلاء المستشرقين ممن زعموا أنهم متخصصون فى الدراسات القرآنية مثلا بتتبع كل كلمة أو عبارة أو معنى فى القرآن الكريم ، والقول بان هذا اللفظ أو ذلك المعنى . من هنــا أو هناك ، وهو ولع سخيف غير علمى ولم ينته فى آخر الأمر الى غاية ، فكذلك أولع نفر منا نحن العرب بالقول بان الحضارة الاسلامية حضارة قائمة بذاتها لم تأخذ من غيرها شيئا ، ويتشدد بعض أصـحاب ذلك القول حتى يصلوا الى تعصب غير معقول فى هذا المذهب ، وخاصة فيما يتعلق بموضوعات يعتبرونها حراما لا يؤذن فى ولوجه لغريب كالتشريع مثلا ، ولا معنى فى رأينا لهذا التشدد كله فالحضارة الاسلامية فى مجموعها ثمرة جهد اسلامى انسانى عام وهى تختلف فى ذلك عن العقيدة التى هى من وحى الله فهى لاتتبدل ولا مكان فيهــا للجهد الانســانى الا الشرح والبيان ، وهى أى الحضارة تأخذ كما تعطى ، وبدون الأخذ والعطاء فلا ازدهار لحضارة . حقا ان حضارتنا تقوم أصلا على القرآن الكريم الذى هو

كلام الله سبحانه وتعالى ، ولكن البناء الحضارى الذى قام على أساس من القرآن والسنة بناء انسانى صنعه المسلمون مما وجدوه فى القرآن الكريم والسنة الشريفة من أوامر ونواه ودوافع وحوافز وتوجيهات وايماءات وما تيسر لهم من ينابيع حضارية أيا كان نوعها ومصدرها ، فما دامت العناصر التى يقيسونها لاتتعارض مع أمر من أوامر الاسلام أو نهى من نواهيه فالأخذ منها وبها حلال ، وبذلك قال نفر من أكابر مشرعى الاسلام مثل الامام مالك بن انس والامام أبى حنيفة النعمان ، بل لم يستنكره أحمد بن حنبل على ما عرف عنه من تشدد ، وهم يعتمدون فى ذلك على قول الله تعالى من انه ليس على المؤمنين فى الدين من حرج ، فمادامت العقيدة والشريعة مرعيتين فلا حرج على المسلم فيما سوى ذلك . ولدينا فى التشريع بالذات أمثلة كثيرة من اقتباسات لتقاليد تشريعية عربية جاهلية وغير عربية أصلا ، ولكنها ممارسات سليمة انسانية لا تتعارض مع الاسلام فى شىء ، لفظا أو روحا أو معنى ، ولنفر من كبار المشرعين المسلمين فى عصرنا الراهن من أمثال عبد الرزاق السنهورى وعبد العزيز فهمى ووحيد رأفت فى ذلك آراء جميلة صدرت عن علم تام بالشريعة الاسلامية وادراك عميق لطبيعة القوانين ووظيفتها فى حياة البشر .

★ ★ ★

ويبقى بعد ذلك فى النهاية ان لدينا حضارة اسلامية متميزة الشخصية والروح والهيئة بنتها العبقرية العربية الاسلامية على أساس من الاسلام وأخذت ما احتاجته من مواد البناء الحضارى مما تيسر لها فى أوطان الاسلام الكثيرة وما وصل اليها من خارجها ، فقد وجد المسلمون فى الهند مثلا ان تقاليد العمارة الهندوكية تجعل المعبد ثلاثة أقسام لآلهة الهندوكية الثلاثة ، فأخذوا هذه الهيئة وجعلوا بيت الصلاة ، أو حزقه الأمامى المسقوف على ثلاثة أقسام المحراب والمنبر وبلاطتهما فى الوسط ومقصورتان عن يمين وشمال ، ثم مضوا الى أبعد من ذلك فاقاموا فوق كل من هذه الأقسام الثلاثة قبة : كبرى فى الوسط وصغيرتين عن يمينها وشمالها فنشأ عن ذلك هذا الشكل التقليدى البديع للمساجد والروضات الهندية الاسلامية .

ومثال آخر على ذلك الاقتباس الصحى السليم ما نعرف من اقتباس المسلمين للارقام الهندية والحساب الهندى ، وتطويرهم للارقام الهندية حتى أخرجوا منها الارقام العربية ، وأشكال الارقام العربية هى التى أخذها الأوروبيون وصنعوا منها أرقامهم المعروفة . ولازال الترقيمان مستعملين فى عالم العرب ، فبلاد المغرب تستعمل الارقام الأوروبية لان أهلها يرون أن هذه هى الارقام العربية الاصلية ، وأهل بقية بلاد العروبة يستعملون الأرقام الهندية المطورة ويقولون انها هى

الارقام العربية . ولازالت المناقشة دائرة بين أهل المغرب وأهل المشرق حول هذا الموضوع ، وكل منهما يرى ان أرقامه هى العربية الاصيلة . وهى مناقشة حضارية طريفة وعظيمة المبنى والدلالة .

ولابى على بن سينا الفيلسوف الطبيب عبارة جميلة فى هذا المعنى . فقد قال فى « القانون » اننا ـ يريد أهل الطب ـ نداوى ولكن الشافى هو الله . وهذه عبارة اسلامية بالغة العمق ، فان شفاء الاسقام شأن من شئون الله سبحانه وتعالى وحده ، وقد نصت عليه آية من آيات سورة الشعراء « واذا مرضت فهو يشفين » وما دمنا قد قررنا ان الشفاء بيـد الله سـبحانه فماذا يمنع من أن نلتمس الدواء والعلاج المؤدى الى هذا الشفاء من أى مصدر يتيسر لنا من علم هرمس طبيب مصر القديمة وحكيمها فى رأى المبشر ابن خانك أم من كتابات ابقراط ابى الطب اليونانى أو من مؤلفات ديوسقوريدس وهو الاستاذ الاكبر للادوية والعقاقير عند اليونان ، بل ماذا يمنع من ان يستعين الطبيب المسـلم بالعقاقير التقليدية المعروفة فى موروثات الشعوب ؟ بل ماذا يمنع من استعمال الرقى والتمائم ، وهى تبعث فى نفس المريض قوة نفسية تعينه فى أحيان كثيرة على التغلب على اسقام بعضها كما نعرف أوهام أو توهمات ؟ مادام المسلم يؤمن بان الشافى هو الله سبحانه وتعالى ، ومادام يؤمن بأن الحيـــاة والموت بيده سبحانه ، فماذا يمنع من التماس الدواء الذى يعين على الشـــفاء أو يخفف من الألم ؟

واذا نحن قلنا ان الجماعة الاسلامية تتكون من قسمين ـ كما هو الحال فى غيرها من الجماعات ، فانه من الممكن القول بأن الأساس وهو «الاستراكتشر» هو الاسلام نفسه ، وهو العقيدة وأصول الشريعة وأصول أخلاقيات الاسلام وهى مكارم الأخلاق ، وهذا كله ثابت أصيل لأنه منصوص عليه فى القرآن الكريم والسـنة ، وأما البنـــاء ، وهو « السوبر ستراكتشر » وهو ما يقـوم فوق الأساس من انشاء متطابق مع الأساس فى العمد والأركان فيمكن للانسان أو الجماعة التصرف فيه بحسب ما تقضى به مصالح الناس ، لانه كما قلنا لا يخرج فى البنية والطبيعة عن الأساس كما نجد فى البناء المعمارى من انك لا تستطيع أن تبنى على الأساس شيئا لم يحسب حسابه عند وضع الأساس أو خارجا عن حدوده ، فأنت لا تستطيع أن تعلى البناء فوق ما يحتمل الأساس ، وليس لك أن تبرز ببعض أجزائه بما يجاوز عمر الأساس وقواعده ، وفيما عدا ذلك فأنت تستطيع أن تبتكر وتزيد بما يناسب حاجاتك وحاجات أهلك ،

أما القول بأن بناء الحضارة الاسلامية لا يمكن أن يزيد أو يضاف فيه شيء مما لا يخرج على الأساس أو يتعارض معه فتشدد لا معنى له ، ومن الامثلة القاطعه يخطأ هذا المذهب قول بعض السلف من ان الصلاة في مسجد الرسول لا تصح اذا جاوزت ما بين المنبر والروضه فتكلف لا معنى له بل هو مباح ، اذ انه يحرم الزيادة في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهـذا أمر غير معقول ، فان المساجد أماكن للصلاة ، ولابد ان تتسع مع زيادة الناس ..

وقد ضربت هذا المثل لانه صغير محدود ، ومن ثم فهـو واضح الدلالة والمعنى ، فاذا نحن اخذنا مثالا أوسع مدى استطعنا ان ندرك بوضوح خطـورة التشدد والتضييق دون حاجة ، مثل القول بأن رياسة الجماعة الاسلامية لاتكون الا خلافة أو امامة دينية اعتمادا على أن هذا هو ما فعله السلف عقب انتقال الرسول الى الرفيق الأعلى . فقد أنشأوا الخلافة والامامة (وهما شيء واحد) . مع ان القرآن والسنة لم ينصا على خلافة أو امامة ولم يحـددا شكل التنظيم السياسي الذى يمكن ان تسير عليه الجماعة مادامت تلتزم بقواعد الدين عقيـدة وشريعة . وانما تركا ذلك للمسلمين انفسهم يتخذون فيه ما يرون أنه أصلح لهم ولدينهم ودنياهم ، ولا ضير فى أن يكون رئيسهم ملكا أو سلطانا أو أميرا أو شيخا مادام يسير على أصول الاسلام ولا يتخطى حدوده . ورسول الله صلى الله عليه وسلم عندما استقر فى المدينة كتب بين المهاجرين والانصار صحيفة هى بمثابة دستور فى الحكم فنظم فيه العلاقات بين المهاجرين والانصار وعاهد فيه اليهـود ممن رغب فى العيش فى سـلام مع الأمة والاشتراك معها فى العمـل والمحافظة على أمن الجماعة الاسلامية ، وفى هذه الصحيفة نجد الرسول يقرر بعد التشاور مع أصحابه الكثير مما كانت عليه القبائل من تنظيم قبل الاسلام ، فيظل كل قوم ممن دخلوا فى عقد الصحيفة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى أى على حالهم ونظامهم قبل الدخول فى الاسلام مادام ذلك لا يمس العقيدة أو الشريعة . وفى العهود التى كتبها الرسول صلى الله عليه وسلم لوفود العرب ممن قدموا عليه يضمن لهم فيهـا حقوقهم فى أراضيهم التى يعيشون فيها منذ القدم ويقر فيها رياساتهم الأولى التى ارتضوها لانفسهم دون ان تكون فيهـا مخالفة للاسلام مع اشتراط الدخول فى الأمة ومناصحة أهلهـا والعمـل على حمايتها ، فاين هذا من التمسك بشكل الرياسة والقول بأنها لابد ان تكون خلافة وامامة فى نفس الشكل والتفاصيل التى كانت عليهـا خلافة أبى بكر وعمر . ومن أين لنا فى كل عصر ومكان برجلين من طراز أبى بكر وعمر ؟ بل من أين لنا أمة من الصحابة كالتى عاشت وعملت معهما ؟ واين هذا من المناقشة فيما اذا كان رئيس الجماعة لابد ان يكون قرشيا ؟ فكل هذه شكليات انفق المؤلفون المسلمون فى مناقشتها والجدل حولها قرونا متطاولة ، وصرفهم هذا عن لبـاب

تنظيم الجماعة الاسلامية كما اراده الرسول صلوات الله عليه عندما نص فيهـا مرة بعد اخرى على أن العنصر الاساسى فى تنظيم الجماعة هو روح المحبة والاخاء والمودة التى ينبغى أن تكون أساس التعامل بين المؤمنين ، والضمير الاسلامى الحى الذى يرشد المسلم الى التصرف الصحيح دون ان يكون هناك عليه رقيب أو حسيب الا الله سبحانه وتعالى ودون ان تكون هناك قوة تخيف وتعاقب من أمثال قوله فى ختام كل فقرة من فقرات الصحيفة « وان المؤمنين المتقين على أحسن هدى واقومه » أو « وان أجد دون الاثم » أو « وان الله على أبر هذا » أو « وان الله على اتقى ما فى هذه الصحيفة وابره » أو « وان الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وابره » وما الى ذلك من هذه العبارات الصادقة النابعه من صميم الاسلام ، والتى توحى بأن كل تعامل بين أفراد الأمة أو بينها وبين غيرها ينبغى أن يقوم على يقظة ضمير المسلم ووعيه اذ أن دينه ليس دين تخـويف وثواب وعقاب فحسب ، بل هو دين قلوب ، وجماعته جماعة قلوب متحابة فى الله تراعى الله سبحانه فى كل تصرف • وهذا يختلف كل الاختلاف عما نقرأ فى مدخل كل كتاب من كتب المعاملات أو السياسة عندنا من ان الناس مفطورون على الشر والظلم والاستبداد ، وأنه لابد لهم لهذا من وازع يردهم الى الصواب بالقوة ، ومثل هذا القول يقوم على افتراض ان الاسلام لم يدخل فيه أحد ولا آمن به وأحس بقوته الخلقية أحد ، والا فهل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وازعا أم هاديا ؟ وداعيا أم حاكما ذا قوة وجند ؟ وهل كان عند رسول الله سجن يودع فيه المخالفين ؟ ان السجن الحقيقى هو سجن الضمير ، ورسول الله ايقظ الضمير ، وأصبح الضمير حاكم المؤمن ووازع المؤمن وسجن المؤمن اذا حاد عن الصواب ، وهذه هى الغاية التى كان ينبغى ان يتنبه اليها كل من أقـــدم على تاليف كتاب فى التنظيم السياسى على أساس من الشريعة الاسلامية وكل متكلم فى تنظيم الجماعة الاسلامية أو حضارة الاسلام بشكل عام •

★ ★ ★

وعندما نتحدث عن حصاد الحضارة الاسلامية خلال أربعة عشر قرنا هجريا ، فاننـــا نعنى بذلك أحسن ما فى هـــذا الحصـــاد وسنقتصر على ذكر أحسن وأنضج وأجمل ثمراته ، لان ذلك الحصاد كثير جدا ومن المتفق عليه ان كل خير أصاب الجماعة الاسلامية فمصدره الدين والعمل فى حدود الدين وكل شر يأتى من نسيان الدين والخروج على روحه ، ومن ثم فان المساوىء لا تدخل فى حصاد الاسلام وفى كتاب كهذا لا يمكن الاحصاء بل يجزىء عنه الاختيار أو اختيار الاحسن أو الذى يعتبر نموذجا لغيره ، وهنـــا نواجه حقيقة كبرى وهى أن أجمل ثمرات هذا الحصاد هى بالفعل ما راعى أصحابه فى عمله روح الاسلام

من الصدق والاخلاص والاجتهاد وبذل غاية الجهد . وهذا هو ما نجده بالفعل فى روائع ذلك الحصاد · فمؤلفات اساطين الفقه والتشريع الاسلاميين ســـواء أكانوا أصحاب مذاهب أو فقهاء اجلاء وكبار الفلاسفة وأهل التصوف والكـلام المؤرخين والجغرافيين وكبار أهل الفلك والرياضيات والبارزين فى ميادين العمارة والزخرفة والموسيقى وأساتذة النباتيين والكيمائيين ، كل هؤلاء ومن فى طبقتهم من أعلام حصاد الاسلام كانوا مؤمنين ممن صحت قلوبهم ووعت ضمائرهم ولهذا خلدت أعمالهم وكانت خيرا للانسانية كلها ، لان عنصر الخير والبر والانسانية فى أعمالهم جعلها تتخطى حدود مملكة الاسلام وتنتقل الى أمم كثيرة خارج نطاق الاسلام ، فصبت فى تيار الحضارة الانسانية وأصبحت حصادا انسانيا عاما ، وهؤلاء هم المصابيح الذين يزدان بهم تاريخنا وتاريخ الانسانية كلها ·

والله سبحانه الموفق ، وهو من وراء كل قصد رفيع ، له الحمد والمنـــة سبحانه ·

د· حسين مؤنس

الاسلام فى أربعة عشر قرنا

سمات الحضارة الاسلامية

من مصادرها الأصلية

بحث يقدمه

الدكتور احمد شلبى

استاذ التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية

بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

ان الحديث عن « الحضارة الاسلامية من مصادرها الأصلية » يصحح خطا طال مداه ، فقد كان هناك اتجاه سائد يرى ان الحضارة الاسلامية هى ما وصل له المسلمون من تقدم فى مجال العمران أو فى مجال الطب والرياضة ونظائرها من العلوم التجريبية ، ويتجاهل هذا الاتجاه أو يجهل ما سوى ذلك ، ولكن موضوعنا هنا يقود لايضاح الطريق الصواب حول الحضارة الاسلامية ، بأن نجعل التركيز على الحضارة المنبثقة من المصادر الاسلامية الرئيسية ، وهذا النوع من الحضارة هو ما نسميه « الحضـارة الاسلامية الأصيلة » أى التى استمدت وجودهـا من الفكر الاسـلامى ، والتى هى منحة الاسـلام لهداية البشرية ، أو بعبارة أخرى استمدت وجـودها من القرآن الكريم وأحاديث الرسول وغيرهما من مصادر التشريع الاسلامى ·

وعلى هذا يتضح أن الحضارة الاسلامية نوعان هما :

اولا : الحضارة الاسلامية الأصيلة ، وتسمى حضارة الخلق والابداع ، وهى تلك التى جاء بها الاسلام ، أو عمقها ووضع لها النظم والتفاصيل ، ولم تكن كذلك قبل الاسلام مثل رأى الاسلام فى السياسة والاقتصاد وفى الحياة الاجتماعية وفى التربية والتعليم وفى مجال السلم والحرب ··

ثانيا : الحضارة الاسلامية التجريبية وتسمى حضارة البعث والاحياء ، وهى تلك الحضارة التى كانت موجودة قبل الاسلام وازدهرت قبل الاسلام كالتقدم فى الطب والموسيقى والفلك والعمران ، ولكنها ذبلت واختفت قبل الاسلام لعوامل متعددة سنعرفها فيما بعد ، ثم جاء الاسلام وحث على خدمة العلم كل العلم الذى ينفع البشرية ، فاتجه المسلمون بحماسة بالغة لاحياء هذه الحضارات ، بل اتجهوا لتطويرها والتأليف فيها ·

وقد ازدهرت الحضارتان فى القرون الاسلامية الأولى ، فاصبح العالم الاسلامى بهما فى دائرة الضوء بين دول العالم . ولما تم الالتقاء بين العـالم

الاسلامى وبين أوربا فى الأندلس وصقلية وفى مصر وفلسطين ابان الحروب الصليبية عمدت أوربا الى الاغتراف من الحضارة الاسلامية وبخاصة الحضارة التجريبية لحاجة الملوك والأمراء الى الطب والموسيقى والعمران ، وأهمل الملوك والأمراء ، الحضارة الاسلامية الأصيلة لادراكهم أن الشورى فى السياسة ستكون على حسابهم لمصلحة الشعوب وكذلك الاقتصاد والتعليم وغيرها من قضايا الحضارة الاسلامية الأصيلة ، وهذا هو السبب فى الخطأ الذى شاع عن اعتبار الطب والموسيقى والعمران ... الذى نعمت به أوربا - اقتباسا من الشرق - وهو الحضارة الاسلامية ، وقد نسى القائلون بهذا الرأى أن الحضارة الاسلامية الأصيلة لم تستسلم ، بل صمدت حتى فرضت نفسها على المجتمع العالمى كما سنرى فيما بعد .

والآن بعد هذا التقديم يمكننا أن نخطو للحديث عن « الحضارة الاسلامية من المصادر الرئيسية » وبعد ايضاح هذه الحضارة لن نبخل ببعض الفراغ لنشرح فيه بايجاز المسيرة التاريخية للحضارة التجريبية استكمالا للفائدة .

والحضارة الاسلامية الأصيلة تشمل - كما أشرنا من قبل - نهج الاسلام فى شئون السياسة والحكم ، ونهج الاسلام فى شئون الاقتصاد والمال ، ونهج الاسلام فى مجال التربية والتعليم ، وفى مجال السلم والحرب ... وغير هذه من المجالات ، وسنأخذ فى ايضاح ذلك بشىء من التفصيل :

الاسلام والسياسة

قبل الاسلام كان التفكك سائدا وكانت القوة هى الوسيلة ليصل الانسان الى الحكم ، وكان الحاكم هو مالك الاقطاع وصاحب الثراء ، ولم يكن هذا ملتزما بأن يستشير ولا بأن يتبع الاستشارة ان قدمت اليه ، ولم تكن الشعوب تستطيع عزل الحاكم ان حاد عن الحق أو ظلم .

وفى مجال الشورى نورد فكرة مهمة هى أنه فى بعض الحالات اضطر الملك أو الرئيس قبل الاسلام الى استشارة قادة دولته ، ولكن هؤلاء أجابوا بأنهم لم يتعودوا الاستشارة وانما عليهم الطاعة وعليه هو ان يتدبر الأمر بما يرى ، فالأمر كله له ، والقرآن الكريم يقص من هذا النوع قصة على لسان بلقيس مع قادة قومها قال تعالى « انى ألقى الى كتاب كريم ، انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلو على وأتونى مسلمين ، قالت يأيها الملأ

أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون (١) ، قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين ، قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها » (٢) ٠

فهذا دليل على ان الاتجاه العام كان يترك الأمر كله للحاكم وعلى الحكومة ان تسمع وتطيع ٠

وجاء الاسلام فعنى بالسياسة عناية عظيمة ، ووضع لها الحدود والقوانين ، وقدم للبشرية فى هذا النطاق أكثر النظم رسوخا وفائدة ، وأول ما عنى به التفكير الاسلامى فى نطاق السياسة ان الرم قيام حكومة تدير أمور الناس وتنظم شئون المجتمع الاسلامى ، وقد أجمعت المصادر الرئيسية على ذلك فمن كلام الله الكريم قوله تعالى :

- يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم (٣) ٠
- ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم(٤)٠

ومن احاديث الرسول قوله : ـ

- من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية ٠
- اذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم ٠
- لا يحل لثلاثة يكونون فى فلاة من الأرض الا أمروا عليهم أحدهم ٠
- ان أحب الناس الى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا امام عادل ، وأبغض الناس الى الله وأبعدهم منه مجلسا امام جائر ٠

ومن أقوال السلف الصالح :

- قول أبى بكر عقب وفاة الرسول : ٠٠٠ ان محمدا مضى بسبيله ، ولا بد لهذا الدين ممن يقوم به ٠
- وقول عمر بن الخطاب : لا اسلام الا بجماعة ولا جماعة الا بامارة ، ولا امارة الا بطاعة ٠

---

(١) يقول المفسرون ان المعنى انها لا تستطيع أن تقطع فى أمر « كهذا » بدون رأيهم واضافة « كهذا » يحتمها سياق الآيات لانهم سيجيبون بما يفيد ان الأمر دائما اليها وهم اهل قوة ملتزمون بالسمع والطاعة لا بالرأى ٠

(٢) سورة النحل الآيات ٢٩ ـ ٣٤ ٠

(٣) سورة النساء الآية ٥٩ ٠

(٤) سورة النساء الآية ٨٣ ٠

والحكومة الاسلامية تقوم بعمل له شقان ، الشق الأول تعليم المسلمين الأحكام والشق الثانى انزال العقوبة بمن يخالف هذه الأحكام ٠

وليس كل فرد مسلم يستطيع ان يكون خليفة أو رئيسا ، فقد وضع التفكير الاسلامى شروطا لمن ينقدم ليتحمل هذه المسئولية ، ومن هذه الشروط العدالة ، والعلم المؤدى للاجتهاد ، وسلامة الحواس ، وسلامة الأعضاء ، والشجاعة ، ويهتم التفكير الاسلامى اهتماما كبيرا بشرط العدالة ويراه قمة الشروط اللازمة للخليفة أو الرئيس ، وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

- ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته الا حرم الله عليه الجنة ٠
- اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به ٠

ويروى أبو عبيد تعليقا مهما لأحد العلماء على هذا الشرط ، بقوله :

ان الامام العادل يسكت الأصوات عن الله ، وان الامام الجائر لتكثر منه الشكايا الى الله (١) ٠

ويقوم أهل الحل والعقد باختيار الرئيس ممن تتوافر فيهم شروط الخلافة ومعنى هذا أن الجماهير لا تشترك فى اختيار الرئيس ، فقد روى أن الجماهير لما ذهبت الى على بن أبى طالب معلنة اختياره خليفة بعد مقتل عثمان ، صاح فيهم على : هذا الأمر ليس لكم أين أهل بدر ؟ أين طلحة والزبير ٠٠٠ ؟ (٢) ٠ ولكن للجماهير دورا مهما هو حقهم فى رفض من يختاره أهل الحل والعقد اذا لم يوافق اختيارهم رغبة الجماهير ٠

الشورى فى الاسلام :

ومن المبادىء التى اهتم بها الفكر الاسلامى ضرورة ان يتبع الحاكم نظام الشورى فيما لا نص فيه ، وذلك اتباعا لقوله تعالى « وشاورهم فى الأمر » (٣) وقوله « وأمرهم شورى بينهم » (٤) وكان الرسول كثير الاستشارة ، وقد روى أبو هريرة انه لم يكن أحد أكثر استشارة من رسول الله ، ويروى انه

---

(١) كتاب الأموال ص ٦ ٠

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٣ ص ٤٦٢ ٠

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٩ ٠

(٤) سورة الشورى الآية ٣٨ ٠

قال لصاحبيه أبى بكر وعمر : لو اجتمعنا على أمر ما خالفتكما فيه ، وتبعا لذلك اتخذ الخلفاء البررة مجالس للشورى .

الحاكم وأعوانه لا يدخلون الصفقات العامة :

ومن المبادىء التى اهتم بها الفكر الاسلامى ان الحاكم وأعوانه (الوزراء والولاة والقضاة) ليس لهم ان يدخلوا الصفقات العامة بائعين أو مشترين ، روى أن عاملا لعمر بن الخطاب اسمه الحارث بن كعب بن وهب ظهر عليه الثراء ، فسأله عمر عن مصدر ثرائه فأجاب : خرجت بنفقة معى فتجرت فيها . فقال عمر : أما والله ما بعثناكم لتتجروا . وأخذ منه ما حصل عليه من ربح (١) .

وقد نص البيان الشامل الذى أخرجه عمر بن عبد العزيز عقب توليته الخلافة فيما يتعلق بهذا الموضوع على ما يلى : ولا يحل لعامل تجارة فى سلطانه الذى هو عليه ، فان الأمير متى يتجر يستأثر ويصيب أمورا فيها عنت وان حرص على الا يفعل . ومما أثر عنه قوله : تجارة الولاة مفسدة وللرعية مهلكة (٢) .

وقد عقد ابن خلدون (٣) فصلا عن أن « تجارة السلطان مضرة بالرعايا » ذكر فيه أن دخول السلطان ميدان التجارة يضر بالرعايا وينافى الاسلام ، فان أعوان السلطان قد يشترون لحسابه الواردات الخارجية ثم يضعون لها ما يشاءون من أسعار لضمان ربح كبير للسلطان ، ثم ان تجارة السلطان لا تخضع للمكوس والضرائب التى تخضع لها تجارات الآخرين وفى هذا ظلم على هؤلاء التجار وعلى الرعية .

وروى عن البخارى أنه قال : ما اشتريت منذ وليت من أحد بدرهم ، ولا بعت أحدا شيئا . فسئل عن الورق والحبر فقال : كنت آمر انسانا فيشترى لى (٤) .

وكما حرمت التجارة حرم ما فى معناها مما يجلب ربحا للوالى بسبب ولايته كالمؤاجرة والمساقاة والمزارعة (٥) .

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ١ ص ٥٤ .

(٢) اقرأ البيان كله فى ابن عبد الحكيم ص ٩٣ ــ ١٠٠ .

(٣) المقدمة ص ١٩٧ ــ ١٩٩ .

(٤) النووى : تهذيب الأسماء القسم الأول جـ ١ ص ٦٨ .

(٥) ابن تيمية : السياسة الشرعية ص ٤٧ .

لا هدايا للحاكم وأعوانه :

ومن أوضح المحرمات على الوالى الهدايا ، روى عن الرسول أنه قال : هدايا الأمراء غلول . وروى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال هدايا العمال غلول ، وقد وضح الرسول أن الهدايا للعمال أو الولاة يقصد بها شىء من ورائها ، فقد استعمل عليه السلام رجلا من الازد على الصدقة فلما عاد وأخذ يقدم ما جمعه من مال للرسول ، احتجز بعضه وقال هذا أهدى لى : فقال الرسول : ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله فيقول : هذا لكم وهذا أهدى الى ، فهلا جلس فى بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيهدى اليه أم لا (١) .

وروى أن رجلا أتى عمر بن عبد العزيز بتفاحات فأبى أن يقبلها ، فقيل له : قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية . فقال عمر : هى لرسول الله صلى الله عليه وسلم هدية ، وهى لنا رشوة (٢) .

ويرى الفكر الاسلامى ان قلة مرتب العامل قد تدفعه الى الشطط ، ولذلك اتجه المفكرون المسلمون الى اعطاء العامل مرتبا فيه نوع من السخاء ، حتى يرتفع بذلك عن الشبهات وفى ذلك يقول الامام على : « ان على ولى الأمر ان يفســح لواليه فى البذل لتزول بذلك علته وتقل معــه حاجته الى الناس ، ويخاطب الامام على ولى الأمر بقوله : أسبغ على ولاتك الأرزاق ، فان ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أو نقضوا الأمانة » (٣) .

عزل الحاكم :

ويجوز عزل الحكومة الاسلامية اذا ثبت عجزها أو فسادها ، ومن هنا فاننا نتساءل :

متى تعد الحكومة عاجزة ؟

متى تعد الحكومة فاسدة ؟

نحب أن نؤكد أولا أن الأخطاء البسيرة لا يمكن أن تكون سببا فى التفكير فى عزل الحكومة فالعصمة لله وحده ، ومركز الامام أو مركز الحاكم أعز شأنا من أن نهزه من حين الى آخر بسبب الهفوات التى ليست بذات خطر على كيان

---

(١) انظر السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٤٦ .

(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٦٢ .

(٣) نهج البلاغة : ص ٣٤٠ .

الأمة ، وقد أحطنا هذا المنصب بهذا الاهتمام وارتفعنا به عن التحدى ، لأنه « المنصب الذى تتعلق به حماية الدولة وحقوق الأمة » (١) ٠

فاجلال هذا المنصب ليس من أجل شاغله ، بل من أجل التوقير اللازم لمنصب اذا عز عز المسلمون ، واذا ذل ذل المسلمون وكانوا عرضة لهجوم الأعداء وعربدة الضالين ٠

ومن أجل هذا اهتم الفكر الاسلامى الذى أباح العزل بالا يكون ذلك الا لضرورة قصوى روى أن عبادة بن الصامت قال « بايعنا رسول الله على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره ، وعلى ألا ننازع الأمر أهله ، وعلى أن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال « لا تنازعوا الأمر أهله الا ان تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان » ٠

وقال الرسول كذلك « من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر ، فانه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت الا مات ميتة جاهلية » ٠

واذا فما هى الأمور التى توجب عزل الامام ؟ أو مرة أخرى : متى تعد الحكومة عاجزة ؟ ومتى تعد فاسدة ؟ ٠

فى الاجابة عن ذلك نقرر أن الأمور التى تستحق الحكومة أن تعزل بسببها ، لا يمكن أن نضعها فى اطار واحد ، فانها تختلف باختلاف الظروف والأحوال ، على ان هناك ضابطا عاما يمكن ان يشمل أهمها ، فمن المعروف ان أهم أعمال الحكومة هو اتباع النظم الاسلامية ، وضمان الأمن فى الداخل وحراسة الوطن الاسلامى من أى اعتداء خارجى فاذا ضعفت الحكومة عن احتمال ذلك العبء فهى عاجزة ، وان كانت تستطيع ولكنها أهملت فهى فاسدة ٠

الحكومة الاسلامية بين الحكومات المعروفة :

بقى بعد ذلك أن نورد مقارنة بين الحكومة الاسلامية وبين الحكومات فى النظم الأخرى المعروفة كالحكومة الديكتاتورية والحكومة الديمقراطية ، والحكومة الثيوقراطية ، **ولنبدأ حديثنا متسائلين :**

هل الحكومة الاسلامية ديكتاتورية ؟

هل الحكومة الاسلامية ديمقراطية ؟

هل الحكومة الاسلامية ثيوقراطية ؟

---

(١) عباس العقاد . الديمقراطية فى الاسلام ص ١٧ ٠

ان الاجابة عن هذه الأسئلة ليست عسيرة بعد ما قدمنا من دراسات ، ويمكن القول دون تردد أن العناصر التى أوردها الاسلام للحكومة الاسلامية ، والتى سقناها فى هـــذا البحث ، تقودنا الى نتيجة حاسمة ، هى ان النظام الاسلامى له طابعه الخاص ، وله مميزاته وخصائصه التى تجعله لا ينضوى تحت أى من النظم الأخرى لأية حكومة من الحكومات وسنسوق فيما يلى بيانا به شيء من التفصيل لهذا الاجمال .

الاسلام والنظام الديكتاتورى :

ولعل أكثر النظم بعدا عن النظـام الاسلامى هو النظـام الديكتاتورى ، فعناصر النظـام الاســلامى هى ــ كما سقنا آنفا ــ حق الشعب فى اختيار حاكميه ، وحقه فى نقدهم ، وواجب الشــورى ، وحقه فى عزلهم . وهـذه العناصر لا يتيحها النظام الديكتاتورى .

الاسلام والنظام الديمقراطى :

وتأتى بعد ذلك الحـكومات الديمقراطية ، وهى ــ ان صــحت فيها الديمقراطية قريبة الشبه بالنظام الاسلامى ، فكلاهما يجعل الاختيار أساس قيام الحكومة ، ويحتم الشورى فى الحكم ، ويبيح للشعب عزل الحكومة لو وجدت ظروف تستدعى العزل . ولكن تبقى نقاط تفرق بين النظام الديمقراطى والنظام الاسلامى ، وهذه النقاط هى :

١ ــ تضع الحكومة الديمقراطية للناس مقاييس الرذائل والفضائل . ولكن الحكومة الاسلامية لا تضع هذه المقاييس ، بل ان الشرع الاسلامى هو الذى وضعها وعلى الناس اتباعها ، وقد جعلت الديمقراطية الغربية الاستعمار فضيلة ، والتفرقة العنصرية فضيلة وجعلت العدالة مع الشعوب المستعمرة رذيلة وهكذا .

٢ ــ تشرع الحكومة الديمقراطيــة للناس فى مختلف الشئون ، ولكن الحكومة الاسلامية ليس لها أن تشرع فيما شرع الله فيه ، فليس لها مثلا أن تغير فى نظام الميراث الذى ورد به نص صريح ، ويكون تشريعها فيما لم يرد فيه نص دائرا فى نطاق التفكير الاسلامى العام .

٣ ــ يختار الشعب رئيسه فى النظام الديمقراطى غير مقيد بقيد ، ولكن الشعب فى الاسلام لا يجوز له أن يختار الا من اجتمعت فيــه شروط معينة سبق ذكرها .

الاسلام والنظام الثيوقراطى :

بقى بعد ذلك الحديث عن الحكومة الثيوقراطية ، ويخيل لبعض الناس أن النظام الاسلامى نظام ثيوقراطى ، ومرجع هذه الشبهة أن كلا منهما له صلة بالدين ، ولكن الحقيقة أن الفرق بينهما شاسع ، لأن الثيوقراطية حكم رجال الدين الذين يدعون الصلة بالله وتلقى الوحى منه على مر الزمن ، ومن هنا لا يقبلون مناقشة أحد ، أما الحاكم المسلم فلا يتلقى وحيا من الله ويلزمه الشورى ويوضح Sir Thomas Arnold (١) هذا الفرق بقوله :

ان البابا مميز بسلطاته الروحية ، ووظائفه الدينية ، وهو يقود أرواح الناس ، وليس شخصا مسيحيا عاديا بل ان له سلطة دينية خاصة يستطيع بها أن يشرع وأن يغفر السيئات . أما الخليفة فلا يوحى اليه ، ولا يشرع وليس الا منفذا لأحكام الدين ، وان سلطة تفسير الآيات القرآنية والأحاديث متروكة للعلماء وان الامامة فى الصلاة التى تعود الخليفة أن يتولاها كان من الممكن أن يقوم بها أقل فرد من المسلمين .

والبابا عند المسيحيين له سلطان الهى فهو ينفرد بتلقى الشريعة عن الله ، وله حق الاثرة بالتشريع ، وله فى رقاب الناس حق الطاعة ، لا بالبيعة وما تقتضية من العدل وحماية الحوزة بمقتضى الايمان ، فليس للمسيحى ما دام مسيحيا أن يخالفه (٢) .

أما تلقى الشريعة فى الاسلام فعن القرآن والحديث بدون توسيط أحد من سلف أو خلف ما دام المسلم قد حصل على الوسائل الثقافية التى تؤهله للفهم ، فان لم يكن قد حصل على هذه الوسائل فما عليه الا أن يسأل العارفين بها من المسلمين ، وله أن يطالب المسئول بالدليل (٣) .

الاسلام والاقتصاد

اذا نظرنا الى العالم قبل الاسلام من الناحية الاقتصادية وجدنا ان الاقتصاد كان مرتبطا بالحكم فمالك الأرض فى النظام الاقطاعى كان هو حاكم المقاطعة ، وشيخ القبيلة فى الجزيرة العربية كان هو محورها فى السياسة والاقتصاد .

(١) The caliphat pp. 10-14.

(٢) الامام محمد عبده : الاسلام والنصرانية ص ٦٧ وانظر كتاب « المسيحية » من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف .

(٣) المرجع السابق ص ٦٤ — ٦٥ .

واذا تعدد الملاك وكثر السادة فى بلد ، فان ارستقراطيـة رأس المال تفرض الحـكام على الشعب ، بمعنى ان الرأسماليين اذا لم يحكموا بأنفسهم فانهم يختارون الحاكم ليسير فى حكمه على هواهم •

وكانت هناك ضرائب ، ولكن الفقراء هم الذين كانوا يدفعون الضريبة للأغنياء ، فقد كان الفقراء عبيدا للأغنياء ، وكانوا يدفعون الضريبة من عرقهم وجهدهم تنمية لثروة الأغنياء الزراعية أو التجارية ، أو يعملون فى الخارج ويقدمون أجورهم لسادتهم الأغنياء •

وجاء الاسلام فعزل بين الثروة والحكم ، ولأول مرة أصبح بعض الحكام فقراء كما كان أبو بكر وعمر وعلى •

وقد حاولت ارستقراطية رأس المال أن تفرض الحاكم فى الاسلام ، ولعلها نجحت أحيانا . ولكن الخليفة الذى كان يتبع الفكر الاسلامى رفض هذا التدخل من رأس المال ، فيروى ان سليمان بن عبد الملك ولى عهده عمر بن عبد العزيز بدون أن يستشيره . فلما مات سليمان جمع وزيره مزاحم القادة والسادة فوافقوا على اختيار الخليفة ، وبايعوا لمن ارتضاه سليمان بن عبد الملك ، وكادت البيعة تتم بذلك لعمر بن عبد العزيز ولكن عمر الذى كان يمثل التفكير الاسلامى الصحيح اعتلى المنبر ، وصاح فى الحاضرين : أيها الناس ، انى ابتليت بهذا الأمر من غير رأى كان منى فيه ، ولا طلبة لى ولا مشورة من المسلمين ، وقد أعطاه لى من لا يملكه ، وانى قـــد خلعت فى أعناقكم من بيعتى فاختاروا لأنفسكم (١) •

وقد اختار الناس عمر بن عبد العزيز عقب ذلك ، ولكن لا لأنه مرشح الرأسمالية بل لأنه كفء توسم فيه المسلمون الصلاح والصلاحية فارتضوه ، وكان عمر عند حسن الظن به ، فأعاد للفكر الاسلامى قوته فى كل اتجاه •

ولم يوقف الاسلام الضرائب ، ولكنه جعلها على الأغنياء للفقراء ، وجعلها الاسلام حقا لمستحقيها أى ليست عطاء أو منحة ، وحددها بحيث لا يخضع تقديرها لرغبة الأغنياء أو مقدار سماحتهم ، كما ألزمهم ان يقدموها فى أوقات محددة دون تأخير . والآيات الكريمة التالية توضح هذه الأمور ، قال تعالى :

— وفى أموالهم حق للسائل والمحروم (٢) •

---

(١) الىرى : ج ٥ ص ٣٠٧ ، وابن الجوزى : عمر بن عبد العزيز ص ٥٥

(٢) سورة الذاريات الآية ١٩ •

- والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم (١) ٠
- واتوا حقه يوم حصاده (٢) ٠

مراحل الملكية كما يراها الاسلام :

للفكر الاسلامى تنظيم خاص فى موضوع ملكية الأشياء ، ويرى هذا الفكر أن ملكية الأشياء تتدرج خلال مراحل ثلاث :

ففى المرحلة الأولى وهى المرحلة الأساسية يقرر الاسلام ان الله سبحانه وتعالى هو مالك كل شىء ملكية حقيقية أبدية ، **قال تعالى :**

- ولله ملك السموات والأرض وما بينهما (٣) ٠
- لله ملك السموات الأرض وما فيهن (٤) ٠
- ولم يكن له شريك فى الملك (٥) ٠

ثم تجىء المرحلة الثانية ، وفى هذه المرحلة نجد المالك الحقيقى وهو الله سبحانه وتعالى يمنح المجتمع البشرى ملكية الانتفاع أو ملكية الظاهر لبعض ما هو فى الحق والواقع ملك له ، **قال تعالى :**

- ألم تر أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة (٦) ٠
- وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه (٧) ٠
- وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه (٨) ٠
- وآتوهم من مال الله الذى آتاكم (٩) ٠

ونؤكد ان هذه المرحلة فيها منح كل النعم التى أراد الله أن يمنحها لكل البشر ، فهى منح الكل للكل ، ومعنا آية أخرى تؤكد هذا المعنى ، وهى قوله

---

(١) سورة المعارج الآيتات ٢٤ ـ ٢٥ ٠
(٢) سورة الأنعام الاية ١٤١ ٠
(٣) سورة المائدة الايه ١٧ ٠
(٤) سورة المائدة الآية ١٢٠ ٠
(٥) سورة الاسراء الآية ١١١ ٠
(٦) سورة لقمان الآية ٢٠ ٠
(٧) سورة الجاثية الآية ١٣ ٠
(٨) سورة الحديد الآية السابعه
(٩) سورة النور الآية ٣٣ ٠

تعالى « وجعــل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام ، سواء للسائلين » (١) فألفاظ الآية توضح ان الرزق فى الأرض قدر لكل ســكان الأرض لأن قوله تعــالى « ســواء للسائلين » تفيد الشمول للخلق جميعا ، فكلمة « سواء » تلغى اختصاص أحد على أحد وكلمة « السائلين » معناها المتطلعون لعونه المحتاجون اليه ، أى جميع الخلق ٠

وتجىء المرحلة الثالثة وفيها يملك الأفراد بعض ممتلكات المجموع ويعتبر الانسان المالك فى هذه المرحلة نائبا عن المجتمع فى ادارة ما يملك ٠

ويلتزم المجموع فى المرحلة الثانية والأفراد فى المرحلة الثالثة بحسن ادارة ما وكل لهذا أو ذاك ، فاذا كانت هناك دولة منحت المعادن أو المواد الخام ، ودولة منحت الأرض الزراعية ، ودولة منحت ثــروة حيوانيــة أو سمكية ٠٠٠٠ وهكذا فان هذه الدول يلزم أن تتعاون لقضاء حاجة الجميع ، ويلزم كذلك أن تشكر كل دولة صــاحب النعمة وان تؤدى التزاماتهــا لله وللناس ، فاذا نكلت دولة عن التعاون والشكر وأداء الالتزامات فقد تنزل بها نكبات تضــيع ثراءهــا وتعيد الملكية للمالك الحقيقى الذى يهبها لجماعة جديدة ، وهذا ما نراه من قيام حروب تسقط بعض الدول ، أو ظهور ثروات لجماعة لم تكن تتوقع هذه الثروات لتدوم عملية المنح والاسترداد التى عبرت عنها الآيات الكريمة :

- ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ، فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء ، وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم (٢) ٠
- وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها (٣) ٠
- ٠٠٠٠ كذلك وأورثناها قوما آخرين (٤) ٠

ومثل هذا يحدث بالنسبة للمرحلة الثالثة ، فالفرد الذى يملك بعض ما منح للكل ، أى الفرد الذى يملك عمارة أو عمائر أو الذى يملك أرضا زراعية أو نحو ذلك هو فى الواقع يقوم بوظيفة اجتماعية كتلك التى ينوب فيها مدير مؤسسة عن المساهمين بادارتها فى حدود نظام معين ، وكما يعزل مدير مؤسسة

---

(١) سورة فصلت الآية العاشرة ٠
(٢) سورة محمد الآية ٣٨ ٠
(٣) سورة الأحزاب الآية ٢٧ ٠
(٤) سورة الدخان الآية ٢٨ ٠

لو أساء التصرف فان المالك فى الاسلام يفقد سلطته على المال لو لم يسر حسب النظام الذى وضعه المالك الحقيقى وهو الله سبحانه وتعالى ، وتعود السيطرة على هذا المال من الفرد للمجموع أى من المرحلة الثالثة للمرحلة الثانيه ، ومعنا آية كريمة توضح هذا المعنى هى قوله تعالى « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها واكسوهم » (١) فالله سبحانه وتعالى لم يقل : ولا تؤتوا السفهاء أموالهم ، وانما قال « أموالكم » لبيان ان السفه الذى حدث من المالك أفقده السلطة على المال وأعاد الأموال الى المجتمع ، ولا يبقى للمالك السفيه الا ما قررته الآية من رزق أو كسوة . وتكمل المقارنة لو استعرضنا الآية الكريمة التى تتلو الآية السابقة ونصها « وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم » (٢) .

ففى هذه الآية نسبت الأموال لأشخاص محددين وهم اليتامى ، ولكن بعد ان وضح الرشد فيهم ، وهذا يدل على ما ذكرناه من قبل وهو ان من نسميه المالك هو فى الحقيقة انسان يقوم بوظيفة اجتماعية فان انحرف فقد سلطته على المال وعادت السلطة على المال للمجموع . وذلك هو ما يسمى « الحجز » فى الفقه الاسلامى اذ يقوم القاضى الذى يمثل المجموع بالحجز على السفيه ، ويكل ادارة المال الى من يحسن هذه الادارة .

وقد يقصر المالك فى هذه المرحلة (المرحلة الثالثة) فى أداء واجباته الاسلامية والتزاماته فلا يعطى حق الفقير أو لا يشكر مانح النعمة وهو الله سبحانه وتعالى وتكون النتيجة زوال هذه النعمة بطرق مختلفة ، ويقول الرسول عليه السلام فى ذلك : ان لله عند قوم نعما أقرها عندهم ما كانوا فى حوائج الناس ما لم يملوهم ، فان ملوهم نقلها الى غيرهم . وهذا هو السر فيما نراه دائما من فقر بعد غنى عند بعض الناس وغنى بعد فقر عند آخرين وذلك عقوبة فى الأولى واختبارا فى الثانية .

ويقص علينا القرآن الكريم نماذج من ذلك ، فقارون بأمواله الباهظة يدعى ان هذه الأموال أمواله وانه حصل على الغنى بجهده وقدرته ويقول فى هذا « انما أوتيته على علم عندى » وتكون العاقبة ما ذكرته الآية الكريمة « فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » (٣) .

---

(١) سورة النساء الآية الخامسة .
(٢) سورة النساء : الآية السادسة
(٣) سورة القصص الآيه ٨١ .

وصاحب الجنتين الذى ورد ذكر قصته فى سورة الكهف ، يغتر بماله وجاهه وينسى ربه ويشك فى قيام الساعة ...... فتصبح جنته وهى خاوية على عروشها ، وتختم هذه القصة بقوله تعالى « هنالك الولاية لله الحق » (١) أى أن مثل هذه الأحوال تبرز أن المالك الحقيقى هو الله لا سواه .

وأصحاب الحديقة اليانعة التى أقسم أصحابها أنهم سيندمللون لجنى ثمارها مبكرين ولا يعطون أحدا من خيراتها ، ولكن الله قضى عليها ، فلما ذهبوا مبكرين وجدوها خاوية على عروشها ، ويحكى القرآن الكريم قصتهم بقوله : انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ، اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ، فتنادوا مصبحين ، أن أغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ، الا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين ، فلما رأوها قالوا انا لضالون بل نحن محرومون (٢) .

مبادىء اسلامية فى الاقتصاد :

للاسلام مبادىء اقتصادية مهمة تحقق الغاية التى يسعى الاسلام لتحقيقها ، وسنلم بهذه المبادىء فيما يلى :

اولا : المال مال الله :

وقد شرحنا هذا المبدأ فى حديثنا آنفا عن « مراحل الملكية فى الاسلام » ونريد هنا أن نعطى بعض التفاصيل عن التزامات هذا المبدأ ، وبصفة اجمالية يتحتم على الفرد المالك لبعض المال والمتاع أن يتبع فى ادارة هذا المال تعليمات المالك الحقيقى وهو الله سبحانه وتعالى ، فاذا أردنا بعض التفاصيل لهذه التعليمات ذكرنا ما يلى :

١ ــ لا يجوز لهذا المالك أن يكنز ماله بل لا بد أن يطلقه للتعامل به لينتفع به الصانع والعامل والزارع والتاجر ، فاذا كنزه استحق غضب الله قال تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » (٣) .

٢ ــ لا يستعمله فى رشوة فان استعمله فى رشوة فقد عصا المالك الحقيقى

(١) سورة الكهف الآية ٤٤ .
(٢) سورة القلم الآيات ١٧ ــ ٢٧
(٣) سورة التوبه : الآية ٣٤ .

واستحق غضبه قال تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام ، لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم » (١) وقال صلى الله عليه وسلم : الراشى والمرتشى فى النار ٠

٣ ـ لا يسرف فى استعماله ، فان أسرف تعرض لمقت الله وغضبه قال تعالى : ولا تسرفوا ان الله لا يحب المسرفين (٢) ٠ وقد مدح الله المعتدلين وذم المسرفين فى قوله : والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (٣) ٠

٤ ـ لا يستعمل المال فى الاحتكار وانتهاز الفرص ، والا تعرض لسخط الله ، وبرىء الله منه ، فقد ورد فى الحديث : من احتكر طعاما أربعين يوما يريد به الغلاء فقد برىء من الله وبرىء الله منه ٠

ثانيا : الاعتراف بالملكية الفردية وبالتفاوت فيها :

يقر الاسلام حق الملكية الفردية للمال الذى حصل عليه المسلم بالطرق المشروعة كما يقر التفاوت فى الغنى بقدر الجهد الذى يبذله الشخص ، وبقدر ما يصادفه من توفيق ٠

والطرق المشروعة أساسا للحصول على المال هى : العمل والميراث ، فالعمل وسيلة طبيعية للحصول على المال ، وبقدر ما يبذل الانسان من جهد بقدر ما ينال من نتائج ، وقد حث الفكر الاسلامى على العمل وجعله عبادة ، وحث على المثابرة عليه ، يقول الله تعالى : وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ٠ وقال صلى الله عليه وسلم اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ٠

وأما الميراث فهو أيضا وسيلة طبيعية للحصول على المال لأن الانسان يرث عن أهله ما يفوق المال ، فكيف لا يرث المال ؟ اننا نرث عن آبائنا لونهم وقامتهم وكثيرا ما نرث مواهبهم وصحتهم أو مرضهم ، وغير ذلك مما يدل على أن الابن بعض أبيه واستمرار له وكثيرا ما يكون عونا له فى جمع هذا المال ، ومن أجل ذلك فرض الاسلام الميراث وجعله طريقا مشروعا من طرق الحصول على المال ٠

ومما يدل على أن الاسلام يقر الملكية الفردية أن القرآن الكريم نسب الملكية

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٨٨ ٠
(٢) سورة الأنعام : الآية ١٤١ ٠
(٣) سورة الفرقان : الآية ٦٧ ٠

للأفراد فى بعض الآيات ، قال تعالى : « انما أموالكم وأولادكم فتنة (١) وقال : الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار (٢)٠ ففى هذه الآية وما قبلها نسب القرآن الأموال الى الناس ، وهى الملكية الظاهرية التى تحدثنا عنها ٠

ويقر الاسلام التفاوت فى الملكية الفردية ، تبعا للجهد الذى يبذله الانسان وللتوفيق الذى يصادفه ، وقد وردت آيات كثيرة تتحدث عن هذا التفاوت ، قال تعالى :

- والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق (٣) ٠
- يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر (٤) ٠
- الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر (٥) ٠
- نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات (٦) ٠

ولا نزاع فى أن التفاوت فى المال طبيعى لأن الناس متفاوتون فيما هو أعظم من المال وأنفس منه ، انهم متفاوتون فى الصحة والذكاء والجمال والصوت ، ومتفاوتون فى مقدار توفيقهم فى الزواج أو الجوار أو الصحبة ومتفاوتون فى مدى صلاح الأولاد ونجاحهم ٠٠٠ وكل هذه الأشياء أنفس وأهم من الأموال ، فمحاربة التفاوت فى الملكية تصرف يتنافى مع طبيعة الحياة ٠

ولكن ليس معنى التفاوت فى الغنى أن يوجد أغنيـاء وبجانبهـم فقراء معوزون ، فالغنى المباح فى الاسـلام هو ذلك الذى يجىء بعد قضاء حاجات الناس ، ولا يمكن أن يوجد فائض عند واحد وجوع عند آخر فى الاسلام ، ويقول الرسول فى ذلك : من كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له ٠

والملكيـة الفردية التى يقرها الاسـلام ويقر التفاوت فيها تشمل الملكيـة الزراعية كما تشمل ملكية التاجر والصانع والمبانى والمساكن والمدخرات ٠٠٠ ويحرس الاسلام هذه الملكية بقوانينه الحازمة التى تعاقب السارق وقاطع الطريق ، ولا يجيز الاسلام للحكومة أن تتدخل فى ادارة هذه الملكية أو تعتدى عليها الا اذا تعارضت مع الصالح العام ٠

---

(١) سورة التغابن : الآيه ١٥ ٠
(٢) سورة البقره : الآية ٢٧٤ ٠
(٣) سورة النحل : الآية ٧١ ٠
(٤) سورة الشورى : الآية ١٢ ٠
(٥) سورة الرعد : الآية ٢٦ ٠
(٦) سورة الزخرف : الآية ٣٢ ٠

وهناك حديث ينسب لسيدنا رسول الله ونصه : الناس شركاء في ثلاث : الماء والكلأ والنار ٠ وهو حديث يتخذه بعض الناس دليلا على الاشتراكية أو على الشيوع في العناصر الثلاثة الرئيسية في الجزيرة العربية ويقيسون عليها أى عناصر رئيسية أخرى في أى مجتمع . وعندما يؤخذ الحديث بهذا العموم يتنافى مع حق الملكية الفردية الذى شرحناه انفا . **وأميل الى الاعتقاد بأن المقصود بهذه العناصر هو :**

١ ـ مصادرها الأصلية قبل أن تدخل في نطاق الملكية الفردية . كالماء في النهر ، والكلأ المباح الذى ينبت أثر نزول المطر في ارض لا يملكها أحد . والحطب في الغابة فهذه المصادر الأصلية ملك للجميع ، لكل واحد ان يفد الى النهر ليشرب أو ليجلب الماء ، او يذهب بماشيته ليرعى هذا الكلأ ، أو يحتطب من الغابة ، أما الماء الذى حمله انسان من النهر الى بيته ، والكلأ الذى أنبته الانسان وأشرف عليه ، والنار التى أحتطب انسان عيدانها وأشعلها لحاجته ، فهذه كلها ملك خالص لصاحبها ٠

٢ ـ عند الحاجة القصوى كالعطشان أو الجائع فان من حقه أن يروى عطشه أو يسد رمقه من أى ماء أو من أى طعام ٠٠٠٠٠ وليس ذلك تملكا أو مشاركة في ملكية وانما ذلك يدخل في باب حق الفقير في مال الغنى **وهو ما سنشرحه فيما يلى :**

ثالثا : حق الفقير في مال الغنى :

سبق أن تحدثنا عن حق الفقير في مال الغنى وذكرنا أنه حق وليس منحه وأن الشرع حدده ، وعين وقت اخراجه ، ونريد هنا أن نذكر أن هذا الحق الذى أشرنا اليه هو الزكاة وهو مقدار يتحتم أن يدفعه الغنى الى من يحتاجه ، فاذا لم يوجد محتاج قدمت الزكاة الى بيت المال لتبقى رصيدا به لأية حاجة طارئة تحدث ، وتعتبر الزكاة أقل ما يقدمه الغنى ، وبجانب الزكاة هناك حق آخر يؤخذ من مال الغنى ولكنه ليس معين الوقت ولا محدد القدر ، وانما يؤخذ عند الحاجة ، وبقدر ما تستدعيه هذه الحاجة ، والدليل على وجوب هذا القدر قوله صلى الله عليه وسلم « ان الله فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يسع فقراءهم » وقوله « ان في المال حق سوى الزكاة » وقوله « ما آمن بى رجل بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم » ٠

ومما يدل على هذا أيضا أنه عندما دهمت المجاعة الجزيرة العربية في عهد عمر قال عمر : لو لم أجد للناس ما يسعهم الا أن أدخل على أهل كل بيت عدتهم

فيقاسموهم أنصـــاف بطونهم . فعلت . فان الناس لن يهلكوا على أنصـــاف بطونهم (١) .

وأجمع على ذلك العلماء المسلمون كالقرطبى وابن تيمية وابن حزم والغزالى والشاطبى (٢) .

وقد حددت المراجع القديمة نصاب الزكاة فيما يتعلق بالزروع والثمار فجعلته العشر فيما سقى بماء السماء ونصف العشر فيما سقى بالآلات كما حددت هذه المصادر الزكاة فى التجارة فجعلته ٢٫٥ ٪ من قيمة التجارة كلها ومثلها المدخرات التى يمضى عليها عام وهى مدخرة وحددت هذه المصادر ما يلزم اخراجه من الماشية والأنعام التى كانت كثيرة فى الجزيرة العربية فى صدر الاسلام ، وقد برزت مصادر جديدة للمال لم تذكرها المراجع القديمة لأنها لم تكن موجودة آنذاك ، ومن هذه المصادر العمائر التى تؤجر شققها والمصانع وأرباح الأطباء والمحامين والمهندسين والأسهم والسندات وقد تعرض الباحثون المحدثون لتحديد ما يجب فيها ، وقد عقدت لذلك حلقة للدراسات الاجتماعية فى دمشق سنة ١٩٥٢ تحت اشراف جامعة الدول العربية وقدمت فى هذه الحلقة بحوث حول هذا الموضوع ورأى الباحثون لزوم الزكاة فى الانتاج الصناعى والدور المستغلة فى الايجار وما ماثلها من أرباح المحامين والأطباء والمهندسين وتكون نسبة الزكاة هى العشر لصافى الفائض بعد خصم مرتبات العمال والموظفين ، ويدخل فى ذلك نفقات الطبيب نفسه أو المحامى .... وكذلك بعد خصم أجور المكاتب وما تحتاجه العمائر والمؤسسات من وسائل الاصلاح والتجديد وما تدفعه من ضرائب فالعشر الواجب يجىء فى فائض الربح بعد كل التكاليف وضرورات المعيشة (٣) .

الاقتصاد الاسلامى بين النظم الاقتصادية المعروفة :

اتضح من الدراسة التى أوجزناها آنفا أن للاسلام فى موضوع المال فلسفة خاصة ليست بالشيوعية ولا بالرأسمالية ولا بالاشتراكية الغربية وسنعطى فى السطور التالية ملامح سريعة توضح الفرق بين الاسلام وبين هذه النظم :

الاقتصاد الاسلامى والشيوعية :

يبعد الاقتصاد الاسلامى عن الشيوعية بعدا واسعا ، فالاسلام ــ كما قلنا ــ

(١) تاريخ الطبرى جـ٣ ص ٢٨٢ .

(٢) اقرأ مقتبسات من كلامهم فى « السياسة والاقتصاد فى التفكير الاسلامى » للمؤلف ص ٢٠٧ وما بعدها .

(٣) اقرأ عن هذه الحلقة فى كتاب « السياسة والاقتصاد فى التفكير الاسلامى » للمؤلف ص ٢٠٤ ــ ٢٠٦ .

يقر حق الملكية الفردية ويقر التفاوت فيها . ويشمل ذلك ملكية الأراضي الزراعيه والمتاجر والمصانع ، ولا يجيز الاسلام التدخل فى هذه الملكية الا اذا تعارضت مع الصالح العام ، ويحرس الاسلام هذه الملكية وينقلها لورثة المالك . والاسلام بذلك بعيد عن الشيوعية كل البعد .

الاقتصاد الاسلامى والرأسمالية :

الاقتصاد الاسلامى والرأسمالية يبيحان الملكية الفردية والتفاوت فيها ، وارثها ولكن الهوة بعد ذلك واسعة بين النظامين . فالملكية فى النظام الرأسمالى مطلقة وكاملة ولكنها فى النظام الاسلامى ظاهرية وخاضعة لتوجيهات المالك الحقيقى وهو الله ، وعلى هذا يكثر فى الرأسمالية الاحتكار والاسراف ، وهو لا يقره الاسلام .

والرأسمالية تدار بطرق تضاعف الثروات الرأسمالية على حساب المجتمع الذى تعده الرأسمالية سوقا لها تغريه وتخدعه لتتشرب ثرواته وتأخذ دخله بطريق أو بآخر أما الثروة فى الاسلام فتدار لخدمة المجتمع ، وتعمد الى انتاج ما يحتاجه المجتمع وان كان قليل الربح وليست كذلك الرأسمالية .

وتحرص الرأسمالية على نظام سياسى معين يبيح لها الحركة المطلقة ، أما المال فى الاسلام فلا يتدخل فى السياسة .

الاقتصاد الاسلامى والاشتراكية :

تبعد كذلك الاشتراكية عن الاسلام ، فالاشتراكية تنبنى على تأميم مصادر الانتاج وترمى للقضاء على الثروات الكبيرة بالاكثار من التأميم . وليس كذلك الاسلام فهو لا يتصدى لمصادر الانتاج ما دامت هذه تدار لصالح وطبقا لحاجاته ، ولا يتصدى للثروات الكبيرة ما دامت قد حصل عليها مالكها بطريق حلال وتؤدى حق الله ، وفى كلمة موجزه مهمه نذكر ان الاشتراكية تحارب الغنى ولكن الاسلام يحارب الفقر ، وذلك يبعد المسافة بين الاشتراكية والنظم الاسلامية .

وبعد ، لقد اتجهنا الى الاطناب بعض الشىء فى مجال الحديث عن اتجاهات الاسلام فهو لا يتصدى لمصادر الانتاج ما دامت هذه تدار لصالح الشعب وطبقا السياسة والاقتصاد يتحتم فى هذا البحث المحدود الصفحات أن نلجأ للايجاز فى حديثنا عن الجوانب الأخرى من « الحضارة الاسلامية الأصيلة » وحسبى أن أذكر أننى كتبت فى الحضارة الاسلامية موسوعه من عشرة أجزاء يمكن من يرغب فى التفاصيل أن يقرأها ، فلنعمد الى الايجاز فى الجوانب الأخرى من هذه الحضارة .

وفى مجال التربية أعلن الاسلام لأول مرة فى تاريخ البشرية أن العلم حق للجميع ، وكان العلم قبل ذلك خاصا بالكهنة ولا حق لسواهم فى طلبه ، فارتفع هذا التخصيص بالآية الكريمة « فاولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم » (١) فأصبح المسلمون جميعا مابين معلم ومتعلم ، وقال صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ولم يكن المقصود بالعلم العلوم الاسلامية فقط لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى حديث آخر « اطلبوا العلم ولو فى الصين » والمقصود مهما بعدت المسافة ومهما كان نوع العلم ، ما دام مفيدا للبشريه وقد أشرنا لذلك من قبل ٠

واهتمت المصادر الرئيسية فى الاسلام اهتماما كبيرا بالتربية الاسلامية ، وكان مفهوم التربية عند المسلمين يشمل فلسفة التربيــة كما يشــمل النظم التعليمية ، والحضارة الاسلامية واسعة الثراء ، فى مجال التربية ، وهى تهتم بالانسان فى هذا المجال من المهد الى اللحد ، فهناك أخلاق وعلوم نقدم لكل جيل من الأجيال . وقد اتسعت معاهد العلم عند المسلمين فشملت القصور وحوانيت الوراقين ، ومنازل العلماء ، والصالونات الأدبية بالاضافة الى المعاهد والجامعات ، كما كانت البادية والمسجد معهدين مهمين ، ففى البادية ازدهرت علوم اللغه العربية ، وفى المسجد ازدهرت شتى الدراسات ، واهتمت التربية الاسلامية بالكتاب اهتماما عاليا ، فأعلت قدره ، ورفعت مكانته ، كما كانت المكتبات معاهد للعلم فى كثير من البلدان ٠

وعنيت التربية الاسلامية ، بأن يتلقى الطلاب العلم من المعلمين . لا من الصحف والكتب ، كمــا اهتمت بضرورة تقديم فن التربية للمدرس بحيث لا يكون عالما فقط ، بل بحث يستطيع فى يسر توصيل أفكاره الى مريديه ٠

وتحدثت التربية الاسلامية أحاديث فياضة عن التعاون بين البيت والمدرسة فى تربية التلميذ ، وعن الاجازات العملية ، والعقوبات والجوائز والمكافآت وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص فى التعليم عند المسلمين ، وتوجيه التلاميذ حسب مواهبهم ، كما تحدث الفكر الاسلامى عن الأوقاف على التعليم ، وعن مراحل التعليم ، ونظام الداخلية بالمدارس ، والرحلات لطلب العلم ، وتعليم المرأة ٠

واهتم الفلاسفة المسلمون بالحديث عن رياضة الأطفال ، والوسائل التى

---

(١) سورة التوبة : الآيه ١٢٣ ٠

تنخذ لغرس الخلق الطيب فى قلب الطفل الذى يمثل جوهره نفيسه ساذجه ينقش عليها المعلمون أفكارهم وثقافاتهم ، كما اهتموا اهتماما واسعا بالسلوك وبلغ من اهتمامهم به أن فضلوه على العلوم (١) ٠

الاسلام والحياة الاجتماعية

حفلت الحياة الاجتماعية فى مصادر الاسلام الرئيسية بمباحث اجتماعية ترتبط بالاسرة وبالمجتمع وبالمال ، ومن المباحث الاجتماعية التى عنى بها القرآن والحديث وشيوخ المجتهدين لدينا دراسات مفيدة عن الزواج ودوافعه وأهدافه ، وعن الخطبة والمهر والعقد ، وعن الأولاد والتسوية بينهم فى العطاء والمعاملة ، وعن زوجة الأب والحماة ، والختان وتحديد النسل ، والتلقيح الصناعى والتكافل بين أفراد الأسرة ٠

وعن المباحث الاجتماعية المرتبطة بالمجتمع ، تقدم الحضارة الاسلامية رأى الاسلام فى رعاية المال العام وحمايته ، ورأيه فى الأعياد والأفراح والمآتم والأولياء والموالد وصناديق النذور ، وفى الخمر والمخدرات والدخان ، وغير ذلك من الأبحاث المهمة ٠

ومن المباحث الاجتماعية فى نطاق المال ، تقدم الحضارة الاسلامية دراسة رائعة عن الربا والبنوك ، والشركات والأسهم ، وما شابه ذلك ٠

وفى مجال التشريع الاجتماعى كذلك حدد الاسلام عدد الزوجات ولم يكن عدد الزوجات قبل الاسلام محددا ، ووضع الاسلام نظام الميراث الذى انصف كل الأطراف ٠

الاسلام فى مجال السلم والحرب

كان العالم قبل الاسلام يعانى حروبا مستمرة ، ومعارك متصلة ، وكانت القوة هى دستور الحياة ، فكان من حق القوى أن يأكل الضعيف ، فجاء الاسلام فوضع للسلم والحرب نظما دقيقة أنقذت البشرية من أهوال الصراع والدماء ، ومن الأسس التى وضعها أن جعل السلام أساس الحياة ، قال تعالى « يا أيها

(١) انظر فى ذلك « التربية الاسلامية نظمها — فلسفتها — تاريخها » للمؤلف ٠

الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين (١) ·

واوصى بالتعاون والمودة حتى مع المخالفين فى العقيدة مادام هؤلاء لم يعتدوا على المسلمين ، قال تعالى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » (٢) ·

وقال : « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » (٣) ·

وحدد الاسلام الحرب بالدفاع ، قال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (٤) ووضح أنه بعد قيام المعركة يمكن التوقف عن الاستمرار فيها لو عاد العدو للسلام ومستلزماته قال تعالى « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » (٥) ·

وقد جاء الاسلام فى نظام الحرب بقواعد لم تعرفها البشرية من قبل بل لم تستطع أن تأخذ بها حتى الآن ، اذ حرم قتل الشيوخ والنساء والأطفال الذين لم يشتركوا فى المعركة كما حرم قتل الحيوان أو تخريب البيوت أو قطع الأشجار

القانون والقضاء فى الاسلام

وفى مجال القانون قدم الاسلام تشريعا صالحا لكل زمان ومكان ، تشريعا عام المصدر أى لم تقم بعمله جماعة خصصت لذلك بالجنس أو الدم وترك لها أن تشرع للناس ، والتشريع الاسلامى كذلك عام التطبيق ، أى أنه ينفذ على الملك وعلى السوقة دون تفرقة ، وهذا الموقف كان الأول من نوعه فى تاريخ البشرية ·

وقدمت الحضارة الاسلامية نظما قضائية تكفل العدالة المطلقة لكل الناس ، وتقرر مبادىء لم يكن الجنس البشرى يعرفها قبل الاسلام ، كالمساواة بين المتخاصمين فى مجلس الحكم وكالشروط الحاسمة التى يجب أن يتحلى بها القاضى ، وكالعلنية فى القضاء ، تلك العلنية التى تجعل من الرأى العام حارسا للعدالة وقواما على الانصاف ·

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠٨ ·
(٢) سورة الممتحنة · الآية ٨ ·
(٣) سورة النساء : الآيه ٩٠ ·
(٤) سوره البقرة : الايه ١٩٠ ·
(٥) سورة الانفال : الآية ٦١ ·

حرية التدين وحقوق المرأة والقضاء على الرق :

وقرر الاسلام حرية التدين ، ولم يكن ذلك معروفا قبل الاسلام ، قال تعالى « لا اكراه في الدين » (١) وقال تعالى يطلب من الرسول أن يقول لغير المسلمين « لكم دينكم ولى دين » (٢) .

وقرر الاسلام حقوق المرأة وأعطاها نصيبا من الميراث ، ولم يكن للمرأة فى العالم حقوق تذكر آنذاك ، وكان ما جاء به الاسلام أساس ما حصلت عليه المرأة من حقوق بعد ذلك .

ووضع الاسلام الأسس للقضاء على الرق الذى كان شائعا قبل الاسلام فى العالم كله وجاء في ذلك قول الرسول : شر الناس من باع الناس .

★ ★ ★

تلك لمحة سريعة عن الحضارة الاسلامية الأصيلة اقتبسناها من الدراسات الواسعة التى كتبناها عن هذه الحضارة فى موسوعة النظم والحضارة الاسلامية ، وقد قدمت هذه الحضارة للمجتمع البشرى ما لم يكن معروفا وقتها ، واذا كنا ننعم بها أو ببعضها الآن فلنتذكر ان الناس عارضوا هذه الهبات الطيبة عندما جاءت لأنهم لم يكن لهم بها عهد ، ولكن الاسلام ظل يدافع عنها حتى استقرت واشتد عودها ، وقد اقتبسها العالم كله من الاسلام كما سنرى ذلك فيما بعد .

المسيرة التاريخية للحضارة التجريبية

وعدنا فى مطلع هذا البحث ان نقدم كلمة موجزة عن الحضارة الاسلاميه التجريبية عقب حديثنا عن الحضارة الاسلامية الأصيلة ، والآن حان الوقت للوفاء بهذا الوعد استكمالا للفائدة :

الحضارة التجريبية كانت موجودة قبل الاسلام ، فقد ازدهرت ألوان هذه الحضارة فى مصر ، ولدى الفينيقيين ، وفى آشور وبابل ، وفى جنوب الجزيرة العربية وفى بلاد فارس والهند والصين ، وابتداء من القرن السادس قبل الميلاد بدأت حضارات الشرق تغزو اليونان ، ثم أصبحت اليونان مركز اشعاع للحضارة التى نبتت جذورها فى الشرق ، يقول جورج سارتون : ان من السذاجة ان نفترض ان العلم بدأ فى بلاد الاغريق لأن الفكر الاغريقى سبقته جهود علمية

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٦ .

(٢) سورة الكافرون : الآية ٦

عديدة في مصر وفي بلاد النهرين ... وكان العلم اليوناني احياء أكثر منه اختراعا . وكفى الغربيين سوءا أنهم أخفوا الاصول الشرقيه المصرية البابلية . تلك التي لم يكن التقدم الهليني مستطاعا بدونها (١) .

وعندما سيطر الرومان خلال القرنين الثاني والأول قبل الميلاد على اوربا وعلى سوريا ومصر ، بدأت شعلة الحضارة تخبو في هذه البقاع اذ لم نكن روما راغبة في حماية الفكر كما كانت عين شمس والاسكندرية واثينا تفعل .

وابتداء من القرن الرابع الميلادى بدأت الكنيسة تسيطر على شئون الثقافة والفكر في الامبراطورية الرومانية ، واتجهت الكنيسة الى الكتاب المقدس ترى فيه كل ما يحتاجه الانسان في الدنيا والآخرة ، وترى كل ما عداه هرطقة وضلالا ، وأخذت لذلك تحارب العلوم وتحارب العلماء . واحتكرت الكنيسة بعض المجالات الفكرية بعد ان أخضعتها لنصوص الكتاب المقدس . وقاومت المجالات الفكرية الأخرى مقاومة شديدة . وكان الطب والرياضة والفلك من النوع الأخير ، فأعدمت الكنيسة بعض كتبها ، والقت بالبعض في مغارات لا يطلع عليها أحـــد حتى يأكلها الزمان (٢) ، وبذلك خبا ما كان قد بقى من حضارات مصر والفينيقيين واليونان .

وعندما أهل القرن السادس الميلادى كانت حضارة بلاد فارس والهند والصين قد تم ذبولها أيضا ويقول Dinson : (٣) .

في القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على سفا جرف هار من الفوضى لأن العقائد التي كانت تعين على اقامة الحضارة قد انهارت ، ولم يكن ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها ، وكان يبدو أن المدنية الكبرى التي تكلف بناؤها آلاف السنين أصبحت مشرفة على التفكك والانحلال ، لا قانون ولا نظام . وانتهت النظم التي خلفتها المسيحية الى نشر الفرقة والانهيار ، وأصبح الناظر للمدنية العالمية يراها كشجرة ضخمة وقفت تترنح وقد تسرب اليها العطب حتى اللباب .

الاسلام والحضارة التجريبية :

وجاء الاسلام الى المجتمع البشرى ، وقد اختفت الحضارات على هذا النمط ، فقدم الاسلام حضارته الأصيلة في المجالات التي أشرنا اليها من قبل ، واذا

---

(١) انظر تفاصيل ذلك ونماذج لاقتباس اليونان من مصر في كتابنا « الفكر الاسلامي منابعه واثاره ص ٤٥ وما بعدها .

(٢) ابن نباته المصرى : سرح العيون ، ص ٦٦ والفهرست لابن النديم ، ص ١١٢

(٣) Emotions as the Basis of Civilization.

كان القرآن الكريم وأحاديث الرسول قد قدما فيضا من الفكر لخلق ثقافه اسلاميه رفيعة الشأن ، فأن هذين المصدرين أعانا على التقدم العظيم فى مجالات العلوم التجريبية بالحث على طلب العلم والمعرفة فى مختلف فروع العلم والمعرفه . ثم بالحث على استغلال هذا العلم فى خدمة الانسان وعمران الكون الذى سخره الله لنا . **ومن أدلة الحث على طلب العلم نذكر ما يلى :**

- هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (١) .
- انما يخشى الله من عباده العلماء (٢) .
- يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات (٣) .
- يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء .
- اطلبوا العلم ولو فى الصين .

وليس المقصود بالعلم فى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفه هو العلوم الدينية فقط بل كل العلوم التى تنفع الانسان بدليل الحديث الأخير . اذ لم يكن بالصين علوم دينية يطلبها المسلم ، وقد أشرنا لذلك من قبل .

ومن أدلة استغلال هذا العلم فى عمران الكون وخدمة الانسان نورد ما يلى :

- هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه (٤) .
- وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حليه تلبسونها (٥) .
- وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه (٦) .
- قيل للرسول أرأيت دواء نتداوى به ، هل يرد قدر الله ؟ فقال : هو من قدر الله .

ووردت فى القرآن الكريم آيات تثير الفكر ، **وتدفع للبحث والدرس للتعرف على أسرار الانسان والكون مثل قوله تعالى :**

---

(١) سوره الزمر الآيه التاسعه .
(٢) سوره فاطر الآيه ٢٨ .
(٣) سورة المجادله الآيه ١١ .
(٤) سوره الملك الآية ١٥ .
(٥) سورة النحل الآيه ١٤ .
(٦) سورة الجاثيه الآية ١٢ .

- وفى أنفسكم أفلا تبصرون (١) ٠
- يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى (٢) ٠
- يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس (٣) ٠
- ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين (٤) ٠

واستجابة لكل هذه الآيات اتجه المسلمون بحماسة للدراسة والمعرفة والتدوين فكتبوا الحضارة الاسلامية الأصيلة أى دونوا وشرحوا رأى الاسلام فى السياسة والاقتصاد ٠٠ ثم اتجهوا للتراث الضخم فى العلوم التجريبية ، ذلك التراث الذى تركه الأوائل والذى كان سجين الدهاليز والمغارات . وكان الخليفة المأمون يشترط عند توقيع الهدنة مع الروم أن يسلموا للمسلمين هذه الكتب التى كتبها اقليدس وجالينوس وأبقراط وأرشميدس وســــواهم من المفكرين وأحضر المسلمون مجموعات من الكتب من البلاد التى استولوا عليها كالشام ومصر وفارس ، ومجموعات من قبرص ومن الاسكندرية وعكفوا عليها يترجمون ويعلقون ويشرحون (٥) ٠

ويقول Philip Hirri (٦) انه بينما كان الرشيد والمأمون يخرجان كنوز الفلسفة القبطية واليونانية والفارسية ، كان معاصروهم فى أوربا من أمثال شارلمان وسادة مملكته يتعثرون فى كتابة أسمائهم ٠

وانتقل المسلمون من الترجمة والتعليق الى الابتكار والخلق ، ومن بين عشرات الأوربيين الذين اعترفوا بمكانة المسلمين فى هذا المجال نقتبس من واحد منهم كلماته يقول Bulus (٧) : ان المسلمين أخذوا كثيرا من علوم البيزنطيين والمصريين والهنود والفرس ، ولكن من الحق آن نؤكد أن المسلمين حين ترجموا هذه العلوم الى لغتهم زادوا عليها وحوروا فيها وصبغوها صبغة جديدة ، ولم يكن العرب مترجمين فقط أو معلقين بل انهم اخترعوا كثيرا . ففى الفلك اخترعوا

---

(١) سورة الذاريات الآية ٢١ ٠
(٢) سوره الأنعام الآية ٩٥ ٠
(٣) سورة النحل الآية ٦٩ ٠
(٤) سوره المؤمنون الآيات ١١ – ١٤ ٠
(٥) ابن النديم : الفهرست ص ٢٤٣ ٠
(٦) History of the Arabs p. 312.
(٧) The Influence of Islam Chaptar x I.

الاسطرلاب لقياس الارتفاع ، واستطاعوا أن يعرفوا وقت ظهور النجوم ذوات الاذناب ، وساعة كسوف الشمس وخسوف القمر ، وفى الطب استطاع المسلمون أن يكشفوا مرض الجدرى الذى لم تعرفه اليونان ، وقد ظهرت براعتهم الفائقة فى كشف صنوف الأدوية ، وكانوا يعرفون علم الكيمياء معرفة تدعو للاعجاب والتقدير ، ونجحوا بهذا فى تعرف صفات أحماض المعادن وغيرها من المعلومات الكيماوية الجوهرية التى نقلت الى أوربا ٠

وفى مجال الحضارة العمرانية حقق المسلمون أهدافا عالية ، ففى التجارة عنى المسلمون بالطرق والجسور والأسواق والأمن ، وفى الزراعة وجهوا عناية كبيرة الى الرى واصلاح الأرض وشق الأنهار والترع والخلجان ، وقد استطاعوا بذلك أن يقيموا دورة ثلاثية للزراعة فى كثير من البلدان ، ومن أخلد ما حققة المسلمون فى نواحى العمران المنشآت البنائية العظيمة من مدن وقصور ومساجد وقلاع ومدارس ومستشفيات ، ولا يزال الكثير منها باقيا حتى الآن ينطق بعظمة هذه الأجيال كالجامع الأموى بدمشق والأزهر بالقاهرة ومدرسة نور الدين زنكى بدمشق وقصر الحمراء بغرناطة وغيرها ٠

تلك هى الأصول العميقة للحضارة الاسلامية الأصيلة والحضارة الاسلامية التجريبية ، وقد عدت الحضارة التجريبية حضارة اسلامية لأن احياءها واعادة الروح لها جاء بدافع القرآن والحديث اللذين حثا على العلم وطلبه وتطويره ، ولأن هذا الاحياء كان فى بيئة اسلامية وبتشجيع الخلفاء المسلمين ، ذلك التشجيع الذى وصل الى أن يعطى الخليفة المأمون لكل من يترجم كتابا للغة العربية زنة هذا الكتاب من الذهب الخالص . فاذا تذكرنا سمك الرقاع التى كانت الترجمة تدون عليها أدركنا مدى سخاء الخليفة وحرصه على خدمة العلم مهما كانت التضحية ، ويروى أن خازن بيت المال تردد مرة فى أن يزن للمترجم حقه واحتكما للخليفة فقال الخليفة لخازن بيت المال : اعطه ما يشاء انه يعطينا الباقى ويأخذ الفانى ٠

حاجتنا الى بعث حضارى جديد :

ان الحضارة الاسلامية الأصيلة بما فيها من أخلاق ونظم سياسية واقتصادية واجتماعية ٠٠٠٠٠ هى حضارة كل زمان ومكان ، وقد غابت هذه الحضارة عن المجتمع الاسلامى منذ عصور الظلام فأصبحت خصائص الاسلام لا تعيش فى أرض الاسلام ، وأصبح المسلمون لا يمثلون الاتجاهات الاسلامية ، ومن واجبنا أن نعود للاسلام الصحيح باحياء حضارته والتخلق بها ، وبدون ذلك يكون اسلامنا بعيدا عن الكمال ، وقد كان من أهم العوامل التى أدت الى اختفاء

الحضارة الاسلامية استبعادها عن المناهج الدراسية بالمعاهد الاسلاميه ، فنشأ عن ذلك جيل من المتعلمين لا يعرفون هذه الحضارة ، ويوما بعد يوم ، وعاما بعد عام أصبحت الحضارة الاسلامية بعيدة عن المجتمع ولم تعد الا مجرد ذكرى أو لم يعد لها وجود على الاطلاق ٠

ومن هنا فان البعث الحضارى ينبغى أن يبدأ باعادة الحضارة الاسلاميه الى المناهج الدراسية لتدرس اجمالا فى المدارس والمعاهد الثانويه وفى جميع كليات الجامعة ، ثم ليدرس بالتفصيل فى كل كلية ما يناسب الدراسة فى هذه الكليه ، أى أن ندرس الفكر السياسى فى الاسلام مفصلا فى كليات العلوم السياسيه والفكر الاقتصادى فى كليات التجارة والاقتصاد والفكر التربوى فى كليات التربية والفكر الاجتماعى فى كليات الخدمة الاجتماعية ، والفكر المرتبط بالسلم والحرب بالكليات العسكرية ٠ وهكذا ٠

أما بالنسبة للحضارة التجريبية فيلزم ان يعرف طلاب الكليات العملية جهود المسلمين الأوائل فى مجالات الدراسة بكلياتهم وأن يعرفوا كذلك نبذة عن كل اسم من أسماء العلماء الذين أسهموا بجهودهم فى خدمة هذه العلوم ، وبعد هذا يحاول الطالب المسلم أن يتعرف على ما وصلت له الحضارة العالمية فى فرع مادته ، ويبذل الجهد ليضيف الى ذلك اضافة جديدة كما فعل المسلمون السابقون ، وكما يفعل كثير من المسلمين الذين تلتقطهم الولايات المتحدة وغيرها من دول الغرب ، وهناك يجدون الطريق ممهدا للخلق والابتكار ، فيخلقون ويبتكرون ما يدعو للفخر بهم والاعتزاز ٠

ان الحضارة الاسلامية منارة ارتقت يوما من الربوع الاسلامية واذا كانت قد اختفت حينا فان احياءها من جديد لا يزال أملا يطمع فيه كل من المخلصين للدين الاسلامى والأمة الاسلاميه ٠

الحضارة الاسلامية
خلال الأربعة عشر قرنا الماضية

التعليم والتربية عند المسلمين

احمد جاب الله شلبي

مقدمة

ان الباحث فى الدراسات الاسلامية يدرك بوضوح اهتمام الاسلام بالتربية والتعليم . فقد رفع القرآن الكريم شأن العلم ووضعه فى مكانة سامية جليلة . وأكبر دليل على ذلك أن أول سورتين نزلتا من الذكر الحكيم تقرران قيمة الكلمة المقروءة والكلمة المكتوبة . والسورة الأولى التى تتكلم عن الكلمة المقروءة هى سورة اقرأ ، قال تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ... » والسورة الثانيه التى نزلت بعد سورة اقرأ بناء على رأى الاكثرين (١) هى سورة « ن » التى مطلعها : « ن والقلم وما يسطرون » وعلى هذا فالآيات الاولى تتكلم عن القراءة والآيات الثانية تتكلم عن الكتابة .

وبعد ذلك تجيء فى القرآن الكريم آيات كثيرة تثبت جلال العلم ومكانة العلماء ومنها قوله تعالى :

– شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط (٢) .

– هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (٣) .

– يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات (٤) .

ويقول الرسول صلوات الله عليه فى هذا المجال :

– اطلب العلم من المهد الى اللحد .

---

(١) انظر الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج ١ ص ٤٢ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٨ .
(٣) سورة الزمر الآية التاسعة .
(٤) سورة المجادلة الآية ١١ .

ـ من عظم العالم فقد عظمنى ·

ـ يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء ·

وقد أعلن الاسلام لأول مرة فى تاريخ البشرية أن العلم حق للجميع ، فقد كان العلم قبل الاسلام خاصا بالكهنة ، وكانوا هم الذين يستطيعون كتابه العهود والمواثيق والمعاهدات ، ولم يكن لسواهم حتى الملوك والأمراء نصيب يذكر في طلب العلم ، ويقول Philip Hatti ان معاصرى هارون الرشيد والمأمون من أمثال شارلمان وسادة مملكته كانوا يتعثرون فى كتابة أسمائهم (١) ، وقد ارتفع هذا التخصيص بالآية الكريمـة : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم » (٢) ·

فأصبح المسلمون جميعا بين معلم ومتعلم ، وقال صلى الله عليه وسلم فى هذا المجال : طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وينبغى أن يكون واضحا أن العلم المشار اليه لم يكن محصورا فى العلوم الاسلامية ، بل شمل كل العلوم التى تفيد المجتمع بدليل القول المأثور : «اطلبوا العلم ولو فى الصين»، ومن الواضح انه لم يكن فى الصين علوم اسلامية ·

ومن أجل هذه الدوافع نال التعليم ونالت التربية عند المسلمين أعظم مكانة على ما سيبدو من الدراسات التالية :

محو الأمية فى الكتابة والأمية فى الفكر

اذا كانت الدول تعنى الآن بمحو الأمية وتعليم القراءة والكتـابة لكل السكان ، فقد اهتم الاسلام منذ أربعة عشر قرنا بالعمل على محاربة الجانبين المهمين فى مجال الأمية ، وهما الأمية فى القراءة والكتابة والأمية فى الفكر ، ومن عهد مبكر أنشأ الرسول مؤسسات لمحو أمية القراءة والكتابة من جانب ومؤسسات أخرى لمحو الامية الفكرية من جانب آخر ، ولم يقف الفكر الاسلامى عند محاربة أمية القراءة والكتابة ، بل أدرك المسلمون أنه كثيرا ما يوجد من يجيد القراءة والكتابة ولكنه لا يستعمل ذلك لرفع مستواه الفكرى ، مما يقلل من قيمة القراءة والكتابة ، فاتجه الفكر الاسلامى بجعل القراءة والكتابة وسيلة للنهوض بالعلم وتزويد الفكر بما يرفع شأنه ·

(١) History of the Arabs p. 315.

(٢) سورة التوبة الآية ١٢٣ ·

وسنعطى فيما يلى بعض التفاصيل لذلك :

محو أمية القراءة والكتابة :

عندما جاء الاسلام كان عدد القرشيين الذين يستطيعون القراءة والكتابة سبعة عشر رجلا فقط (١) ، وقد استخدمهم الرسول كلهم أو جلهم للكتابة بين يديه (٢) ، ولم يكن هذا العدد كافيا لأن الدين الجديد والنظام الذى نشأ فى أحضانه جعلا القراءة والكتابة ضروريتين ، ومن هنا نجد الرسول يهتم بنشر القراءة والكتابة ، فقد جعل للقارئين من أسرى بدر أن يفتدوا بتعليم القراءة والكتابة من أبناء المسلمين (٣) .

وقد فتح هذا التصرف الباب ليشتغل غير المسلمين بمهمة تعليم القراءة والكتابة للراغبين فى تعلمها ، لأن المسلمين الذين كانوا يجيدون القراءة والكتابة كانت أمامهم مهام أوسع مدى ، تحول دون اشتغالهم بهذه المهنة ولم يشتغل المسلمون بها الا بعد أن كثر عددهم بحيث أمكن أن يتوافر منهم من يتولى هذه المهمة ، وبخاصة أن المسلمين حرصوا على أن يجعلوا من آيات القرآن الكريم وسيلة للقراءة والكتابة والمطالعة مما جعل مهمة تعليم القراءة والكتابة تنتقل للمسلمين .

واتجه اهتمام أكثر فى هذا المجال للنشء ، بحيث يجيدون القراءة والكتابة فى مطلع العمر ليتفرغوا الى أعمال أخرى عندما يصبحون فى نطاق الشباب ، ويروى ان « الكتاب » قد أنشىء لهذا الغرض فى عهد مبكر ويذكر Goldziher أن أم سلمة احدى زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم أرسلت مرة الى معلم الكتاب تطلب منه أن يرسل لها بعض تلاميذ كتابه ليساعدوها فى ندف الصوف (٤) .

ومن يوم الى يوم كثر الاهتمام بتعليم القراءة والكتابة ، فقد كانتا ضروريتين للذين رغبوا فى أن يكونوا رواة لأحاديث الرسول ، اذ اعتبر المكفوفون من المحدثين غير ثقات ، لعدم استطاعتهم القراءة والكتابة اللتين تعينان على الضبط والدقة (٥) ، ولما تقدم العهد بالاسلام وترجمت الدواوين الى اللغة العربية فى عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، ظهرت وظائف كثيرة ولكن لهؤلاء الذين

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٧ .
(٢) المرجع السابق ص ١٤٧ ، ٤٥٩ .
(٣) الكامل للمبرد ص ١٧١
(٤) Encyclopaedia of Religions and Ethics.
(٥) النووى : تهذيب الأسماء ص ٧٣ .

يجيدون القراءة والكتابة . ثم ظهر بعد ذلك الجاحظ وهو فى القمة من الأدباء الكبار الذين رفعوا شأن القراءة والكتابة وأعلوا قدرها • استمع اليه وهو يقول فى رسالة المعلمين (١) : « ولولا الكتاب (الكتابة) لاختلت أخبار الماضين وانقطعت آثار الغائبين ، وانما اللسان للشاهد لك ، والقلم الغائب عنك ، والماضى قبلك ، والغابر بعدك ، فصار نفعه أعم والدواوين اليه أفقر ، والملك المقيم بالواسطة لا يدرك مصالح أطرافه . وسد ثغوره ، وتقويم سكان مملكته الا بالكتاب ، ولولا الكتاب لما تم تدبير ، ولا استقامت الأمور ، وقد رأينا عمود صلاح الدين والدنيا انما يعتدل فى نصابه ويقوم على أساسه بالكتاب والحساب » •

كل هذا جعل الناس يتجهون نحو تعلم القراءة والكتابة ، وقد بدأ ذلك منذ مطلع الاسلام ، وكلما تقدم بهم الزمن جد دافع جديد يحسن لهم اجادة هذا الفن بل الابداع فيه •

تعليم الأطفال :

ومع الاهتمام بتعليم النشء القراءه والكتابة اتجه الاهتمام كذلك لتعليمهم القرآن الكريم ومبادىء الدين الاسلامى ومبادىء الحساب ••• وكان هذا النوع من التعليم يتم فى أول الأمر بواسطة الآباء ، أو بواسطة معلمين خصوصيين يحضرون للمنازل للالتقاء بالصبيان وتعليمهم ، ومن أجل هذا كان عمر بن الخطاب يوصى الآباء بتعليم أبنائهم كذا وكذا من ألوان المعرفة كما سنرى فيما بعد ، وكان الآباء يباشرون تقديم هذه العلوم لأبنائهم بأنفسهم ، أو بواسطة المعلمين الخصوصيين ، ثم تكون بعد ذلك كتاب لتعليم الصبيان بوجه عام ، ويبدو أن الحجاج بن يوسف كان يمثل مرحلة الانتقال من التعليم الخاص الى التعليم العام ، فقد كان أولا يعلم أولاد الخاصة ثم فتح كتابا لتعليم الجميع ، يروى القزوينى(٢) أن الحجاج كان فى أول أمره معلما لوشاقية سليمان بن نعيم وزير عبد الملك بن مروان ، ثم فتح كتابا للجميع (والوشاقية كلمة فارسية معناها الأولاد والأتباع) •

ويتحدث ياقوت (٣) عن كتاب أبى القاسم البلخى الذى كان به ٣٫٠٠٠ تلميذ ويبقى فى الكلام عن هذا الكتاب أن نتحدث عن المكان الذى يوجد به وعن المنهج الذى يدرس فيه :

أما المكان الذى كان يوجد به الكتاب من هذا النوع ، فقد وردت توصيات

(١) مخطوط ورقة ٨ ب (بالمتحف البريطانى رقم ٣١٣٨) •
(٢) أخبار البلاد وآثار العباد ص ٦٥ •
(٣) معجم الأدباء جـ ٤ ص ٢٨٢ •

كثيرة بألا يكون فى المسجد ، ومن ذلك ما قاله الامام مالك حينما سئل عن ذلك : « لا أرى ذلك يجوز ، لأن الأطفال لا يتحفظون من النجاسة » (١) .

وقد ورد فى كتب الحسبة ما يؤيد ذلك فقد نصت على أنه « لا يجوز تعليم الأطفال فى المسجد لأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين لأنهم يسودون حيطانها ولايتحرزون من النجاسات ، بل يتخذ لتعليمهم حوانيت فى الدروب وأطراف الأسواق (٢) .

وأضاف الحصان (٣) قوله « ويمنع المعلمون من التعليم فى المساجد » .

ولكن على الرغم من كل هذا التحذير اتخذ المعلمون لهم زوايا بالمساجد ، وغرفا ملتصقة بها لتعليم الاطفال ، مهملين لسبب أو لغيره هذه التوصيات الواضحة . والذى يقرأ رحلة ابن جبير ، ورحلة ابن بطوطة ، يجد ذاكرا لكثير من الحلقات التى التف فيها الأطفال فى المسجد حول معلم يعلمهم القرآن ، وقد ذكر ابن حوقل (٤) أمثلة أخرى لهذا النوع .

وبجانب الكتاتيب التى اتخذت بالمسجد أو التصقت به نجد كتاتيب أخرى قامت مستقلة تمام الاستقلال يحدثنا الامام الشافعى عن أحدها فيقول : كنت يتيما فى حجر أمى فدفعتنى فى الكتاب .. فلما ختمت القرآن دخلت المسجد (٥) . وهناك كتاب مهم سبقت الاشارة اليه ، وهو كتاب أبى القاسم البلخى ، وكان يتعلم به ٣٫٠٠٠ تلميذ ، وتدل رواية ياقوت (٦) على أن هذا الكتاب بجانب استقلاله عن المسجد كان فسيحا جدا ليتسع لهذا العدد الكبير ولهذا كان يحتاج البلخى أن يركب حمارا ليتردد بين هؤلاء وأولئك ، وليشرف على جميع تلاميذه . وكان هناك بلخى آخر اسمه أحمد بن سهل (٣٢٢ هـ) وكان فاضلا قائما بجميع العلوم القديمة والحديثة يسلك فى مصنفاته طريقة الفلاسفة الا أنه بأهل الأدب أشبه ، وكان معلما للصبيان ثم رفعه العلم الى مرتبة عالية (٧) .. وازداد عدد الكتاتيب وعدد المعلمين فى القرن الثانى الهجرى وما تلاه من قرون ، وكانت زيادة سريعة وضخمة حتى أصبح بكل قرية كتاب

---

(١) التعليم عند القابسى ٦٧ ب (مخطوط) .
(٢) الشيزرى : نهاية الرتبة ص ١٠٣ ، القرشى : معالم القربة ص ١٧٠ .
(٣) الحسبة ص ١٢٤ .
(٤) كتاب صورة الأرض ١٢١ ، ١٢٧ .
(٥) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ١ ، ٩٨ .
(٦) معجم الأدباء ٤ ، ٢٧٢ .
(٧) المرجع السابق ١ : ١٤١ ـ ١٥٢ .

بل ربما وجد فيهــا أكثر من كتاب ، وقد ذكر ابن حوقل (١) أنه عــد حوالى ٣٠٠ معلم كتاب فى مدينة واحدة هى مدينة بلزم فى صقلية (٢) .

أما المنهاج المبكر الذى وضع لتعليم الأطفــال فقد كتبه عمر بن الخطاب وبعث به الى ساكنى الامصار وهو : أما بعد فعلموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر (٣) وكان ابن التوأم يقول : من تمام ما يجب على الآباء من حفظ الأبنــاء أن يعلموهم الكتــــاب والحســـاب والســـباحة (٤) .

ولما أنشئت الكتاتيب وتولى حفظة القرآن العمل بها ، أصبح القرآن الكريم نقطة الارتكاز فى هذه الدراسة الابتدائية ، وتبعته بعض المواد الأخرى ، فيوصى الغزالى بأن يتعلم الطفل فى المكتب القرآن ، وأحاديث الأخبار ، وحكايات الأبرار وأحوالهم ، ثم بعض الاحكام الدينية ، فالشعر ، على أن يحفظ الطفل من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله (٥) . ويضيف ابن مسكويه (٦) مبادىء الحساب ، وقليلا من قواعد اللغة العربية ، ويضع الجاحظ (٧) منهاجا مفصلا هاك بعضه : « ولا تشغل قلب الصبى بالنحو الا بقدر ما يؤديه الى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام ، فى كتاب ان كتبه ، وشعر ان أنشده ، وسىء ان وصفه، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ، كرواية الخبر الصادق ، والمثل الشاهد ، والمعنى البارع ؛ ويعرف بعض الحساب دون الهندسة والمساحة ، ويعلم كتابة الانشاء بلفظ سهل وعبارة حلوة ، ويحذر التكلف ، ويحثه — فى قراءة كتب البلغاء — أن يستفيد المعانى لا الالفاظ » .

وما ذكرناه هنا عن منهاج تعليم الأطفال ، هو المنهاج العام ، ولكن اختلافا جزئيا كان يحدث تبعا لاختلاف الأمكنة ، وللعناية ببعض العلوم وتقديمها على البعض الآخر ، وقد أوضح ابن خلدون ذلك فى فصل عقده بالمقدمة (٨) وعنوانه

---

(١) العقد الفريد ١ : ٣٦٣ .

(٢) واضح ان هؤلاء المعلمين كانوا يعلمون فى أقل من ، ٣٠ كتاب ، فقد ذكر ابن حوقل نفسه ص ١٢٩ انه رأى كتابا واحدا يقوم بالعمل فيه خمسة من المعلمين ومن المحتمل ان يكون ذلك متكررا فى كتاتيب أخرى ؟ وعلى هذا فيجدر أن يصحح ما ذكره EARNST Diez فى مقالة بدائرة المعارف الاسلامية تحت عنوان (مســـجد) من أن ابن حوقل عد فى بلرم ٣٠٠ كتاب .

(٣) البيان والتبين ٢ : ٩٢ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) الغزالى : الاحياء ٣ : ٥٧ .

(٦) تهذيب الاخلاق ص ٢٠ .

(٧) رسالة المعلمين مخطوط ورقة ١٣ ، ١٤ .

(٨) ص ٣٩٧ — ٣٩٩ .

« تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية فى طرقه » ويمكن تلخيصه فيما يلى تعليم الولدان القرآن شعار من شعائر الدين ، أخذ به أهل الملة ، ودرجوا عليه فى جميع أمصارهم ، لما يسبق الى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده بسبب آيات القرآن ومتون الأحاديث ، وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل بعده من الملكات ، واختلفت طرقهم فى تعليم القرآن للولدان ، فأما أهل الغرب فمذهبهم فى الولدان الاهتمام على تعليم القرآن ، مع العناية برسمه .

وأما أهل الأندلس ، فلا يقتصرون على القرآن ، بل يخلطون فى تعليمهم للولدان رواية الشعر ، والترسل ، وأخذهم بقوانين العربية ، وتجويد الخط .

وأما أهل افريقية فيخلطون فى تعليمهم للولدان القرآن بالحديث فى الغالب ، ومدارسة قوانين العلوم (أى العلوم الدينية) ، وتلقين بعض مسائلها، الا أن عنايتهم بالقرآن ؛ واستظهار الولدان اياه ، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر ، وعنايتهم بالخط تبع لذلك .

وأما أهل المشرق فيخلطون فى التعليم كذلك .

هذا وقد كان المعلمون يعنون عناية خاصة بتحفيظ الفتيات سورة النور (١) .

تأديب أبناء الخلفاء والعظماء :

كان من الجلى الواضح عند المسلمين منذ العصور الأولى أن تتلون مناهج التعليم تبعا لمستقبل المتعلمين وما ينتظرهم من مهام(٢) ، وفى ضوء هذه الفكرة وجد نوع من التعليم الابتدائى بقصور الخلفاء والعظماء ، يجد أبناء هؤلاء فيه ما يؤهلهم لتحمل الأعباء التى سينهضون بها فى المستقبل ، فهذا النوع من التعليم مرتبط بالنوع الذى سبقه ، اذ أن كلا منهما مهمته تغذية الصبيان بنوع من الثقافة وقسط من المعرفة ، ولكن التعليم الاولى بالقصور ينبسط ويجاوز هذا الحد ، فالمنهاج هنا يضعه أو يشارك الأب فى وضعه ليكون ملائما لابنه ، والمعلم هنا لا يسمى معلم الصبيان أو معلم كتاب ، وانما يطلق عليه لفظ « مؤدب » وقد « اشتق اسم المؤدب من الأدب والأدب اما خلق واما رواية ، وقد أطلقوا كلمة مؤدب على معلمى أولاد الملوك ، اذ كانوا يتولون الناحيتين جميعا » (٣) ؛ ثم ان المتعلم هنا يظل يتلقى العلم حتى يجاوز عهد

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ : ص ٩٢ .
(٢) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ٣٦٦٣ ومحاضرات الأدباء الأصفهانى ج ١ ص ٢١
(٣) رسالة المعلمين للجاحظ (مخطوط) ظهر الورقة رقم ١١ .

الصبا . فينتقل به من مستوى تلميذ الكتاب الى مستوى الطالب فى حلقات المساجد أو المدارس .

ويمتاز هذا التعليم بلون آخر ذى أهميـه كبرى ، ذلك هو أن المؤدب كثيرا ما يخصص له جنـاح فى القصر يعيش فيـه ، ليكون اشرافه على الأمير أحكم وأشـمل .

وتتضح من وصية عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده الأهداف التى حفزت الوالد أن يمهد لمؤدب ولده أن يعيش معه ، تلك الأهداف التى تتجاوز التعليم لتشمل أن يربى المؤدب عقل الولد وقلبهوجسمه . يقول عبد الملك : علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن ، وجنبهم السفلة فانهم أسوأ الناس رعة (١) ، وأقلهم أدبا ، وجنبهم الحشم فانهم لهم مفسدة ، وأحف شعورهم تغلظ رقابهم ، وأطعمهم اللحم يقووا ، وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا ، ومرهم أن يستاكوا عرضا ، ويمصوا الماء مصا ولايعبوه عبا ، واذا احتجت الى أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك فى ستر ، لا يعلم به أحد من الحاشية فيهونوا عليه (٢) .

أما منهاج التعليم لهذه الطبقة فانه يلتقى فى أسسه العامة بمنهاج التعليم الذى وضع لجميع الصبيان ، مع بعض الحذف أو الاضافة استجابة لتوجيه الوالد ، وتمشيا مع الرغبة فى اعداد هذا الصبى اعدادا خاصا يناسب الأهداف والمسئوليات التى ستواجهه فى مستقبل حياته كما قلنا . وفيما يلى أمثلة للمناهج والارشادات التى وضعها الآباء بين أيدى المؤدبين ليسيروا فى ضوئها وليعملوا على تحقيقها :

١ ــ قال عمرو بن عتبة لمؤدب ولده : علمهم كتاب الله ولاتملهم فيه فيتركوه ، ولاتتركهم منه فيهجروه ، ورَوِّهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أعفه ، ولاتنقلهم من علم الى علم حتى يحكموه ، فان ازدحام الكلام فى القلب مشغلة للفهم ، وعلمهم سنن الحكماء (٣) .

٢ ــ قال هشام بن عبد الملك لسليمان الكلبى لما اتخذه مؤدبا لابنـه : ان ابنى هذا هو جلدة ما بين عينى ، وقد وليتك تأديبه ، فعليك بتقوى الله ، وأداء الأمانة ، وأول ما أوصيك به أن تأخذه بكتاب الله ، ثم روه من الشعر احسنه ، ثم تخلل به فى أحياء العرب فخذ من صالح شعرهم ، وبصره طرفا من الحلال والحرام ، وطرفا من السيرة والمغازى (٤) .

---

(١) يقال سيء الرعة اذا كان قليل الورع .

(٢) ابن قتيبة : عيون الاخبار ٢ : ١٦٧ .

(٣) العقد الفريد ١ : ٣٦٣ .

(٤) الأصفهانى : محاضرات .

فيها ، ويتقاضون على ذلك أجرا متواضعا موسطه دينار عن كل كتاب (١) ٠ وكان الجاحظ ـ كما حدث بذلك أبو هفان الراوية ـ يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر(٢) ٠

وهكذا كانت حوانيت بيع الكتب مدارس عالية المستوى يؤمهـا العلماء والطلاب فيجدون فيها لذة عقلية ومكانا لخدمة الفكر والثقافة ٠

منـازل العلمـاء :

لم يعد المسلمون المنازل مكانا صالحا للتعليم العام ، اذ أن السكان والطلاب جميعا لايجدون الراحة واليسر فى التوفيق بين هدوء المنزل وجلاله ، وبين حلقة الدرس وما تستدعيه من حركة ونشاط ، وقد أشـار الى ذلك كتاب الله فى الآية الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى طعـام غير ناظـرين اناه ، ولكن اذا دعيتم فادخلوا ، فـاذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث، ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم، والله لايستحيى من الحق » (٣) ٠

وقد شرح العبدرى فى كتابه « المدخل » (٤) هذه القضـية ذاكـرا أن « أفضل مواضع التدريس هو المسجد . لأن الجلـوس للتدريس انما فائدته أن تظهر به سنة ، أو تخمد به بدعة ، أو يتعلم به حـكم من أحـكام الله تعالى والمسجد يحصل فيه هذا الغرض متوافرا ، لأنه موضع لاجتماع الناس ، رفيعهم ووضيعهم ، وعالمهم وجاهلهم ، بخلاف البيت ، فانه محجور على الناس الا من أبيح له ، والبيوت تحترم وتهاب حتى لو أبيحت للجميع » ٠ ويقرر العبدرى فى مكان آخر (٥) « ان المنازل مكان للدرس عند الضرورة فقط » ٠

واذا فاستجابة لالحاح الضرورة وتحت ضغط أحوال معينة قامت حلقات علمية تعليمية بالمنازل الخاصة على ما يأتى :

جرى التعليم الاسلامى بالمنزل فى عهد الاسلام المبكر ، وقبل نشـأة المساجد ، فلقد اتخذ الرسـول عليه السـلام دار الأرقم بن أبى الأرقم مركزا

---

(١) Amir Ali : A Short History of the Saracens p. 460.

(٢) ياقوت معجم ٦ : ٥٦ ٠

(٣) سورة الأحزاب الآية ٥٣ وانظر أيضا تفسير الفخر الرازى لهذه الآية ج ٧ ص ٣٤٧ وتفسير أبى السعود على هامش الفخر الرازى ج ٦ ص ٥٥٢ ـ ٥٥٣ ٠

(٤) ١ : ٨٥ ٠

(٥) ٣ : ٩٧ ٠

ويقرر الغزالى أن تربية الصبيان ليست مقصورة على تعليمهم ، وانما تشمل ألوانا أخرى لا تقل أهمية عن التعليم . ويذكر الغزالى منها المراقبة ، وتقوية خلق الحياء لدى الصبى عند ظهوره فيه ، وأن يعلم الطريق المستقيم فى الطعام والشراب واللباس . ويفصل الغزالى ذلك تفصيلا دقيقا ، ثم يذكر ان الصبى ينبغى أن يجازى اذا ظهر منه خلق جميل ، أما اذا ظهر منه انحراف فينبغى ان يتغافل عنه أول مرة ، فان كرر ذلك عوتب ، ثم عوقب ، ويعود على المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل ، ويمنع أن يفتخر على أقرانه ... ويمنع اليمين صادقا كان أو كاذبا الا لضرورة (١) .

ويتحدث ابن سينا أحاديث فياضة عن سلوك الطالب ، ويجعله أهم من العلوم بالنسبة اليه ، والى المجتمع حوله ، فهو يقول : ان الفضائل الخلقية اسمى من الفضائل العقلية ، لان الجاهل بالعلوم قد لا يضر ، ولكن الجاهل بالآداب والسلوك لا يتوقف ضرورة (٢) .

وجاء فى كتاب منهاج المتعلم (٣) : وعلى الأب أن يؤدب ابنه ويسلمه الى معلم . فان لم يفعل ظهر الانحراف فى جميع أعضائه ، وبخاصة فى لسانه .

المنشآت الثقافية والعلمية عند المسلمين

رأينا فيما سبق عناية الاسلام والمسلمين بتربية النشء ، ونريد الآن أن نصور اهتمام المسلمين بالتعليم فى مراحله المتقدمة بعد مرحلة الصبا ، والذى يدرس تاريخ التعليم عند المسلمين يجد أن المسلمين أقاموا منشآت ثقافية وعلمية متعددة ومتنوعة لخدمة العلم ورفع شأن الانسان ثقافيا وعلميا . وسنعيش مع هذه المنشآت فيما يلى :

المسجد :

تاريخ التربية الاسلامية يرتبط ارتباطا وثيقا بالمسجد ، ولهذا فالحديث عنه حديث عن المكان الرئيسى لنشر الثقافة الاسلامية ، وقد قامت حلقات الدراسة فى المسجد منذ نشأ ، واستمرت كذلك على مر السنين والقرون ، وفى

(١) احياء علوم الدين ج ٣ ص ٥٧ ــ ٥٩ .
(٢) مخطوط مجهول المؤلف : ظهر الورقة ٩ .
(٣) القانون : ج ١ ص ٧٩ وما بعدها .

مختلف البلاد الاسلامية دون انقطاع . ولعل السبب فى جعل المسجد مركزا ثقافيا هو أن الدراسات فى سنى الاسلام الأولى كانت دراسات دينية نشرح تعاليم الدين الجديد وتوضح أسسه وأحكامه وأهدافه ، وهذه تتصل بالمسجد أوثق اتصال ، ثم ان المسلمين فى عصورهم الأولى توسعوا فى فهم مهمة المسجد ، فاتخذوه مكانا للعبادة ، ومعهدا للتعليم ، ودارا للقضاء ، وساحة تتجمع فيها الجيوش ، ومنزلا لاستقبال السفراء (١) .

وعندما هاجر المسلمون من مكة الى المدينة كان أول ما اهتم به الرسول بناء المساجد ، فقد توقف وهو فى طريقة الى المدينة بقباء بضعة أيام ، أسس فيها مسجد قباء ، وهو أول مسجد بنى فى الاسلام ، ويقال ان فيه نزلت الآية الكريمة « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا » (٢) .

ثم ان الرسول لما دخل المدينة بنى مسجده بالمربد ، وعمل فيه بنفسه ، ليشجع المهاجرين والأنصار على النشاط والسرعة فى العمل (٣) .

وكانت تعقد حلقات العلم فى مسجد قباء (٤) كما كان من عادة الرسول أن يجلس فى مسجده بالمدينة ليعلم أصحابه دينهم (٥) .

وكثرت بعد ذلك المساجد وزاد انتشارها بتوسع الاسلام ، وأصبح من المتبع أن يبنى مسجد أو أكثر فى كل مكان فتحه المسلمون ، أو فى كل قرية أو مدينة أسسوها ، فلقد روى أن عمر لما فتح البلدان كتب الى أبى موسى وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ، ويتخذ للقبائل مساجد ، فاذا كان يوم الجمعة انضموا الى مسجد الجماعة ، وكتب الى سعد بن أبى وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك ، وكتب الى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك (٦) .

وبمرور الزمن زاد عدد المساجد زيادة كبيرة مطردة فى كل مكان .

ولم يختلف الحال فى مصر عن غيرها ، وأول جوامع القاهرة هو جامع عمرو بن العاص الذى يحمل اسمه حتى الآن ، وقد بناه عقب فتح مصر ثم كثرت

---

(١) أنظر مادة مسجد فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) سوره التوبة : الآية ١٠٨ وأنظر فى ذلك ابن هشام ٢ . ١١ ، الطبرى ١ . ٣ . ١٢٣٩

(٣) ابن هشام ٢ : ١٢ — الطبرى : ١ : ٣ : ١٢٥٩ — البلاذرى . ٢ وفتوح البلدان ص١٧

(٤) الاحياء ١ : ٥٢ .

(٥) البخارى : باب الصلاة .

(٦) الخطط ٢ : ٢٤٦ — حسن المحاضرة ٢ : ١٤٩ .

المساجد في مصر بعد ذلك حتى أصبحت القاهرة تعرف بأنها مدينة الآلف مئذنة ٠

وفى سنة ٣٦٠ هـ بنى جوهر الصقلى الجامع الازهر ، ولكنه خصص منذ سنة ٣٧٨ هـ للدراسات والابحاث العلمية ، وظل من ذلك التاريخ حتى العهد الحاضر جامعة من الجامعات الأولى فى العالم الاسلامى (١) ٠ وقد بدأ العزيز بالله يبنى جامعا آخر ، ولكنه مات قبل أن يتمه . فأكمله ابنه الحاكم ، ومن ثم أصبح يطلق عليه جامع الحاكم ، وقد بنى الحاكم أيضا جامع المقس وجامع رشيدة ، وكل هذه المساجد كانت امكنة للدرس والتعليم ٠

وسنتحدث فيما يلى عن التعليم فى الجوامع فنختار ثلاثة منها لنعطى فكرة سريعة عن التعليم فيها ولنصف بايجاز حلقات العلم التى تكونت بها :

جامع المنصور : اتخذ المنصور أهبته لبناء عاصمة جديدة للعالم الاسلامى، وقد بدأ العمل سنة ١٤٥ هـ لتشييد عاصمة تزدان بقصر الذهب وجامع المنصور (٢) ، وهى مدينة بغداد وقد كلفه ذلك نقلا عن ياقوت (٣) ثمانية عشر مليونا من الدنانير ، وقد جدد ذلك الجامع فى عهد الرشيد ، كما زيد فيه وناله كثير من الاصلاح والتعمير بعد ذلك (٤) ٠

وقد كان ذلك المسجد قبلة أنظار الاساتذة والطلاب فى ذلك العهد ، ومما يدلنا على أنه كان يحتل مكانة سامية فى نفوس العلماء أن الخطيب البغدادى لما حج شرب من ماء زمزم وسأل الله أن يحقق له ثلاث حاجات كان من بينها أن يتاح له أن يملى الحديث بجامع المنصور (٥) ٠ ويبدو أن الحنابلة كانت لهم السيطرة على هذا الجامع فى منتصف القرن الخامس الهجرى حتى انهم اعتدوا سنة ٤٥١ على الخطيب البغدادى وآذوه وهو يدرس فيه (٦) ٠ وكان الكسائى يجلس فى مسجد المنصور ليقرأ فى علوم اللغة ، وكان الفراء والاحمر وابن السعدان بعض تلاميذه (٧) ، كما كان أبو العتاهية يملى فى ذلك المسجد من شعره ،

---

(١) Lane-Poole : Cairo pp. 123-124.

(٢) معجم البلدان ٢ ٠ ٢٣٢ ٠

(٣) المرجع نفسه ٢ : ٢٣٥ ٠

(٤) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ١ : ١٠٨ ٠

(٥ ، ٦) ياقوت : معجم الأدباء ١ : ٢٤٦ ــ ٢٤٧ ٠

(٧) معجم الأدباء ٤ : ٢٤٣ ٠

حدث شيخ من أهل الكوفة أنه دخل ذلك المسجد فاذا شيخ عليه جماعة وهو ينشد :

لهفى على ورق الشباب ... وغصونه الخضر الرطاب
ذهب الشباب وبان عنى ... غير منتظر الايـاب
فلأبكين على الشبا ... ب وطيب أيام التصابى
ولأبكين من البلى ... ولأبكين من الخضاب

وكان ينشدها ودموعه تسيل على خديه ، فلما رأى الكوفى ذلك انضم الى الحلقة وكتب الابيات ، وسأل عن الشيخ فعرف أنه أبو العتاهية (١) · وفى مسجد المنصور أملى أبو عمر الزاهد كتابه « الياقوت » ، وقد بدأ يحاضر فى موضوع ذلك الكتاب فى شهر المحرم سنة ٣٢٦ هـ ، ولما أتمه استعاد قراءته فهذبه وزاد عليه (٢) ·

جامع دمشق : كان مسجد دمشق كما يحكى ابن الفقيه (٣) يعد واحدا من عجائب الدنيا الأربع فى ذلك العهد ، ولنقتطف بعض النصوص التى أوحت الى الناس أن يضعوا هذا الجامع فى ذلك الوضع :

ـ أنفق الوليد بن عبد الملك على بناء هذا المسجد خراج المملكة سبع سنين ، وحمل للوليد حساب النفقات على ثمانية عشر بعيرا ·

ـ ظل العمل يجرى فى بناء هذا المسجد مدة ثمانية أعوام ، حتى بلغ ثمن البقل الذى أكله الصناع فى مدة أيام العمل ٦٠٠٠ دينار ·

ـ فيه ٦٠٠ سلسلة من الذهب للقناديل ·

ـ قالوا ان من عجائب مسجد دمشق أنه لو بقى الرجل فيه مائة سنة لرأى في كل وقت أعجوبة لم يرها من قبل (٤) ·

ولا يزال هذا البناء الشامخ يبعث الإعجاب فى النفس وينبىء عما كان له من جلال وعظمة فى تلك الازمان الخالية ·

---

(١) الأغانى ص ٣ : ١٤٣ ·
(٢) الفهرست ص ١١٣ ·
(٣) كتاب البلدان ص ١٠٦ ·
(٤) المرجع السابق ١٠٧ ـ ١٠٨ وانظر أيضا معجم البلدان ٤ : ٧٦ ـ ٧٧ ·

وقد كان ذلك المسجد مركزا هاما من مراكز الثقافة فى العالم الاسلامى ، يحدثنا ابن جبير عنه فيقول (١) :

وفيه حلقات للتدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها اجراء واسع ، وللمالكية زاوية للتدريس فى الجانب الغربى يجتمع فيها الطلبة المغاربة ولهم اجراء معلوم، ومرافق هذا الجامع للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة ، وأغرب ما به أن سارية من سواريه وهى بين المقصورتين القديمة والحديثة ، لها وقف معلوم يأخذه المستند اليها للمذاكرة والتدريس .... وعن يمين الخارج من باب البريد مدرسة للشافعية فى وسطها صهريج يجرى الماء فيه .

وفى الجانب الغربى بازاء الجدار مقصورة الحنفية يجتمعون فيها للتدريس وبها يصلون ...

وفى الجامع عدة زوايا يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس وهى من جملة مرافق الطلبة .

وكان للخطيب البغدادى بهذا المسجد حلقة كبيرة سنة ٤٥٦ وكان الناس يجتمعون اليه فى بكرة كل يوم فيقرأ لهم ... وكان اذا قرأ الحديث فى جامع دمشق سمع صوته فى آخر الجامع (٢) .

جامع عمرو : بناه عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ ثم جدد وزيد عليه بعد ذلك عدة مرات (٣) ، وفى عهد مبكر جدا جلس فيه سليمان بن عنز التجيبى ليعظ الناس عن طريق ذكر القصص ، وكان قد جمع له القضاء والقصص ثم عزل عن القضاء وأفرد بالقصص ، وقد بدأ عمله سنة ٣٨ هـ ومنذ ذلك التاريخ ظل هذا المسجد مركزا ثقافيا ومحكمة للقضاء ، وقد أدرك به محمد بن عبد الرحمن الحنفى قبل وباء سنة ٢٤٩ بضعا وأربعين حلقة لاقراء العلم لا تكاد تبرح منه (٤) . وقد سجل لنا المقريزى (٥) بعض التفاصيل عن زوايا ثمان كانت تدرس فيها شتى العلوم بهذا الجامع ، وفيما يلى مقتطفات قصيرة عن ثلاث منها :

---

(١) الرحلة من صفحة ٢٦٦ الى صفحة ٢٧٢ بتقديم وتأخير .

(٢) ياقوت . معجم الأدباء ١ : ٢٥٥ .

(٣) المقريزى . الخطط ٢ : ٢٤٦ ـ ٢٥٦ .

(٤) المرجع نفسه ٣ : ٢٥٦ .

(٥) المرجع نفسه ٢ : ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .

زاوية الامام الشافعى : يقال انه درس بها الامام الشافعى فعرفت باسمه ، وعليها أرض بناحية سندبيس وقفها السلطان الملك العزيز عثمان ابن صلاح الدين ، ولم يزل يتولى تدريسها أعيان الفقهاء وجلة العلماء .

الزاوية المجدية : بصدر الجامع ، رتبها مجد الدين أبو الأشبال وزير الملك الاشرف ، وقرر فى تدريسها قريبة قاضى القضاة عبد الوهاب البهنسى وعمل على هذه الزاوية عدة أوقاف بمصر والقاهرة ويعد التدريس بها من المناصب الجليلة .

الزاوية الصاحبية : رتبها الصاحب محمد بن فخر الدين ، وجعل لها اثنين من المدرسين : أحدهما مالكى والآخر شافعى وجعل عليها وقفا بظاهر القاهرة .

ولما وفد محمد بن جرير الطبرى على مصر بان فضله فى القرآن والفقه والحديث واللغة والنحو والشعر ، فلقيه أبو الحسن بن سراج فوجده فاضلا فى كل ما يذاكره به من العلم ، ويجيب فى كل ما يسأله عنه ، حتى سأله عن الشعر فرآه فاضلا بارعا فيه ، فسأله عن شعر الطرماح فاذا به يحفظه ، فسئل أن يمليه ، فاستجاب وجلس بجامع عمرو لاملائه (١) .

أنواع الدراسات بالمساجد :

ويتضح من الأمثلة السابقة أن الحلقات العلمية بالمساجد لم تكن مقصورة على الدراسات الدينية ، وانما تعدتها الى سواها من معارف ذلك العصر ، ولا نزاع أن الدراسات الدينية كانت أهم ما يجذب الطلاب ويعنى به المدرسون ، ولكن مع هذا فان النصوص التى أمامنا تدل على أن المسجد اتسع للعلوم الدينية ولسواها ، وسنشير فيما يلى الى غير العلوم الدينية من المواد التى كانت تدرس بالمساجد :

اعتزل واصل بن عطاء حلقة الحسن البصرى ، وكان يعنى هو وأتباعه عناية كبيرة بعلم الكلام ، وقالوا ان مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن وليس بكافر ، وانما هو فى منزلة بين المنزلتين ، فكان واصل يجلس لاتباعه فى مسجد البصرة ليدرس لهم مبادىء علم الكلام الذى كان حديث الظهور فى ذلك الحين (٢) .

وكانت الدراسات اللغوية والأدبية تجد طريقها الى المسجد ، وقد تحدثنا فيما سبق عن أبى عمر الزاهد وأبى العتاهية ، ونضيف اليهما مجلس نفطويه

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٤٣٢ .

(٢) ابن خلكان ٢ : ٢٥٢ .

فى مسجد الانباريين (١) ومجلسا آخر فى جامع قرطبة كان لغوى شهير (لم يذكر المقرى اسمه) يجلس فيه ليدرس قواعد اللغة العربية الى جمهور كبير من التلاميذ (٢) . وكان الكميت بن زيد وحماد الراوية يلتقيان فى مسجد الكوفة فيتذكران أشعار العرب وأيامهم ، فاختلفا مرة فى شىء ، فقال الكميت لحماد : أتظن أنك أعلم منى بأيام العرب وأشعارها ؟ فقال حماد : هذا والله هو اليقين . وما زال يناقشه ويسأله حتى أفحمه (٣) .

وفى مسجد البصرة كان يجلس مسلم بن الوليد ليملى من شعره . وفى احدى الجلسات كان يملى قصيدته الدالية :

لا تدع بى الشوق انى غير معمود ....

اذ أقبل أبو نواس ، فاستشرف له القوم ، فدنا فسلم ، فقطع مسلم الاملاء ، ورفعه فى المجلس ، وأقبل عليه يسأله أن ينشده من شعره ، وأبو نواس يأبى ذلك ، ثم سأله أبو نواس أن يبتدىء القصيدة من أولها فقبل .... (٤) .

وكان العروض أيضا يدرس بالمسجد ، روى أن أعرابيا دخل مسجد البصرة فانتهى الى حلقة يتذاكرون فيها الأشعار والأخبار ، فجلس وهو يستطيب كلامهم، ثم أخذوا فى العروض . فلما سمع الفاعل والمفعول ظن أنهم يأتمرون به ، فخرج مسرعا وهو يقول :

قد كان أخذهم فى الشعر يعجبنى	حتى تعاطوا كلام الزنج والروم
لما سمعت كلاما لست أعرفه	كأنه زجل الغربان والبوم
وليت منفلتا والله يعصمنى	من التقحم فى تلك الجراثيم (٥)

ودرس فى المساجد الطب والميقات ، يروى السيوطى (٦) أن دروسا مختلفة رتبت فى الجامع الطولونى ، وقد شملت التفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة والقراءات والطب والميقات . ويقول عبد اللطيف البغدادى ان درسا فى الطب كان يلقى فى الأزهر فى منتصف النهار من كل يوم (٧) .

---

(١) الفهرست ١٢١ .
(٢) نفح الطيب ٢ : ٣٥٤ .
(٣) الاغانى ١٥ : ١١٣ — ١١٤ .
(٤) المرزبانى : الموشح ٢٨٩ — ٢٩٠ .
(٥) الاصفهانى : محاضرات الأدباء ١ : ٢٠ .
(٦) حسن المحاضرة ٢ : ١٣٨ .
(٧) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنبياء ٢ : ٢٠٧ .

المدارس :

في عهد السلاجقة ابتداء من النصف الثاني للقرن الهجري الخامس بدأ انشاء المدارس في العالم الاسلامي ، وكان ذلك على يد الوزير العظيم نظام الملك الذي وزر لالب ارسلان ، وملكشاه ، ونسبت هذه المدارس الى منشئها (نظام الملك فعرفت باسم « المدارس النظامية » وكانت غاية في الجمال والروعة ، ثم كانت كثيرة العدد بحيث حفلت بواحدة منها كل مدينة ، بل كل قرية ٠

واقتدى بنظام الملك سلاطين السلاجقة الذين جاءوا بعد ملكشاه كما اقتفى أثرهم الشاهات والاتابك الذين آقاموا امارات على أنقاض السلاجقة ٠

وفي الشام انطلق البطل نور الدين زنكي في هذا المجال فبنى مدارس متعددة في مدن مملكته وقراها ٠

وسار الايوبيون سيرة نور الدين فأنشأوا المدارس لأول مرة في فلسطين ومصر ، وكانت كثيرة العدد رائعة المظهر ، ويمتاز هذا العهد بأن الأمراء والأميرات والتجار اسهموا في انشاء المدارس وفي رعاية العلم ٠

واذا كانت المساجد قد قامت بدور التعليم كما ذكرنا فان المدارس كانت تمتاز عن المساجد باحتضان العلوم التي يكثر فيها الجدل والنقاش كعلم الكلام، وعلم المناظرة ، ثم كان بها مدرسون معينون من قبل الحكومات ، ويتقاضون مرتبات محددة وذلك بخلاف المساجد التي كان يفد لها الفقهاء والشيوخ دون اذن من أحد ، وبالتالي كانوا لايتوقعون اجرا ولا مرتبا ٠

ومن الفروق كذلك آن المدارس كانت بها مناهج معينة ، وانه كان بها مساكن غالبا ليعيش بها الطلاب والمهندسون ، وبالتالي كان بها المرافق اللازمة لحياة هذه الجماعات ٠

حوانيت الوراقين :

لعل من الممكن أن نربط بين أسواق العرب في الجاهلية : عكاظ ومجنة وذي المجاز ، وبين دكاكين بيع الكتب في الاسلام ، ففي تلك الأسواق كان العرب يجتمعون للقيام ببعض الصفقات التجارية ، ولكنهم كانوا ينتهزون فرصة هذا الاجتماع ليقوموا بنشاط رائع في الناحية الأدبية ، فينشدون الأشعار ، ويعقدون المناظرات ، ويلقون الخطب الرنانة (١) ٠ وحاكتها في ذلك دكاكين

---

(١) انظر الأغاني ٤ : ٣٥ وانظر كذلك ابو الفدا ٢ : ٢٣ ٠

بيع الكتب ، هذه الدكاكين التى فتحت فى الأصل لأعمال تجارية ، ثم اذا هى تصبح مسرحا للثقافة والحوار العلمى ، عندما أمها المثقفون والأدباء ، واتخذوا منها مكانا لاجتماعاتهم وأبحاثهم .

ولم تكن دكاكين بيع الكتب محاكاة تامة لأسواق العرب فى الجاهلية ، بل كانت هناك نقاط خلاف بين هذه وتلك ، ومن أبرز هذه النقاط أن الاجتماعات الثقافية كانت يومية فى دكاكين بيع الكتب ، ولكنها فى أسواق العرب كانت ترتبط بعمران هذه الاسواق التى ما كانت تعمر الا فى مواسم خاصة .

وقد ظهرت دكاكين بيع الكتب منذ مطلع الدولة العباسية (١) ، ثم انتشرت بسرعة انتشارا ملحوظا فى العواصم والبلدان المختلفة بالعالم الاسلامى ، وحفلت كل مدينة بل كل محلة بعدد وافر منها ، ذكر اليعقوبى (٢) فى جملة كلامه عن أرباض بغداد ... ثم ربض وضاح مولى أمير المؤمنين .. وبه أكثر من مائة حانوت للوراقين » وكان فى مصر فى عهد الطولونيين والاخشيديين سوق عظيمة للوراقين تعرض فيها الكتب للبيع وأحيانا تدور فى دكاكينها المناظرات(٣) وقد تعرض المقريزى فى مواضع كثيرة من كتابه الخطط للحديث عن هذه المحال(٤) .

ولم يكن بائعو الكتب مجرد تجار ينشدون الربح ، وانما كانوا ــ فى أغلب الأحايين ــ أدباء ذوى ثقافة ، يسعون للذة العقلية من وراء هذه الحرفة التى كانت تتيح لهم القراءة والاطلاع ، وتجذب لدكاكينهم العلماء والادباء ، وعلى هذا فقد حفلت قائمة أسماء الوراقين بشخصيات لامعة ، كابن النديم صاحب الفهرست (٥) ، وعلى بن عيسى المعروف بابن كوجك وقد ذكر عنه ياقوت (٦) أنه كان وراقا ، وكان أديبا فاضلا ، وقد ألف عدة كتب ، وكياقوت مؤلف معجم الأدباء ومعجم البلدان (٧) .

ولم تكن مهنة الوراقة فى عهد الدولة العباسية تقف عند حد الصفقات التجارية وبيع الكتب ، وانما كانت تتعدى ذلك الى مهام بالغة الأهمية فى ذلك الحين اذ كان الوراقون هم الذين ينسخون الكتب الهامة ويعرضونها للراغبين

---

(١) Hitti : History of the Arabs p. 414.

(٢) البلدان ص ١٧ .

(٣) ابن زولاق : اخبار سيبوية المصرى ٣٣ ، ٤٤ خط ١٤٦١ تاريخ تيمور بدار الكتب .

(٤) ١ : ٣٦١ ، ٢ : ٩٦ ، ١٠٢ .

(٥) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٤٠٨ .

(٦) معجم الأدباء ٥ : ١٧٩ .

(٧) ابن خلكان : ٣١١٢ ــ ٣١٢ .

فيها ، ويتقاضون على ذلك أجرا متواضعا متوسطه دينار عن كل كتاب (١) ۰ وكان الجاحظ ـ كما حدث بذلك أبو هفان الراويه ـ يكترى دكاكين الورافين ويبيت فيها للنظر(٢) ۰

وهكذا كانت حوانيت بيع الكتب مدارس عالية المستوى يؤمهـــا العلماء والطلاب فيجدون فيها لذة عقلية ومكانا لخدمة الفكر والثقافة ۰

منــازل العلمــاء :

لم يعد المسلمون المنازل مكانا صالحا للتعليم العام ، اذ أن السكان والطلاب جميعا لايجدون الراحة واليسر فى التوفيق بين هدوء المنزل وجلاله ، وبين حلقة الدرس وما تستدعيه من حركة ونشاط ، وقد أشـــار الى ذلك كتاب الله فى الآية الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى طعـام غير ناظـرين اناه ، ولكن اذا دعيتم فادخلوا ، فـاذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث، ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم، والله لايستحيى من الحق » (٣) ۰

وقد شرح العبدرى فى كتابه « المدخل » (٤) هذه القضـية ذاكـرا أن « أفضل مواضع التدريس هو المسجد ، لأن الجلـوس للتدريس انما فائدته أن تظهر به سنة ، أو تخمد به بدعة ، أو يتعلم به حـكم من أحـكام الله تعالى والمسجد يحصل فيه هذا الغرض متوافرا ، لأنه موضع لاجتماع الناس ، رفيعهم ووضيعهم ، وعالمهم وجاهلهم ، بخلاف البيت ، فانه محجور على الناس الا من أبيح له ، والبيوت تحترم وتهاب حتى لو أبيحت للجميع » ۰ ويقرر العبدرى فى مكان آخر (٥) « ان المنازل مكان للدرس عند الضرورة فقط » ۰

واذا فاستجابة لالحاح الضرورة وتحت ضغط أحوال معينة قامت حلقات علمية تعليمية بالمنازل الخاصة على ما يأتى :

جرى التعليم الاسلامى بالمنزل فى عهد الاسلام المبكر ، وقبل نشـــأة المساجد ، فلقد اتخذ الرســـول عليه الســـلام دار الأرقم بن أبى الأرقم مركزا

---

(١) Amir Ali : A Short History of the Saracens p. 460.

(٢) ياقوت معجم ٦ : ٥٦ ۰

(٣) سورة الأحزاب الآية ٥٣ وانظر أيضا تفسير الفخر الرازى لهذه الآية ج ٧ ص ٣٤٧ وتفسير أبى السعود على هامش الفخر الرازى ج ٦ ص ٥٥٢ ـ ٥٥٣ ۰

(٤) ١ : ٨٥ ۰

(٥) ٣ : ٩٧ ۰

يلتقى فيه بأصحابه ومن تبعه ، ليعلمهم مبادىء الدين الجديد ، ويقرئهم ما نزل من آيات الذكر الحكيم . كما كان الرسول يستقبل فى هذا المنزل من جنحوا الى الاسلام ومالوا اليه ، ليغمر الرسول قلوبهم بارشاده وتعليمه ، فيعتنقوا الاسلام وينضموا الى جماعة المسلمين (١) ·

وبالاضافه الى دار الأرقم كان الرسول صلى الله عليه وسلم قبل انشاء المساجد أيضا يجلس بمنزله بمكة والمدينة ، ويلتف حوله المسلمون ليعلمهم ويزكيهم ، وقد ظلوا كذلك الى أن نزلت بالمدينة الآية الكريمة السابقة وكان نزولها بعد انشاء المساجد ، وقد خفف الله بها عن الرسول ما كان يعانى من تدفق الجموع على بيته تدفقا يكاد يكون متصلا ، مما لايدع له وقتا للراحة والاستجمام ·

ومن الواضح أن منزل الرسول فقط هو الذى أشارت اليه الآية الكريمة ، وقد فهم من هذا عدم الرغبة فى اتخاذ البيوت مكانا للدرس ، غير أن ذلك لم يرق الى درجة المنع ، فلظروف خاصة أصبحت بيوت متعددة ملتقى للطلاب والمدرسين ، ومركزا هاما على الرغم من انتشار المساجد ·

ومن أهم هذه المنازل منزل الرئيس ابن سينا يقول الجورجانى صاحبه : « كان يجتمع كل ليلة فى دار ابن سينا طلبة العلم ، وكنت أقرأ معه الشفاء ، وكان يقرىء غيرى من القانون نوبة ، وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار خدمة للأمير (شمس الدولة) ، وقضينا على ذلك زمنا » (٢) ·

ومن الدور الهامة التى كان يلجأ اليها الطلاب والمدرسون فيستفيدون منها استفادة بالغة ، دار الامام الغزالى (٥٠٤ هـ) التى كان يستقبل فيها تلاميذه بعد أن اعتزل العمل بنظامية نيسابور (٣) ·

ولما اتهم على بن محمد الفصيحى (٥١٦ هـ) بالتشيع ، وسئل عن ذلك الاتهام فلم ينكره ، فصل من النظامية حيث كان من مشاهير مدرسيها ، ولكن أفواجا من المتعلمين راحوا يقصدونه فى داره ليواصلوا القراءة عليه (٤) ·

وكان يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمى على معرفة واسعة بالمذهب الاسماعيلى ، وقد كتب فى فقه الاسماعيلية كتابا كبيرا ضمنه كل ما سمعه

---

(١) انظر الطبرى ٣ : ١٣٣٥ ·

(٢) ابن أبى أصيبعة ٢ : ٤ القفطى ٤٢٠ ·

(٣) انظر ترجمته فى صدر كتابه هذا ص ٣ ·

(٤) ياقوت ٥ : ٤١٥ ·

من المعز والعزيز ، وكان منزله كل يوم جمعة مأوى للعلماء والطلاب ليقرأ لهم من هذا الكتاب ومن سواه (١) ٠ .

وكان السلفى أحمد بن محمد أبو طاهر (٥٧٦ هـ) من العلماء الفقراء ، وطاف البلاد حتى وصل الى الاسكندرية ، فتزوج امرأة ذات مال واتخذ من بيته بالاسكندرية مكانا للتعليم ٠

تلك أمثلة قليلة تعد نمـاذج فقط لسـوـاها مما حفلت به كتب الأدب والتاريخ وهى تبين بوضـوح أن منازل العلماء أسهمت بنصيب كبير فى نشر الثقافة وبخاصة قبل انتشار المدارس ، ولما كان البيت مكانا خاصا يحس رواده بالوحشة والانقباض كان على صاحب البيت ــ وقد جعل منه ملتقى للطلاب ــ أن يقابل رواده ببشاشة وترحيب ، ويسرى عنهم ، والا فقد يتسبب عن ذلك انقطاعهم عن الحضور (٢) مما يجعل الدرس قليل الجدوى محدود الفائدة ، ويتحتم على الطلاب كذلك أن يتسموا بالوقار والهـدوء حفـاظا على حرمة البيت وجـلاله ٠

الصالونات الأدبيـة :

يبدو لى أن الصالونات التى ظهرت ساذجة فى العصر الأموى ، وانتشرت رائعة غنية فى العصر العباسى ، ليست الا تطورا لمجالس الخلفاء الراشدين ، فالخليفة فى الاسلام ينظم أعمال الدنيا ويفتى فى شئون الدين ، ومن أجل هذا كان من أهم شروطه العلم المؤدى الى الاجتهاد (٣) ٠

وعلى ذلك كان الخلفاء الراشدون ــ وهم الذين اختيروا اختيارا شرعيا ــ يجلسون الى الناس بالمسجد أو خارجـه ليفتوهم فيما يعن لهم من مشـكلات ، فاذا لم يستطع الخليفة أن يهتدى بنفسه الى الحل استدعى الصحابة ليشاورهم فى الأمر ، وليستعين بهم وبآرائهم للحصول على جواب سديد (٤) ٠

وهكذا تلتقى مجالس الخلفاء الراشدين مع الصالونات الأدبية فى أن كلا النوعين خدم التطور الثقافى وعمل على نشر المعرفة ، فى ظل الخليفة وحضرته وفيما عدا ذلك تظهر فوارق شاسعة بين تلك المجالس وهذه الصالونات ، ففى المجالس كان لكل واحد الحرية الكاملة فى أن ينضم الى المجلس أو يدعه وقتما

(١) الخطط ٢ ٠ ٤٣١ ٠

(٢) العبدرى ٢ : ٩٧ ــ ٩٨ ٠

(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٥ ، الفخرى ٢٠ ــ ٢١ ٠

(٤) انظر « السياسة والاقتصاد فى التفكير الاسلامى » للمؤلف ٠

يشاء نبعا لرغبته ، وكان الخليفة ينادى باسمه الخالص أو بعبارة « ياخليفة رسول الله » التى استبدل بها فيما بعد عبارة « يا أمير المؤمنين » وكان الحشد يجلس على سجادة متواضعة ، أو على حصير ، وأحيانا على الأرض الجرداء (١) ٠

أما الصالونات الادبية فقد وضحت فيها التقاليد والحضارات الأجنبية التى اقتبسها الخلفاء العرب من الممالك العظيمة التى خضعت لسلطانهم ، فأصبح الصالون يؤنث أثاثا رائعا ، تحدث عنه ابن عبد ربه (٢) ، والمقرى (٣) ، والمقريزى (٤) ٠ ولم يكن الصالون يستقبل كل الراغبين ، وانما كان يسمح لطبقة معينة من الناس بالدخول (٥) ، ولم يكن الحاضرون أحرارا فى اختيار الموعد الذى يحضرون فيه أو ينصرفون عنده ، وانما كانوا يحضرون فى موعد محدد ، وينصرفون عند اشارة خاصة يشير بها الخليفة ، وقد اتخذ كل خليفة اشارة عرف بها ، فكان معاوية اذا قال « ذهب الليل » قام سماره ومن حضره ، وكان عبد الملك اذا ألقى المخصرة قام من حضره ، وكان الوليد اذا قال «استودعكم الله » قام من حضره ، وكان الهادى اذا قال « سلام عليكم » قام من حضره ، وكان الرشيد اذا قال « سبحانك اللهم وبحمدك » قام سماره ، وكان المعتصم اذا نظر الى صاحب النعل قام من حضره ، وكان الواثق اذا مس عارضيه وتثاءب قام من حضره (٦) ٠ وكان الخليفة ولا أحد سواه يفتتح النقاش فى الصالونات(٧) ويروى ابن خلكان (٨) أن أحمد بن أبى داود كان أول من افتتح الكلام مع الخلفاء ، وكان لا يبدؤهم أحد حتى يبدأوه ، وأخيرا فان الموضوعات التى تعرض للبحث والنقاش والمناظرة فى الصالونات الأدبية كانت أوسع وأعمق من تلك التى كانت تعرض فى مجالس الخلفاء الراشدين ٠

وللصالونات الأدبية آداب خاصة ، وتقاليد معينة ، يجب أن يرعاها أولئك الذين كان يسمح لهم بحضورها ، وقد سجلها مفصلة الصابى فى كتاب « رسوم دار الخلافة » (مخطوط) وكشاجم فى كتابه « أدب النديم » ونحن نقتبس منهما طرفا يتحتم ايراده فى هذا المقام :

---

(١) انظر التمدن الاسلامى ٥ : ١٣١ ٠
(٢) العقد الفريد ٤ : ١٠١ ــ ١٠٨ ٠
(٣) نفح الطيب ٢ : ١١٣٨ ٠
(٤) الخطط ١ . ٣٨٥ ــ ٣٨٦ ٠
(٥) التاج للجاحظ ص ٢١ ٠
(٦) التاج ١١٩ . ١٢٠ ٠
(٧) التاج ٤٩ ــ ٥٠ ٠
(٨) الوفيات ١ . ٢١ ٠

« فالداخل الى حضرة الخليفة ، أو الى مجلس سمره ، يجب أن يكون نظيفا فى بزته وهيئته ، وقورا فى خطوه ومشيته ، متبخرا بالبخور الذى تفوح روائحه ·· وأن يتجنب منه ما يعلم أن السلطان يكرهه (١) · فاذا دخل الداخل الى حضرة الخليفة قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ·· وربما تقدم الداخل اذا كان وزيرا أو كبيرا فأعطاه الخليفة يده مغشاة بكمه اكراما له بتقبيلها ، وأما ولاة العهود والأهل من بنى هاشم والقضاة والفقهاء فلا يقبلون يد الخليفة ويقتصرون على السلام (٢) ·

« ويأخذ الداخل مكانه المناسب لترتيبه من غير أن يتجاوزه الا استجابة لدعاء الخليفة ، وعلى الجالس أن يقلل الالتفات الى جانبيه وورائه ، والتحريك ليده أو شىء من أعضائه ، وأن يغض طرفه عن كل مرئى الا شخص الخليفة وحده والا يسار أحدا فى مجلسه ولايشير اليه ، ولايقرأ رقعة ولا كتابا بين يدى الخليفة الا ما احتاج الخليفة الى قراءته وأذن له فيه ، ولا يخاطب من يخاطبه فى تعرف أمر منه أو اقامة حجة عليه الا بأخف الألفاظ وأشد الاستيفاء ، وأن يمتنع من الضحك وان جرى ما يوجبه ·· وليعلم أن أجل ما يكون الانسان فى عين صاحبه اذا كان شخصا صامتا وجسما صلدا ، لا يخرج منه شىء كالبصاق والمخاط ، ولايدخل اليه شىء كالطعام والشراب ، على أن الثانية تجوز مع الاخوان والجلساء ، وتحرم من الرؤساء ، وأما الأول فتقبح مع الجميع (٣) ·

« وليس لحاضر مجلس الخليفة أن يذكر شيئا الا ما يسأل عنه ، أو يورد قولا اختيارا أو مطالعة الا ما استأذن فيه ، وسبيله أن يخفض صوته فى حديثه ومحاورته ، ولا يرفعه الا بقدر السماع الذى لايحتاج معه الى استفهامه واستعادته (٤) وأن يتجنب ايراد حكاية تستمحل أو لفظ يسترذل ، وليصغ الجالس الى الخليفة اذا تحدث حتى يفهم قوله دون أن يستعيده ، فاستعادة الخليفة ليست من الآداب اللائقة (٥) ·

ويوصى كشاجم (٦) الجليس أن يتعلم حسن الاستماع كما يتعلم حسن الكلام ، وحسن الاستماع امهال المتحدث حتى ينقضى حديثه ، والاقبال عليه بالوجه والنظر ، والوعى لما يقول ، فلا يشغل السامع طرفه عن المتحدث بنظر ،

---

(١) الصابى ٤٦ ، ٤٧ ·
(٢) ملخص من صفحتى ٤٥ ، ٤٦ من رسوم دار الخلافة ·
(٣) رسوم دار الخلافة ملخص من صفحة ٥٠ ــ ٥١ ــ ٥٢ ·
(٤) المرجع السابق ص ٤٩ ·
(٥) المرجع السابق ص ٥٣ ·
(٦) أدب النديم ٣٢ ــ ٣٥ ·

ولا أطرافه بعمل ، ولا قلبه بفكر ، ولا يسابقه الى حديث يبدأ به ، لمعـــرفة السامع بذلك الحديث بل يريه من الارتياح له ، والتعجب منه ، ما يوهمه أنه لم يخطر بباله ، ولا وقر في سمعه • ويضيف كشاجم(١) قوله . ومن أدب الحديث ألا يقتضب اقتضابا • ولايهجم عليه ، وأن يتوصل الى اجتراره بما يشاكله . ويسبب له ما يحسن أن يجرى معه فى غرضه •• وأحلى للحديث وأحسن لموقعه أن يتنكب منه الطوال ، ذوات المعانى القلقة والألفاظ الوحشية ، فانهم لم يزالوا يمدحون الأحاديث بالقصر قال عبد الله بن المعتز :

بين أقداحهـم حديث قصـير ... هو ســحر وما سواه كلام

وقال آخـــر :

اذا هن حدثن الحديث قضبنه ... ومنيتنا أن الحـديث يعاد

ومن أدب الحديث الا يكثر المتحدث التبسم والقهقهة ، قال نجاح بن سلمة للمتوكل لما دعاه الى منادمته : فى خصال لاتصلح معها منادمة الخلفاء ، قال : وما هى ؟ قال : سلس البول ، وابتسم اذا حدثت ، ولا أقدر من الشرب على أكثر من رطلين • فقال له : من حق صدقك أن نسامحك فيها (٢) •

وكان الخلفاء يعدون أنفسهم حماة للعلم ، ويرون أن قصورهم يجب أن نكون مركزا تشع منه الثقافة والعرفان ، ومثابة يلتقى فيها العلماء والأدباء •

وقد بدأ نشاط الصالونات الادبية مع قيام الدولة الأموية ولكن صالونات الأمويين كانت ســاذجة باهتـــة فلما قامت الدولة العباسية واستقرت بدت الصالونات الأدبية بمعناها الصحيح تظهر فى العالم الاسلامى ، واتخذت هذه الصالونات أهميتها العلمية ، لتناسب ذلك العصر الذى برزت فيه الحضـــارة الأجنبية ، وبخاصة مدنية الفرس ، وأصبحت هذه الصالونات تعقد فى أوقات منتظمة وشملت مع قصور الخلفاء قصور الأمراء والعظماء ، واتخذ لها الأثاث الفاخر والرياش لتناسب السعة والرفاهية اللتين نعمت بهما الدولة فى ذلك الحين ، ثم تنوعت الصـــالونات فأصبحت للآداب أو العلوم أو الفنون (ومنها الغناء والموسيقى) لتناسب الحياة الثقافية المتنوعة الأطراف آنذاك ، ولكن مجالس العلم والأدب ظلت أرفع هذه المجالس قدرا ، وأعظمها قيمة ، يدل على ذلك ما ورد فى الأغانى (٣) أن اسحاق الموصلى سأل المأمون أن يكون دخوله

---

(١) أدب النديم ٣٣ ـ ٣٤ •

(٢) كشاجم : أدب النديم ص ٢٥ •

(٣) ج ٦ ص ٦٠ •

اليه مع أهل العلم والأدب والرواة لا مع المغنين ، فاذا أراده الخليفة للغناء غناه • فأجابه الى ذلك ، ثم سأله بعد حين أن يأذن له فى الدخول مع الفقهاء ، فأذن له •

وقد بدأ النشاط الواسع يظهر فى عهد الرشـــيد (١٧٠ – ١٩٣ هـ) اذ كان الخليفة نفسه فى درجة عالية من الثقافة والمعرفة ، ثم كانت الدولة قد وصلت الى حياة الاستقرار بعد أن اجتازت مرحلة الخطورة التى تواجه الدول عند قيامها ، ففى مجلس الرشيد كانت تعقد مناظرات بين الشعراء ، ومناقشات بين الفقهاء ومساجلات بين أهل الفنون والأدباء •

وكانت هالة الرشيد فى بغداد تتكون من أسماء لامعة ، جمعها الرشيد حوله ممن لهم باع طويل فى ناحية من نواحى الثقافة . ومن هؤلاء ، من الشعراء: أبو نواس ، وأبو العتاهية ، ودعبل ، ومسلم بن الوليد ، والعباس بن الأحنف ، ومن الموسيقيين : ابراهيم الموصلى ، وابنه اسحاق ، ومن اللغويين : أبو عبيدة ، والأصمعى ، والكسائى ، ثم ابن السمان الواعظ ، والواقدى المؤرخ ، وكثير غير هؤلاء (١) •

ومن أهم المناظرات التى حدثت فى مجلس الرشيد تلك المناظرة اللغوية الشهيرة التى حدثت بين سيبويه والكسائى والتى زعم الكسائى فيها أن العرب تقول : كنت أظن الزنبور أشد لسعا من النحلة فاذا هو اياها ، فقال سيبويه : بل الصحيح فاذا هو هى ، فتشاجرا طويلا واتفقا على مراجعـــة عربى خالص لايشوب كلامه شىء من كلام أهل الحضر • وكان الامين شديد العناية بالكسائى لكونه معلمه ، فاستدعى عربيا وسأله ، فقال كما قال سيبويه • فقال له : نريد أن تقول كما قال الكسائى • فقال : ان لسانى لايطاوعنى على ذلك ، فانه ما يسبق الا الى الصواب ، فقرروا معه أن شخصا يقول : قال سيبويه كذا وقال الكسائى كذا فالصواب مع من فيهما ؟ فيقول العربى : مع الكســـائى • فقـــال العربى « هذا يمكن » ثم عقد لهما المجلس ، واجتمع أئمة هذا الشأن ، وحضر العربى وقيل له ذلك ، فقال : الصواب مع الكسائى وهو كلام العرب ، فعلم سيبويه أنهم تحاملوا عليه وتعصبوا للكسائى فخرج من بغداد (٢) •

أما عهد المأمون فكان كما يصفه Hughes (٣) أزهـــر فترة فى تاريخ النهضة بالعالم الاسلامى ، اذ كان الخليفة نفســه عالما من أساطين العلماء ،

---

(١) Nicholson : A Literary History of the Arabs p. 261.

(٢) ابن خلكان ١ : ٥٤٥ ، ومجالس مخطوط ٢ ب ، ٣ أ •

(٣) Dictionary of Islam pp. 295-296.

واختار أصحابه ورجال دولته من الصفوة الأفذاذ في الشرق والغرب ، هذا الى جانب الأساتذة والمستشارين والمترجمين والمفكرين الذين حلى بهم بلاطه وزين ملكه • ويضيف سيد أمير على (١) : أن بلاط المأمون كان يموج بجمهره عظيمة من رجال العلم والأدب ، والشعراء والأطباء والفلاسفة ، الذين استدعاهم المأمون من جهات متعددة من العالم المتمدين ، وشملهم جميعا بعنايته ، مهما اختلفت مشاربهم أو جنسياتهم •

وكثيرا ما أخذ المأمون نفسه دورا رئيسيا في المناظرات التي كانت تدور في مجلسه ، فقد روى أنه قال مرة لمن حضره من جلسائه : أنشدوني بيتا لملك ، يدل البيت وان لم يعرف قائله أنه شعر ملك ، **فأنشده بعضهم قول امرئ القيس :**

أمن أجل أعرابية حل أهلها جنوب الملا عيناك تبتدران(٢) ؟

قال : وما في هذا مما يدل على الملك ؟ قد يجوز أن هذا سوقة من أهل الحضر ، فكأنه يؤنب نفسه على التعلق بأعرابية : **ثم أجاب المأمون عن السؤال بقوله : الشعر الذى يدل على أن قائله ملك قول الوليد :**

لى المحض من ودهم واليهم نائلى

فهذا قول من يقدر بالملك على المنح الغامر ، ولا يطلب من الممنوح الا الولاء ومحض الود (٣) •

وفى الممالك المستقلة أو شبه المستقلة التى انقسم لها العالم الاسلامى ، قامت أسر حاكمة ، وكانت هذه ينافس بعضها بعضا فى حماية العلم والمتعلمين ، فأصبحت القصور الجديدة فى العواصم المتعددة مراكز ثقافية خصبة ، وكانت تلك القصور وما فيها من مجالس فى ذلك العهد تقوم مقام الجامعات اليوم •

ولا يتسع المقام هنا بطبيعة الحال أن نلم بهذه العواصم جميعا ، وأن نتتبع كل قصر من هذه القصور لنرى ما أسداه للعلم والتعليم من فضل ، وعلى هذا سنعطى نماذج قصيرة لهذا الموضوع عن مصر ، يقول ابن زولاق (٤) •

« فى عهد الطولونيين والاخشيديين لم تكن هناك مدارس ، فكانت الدروس

---

(١) A Short History of the Saracens p. 278.

(٢) الملا : موضع • Dictionary of Islam pp. 295-296.

(٣) الأغانى ج ٧ ص ١١٥ طبعة الساسى •

(٤) أخبار سيبويه المصرى ص ١٩ •

تلقى فى قصور الأمراء والوزراء وفى منازل العلماء » . وفى بلاط الاخشيد كانت تلقى أبحاث تاريخية كل مساء ، وقد تربى كافور فى هذا البلاط وترقى الى أن جعله الاخشيد « أتابك » ولديه ومعلمهما (١) فلما تسلم كافور الأمر أدنى الشعراء وأجازهم ، وكانت تقرأ عنده فى كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية (٢) ، وأصبح كافور حاميا للعلم والعلماء ، **وامتاز صالونه بأن ازدهى بوجود المتنبى بين جماعته ينشد من شعره الخالد :**

ولكن بالفسطاط بحرا أرزنه ... حياتى، ونصحى، والهوى، والقوافيا
وجردا مددنا بين آذانها القنا ... فبتن خفافا يتبعن العواليا
قواصد كافور . نوارك غيره ... ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا انسان عين زمانه ... وخلت بياضا خلفها ومآقيا
نجور عليها المحسنين الى الذى ... نرى عندهم احسانه والأياديا
فتى ماسرينا فى ظهور جدودنا ... الى عصره الا نرجى التلاقيا (٣)

وعلى كل حال فان مجالس الطولونيين والاخشيديين لتذبل وتتضاءل بالقياس الى صالونات الفاطميين الباهرة ، فلقد سار الفاطميون ، كما يقول سيد أمير على (٤) على أن يعقدوا مجالس علمية صاخبة من حين الى آخر ، وقوام هذه المجالس أساتذة دار الحكمة الذين كانوا ينقسمون الى جماعات تبعا لمواد دراستهم وتخصصهم ، فكان يجتمع هنا أساتذة المنطق والجدل ، وهناك الفقهاء والمحدثون ، وفى مكان ثالث علماء الرياضة ، ويشغل الأطباء مكانا رابعا ، وهكذا ، كل واحد من هؤلاء يرتدى الخلعة الجامعية التي تشبه (الروب) الذى يرتديه حملة الدرجات العلمية العليا فى العهد الحاضر .

ورتب يعقوب بن كلس مجلسا فى داره فى يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، يجتمع فيه العلماء والفقهاء والقضاة ، وتجرى بينهم المناظرات وتصرف لهم المنح والأرزاق (٥) .

البادية :

تركزت ثقافة العرب فى العهد الجاهلى فى الأدب العربى من شعر ونثر وخطابة ، فكان الرجل يعد مثقفا ، ما كان شاعرا جزلا ، أو ناثرا حكيما أو خطيبا

---

(١) ابن خلكان ١ : ٦١٤ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٤ : ٦ .
(٣) ديوان المتنبى شرح العكبرى ٤ : ٢٨٥ — ٢٨٨ .
(٤) A. Short History of the Saracens p. 614.
(٥) المقريزى الخطط ٢ . ٣٤١ .

مفوها ، وكانت عواطف الجماهير تتأثر بالأدب تأثرا عميقا ، فهى تنقاد للحرب بقصيدة حماسية ، أو خطبة ملتهبة ، كما تجنح الى السلم بأبيات للموادعة ، وعبارات للصفح والاخاء • واعجاب العرب فى العهد الجاهلى بلغتهم ، وتقديرهم لها ، استمر بل زاد بظهور الاسلام ، اذ كان الرسول نفسه عربيا بارعا فى القول ، ثم كان القرآن الكريم فى أرقى درجات البلاغة العربية •

وكانت اللغة العربية حتى عصر صدر الاسلام فصيحة سليمة ، الا أن اتصال العرب بغيرهم عن طريق التجارة سبب وجود لحن قليل بينهم ، وكان ارتكاب ذلك اللحن عارا لايغتفر وزلة لاتمحى ، فلقد روى أن رجلا لحن فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم فقال الرسول لاصحابه : أرشدوا أخاكم فقد ضل •

ومنذ عهد عمر زاد الاختلاط بين العرب والأعاجم ، اذ انتشر الاسلام واقتحم بلاد الفرس وبلاد الروم ، وكانت اللغة العربية تسير مع جيوش المسلمين ، فكان انتصار الجيش يتبعه انتصار اللغة ، ثم أصبحت عواصم الامبراطورية الاسلامية (المدينة فدمشق ثم بغداد) مدنا عامة يهرع الناس لها من كل فج ، مهما اختلفت لغاتهم وجنسياتهم ، وحفلت مدن أخرى كالكوفة والبصرة بعدد كبير من الأجانب ، وبخاصة جماهير الايرانيين الذين كانوا أسرى حرب ، ثم اعتنقوا الاسلام (١) ، وأقبل العرب على التزوج من الأجنبيات اقبالا ملحوظا ، وفى الأمكنة المقدسة كان يجتمع فيها من اعتنقوا الاسلام من العرب وغيرهم فى موسم الحج ، حيث يقضون بضعة أسابيع •

وكانت اللغة العربية هى لغة التفاهم بطبيعة الحال سواء فى البيوت والقرى ، أو فى المدن والعواصم ، أو فى موسم الحج • ولكن غير العرب لم يستطيعوا أن يسيطروا على القوانين المعقدة للغة العربية ، ولم يستطيعوا أن ينطقوا بها معربة اعرابا صحيحا ، ففسد اللسان العربى وظهرت لغة يسميها الجاحظ لغة المولدين أو البلديين (٢) • ولم يقف الخطأ عند غير العرب ، بل تعداهم الى العرب أنفسهم ، الذين ظهر هذا اللحن بينهم وفشا •

وكان اللحن ـ حتى بعد انتشاره ـ ينظر اليه على أنه شىء مستهجن ، يدعو الى النفور والامتهان ، روى أن كاتبا لابى موسى الاشعرى كتب الى عمر : « من أبو موسى » • فكتب عمر الى أبى موسى : عزمت عليك لما ضربت كاتبك

(١) Wellhausen : Arab Kingdom and its Fall p. 71.

(٢) البيان والتبين ١ : ٦٨ •

سوطا (١) . ودخل أعرابى السوق مرة فسمع الناس يلحنون فقال : سبحان الله ! يلحنون ويربحون ؟ ونحن لا نلحن ولا نربح (٢) . وهناك حكايات كثيرة من هذا اللون نمسك عن ذكرها تحاشيا للاستطراد (٣) . ولكن الموقف زاد خطورة عندما تعدى اللحن عامة النـــاس الى خاصتهم ، فوقـــع فيه الوليـــد ابن عبد الملك ، والحجاج بن يوسف وأبو حنيفة النعمان ، وبشر المريسى ، وشبيب بن شيبة ، وغيرهم من الخلفاء والعظماء (٤) . ثم كان اللحن أكثر خطرا وأدعى لاشمئزاز النفس عندما وقع فى القرآن فغير المعنى تغييرا يؤدى بصاحبه الى الكفر لو كان مقصودا ، كاللحن الذى وقع فى الآية الكريمة « هو الله الخالق البارىء المصور » (٥) اذ قرأها قارىء المصور بفتح الواو ، وكالاعرابى الذى أقرأه رجل سورة براءة ولحن فى تعليمه الآية الكريمة « ان الله برىء من المشركين ورسوله » (٦) فأقرأها له « ان الله برىء من المشركين ورسوله » بكسر اللام فقال الاعرابى : لا يمكن أن يبرأ الله من رسوله (٧) .

ويقول ابن خلدون (٨) . متحدثا عن تاريخ اللحن فى اللغة العربية ما يلى : واللغة ملكة فى ألسنة القوم ، يأخذها الآخر من الأول ، كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا ، فلما جاء الاسلام ، وفارق العرب الحجاز لطلب الملك الذى كان فى أيدى الأمم والدول ، وخالطوا العجم ، تغيرت تلك الملكة بما ألقى اليهـــا السمع من المخالفات التى للمتعربين ، والسمع أبو الملكات اللسانية ، ففسدت بما ألقى ليها مما يغايرها لجنوحها اليه باعتبار السمع .

وبينما كان اللحن يفشو فى الحضر حيث اختلط العرب بالاعاجم ، بقيت اللغة سليمة تماما فى الصحراء التى لم تجذب اليهـــا الاعاجم ولا من فســدت لغتهم ، وقد سبق ايراد قصـــة البدوى الذى جىء به ليكون حكما فاصـــلا بين سيبويه والكسائى فى الخلاف اللغوى الذى نجم بين الاثنين حول صحة النطق بجملة معينة ، وقد أغرى الأمين البــدوى أن ينتصر للكسائى ، وقبل البــدوى

---

(١) نفس المرجع ج ٢ ص ٤ .

(٢) ابن قتيبه . عيون الأخبار ٢ : ١٥٩ ، ابن عبد البر : أدب المجالسة مخطوط طورقة ٥٥

(٣) انظر البيان ٢ : ٥ ، ٦ وابن قتيبة عيون الأخبـار ٢ . ١٥٨ وأبن عبد البر : أدب المجالسة ٥٥ أ العقد الفريد ١ : ١٨ .

(٤) العقد الفريد ١ : ١٨ ــ ٢٠ ، ابن قتيبة ١ : ١٥٩ البيان ٢ : ٣ ــ ٥ .

(٥) سورة الحشر الآية ٢٤ .

(٦) سورة التوبة الآية الثالثة .

(٧) طبقات الأدباء ص ٨ .

(٨) المقدمة ص ٤٠٣ .

فكرة التحيز . ولكنه قال : ان لسانى لا يطاوعنى على ذلك . فانه لا يسبق الا للصواب (١) . وعلى هذا أصبح البدو هم الذين نؤخذ عنهم اللغة الصحيحة ، وانتهز البدو هذه الفرصة فوفدوا على القرى والمدن وجلسوا يعلمون الناس . ويعطينا ابن النديم فكرة واضحة عن البدو الذين جاءوا الحضر ، واتخذوا التعليم مهنة لهم ، ومن هؤلاء أبو لبيد الرياحى (٢) وأبو جاموس ثور بن يزيد الذى تعلم الفصاحة منه عبد الله بن المقفع (٣) ، وأبو العميثل عبد الله خليد(٤) وعبد الله بن عمرو بن أبى صبح (٥) .

وبينما قنع بعض الناس بالجلوس الى البدو فى القــرى والمدن ليتعلموا منهم ، نجد آخرين لا يكتفون بذلك وانما يهجرون الحضر ويضربون فى البادية ليتعلموا اللغة فى منبعها الأصيل ، وليتحاشوا سماع لغة المولدين والبلديين ، وعلى هذا نجد البادية فى القرنين الاولين للهجرة تقوم بدور المدرسة فى الوقت الحاضر (٦) ويقول Hitti فى ذلك (٧) : ان صحراء سورية كانت مدرسة الأمراء الأمويين ، فاليها أوفد هؤلاء ليتعلموا اللغة الفصيحة النقية ، وليتذوقوا فنــون الشعر والأدب ، وقد أرسل معاوية اليها ابنه وولى عهــده يزيد . ولما كان الوليد بن عبد الملك لم يرسل للبادية ايثارا لراحته وهناءة عيشه فانه لم يتقن اللغة وقواعدها ، وكان كثير الأخطاء فيها (٨) . ومن أجــل هــذا أثر عن أبيه أنه كان يقول : أضربنا حبنا للوليد فلم نرسله للبادية (٩) . ولم تقتصر هذه السنة على الأمراء الأمويين فان المعتصم بن هارون الرشيد أرسل أيضا الى البادية للغرض نفسه (١٠) .

ولم تكن الصــحراء مدرســة الأمراء فحسب وانما قصــدها عدد كبير من العلماء الأعلام نذكر منهم :

---

(١) ابن خلكان ١ : ٥٤٩ .

(٢) الفهرست ص ٦٦ .

(٣) الفهرست ص ٦٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ٧٢ .

(٥) المصدر نفسه ص ٧٣ .

(٦) Encyclopaedia of Education 3 : 1112.

(٧) History of the Arabs p. 253.

(٨) العقد الفريد ٢ : ١٨ .

(٩) العقد الفريد ٢ : ١٩ .

(١٠) العقد الفريد ١ : ٣٦٥ .

ـ الخليل بن أحمد (٦٠ هـ) الذى سأله الكسائى مرة : من أين علمك هذا ؟ فقال : من بوادى الحجاز ونجد وتهامة (١) ٠

ـ بشار بن برد (١٦٧ هـ) وقد قيل له مرة : « ليس لأحد من شعراء العرب شعر الا وقد قال فيه شيئا استنكرته العرب وشك فيه ، وأنه ليس فى شعرك ما يشك فيه » قال : « ومن أين يأتينى الخطأ ؟ ولدت ههنا ، ونشأت فى حجور ثمانين شيخا من فصحاء بنى عقيل ، ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وان دخلت الى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت ، الى أن أدركت « فمن أين يأتينى الخطأ ؟ » ٠

ـ الكسائى (١٨٢ هـ) خرج الى البادية وأنفد خمس عشرة قنينة حبرا فى الكتابة عن العرب سوى ما حفظه ٠

ـ الشافعى (٢٠٤ هـ) وهو يقول فى وصف حياته الأولى : « ٠٠٠ ثم انى خرجت من مكة فلزمت هذيلا فى البادية أتعلم كلامها وآخذ طبعها ، وكانت أفصح العرب ٠ فبقيت فيهم سبع عشرة سنة ، أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم ، فلما رجعت الى مكة جعلت أنشد الأشعار ، وأذكر الآداب والاخبار ، وأيـــام العرب ٠

ابتكارات المسلمين فى مجال التربية والتعليم

لا يتسع هذا البحث الموجز للحديث المفصـــل عن ابتكارات المسلمين فى مجال التربية والتعليم ، فان هذه الابتكارات كثيرة رائعة ، وقد ضمنتها كتابى « التربية الاسلامية : نظمها ـ فلسفتها ـ تاريخها » **وحسبى أن أذكر فيما يلى بعض عناوين البحوث التى تضمنها هذا الكتاب :**

- عناية المسلمين بتلقى العلم من معلم لا من الصحف والكتب
- المسلمون الأول أدركوا ضرورة فن التربية للمدرس
- تعاون البيت والمدرسة فى تربية التلميذ
- أخلاق المدرسين وواجباتهم
- الاجازات العلميـــة
- العقوبـــات

(١) ابن الانبارى ص ٨٣ ٠

- الجوائز والمكافآت
- ملابس المدرسين
- نقابة المعلمين
- تكافؤ الفرص فى التعليم عند المدرسين
- توجيه التلاميذ حسب مواهبهم
- سن التعلم
- العقل والجسم
- أخلاق التلاميذ وواجباتهم
- صلة التليمذ بالتلميذ
- جهود التلاميذ لتحصيل العلم
- الرحلات لطلب العلم
- تعليم المـرأة
- الاوقاف على التعليم
- حلقة التعليـــم
- مراحل التعليم
- الداخلية فى المدارس

وبعد ، هذه جولة قصيرة فى رحاب التربيه والتعليم كما أرادهـا الفكر الاسلامى ، وعندما جعل الاسلام العلم للجميع فتح باب نور ومعرفة للبشرية ، ووضع الجذور لأى تطور فكرى يحققه المجتمع البشرى على مر العصور ٠

وسائل التسلية عند المسلمين

للدكتور   أحمد عبد الرازق أحمد

لكل شعب من الشعوب وسائل التسلية الخاصة به ، التى يقبل عليها فى أوقات الفراغ ، والتى كثيرا ما تتلاءم مع عادات أهله وتتشاكل مع أخلاق أمته · ورغم اختلاف هذه الوسائل من حيث الشكل والمضمون وحسب الزمان والمكان، الا أنها كانت تتفق عادة من حيث الغرض منها ألا وهو تريض العقول والأبدان · وعلى ذلك فلم يكن حظ العرب من وسائل التسلية أقل من غيرهم من الشعوب اذ تفننوا فى ايجاد الوسائل التى شغلوا بها أوقات فراغهم · حقيقة أن بعض هذه الوسائل كان معروفا لديهم فى الجاهلية كمجالس الشعر والأدب (١) ، ومجالس الشراب والطرب (٢) ، والصيد والسباق (٣) · بيد أنهم أخذوا عن الشعوب التى احتكوا بها بعد الفتح الاسلامى العديد من وسائل التسلية الأخرى كاللعب بالكرة والصولجان ، والرمى بالبندق واللعب بالنرد والشطرنج ونحوها (٤) ·

والدارس للتاريخ الاسلامى على مر العصور يستطيع أن يميز بسهولة بين أنواع متعددة من المجالس أهمها مجالس الأدب والشعر ، ومجالس الوعظ والقصص ، ومجالس الشراب والطرب ·

أما عن مجالس الأدب والشعر فقد أقبل الخلفاء عليها لترويح النفس من مشاغل الدولة وخصصوا لها المجالس للاطلاع على آداب العرب وأخبارهم وضموا اليها فحول شعراء العصر ولم تكن هذه المجالس لتخلو من النوادر والمداعبات من قبل الخلفاء فى الأدب والأدباء كما يبدو من المجلس الذى جمع بين الخليفة معاوية بن أبى سفيان وبين ليلى الأخيلية ، وغيره من المجالس حتى يزول ما فى

---

(١) جرجى زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامى ، القاهرة ١٩٠٤ ، ج ٣ ، ص ٣٢ ·

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، القاهرة ١٣٠٢ هـ ، ج ٣ ، ص ١٨٦ ، جـ ٤ ، ص ١٠٤ ·

(٣) جرجى زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامى ، جـ ٥ ، ص ١٥٦ ·

(٤) المسعودى ، مروج الذهب ، بيروت ١٩٧٣ ، جـ ١ ، ص ٩٥ ، ٤٢٦ ·

نفس الخليفة وينشرح صدره (١) . ورغم منـاداة بعض الكتاب بتخصيص أوقات معينة من النهار للهو وقضاء أوقات الفراغ (٢) ، فقد كانت هذه المجالس تعقد فى بعض الأحيان فى أواسط الليل والناس نيام (٣) . وكان بعض الخلفاء والأمراء يقيمون أناسا يتلون عليهم أعمال القواد والملوك من الروم والفرس وكذا أخبار الدول وحوادث الشجاعة ونحوها بهدف الاستفادة منها والتوسع بأسباب الدهاء وأفانين السياسة (٤) . وتشير المصادر الى الخلفاء الذين جلسوا الى الشعراء وخصصوا لهم المجالس من أمثال يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان والوليد بن يزيد ، كما تتضمن أيضا أسماء البعض الآخر من بين هؤلاء الذين عملوا على ابعاد الشعر من مجالسهم مثل عمر بن عبد العزيز الذى يروى عنه أنه كان يكره الاستماع الى الشعراء وكذا منحهم الصلات لصلاحه وورعه ، ومثل هشام بن عبد الملك لما اشتهر به من الشح والبخل ، والوليد بن عبد الملك الذى انشغل عنهم بالفتوحات واقامة العمائر المختلفة . هذا ويجب ألا ننسى أيضا أن بعض مجالس الشراب والطرب قد صرفت بعض الخلفاء عن مجالس الشعر والأدب .

وهناك أيضا مجالس خصصت للوعظ والارشاد أقبل الناس عليهـا فى أوقات فراغهم وكانت أشبه بمدارس شعبية أخذت على عاتقها تثقيف العـامة خلال العصور الاسلامية . وقد ظلت المساجد تؤدى هذه الوظيفة حتى أنشئت المدارس خلال القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى كالنظامية فى بغداد سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٤ م (٥) ، ومدرسة أبى حنيفة سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٦ م . وكانت هذه المجالس تعج بالناس كافة دون قيد أو شرط ، وتميزت بمعالجة المسائل الدينية والدنيوية ، ومن ثم فقد كان لها أثر واضح فى حفظ بعض معالم التراث الاسلامى خاصة ما يتعلق منه بالقيم والمثل الاسلامية العليا (٦) . وكان عمل الواعظ يقتصر غالبا على تخويف الناس من عذاب الله ويحضهم على التمسك

(١) جرجى زيدان ، تاريخ التمدن ، جـ ٥ ، ص ١٣٩ ، على حسنى الخربوطلى ، الحضارة العربية الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٣٢ .

(٢) الجاحظ ، التاج فى اخلاق الملوك ، تحقيق أحمد زكى ، القاهرة ١٩١٤ ، ص ١٥١ حيث خصص طرف النهار للهو وقضاء الأشغال .

(٣) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ١٦٣ .

الذهب ، جـ ٢ ، ص ٥١ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، القاهرة ١٩٤٨ ، جـ ٢ ، ص ٢٨٠ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، القاهرة ١٣٠٢ هـ ، جـ ٦ ، ص ١١ ، المسعودى مروج

(٥) ابن الجوزى ، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، حيدر آباد ، ١٣٥٧ ــ ١٣٥٩ هـ ، جـ ٨ ، ص ٢٣٨ .

(٦) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، القاهرة ١٩٦٤ ، جـ ٤ ، ص ٦٥٣ .

بأهداب الدين ، وكان الناس بدورهم اذا ما أعجبوا بأحد الوعاظ تعصبوا له وأقبلوا على مجالسه ، بل كثيرا ما كانوا يقفون الى جانبه ضد بقية الوعاظ الذين يخالفونه الرأى فى وعظه أو تفسيره حتى ولو اقتضى الأمر الى استخدامهم للقوة (١) . ولقد ترك لنا الفنان المسلم بعض تصاوير مجالس الوعظ هذه من بينها واحدة ترجع الى حوالى سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م من مقامات الحريرى المحفوظة بالمتحف البريطانى بلندن تمثل أبا زيد يعظ فى مسجد سمرقند .

وارتبط بمجالس الوعظ هذه نوع آخر من المجالس عرف بمجالس القصص وهى حسب رواية أحد المؤرخين نوعان ، قصص العامة ، وقصص الخاصة (٢) ، وكان القاضى يجلس عادة فى الطرقات (٣) ، أو فى المقابر (٤) ، أو فى الجوامع (٥) ، أو فى الأسواق (٦) ويذكر للناس شيئا من الآيات والأحاديث وأخبار السلف (٧) ويقص عليهم الحكايات والسير كسيرتى عنترة وبيبرس اللتين تعدان الى الآن سلوى الجماهير فى بعض مقاهى الشرق الاسلامى (٨) . كما اشتهر أيضا بعض القصاص بتفسير القرآن الكريم ومن ذلك ما يرويه الجاحظ عن موسى الأسوارى الذى كان يجلس فى مجلسه المشهور ، ابان القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، ويقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، ثم يقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرها بالعربية للعرب ، ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدرى بأى اللسانين هو أبين (٩) .

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، حـ ٨ ، ص ٢٣٥ ، الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ، القاهرة ١٩٣١ ، جـ ٢ ، ص ٣٨٩ .

(٢) المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق ، جـ ٢ ، ص ٢٥٣ ، آدم متز الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، بيروت ١٩٦٧ ، جـ ٢ ص ١٠٩ .

(٣) الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ، جـ ٣ ، ص ١٢٣ ، السبكى ، معيد النعم ومبيد النقم ، لندن ١٩٠٨ ، ص ١١٣ .

(٤) ابن الجوزى ، تلبيس ابليس أو نقد العلم والعلماء ، نشر محمد منير الدمشقى ، القاهرة ، ص ١٢٢ .

(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٨ ، ص ١٠ .

(٦) الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ، جـ ٣ ، ص ١٢٣ .

(٧) السبكى ، معيد النعم ، ص ١١٣ .

(٨) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ٨ ، ص ١٦١ ، فيليب حتى ، تاريخ العرب ، بيروت ١٩٥١ ، جـ ٤ ، ص ٨١٥ .

(٩) الجاحظ ، البيان والتبيين ، القاهرة ١٣٣٢ هـ ، جـ ١ ، ص ١٩٦ ، متز ، الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ص ١٤٨ .

وعلى الرغم من أن الخليفة معاوية قد منع قصص العامة ، وسمح بقصص الخاصة حيث ولى رجلا عليه (١) ، فان قصاص العامة قد انتشروا واستمروا فى مواصلة نشاطهم على مر العصور الاسلامية وأقبل على مجالسهم الرجال والنساء على السواء (٢) ، وكانوا يقضون الأوقات الطوال فى الاستماع اليهم (٣) .

أما عن الطرق التى كانوا يلجأون اليها للاستحواذ على انتباه العوام فقد كانت كثيرة ومتنوعة منها انشادهم الأشعار الغزلية فى العشق ، أو اظهارهم التواجد والتخاشع (٤) ، عن طريق طلاء وجوههم بما يجعلها صفراء تشبها بالنساك الصائمين . أو عن طريق اتخاذ بعض الوسائل لاسالة دموعهم متى أرادوا ، ومنهم من كان يوقع نفسه من على المنابر أو يضربها برجله ، ايهاما للناس بشدة انفعاله بل عمد بعضهم أيضا الى تسلية العامة عن طريق اختراع الأحاديث ونشرها بينهم وكذا تشويه القصص الدينية وتحويلها الى أساطير تروى أثناء هذه المجالس (٥) .

وفى الوقت الذى كانت فيه غاية العامة من حضور هذه المجالس هو قضاء أوقات الفراغ والتلذذ بسماع القصص والأساطير ، كانت غاية أغلب طبقة القصاص هى الحصول على المال . لذلك كثيرا ما تلاعبوا بعواطف الجماهير واستخفوا بهم ومن ذلك ما روى عن كلثوم بن عمرو العتابى الشاعر ، الذى عاش فى أيام الخليفة الرشيد وابنه المأمون ، فقد قيل انه كان يأكل يوما خبزا على الطريق ببغداد ، فرآه عثمان الوراق ، فقال له ويحك ! أما تستحى ! فقال له كلثوم : أرأيت لو كنا فى دار فيها بقر ، كنت تستحى وتحتشم أن تأكل ، وهى تراك فقال : لا ، قال فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر ، فقام فوعظ وقص حتى كثر الزحام عليه ، ثم قال للناس : روى لنا غير واحد ان من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار ، فكأنما كان ذلك اشارة منه للناس ، فلم يبق أحد منهم الا وأخرج لسانه يومىء به نحو أرنبة أنفه ، ليرى ان كان يبلغها أم لا (٦) .

---

(١) الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ، جـ ٢ ، ص ١٠١ ، المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٥٣ .

(٢) ابن الجوزى ، تلبيس ابليس ، ص ١٢٢ .

(٣) السيوطى ، تحذير الخواص من أكاذيب القصاص ، القاهرة ١٣٥١ هـ ، ص ٥٤ .

(٤) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، القاهرة ١٩٠٦ ، جـ ١ ، ص ٢٩٣ .

(٥) متز ، الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ١٤٩ ، تاريخ اليعقوبى ، النجف ١٣٥٨ هـ ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠ .

(٦) الاصفهانى ، الأغانى ، جـ ١٢ ، ص ٥ ، متز ، الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ١٥٠ .

والحق ان لغة القصاص السهلة كانت أشد استهواء للعامة من أسلوب العلماء الجامد ، ومن ثم كان هؤلاء القصاص خطرا على الدين والخلق بل وعلى الثقافة أيضا طالما أنهم كانوا يسلكون فى سبيل المال وجمعه شتى السبل والوسائل . وعلى ذلك فقد كان طبيعيا أن يعمد الحكام الى اتخاذ بعض الاجراءات ضدهم كما حدث فى سنة ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م عندما أمر الخليفة المعتضد بالنداء فى مدينة السلام بألا يجلس فى الطريق ولا فى المسجد قاص ولا منجم ولا عراف الا أن هذا المنع لم يستمر طويلا بدليل أننا نقرأ فى المصادر المعاصرة عن عودة الخليفة فى سنة ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م الى تجديد هذا النداء (١) . وتتحدث المصادر أيضا عن نداء ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م عندما أمر عضد الدولة البويهى بمنع القصاص من الجلوس فى الأماكن المشار اليها واعتبرهم من مثيرى الفتنة المذهبية (٢) .. كما جمع ابن الأثير بينهم وبين المشعبذين فى عبارة واحدة أثناء القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى (٣) . ومع ذلك فقد كانت طبقة القصاص أكثر تقديرا لدى العامة من العلماء أنفسهم وحسبنا دليلا عن ذلك ما رواه ابن الجوزى عن أم أبى حنيفة من أنها احتاجت مرة الى معرفة مسألة من مسائل الشريعة الاسلامية فاستفسرت ابنها فى ذلك فأجابها ، بيد أنها لم تقتنع فذهبت معه الى زرعة القاضى ، فلما أقر رأى أبى حنيفة اقتنعت الأم (٤) .

والنوع الرابع من المجالس هو مجالس الشراب والطرب التى كانت تعقد فى البساتين والمتنزهات وأبهاء القصور وتدار فيها كئوس الخمر التى حلت محل ماء الورد المذكور فى قصائد العرب (٥) رغم نهى القرآن عن تناولها (٦) ، ويفهم من المصادر أن يزيد بن معاوية كان أول من شرب المسكر من خلفاء بنى أمية (٧) ، وفى أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهى وجاهر الناس

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ٥ ، ص ١٧١ ، الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، القاهره ١٣٢٦ هـ ، ج ٣ ، ص ٢١٣١ ، ٢١٦٥ ، متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٥٠ – ١٥١ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ٧ ، ص ٨٧ ، متز الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١١١ .

(٣) ابن الأثير ، المثل السائر ، ص ٣٥ .

(٤) ابن الجوزى ، كتاب القصاص ، ص ١٢٤ .

(٥) الاصفهانى ، الأغانى ، ج ١٥ ، ص ٨ ، فليب حتى ، تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ .

(٦) من المعروف ان تحريم الخمر تم فى السنة الرابعة أو الخامسة بعد الهجرة أنظر القرآن الكريم ٢١٩/٢ ، ٤٣/٤ ، ٩٠/٥ – ٩١ ، نهاية الآرب فى فنون الأدب ، القاهرة ١٩٢٨ – ١٩٣٨ ، ج ٤ ، ص ٧٦ ، الجاحظ ، وسائل فى الشارب والمشروب ، نشر حسن السندوبى ، القاهرة ١٩٣٣ ، ص ٢٨٢ ، عبد المنعم ماجد ، العصر العباسى الأول ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٢٣٤ .

(٧) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ١٨٢ ، المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٦٧ ، النويرى ، نهاية الآرب ، ج ٤ ، ص ١٠٨ ، جورجى زيدان ، تاريخ التمدن ، ج ٥ ، ص ٣٥ .

بالشراب وكان له قرد يكنى بأبى قيس يحضر مجلس منادمته فيلاعبه حتى قيل له يزيد الخمور (١) ٠

أما عبد الملك بن مروان فكان يسكر فى كل شهر مرة حتى لا يعقل فى السماء أو فى الماء وكان يبرر تناوله للخمر قائلا : « انما أقصد فى هذا الى اشراق العقل ، وتقويه منة الحفظ ، وتصفية موضع الفكر » غير أنه كان اذا بلغ آخر هذا السكر أفرغ ما كان فى بدنه حتى لا يبقى فى أغصانه منه شيء ، فيصبح خفيف البدن ، زكى العقل والذهن ، نشيط النفس قوى المنة ، ومع هذا فقد كان يسمى بحمامة المسجد لاجتهاده فى العبادة (٢) ٠ أما ابنه الوليد فكان يشرب يوما ويدع يوما (٣) ٠ على حين خصص ابنه هشام يوم الجمعة للشراب وذلك بعد الصلاة ٠ وتتحدث المصادر أيضا عن يزيد الثانى الذى شغف باثنتين من القيان هما سلامة وحبابة التى قيل ان الأخيرة قد ماتت من حبة عنب أو رمان التهمتها أثناء مداعبته لها ، فبلغ من جزعه وحزنه عليها أنه هلك بعدها ببضعة أيام (٤) ٠ غير أن ابنه الوليد قد فاق الجميع فى الشراب والتهتك وبعث فى طلب المغنين من شتى البلدان الى دمشق (٥) رغم أنه القائل : « اياكم والغناء فانه ينقص الحياء ويزيد فى الشهوة ويهدم المروءة ويثور على الخمر ويفعل ما يفعل المسكر فان كنتم فاعلين فجنبوه النساء فان الغناء رقية الزنا » (٦) ٠ ومع ذلك فقد قيل عنه انه اتخذ بركة فى قصره كان يملؤها خمرا ثم ينزع ثيابه ويغتسل فيها ويشرب منها وكان يظل هكذا حتى يظهر النقص فى البركة (٧) ٠ كما صور لنا كتاب الأغانى مجلسا من مجالس شرابه سجله شاهد عيان ووصف فيه ما كان يمارسه هذا الخليفة من التهتك والمجون (٨) ٠

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ ٣ ، ٤٦ ، النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٤ ، ص ٩١ ، الجاحظ ، التاج ، ص ١٥١ ، فيليب حتى ، تاريخ العرب ، جـ ٢ ، ص ٢٩٤ ٠

(٢) الجاحظ ، التاج ، ص ١٥٢ ، النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٤ ، ص ٩٢ ٠

(٣) الجاحظ ، التاج ، ص ١٥٢ ، فيليب حتى ، تاريخ العرب ، جـ ٢ ، ص ٢٩٥ ٠

(٤) كتاب العيون والحدائق ، نشر دى جويه ، ليدن ١٨٦٨ ـ ١٨٧١ ، ص ٤٠ ـ ٤١ ، الاصفهانى ، الأغانى ، جـ ١٣ ، ص ١٦٥ ، النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٤ ، ص ٩٢ ٠

(٥) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ ٢ ، ص ٢٦٩ ، المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ٣ ، ٢١٣ ، الجاحظ ، التاج ، ص ١٥٢ ٠

(٦) الاصفهانى ، الأغانى ، جـ ٦ ، ص ١٣٤ ، جورجى زيدان ، تاريخ التمدن ، جـ ٥ ، ص ٣٦ ٠

(٧) النواجى ، حلبة الكميت ، القاهرة ١٢٢٩ هـ ، ص ٩٨ ٠

(٨) الاصفهانى ، الأغانى ، جـ ٢ ، ص ٧٢ ٠

والدارس للتاريخ العباسي سوف يلاحظ بوضوح مدى انتشار مجالس الشراب والطرب رغم تناقض روايات مؤرخي هذا العصر بصدد استجازة بعض الخلفاء للخمر وشربهم اياها ولقد حاول النواجي حصر أسماء كل الخلفاء والوزراء والكتاب الذين أقبلوا على احتســاء الخمر الا أنه لم يجد الى ذلك سبيلا لكثرة عددهم (١) · ومع ذلك تحدثنا المصادر بأن الخليفة المنصور كان يكره أن يوضع الشراب على مائدته ، ويجبر من يطلب شرابا على احتساء ماء دجلة (٢) · كذلك كان المهدى لا يشرب الخمر (٣) فى الوقت الذى كان يشرب فيه النبيذ من عنده من الجلساء والندماء بالطاسة (٤) · أما الهادى فقد أشارت بعض الروايات الى تناوله الخمر والى عينيه الحمراوين من كثرة الشراب والسهر طوال الليل (٥) · ويفهم من المصــادر أيضــا أن الرشيد كان يتناول نبيـذ التمر (٦) وان كان ابن خلدون قد نفى عنه هذه التهمة وأشار الى أن اجتنابه للخمر كان معروفا وشائعا عند بطانته وأهل مائدته (٧) · وتتحدث المصادر أيضا عن الخليفة القاهر الذى أمر فى سنة ٣٢١هـ / ٩٣٣م بتحريم الغناء والخمر رغم انه كان يشرب المطبوخ ولا يكاد يفيق من شدة السكر (٨) · كما تروى أن الخليفة المستكفى كان قد ترك شرب النبيذ فلما أفضت اليه الخلافة عام ٣٣٣هـ / ٩٤٤م دعابه من وقته وعاد الى شربه من جديد (٩) ·

كذلك كانت مجالس الشراب والطرب من الأمور المألوفة فى العصر الفاطمى حيث أقبل عليها الخلفاء ووجوه القوم · وكان معظم المغنيات من الجوارى ، فيحكى انه اشتريت من بغداد جارية رائعة الحسن تجيد الغناء للمعز لدين الله فغنت له ولجلسائه حتى أطربته ، ولم يزل غناؤها يزيده طربا ، حتى أفرط جدا وقال لها تمنى ما شئت ، فتمنت ان تغنى ما غنت ببغداد ، فلم يجد الخليفة بدا من

---

(١) النواجى ، حلبة الكميت ، ص ٢٦ ·

(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك جـ ٩ ، ص ٣٠٩ ، عبد المنعم ماجد ، العصر العباسى ، ص ٢٣٥ ·

(٣) ابن طباطبا ، الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ١٨٥ ، المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ ، الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ٦ ·

(٤) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٤٢٥ ، عبد المنعم ماجد ، العصر العباسى ، ص ٢٣٥ ·

(٥) الجاحظ ، التاج ، ص ١٥٣ ، الطبرى ، تاريخ الأمم ، جـ ١٠ ، ص ٣٩ ، ٤٤ ·

(٦) ابن خلدون ، المقدمة ، القاهرة ، ١٣٢٢ هـ ، ص ١٤ ، الجاحظ ، التاج ، ص ١٥٣ ·

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٨ ·

(٨) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ليدن ١٨٦٩ ، جـ ٤ ، ص ٤٢٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٢ ، ص ٢٥٤ ·

(٩) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ٨ ، ص ٣٩٠ ·

الوفاء لها وأرسلها الى بغداد (١) • ويروى أيضا أن الخليفة الحاكم بأمر الله لما عن له أن يعيد العمل بأحكام الشريعة الاسلامية نهى الناس عن شرب المسكر وتشدد فى ذلك حتى استطب فى احدى المرات بها يعقوب اسحق بن ابراهيم ابن اسطاس ، فأسار عليه بشرب النبيذ ، وذكر له ما فيه من المنافع ، فاستجاب الى مشورته ونغاضى عن تحريمه للخمر وعن منعه اياها ، بل استدعى بالمغنى وأصحاب الملاهى الى مجلسه . وشرب على غنائهم وأحسن اليهم ، كذلك رجع الناس فى أمر الشراب الى ما كانوا عليه من قبل الى آن مات ابن انسطاس ، فعاد الحاكم من جديد الى النهى عن الخمر والتشديد فيها ، حتى وصل به الأمر الى منع بيع الزبيب والعسل وأحرق متهما وأغرق فى النيل شيئا كثيرا للتجار يقدر بمال عظيم . كما كسر الضروف التى يوعى فيها النبيذ ومنع من عملها(٢)• غير ان هذا المنع لم يكن ليستمر طويلا خاصة وقد حرص أغلب خلفاء هذا العصر على عقد مجالس الشراب والطرب بدليل ان معظم المنتجات الفنية التى وصلتنا من هذه الفترة تتضمن بعض صور هذه المجالس وحسبنا ان ننوه هنا بتلك الألواح الخشبية التى ترجع الى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، التى عثر عليها فى مارستان قلاوون التى يزين بعضها صور رجال يمسكون فى اليد اليمنى كأسا والى يسار كل منهم ساق يقوم بصب الخمر فى الكؤوس ، هذا فضلا عن رسوم المطربين والمطربات والعازفين والعازفات والراقصين والراقصات (٣) (لوحة ٢ شكل أ) •

ومن الواضح أيضا ان مجالس الشراب والطرب كانت من الظواهر المألوفة فى المجتمع الأندلسى وانها لم تكن محرمة ، اذ يشير الشقندى ان الوادى الكبير يمتاز عن غيره من الوديان « بكونه لا يخلو من مسرة ، وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر ، لاناه عن ذلك ولا منتقد ما لم يؤد السكر الى شر وعربدة ، وقد رام من وليها من الولاة المظهرين للدين قطع ذلك فلم يستطيعوا ازالته » (٤) • وكان أمراء الأندلس وملوكها يعقدون مجالس الشراب والطرب فى ظاهر المدن أو فى البساتين والمنيات وأبهاء القصور والمتنزهات ، ويصف

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ص ١١٤ •

(٢) ابن سعيد ، تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي ، بيروت ١٩٠٩ ، ص ١١٨ ، متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ ، المقريزى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ ، محمد جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية فى مصر ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ١٧٢ •

(٣) Marçais. Les figures d'hommes et de bétes dans les bois sculptés dépoque fatimide conservés au Musé Arabe du Caire, Mélanges Maspero, f, M. Herz, Boiseries fatimides aux sculptures figurales, Orientales Archiv., III, (1912-1913).

(٤) المقرى • نفح الطيب ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ج ٤ • ص ١٩٩ •

لنا ابن بسام حفلا أقامه المأمون بن ذى النون فى مجلس خلوته بقصر الناعورة أحضر فيه عددا من المغنين وجميع آلات الطرب وبالغ فى تأنيس الحاضرين بالنبيذ (١) ، **كما يصف لنا ابن خفاجة البلنسى مجلسا آخر من تلك المجالس فى بالنسبية بقوله :**

فكم يوم لهو قد أدرنا بأفقه نجوم كؤس بين أقمار ندمان
وللقضب والأطيار نلهى بجرعه فما شئت من رقص على رجع ألحان(٢)

ويمكننا ان نتصور بعض هذه المجالس من خلال ما وصلنا من تحف عاجية أندلسية من عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف (٣) كعلبة المغيرة ابن عبد الرحمن الناصر المؤرخة بسنة ٣٥٧هـ / ٩٦٨م ، والمحفوظة حاليا بمتحف اللوفر ، نشاهد عليها صورة مجلس شراب وطرب يتألف من رجلين جالسين على وسادة ، أمسك أحدهما بمروحة مستديرة على هيئة الوريدة ، على حين أمسك الثانى فى يده اليسرى بزهرة على هيئة كوز الصنوبر ، فى الوقت الذى يحتفظ فبه بقدح أشبه بالقارورة فى يده اليمنى ٠ هذا ويتوسط الرجلين، شخص ثالث حافى القدمين وقد أمسك بعود بين يديه يقوم بالعزف عليه (٤) (لوحة ٢ شكل ب) ٠

كذلك شغف كثير من سلاطين المماليك بمجالس الشراب والطرب حتى جرت العادة زمن المؤرخ ابن تغرى بردى بان يكون لكل سلطان أو ملك جوقة من المغانى فى داره (٥) ٠ كما دفع ذلك ببعض سلاطين المماليك الى تقريب أرباب الموسيقى والغناء الى مجالسه ، فاذا سمع بمغن أرسل فى طلبه وكلفه بتعليم جواريه الغناء ، كما فعل الناصر محمد بن قلاوون مع المغنى كتيلة ابن قرانغان (٦) ٠

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيره ، قسم ٤ ، مجلد ١ ، ص ١٠٦ ٠

(٢) المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٢٠٦ ٠

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، صور من المجتمع الأندلسى فى عصر الخلافه الامويه وعصر دويلات الطوائف من خلال النقوش المحفورة فى علب العاج ، الكتاب الذهبى عدد خاص من مجلة الآثار ، القاهرة ١٩٧٨ ، جـ ١ ، ص ١٢٣ ٠

(٤) D. et J. Sourdel, La civilisation de l'Islam classique, Paris, 1968 p. 348, no. 147 ; G: Marçais, L'art musulman, Paris, 1962. pl. XVII.

(٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ ٥ ، ص ١٧٨ ٠

(٦) ابن حجر ، الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة ، حيدر آباد ١٩٢٩ ، جـ ٣ ٠ ص ٢٦٥ ٠

وكان يكره في مجالس الشراب هذه جلوس الاثنين وحدهما ذلك خوفا من انسحاب أحدهما لقضاء حاجته فيصير الآخر واجما ، ومن ثم فقد كان الثلاثة يعتبرون أتم مجلسا (١) ، ولا بأس أن يصل عدد أعضاء مجالس الشراب والطرب الى خمسة أفراد كما يفهم من قول الشاعر أبى نواس اذ يقول :

ثلاثة فى مجلس طيب   وصاحب الدعوة والضارب
فاذا تجاوزت الى سادس   أتاك منهم شغب شاغب (٢)

وكان من مستلزمات الشراب والغناء ، الرقص الذى كان يسمى بأسماء الموسيقى من خفيف ورمل وهزج وخفيف الثقيل الأول أحيانا أو يسمى بأسماء خاصة من رقص الجمل أو رقص الكرة ونحوها ، وكان يقوم به فى الغالب السميريات (٣) وهن القيان البارعات فى فنون الغواية مں غناء ورقص ، حتى أنه كانت لهن تماثيل خيل مسرجة من الخشب تعرف باسم الكرج (٤) تعلق بأطراف أقبية يلبسونها ويحاكين بها امتطاء الخيل من كر وفر (٥) . ويذكر ابن خلدون أن أمثال هذه الرقصات كانت تقدم فى مجالس الفراغ واللهو وكذا فى الأعراس والأعياد ، كما أشار الى انتقالها عن بغداد وأمصار العراق الى غيرها من الأقطار (٦) . هذا وقد حفظت لنا التحف الاسلامية العديد من مناظر الرقص والراقصات من بينها واحدة تزين صحنا من الخزف ذى البريق المعدنى تمسك فى يديها بوقين تضربهما ببعضهما . محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة وينسب الى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى (لوحة رقم ٣ شكل أ)

وفى هذا المجلس كان لابد أيضا من وجود العازفين لمصاحبة المغنى أو المغنية ولأجل استثارة همم الراقصين والراقصات . ولم يكن هؤلاء العازفون من الرجال فقط بل يكونوا أيضا من النساء وكانت كل واحدة منهن تشتهر باسم الآلة التى تعزف عليها كالطبالة والصناجة والعوادة والزمارة

(١) متز ، الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ٢٤٨ .

(٢) ديوان أبى نواس ، ص ٣٥٦ ، ٣٥٨ .

(٣) الاصفهانى ، الأغانى ، جـ ٣ ، ص ١١٦ ــ ١١٧ ، عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الاسلامية ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٣٧ ، العصر العباسى الاول ، ص ٢٤٣ .

(٤) الكرج بضم الكاف وفتح الراء المشددة معرب كرة الفارسية وهو تمثال مهر من الخشب ، أنظر تيمور ، التصوير عند العرب ، اخراج زكى محمد حسن ، القاهرة ١٩٤٢ ، ص ٨٣ ، عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية ، ص ١٣٧ ــ ١٣٨ ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٤٣ ، بدرى محمد فهد . العامة ببغداد فى القرن الخامس الهجرى ، رسالة ماجستير ــ جامعة بغداد ١٩٦٥ ، ص ١٨٦ .
Dozy, Suppl, dict. art. II. pp. 453-454.

(٥) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٩٧١

(٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٣٩ .

والطنبورية (١) . كذلك كانت الآلات الموسيقية كثيرة ومتنوعة نذكر منها الدف والناى والطبل والعود والصنبور والمعزفة والمزمار ، والبربط والجنك والقضيب(٢) ، وان اقتصرت أغلب المجالس على أربعة منها فقط هى الجنك والعود والقانون والمزمار (٣) .

وكان من مستلزمات هذه المجالس أيضا ، المضحكون والماجنون (٤). الذى وصلنا بعض أسمائهم كأشعب من دولة بنى أمية ، وأبو دلالة (٥) ، مضحك السفاح الذى بلغ من مجونه أنه خصص قصيدة لبغلته ، وأبو الحسن الخليع الدمشقى ، وابن أبى مريم المدنى(٦) مضحك الرشيد ، وأبو العبر مضحك المتوكل ، وابراهيم المعروف بالهفتى مضحك المعتصم قبل ان يتقلد أمور الخلافة (٧) ، وغيرهم كثيرون (٨) . وكانوا اذا عقدت مجالس الشراب ودارت الأقداح وطرب الخليفة ارتدوا ملابس مضحكة يقلدون بها بعض الحيوانات كالدببة أو القرود ، كما كانوا يعلقون فى أعناقهم الجلاجل والأجراس مما يضحك الثكلى . ويفهم من المصادر أن بعض الخلفاء كان اذا استخفهم الطرب كلفوا هؤلاء المضحكين ما لا يطاق من ضروب العذاب وهم يتلذذون بعذابهم ، اذ يروى ان المتوكل كان اذا طرب أمر بأبى العبر المجان أن يرمى به فى المنجنيق الى الماء وعليه قميص حرير فاذا علا فى الهواء صاح الطريق الطريق ، ثم يقع فى الماء فيخرجه السباح وكان يجلس فى احيان أخرى فوق زلاقة ثم ينحدر عليها بسرعة حتى يقع فى

---

(١) الازدى ، حكاية أبى القاسم البغدادى ، هيدلبرج ، ١٩٠٢ ، ص ٥٠ ، الخوارزمى ، مفتاح العلوم ، القاهرة ١٣٤٢ هـ ، ص ١٣٦ ، الوشاء ، ص ٧٩ .

(٢) عن أسماء الآلات الموسيقية عند العرب أنظر ، ابن سيده ، المخصص ، ج ١٣ ، ص ١١ ـ ١٥ .

(٣) انظر : ديوان ابن المعتز ، ج ٢ ، ص ١١٨ ، متز الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ .

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٣ ، عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية ، ص ١٣٨ ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٤٢ ، جرجى زيدان ، تاريخ التمدن ، ج ٥ ، ص ١٤٥ .

(٥) Ency. de l'Islam, 2ed., I. p: 120, art. Abû Dulâma:

النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٤ ، ص ٣٦ .

(٦) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ١١٤ ـ ١١٥ .

(٧) جورجى زيدان ، تاريخ التمدن ، ج ٥ ، ص ١٤٥ ، الطبرى ، تاريخ الأمم ، ج ١٠ ، ص ٣١٢ .

(٨) وصلنا أسماء بعض المضحكين زمن سلاطين المماليك كعزيز مضحك السلطان الناصر محمد ابن قلاوون وولى الدين أبى اليمن مضحك السلطان برسباى ، انظر المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور ، القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٧٣ ، ج ٢ ، ص ١٥٦ ، ج ٤ ، ص ٩٦١ ، ١٠٧١ .

البركة وبعدها يقوم الخليفة بطرح الشبكة ويخرجه من الماء كما يخرج السمك (١) . كذلك كان الأمين اذا طرب صاح فى ندمائه وجلاسه : « من يكون منكم حماری » وبالطبع كان يحظى بأكثر من رد ، فيركب الواحد منهم ويصله (٢) . ويبدو أن هذا التقليد قد استمر حتى العصر العثمانى بدليل انه وصلتنا تصويرة من مخطوط المهرجان « سور نامة » محفوظة بمتحف طوبقا بسراى . تمثل السلطان أحمد الثالث فى مجلس طرب وأنس يحضره بعض المضحكين الذين يبدون فى أسفل الصورة وهم يقومون ببعض الحركات المضحكة (لوحة رقم ٧ شكل أ) .

ومن وسائل التسلية أيضا اللعب بالخيال أو ما كان يسمى وقتئذ بشخوص خيال الظل أو ظل الخيال ، أو طيف الخيال أو مسرح الدمى ،(٣) وهى لعبة معروفة تتخذ شخوصها من جلود وتحرك بعصى من وراء ثوب أبيض مشدود فيظهر خيالها فيه ، ويرجح أن أصلها من لعب الهند القديمة(٤) ، وأنها ظهرت للمرة الأولى فى العصر العباسى اذ جاء فى أحد المصادر أنه كان لأحد طهاة الخليفة المأمون ابن يسمى عبادة ، كان من أطيب الناس ، وأخفهم روحا وأحضرهم نادرة ، فقال له دعبل يوما : والله لأهجونك ، قال : والله لئن فعلت لأخرجن أمك فى الخيال (٥) . كذلك عرفت فى العصر الفاطمى بمصر فقد كان الناس يخرجون فى بعض الأعياد ، ويطوفون الشوارع بالخيال والتماثيل والسماجات (٦) ، كما أشارت بعض المصادر الى أن صلاح الدين الأيوبى أخرج

---

(١) الاصفهانى ، الأغانى ، ج ٢٠ ، ٩٢ .

(٢) الاصفهانى ، الأغانى ، ج ٦ ، ٢٠٣ .

(٣) عنى المستشرق الألمانى جورج جاكوب بدراسة هذه اللعبة ، فوقف على طبع أجزاء من كتاب طيف الخيال لابن دنيال الموصلى وكتب فى خيال الظل كتبا ومباحث جاء بيانها فى البحث الذى كتبه ليتمان فى مجلة الجمعية الشرقية الألمانية انظر :
E. Littmann, Z.D.M. 6, Band 91-Heft 2, (1937). pp. 486-500.
انظر أيضا : أحمد تيمور ، خيال الظل واللعب والتماثيل المصورة عند العرب ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٧ ، رشدى صالح ، مسرح خيال الظل فى العالم الاسلامى ، المجلة ، سبتمبر ١٩٥٩ ، ص ٢٥ عبد الحميد يونس ، خيال الظل ، المكتبة الثقافية ، القاهرة ١٩٦٥ ، محمد زكريا عنانى ، حول خيال الظل فى مصر ، مجلة الكاتب ، يناير ، فبراير ١٩٧٧ .

(٤) يرى أحمد تيمور أنها نشأت فى الشرق الأقصى ومنه انتقلت الى الهند فايران فالأقطار العربية فتركيا ثم البلاد الغربية ، أنظر : أحمد تيمور ، التصوير عند العرب ، ص ٨٥ ، عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية ، ص ١٤٤ ،
P. Khale, The Arabic Shadow Play in Egypt, JRAS. (1940), pp. 31-34.

(٥) الشابشتى ، كتاب الديارات ، ص ١٨١ ، متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٦٥ – ٢٦٦ .

(٦) المقريزى ، خطط ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

من قصورهم من يعانى خيال الظل ليريه للقاضى الفاضل فرآى فيه « موعظة عظيمة ، ودولا تمضى ، ودولا تأتى » (١) . وكان لسلاطين المماليك ولع شديد بهذه اللعبة أيضا فقد روت المصادر المعاصرة أن السلطان الأشرف شعبان حمله معه لما حج فى سنة ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م مع ما حمله من الملاهى (٢) لا سيما وأن خيال الظل كان تسلية عامة لجميع طبقات المجتمع ، ومع ذلك فقد أمر السلطان الظاهر جقمق فى سنة ٨٥٥هـ / ١٤٥١م بابطال اللعب به واحراق شخوصه ، وكتب على اللاعبين العهود بأن لا يعودوا اليه ، لما كان يقع فى مجتمعاته من المفاسد (٣) . بيد أن هذا المنع لم يستمر طويلا ، اذ يحدثنا المؤرخ ابن اياس بأن السلطان قانصوه الغورى كان يخرج الى بر الجيزة ومعه خيال الظل وجوق المغانى للتسلية (٤) . كما يروى أيضا فى حوادث سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م بأن السلطان سليم العثمانى أحضر فى بعض الليالى بمقياس النيل بجزيرة الروضة خيال الظل حيث صنع المخايل صفة باب زويلة وصفة السلطان طومان باى لما شنق عليه وقطع به الحبال مرتين ، « فانشرح السلطان سليم لذلك ، وأنعم على المخايل فى تلك الليلة بثمانين دينارا ، وخلع عليه قفطانا مذهبا ، وقال له : اذا سافرنا الى اسطنبول أمضى معنا حتى يتفرج ابنى على ذلك » (٥) .

كذلك وصلتنا بعض الرسوم التى كانت مستعملة فى تمثيليات خيال الظل هذه من بينها واحدة من الجلد محفوظة بالقسم الاسلامى من متاحف الدولة ببرلين وتنسب الى العصر المملوكى ، عبارة عن سفينة عليها لوتية ومحاربون (لوحة رقم ١ شكل ب) . وهناك أيضا رسم آخر محفوظ فى نفس المتحف عبارة عن فارس ممن يصيدون بالصقر مصنوع من الجلد المخرم حتى يمكن تحريكه منها حسب الحوار (٦) .

---

(١) الغزولى ، مطالع البدور فى منازل السرور ، القاهرة ١٣٠٠ هـ ، جـ ١ ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) الجزيرة ، درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحج وطريق مكة المعظمة ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ ، ص ٦٨٢ .

(٣) السخاوى ، التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، القاهرة ١٨٩٦ ، ص ٣٥٣ ، ابن تغرى بردى ، منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، تحقيق وليم بوبر ، كاليفورنيا ١٩٣١ ، جـ ١ ، ص ١١٧ ، ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، بولاق ١٨٨٦ ، جـ ٢ ، ص ٣٣ .

(٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٣٤٧ .

(٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ١٢٥ ، احمد تيمور ، التصوير عند العرب ، ص ٨٥ ، سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ١٠٦ .

(٦) P. Khale, Islamiche Schattenspielfiguren aus Agyplen, der Islam, I, p. 204; 11, p. 143.

من وسائل التسلية أيضا اللعب بالطيور ، والمقصود بالطيور هنا الحمام الذى يألف السكنى فى البيوت اذ أصبح الاعتناء به وتربيته من الهوايات المحببة لدى كثير من الناس ، تملأ عليهم فراغهم وتشعرهم بلذة خاصة ٠ وهذه الطيور على أشكال وأنواع متعددة (١) ، وكانت لها أسواق خاصة مثل سوق الوزازين والدجاجين بالقاهرة (٢) وسوق الطيور بدمشق (٣) وآخر بالجانب الشرقى لبغداد (٤) ، يتردد عليها أهل الهواية لشراء الطيور أو بيعها (٥) ويبدو انهم كانوا من الكثرة بحيث وصفوا ذات يوم بأنهم « قد اجتمعوا يركب بعضهم بعضا » (٦) ٠

والحق أن اللعب بالطيور لم يكن قاصرا على طبقة دون غيرها فقد شارك فيه الناس على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية والثقافية والاقتصاديه (٧) حيث كان محبو هذه الهواية يبذلون فى سبيلها الأموال الطائلة فقد أشارت بعض المصادر الى أن الحمامة قد تباع بسبعمائة دينار ، والبيضة بخمسة دنانير والفرخ بعشرين دينارا ، وان ذلك كان مألوفا بالنسبة لسوق الطيور ببغداد والبصرة (٨) ٠ وأنه كان عندهم دفاتر بأنساب الحمام كأنساب العرب (٩) ٠ وكان أكثر الناس شغفا بهذه الطيور فئة الخصيان (١٠) علاوة على بقية الناس ٠ كذلك شغف الخلفاء بلعب الحمام شأنهم فى ذلك شأن العامة فالخليفة الناصر

---

(١) الدميرى ، حياة الحيوان الكبرى ، القاهرة ١٩٥٦ ، ج ١ ، ص ٣٢٧ ٠

(٢) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٧٥ ، ج ٢ ، ص ٩٦ ،

A. Raymond et G. Wiet, Les marchés du Caire, Le Caire, 1979, p. 157; Germain Martin, Les Bazars du Caire et les petits métiers arabes, Le Caire, 1910, p. 39.

(٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٢ ، ص ٦١ ٠

(٤) مجهول ، مناقب بغداد ، تحقيق محمد بهجت الأثرى ، بغداد ١٣٤٢ هـ ، ص ٢٦ ٠

(٥) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ١٩٦٥ ، ج ١ ، ص ١١٨ ، البيهقى ، المحاسن والمساوىء ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ٥٧٠ ٠

(٦) بدرى محمد فهد ، العامة ببغداد ، ص ٢٠٠ ٠

(٧) الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ، القاهرة ١٩٣١ ، ج ٤ ، ص ٢٦٤ ٠

(٨) الغزولى ، مطالع البدور ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ ٠

(٩) يفهم من المصادر التى تحت أيدينا أن العرب فى الجاهلية وفى الاسلام حفظوا أنساب الحمام تماما كما فعلوا مع أنساب الخيول وهم بذلك يكونون قد سبقوا كلا من العباسيين والفاطميين فى هذا المضمار انظر ، الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ ، القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٠ ، ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ ، العمرى ، التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٩٦ ٠

(١٠) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ١ ص ١١٨ ، البيهقى ، المحاسن ، ص ٥٧٠ ٠

لدين الله شغف بلعب الحمام شغفا عظيما (١) حتى حكى عنه أنه لما دخلت التتار وتملكت البلاد من ما وراء النهر الى العراق ، وقتلوا الناس وهدموا الدور دخل عليه الوزير ، فقال له يامولانا ان التتار قد ملكت ... وقتلت المسلمين ، فقال الناصر لدين الله : دعني أنا في شيء أهم من ذلك ، طيرتي البلقاء لى ثلاثة أيام ما رأيتها (٢) . كما شغف بالحمام وباللعب به كل من الخليفة المعتصم بالله آخر خلفاء بني العباس ببغداد ، والخليفة الواثق بالله ، والخليفة المتوكل على الله (٣) وتتحدث المصادر أيضا عن الخليفة العزيز بالله الفاطمي الذي سابق بين طائر لوزيره يعقوب ابن كلس فسبق طائر الوزير طائره ، فشق ذلك على العزيز ، ووجد أعداء الوزير سبيلا الى الطعن فيه فكتبوا الى العزيز أن الوزير قد اختار من كل صنف أعلاه ولم يترك للخليفة الا أدناه حتى الحمام ، **فكتب ابن كلس الى العزيز قائلا :**

قل لأمير المؤمنين الذى	له العلى والمثل الثاقب
طائرك السابق لكنه	لم يأت الا وله حاجب

فأعجب الخليفة ذلك وأعرض عما وشى به (٤) .

كذلك شغف بعض سلاطين المماليك باللعب بالحمام وتغالوا في ذلك فقد روى عن السلطان الكامل سعبان انه كان يعشق اللعب بالحمام وأنه « قرب من يكون من أرباب هذا الشأن بل أمر بأن ينادى في القاهرة بألا يعارض أحد لعاب الحمام أو غيرهم من أرباب الملاعيب » (٥) . أما المظفر حاجي فقد أنشأ له حضيرا بأعلى الدهيشة ، ركبه على صوار وأخشاب عالية وملأه بشتى أنواع الحمام ،

---

(١) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٤٥١ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق ربيع ، القاهرة ١٩٧٢ ، ج ٤ ، ص ١٦٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٦ ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ ، نبيل محمد عبد العزيز ، الحمام الزاجل وأهميته في عصر سلاطين المماليك . المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثاني والعشرون ، ١٩٧٥ ، ص ٤٦ .

(٣) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٨٩ ، ابن أيبك ، الدار المطلوب في أخبار بني أيوب تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٣٤٩ ، المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٣٠٩ .

(٤) المقريزي ، خطط ، ج ٢ ، ص ٦ ، الغزولي ، مطالع البدور ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ ، متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ .

(٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ١٢٤ ، المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٨٣ ، ٦٩٥ ، ٦٩٧ .

حتى بلغ مصروف الحضير خاصة سبعين ألف درهم (١) ، وصار له احتماع بالأوباش وأراذل الطوائف ٠٠ ومطيرى الحمام فكان يقف معهم ويراهن على الطير الفلانى والطيرة الفلانية ٠ وبينما هو ذات يوم معهم عند حضير الحمام وقد سيبها اذ أذن العصر بالقلعة والقرافة ، فجعلت الحمام على مقاصيرها وتطايرت ، فما كان منه الا أن بعث الى المؤذنين يأمرهم « أنهم اذا رأوا الحمام لا يرفعون أصواتهم » (٢) ٠

لذلك كان من الطبيعى أن يستنكر بعض الفقهاء اللعب بالحمام وأن تلجأ بعض الحكومات الى محاربته (٣) كما حدث فى أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى أمر بذبح الحمام الطيار وترك المقصص منه (٤) ، ربما لان بعض الطيوريين كانوا يتخذون من هذه التسلية وسيلة للتفرج على نساء الجيران (٥) ، وربما أيضا بسبب ما كان يرافق تدريب الطيور على الطيران من صياح وهرج أو رمى بالأحجار على الطيور التى تقع على أسطح المنازل المجاورة مما يؤدى الى ايذاء الجيران (٦) ٠ كما أن المراهنات على اطلاق الطيور من مسافات بعيدة كثيرا ما أثارت جدلا بين الفقهاء (٧) حيث اعتبرها البعض نوعا من القمار يجب استنكاره وتحريمه (٨) ٠

والى جانب الولع بالطيور كان البعض مولعا بتربية أنواع أخرى من الحيوانات من أجل مهارشتها والتفرج عليها كالديوك والسمان والقبج(٩)والكباش

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٧٢٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٠ ، ص ١٥٦ حيث أشار الى أن مصروف الحضير بلغ سبعة آلاف درهم فقط ٠

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٧٣٩ ــ ٧٤٠ ٠

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٨ ، ص ٢٩٤ ، ٣٠٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٨٥ ، الذهبى ، العبر ، جـ ٣ ، ص ٣١٦ ٠

(٤) الدميرى ، حياة الحيوان ، جـ ١ ، ص ٣٢٧ ٠

(٥) الدميرى ، حياة الحيوان ، جـ ١ ، ص ٣٢٧ ، ٣٣٣ ، حسن ابراهيم ، تاريخ الإسلام ، جـ ٤ ، ص ٦٥٥ ٠

(٦) البيهقى ، المحاسن ، ص ٥٧٠ ٠

(٧) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، جـ ٣ ، ص ٢٢٦ ٠

(٨) الغزالى ، ميزان العمل ، القاهرة ١٣٤٢ هـ ، ص ٩٩ ٠

(٩) طائر يسكن الجبال ، ومن عادته اذا اجتمع ذكران على أنثى تهارشا فاذا انهزم أحدهما تبع الآخر الأنثى ، انظر القزوينى ، عجائب المخلوقات ، ص ٢٥٥ ٠

والكلاب (١) ، وكانوا اذا أرادوا مهارشتها جاءوا باثنين من كل نوع وجعلوا الواحد مقابل الآخر فتبدأ هذه الحيوانات بالمهارشة ، ويجد الناس عندئذ مجالا للتسلية وقضاء أوقات الفراغ ، وحسبنا أن نشير هنا الى صحن من الخزف ذى البريق المعدنى محفوظ فى مجموعة شريف صبرى بالقاهرة يمثل مهارشة الديكة (٢) ، وينسب الى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . ويعد هذا المرسم من حيث القيمة الفنية تحفة رائعة وذلك لما فيه من تعبير صادق عن الأحاسيس ، وتمثيل متقن للحركة ، وملاحظة قوية للطبيعة والواقع . حيث يتضمن رسما لشيخ مندفع غير هياب يبدو على وجهه تعبير تحد صريح ، وقد قدم ديكه بيديه بجرأة بالغة ، فى حين جلس قبالته شاب حريص حذر ، ضم اليه ديكه منتظرا لحظة البداية (لوحة رقم ٣ شكل ب) .

ويروى أيضا ان سبكتكين قائد جيوش معز الدولة ، كان لديه كبش قوى نطاح أشار اليه الحجاج فى شعره متمنيا لو ترك لينطح زوجا كريه الصورة لمغنية كان يعشقها (٣) كما أشار ابن فضل الله العمرى الى أن الخليفة الواثق بالله كان شغوفا بشراء الكباش والديوك للمنافرة (٤) . كما يحدثنا المقريزى أنه عثر فى سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م ، لدى ابراهيم بن صابر مقدم دولة المماليك البحرية على مائتى كبش للنطاح (٥) .

وغالبا ما كان يؤدى التحمس أثناء هذه المهارشات الى المعارك بين أصحاب هذه الطيور والحيوانات ، وربما كان يفضى أيضا الى العداوات (٦) ، ومن ثم فلا عجب ان عمدت بعض الحكومات الى تحريم مثل هذه الوسائل للتسلية كما حدث فى سنة ٧٤٤ هـ/١٣٤٤ م عندما رسم الأمير الحاج آل ملك الجوكندار نائب

---

(١) ابن طيفور ، بغداد ، تحقيق عزت العطار بغداد ١٩٤٩ ، ص ٣٨ ، المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ٨ ، ص ٢٣٠ ، ٣٧٩ ، الاصفهانى ، الأغانى ، جـ ٦ ، ص ٢٣٨٤ – ٢٣٨٥ ، الدميرى ، حياة الحيوان ، جـ ١ ، ص ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٦٤٢ ، ٧٣٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٥ ، ص ٤١ ، جـ ١٠ ، ص ١٦٨ .

(٢) عبد الرؤوف على يوسف ، الرسوم الآدمية على الخزف المصرى فى العصر الاسلامى ، المجلة ، سبتمبر ١٩٥٨ ، ص ٨١ ، شكل ١٢ ، حسن الباشا ، فن التصوير فى مصر الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٧٠ .

(٣) متز ، الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ٢٦٠ .

(٤) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٨٩ .

(٥) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٥٦٥ .

(٦) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ٨ ، ص ٣٧٩ ، ابن الاخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة ، لندن ١٩٣٨ ، ص ٢٤٢ .

السلطنة المملوكية بابطال جميع أرباب الملعوب من المناطحين بالكباش والمناقرين بالديوك وغيرهم رغم ما كان يتحصل منها للدولة من مال كثير (١) . بيد أن هذا المنع لم يكن ليستمر طويلا ، وسرعان ما تعود أصناف الملاعيب الى سابق عهدها وربما أشد مما كانت عليه (٢) .

وتلهى الناس أيضا بألعاب الدبابة أى الذين يلعبون بالدببة ، والقرادة الذين يلعبون بالقرود (٣) والحواة والبهلوانات وكانت لهم مناطق معينة يجتمعون فيها لعرض ألعابهم ، حيث « ينحشر هنالك من الخلائق للفرجة ... ما لا ينحصر كثرة » (٤) .

والحديث عن الحواة يذكرنا بجعفر بن الفضل بن الفرات وزير مصر المعروف بابن خنزابة ، الذى كان يهوى النظر الى الأفاعى والحيات والعقارب وما كان يجرى مجراها من الحشرات ويقال انه كان فى داره قاعة لطيفة مرخمة فيها سلل الحيات ، ولها قيم ، فراش حاو من الحواة ومعه مستخدمون ، وكان كل حاو فى مصر وأعمالها يعيد له ما يقدر عليه ، وكان الوزير يثيبهم ويبذل لهم الجزيل حتى يجتهدوا فى تحصيلها ، وذات يوم انساب الى دار ابن المدبر الكاتب ، وكان يسكن الى جوار الوزير ، الحية البتراء وذات القرنين الكبرى ، والعقربان الكبيران وأبو صوفة ، فكتب اليه يأمر حاشيته وصبيته بصون ما يوجد منها ، الى أن ينفذ الحواة لأخذها ، فلما وقف ابن المدبر على ما فى الخطاب قلبه وكتب فى ذيله : « أتانى أمر مولانا الوزير ، أدام الله نعمته ، وحرس مدته بما أشار به من أمر الحشرات والذى يعتمد عليه فى ذلك أن الطلاق يلزمنى ثلاثا ، ان بت أنا أو أحد من أولادى فى الدار والسلام » (٥) . ويشير المقريزى الى حادثة أخرى مشابهة وقعت فى أيام الوزير يانس الأرمنى ملخصها أن أحد الحواة من أهل طرا يقال له أبو كريت أمسى عليه الليل فاضطر الى المبيت بجامع القرافة بمصر وكان معه سلة بها حصيلة أسبوع من غرائب الأفاعى وأخطر الحيات التى لم يقدر على جمعها قط حاو غيره ، بيد أن هذه

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ٦٤٢ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٦٧٩ .

(٣) سيرة الظاهر بيبرس ، القاهرة ١٩٢٦ ، جـ ٩ ، ص ٤١ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٦٤٢ ، ٦٨٩ ، ٦٩٥ .

(٤) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٥١ .

(٥) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٣١٩ ، ياقوت ، الارشاد ، جـ ٢ ، ص ٤٠٩ ، ٤١٠ ، متز ، الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ، ٢٦٥ .

الأفاعى استطاعت الخروج من السلة والتسرب منها مما أزعج من قضى الليل بهذا الجامع وجعلهم يهرعون الى تسلق المنبر وكذا تيجان الأعمدة وظلوا فى أماكنهم يرتعدون من شدة الخوف الى مطلع الفجر ، حيث استطاع الحاوى المذكور أن يستعيد أغلبها ويعيدها من جديد الى سلته (١) • مجمل القول ان حواة هذا العصر كانوا يمارسون اللعب بالحيات والأفاعى مما لا يزال باقيا فى عصرنا الحديث •

أما عن البهلوانات وألعابهم التى كان يتسلون بها فى العصور الوسطى الاسلامية ، فلا ندرى عنها شيئا خاصة بالنسبة للعصور المبكرة ، وكل ما لدينا عن هذه الفئة يرجع الى فترة متأخرة من العصور المملوكية اذ تحدثنا المصادر المعاصرة بأنه فى سنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٦ م قام رجل من مسالمة الفرنج بنصب حبل من أعلى مدرسة السلطان تحت القلعة ، ومده حتى ربطه بأعلى المدرسة الأشرفية من قلعة الجبل ، ومسافة ذلك تقدر برمية سهم أو يزيد ، فى ارتفاع ينيف على مائة ذراع فى السماء ، ثم برز من رأس المئذنة ومشى على هذا الحبل، حتى وصل الى المدرسة الأشرفية ، وهو يبدى فى مشيه أنواعا من اللعب ، وقد جلس السلطان الأشرف برسباى لرؤيته وحشر الناس من أقطار المدينة ، « وقد عد فعله هذا من النوادر التى لو لم تشاهدها لما صدقت » •

ويبدو ان ما قام به هذا البهلوان من سير فوق الحبل قد آثار همم شباب أهل البلد حيث عمد أحدهم الى نصب حبل فى داره وقام بالسير عليه ، ولما علم من نفسه القدرة على ذلك صعد الى رأس نخلة ، ومد منها حبلا الى نخلة أخرى وأعاد التجربة وبعدها أظهر نفسه ، ونصب حبلا على رأس ماذنة المدرسة الظاهرية برقوق ومد الى رأس مأذنة المدرسة المنصورية بين القصرين ، وأرخى من وسط هذا الحبل الممتد حبلا آخر وواعد الناس حتى ينظروا ما يفعله ، فجاءوا من كل جهة وخرج اليهم من رأس مأذنة المدرسة الظاهرية ومشى قائما على قدميه ، وقامته منتصبة حتى وصل رأس مأذنة المدرسة المنصورية ، ومسافة ذلك نحو مائة ذراع ارتفاع أكثر من ذلك ، ثم نام على الحبل وتمدد ، ثم قام ومشى حتى وقف على الحبل الذى أرخاه فى وسط الحبل الذى هو قائم عليه • ونزل عليه حتى آخره ، ثم صعد عليه ، وهو يبدى فنونا تذهل العين رؤيتها ، « ولولا ضرورة الحس لما صدقت » • ويبدو أنه لم يكتف بذلك بل قام بنصب حبل من مأذنة السلطان حسن الى الأشرفية بالقلعة كما فعل الرجل الأول ، حيث جلس السلطان الأشرف برسباى لمشاهدته ، كما أقبل الناس من كل

(١) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٣١٩ •

صوب وحدب ، وقد هبت رياح كادت نقلع الأشجار ونلقى الدور ، فخرج عليهم هذا البهلوان الشاب ومشى على قدميه حتى وصل الى حبل كان قد أرخاه فى الوسط ، وأدلى برأسه ، ونزل عليه منكوسا ، رأسه أسفل ورجلاه أعلاه ، الى أن وصل الى آخره . ثم صعد حتى وقف على الحبل الممتد ومشى قائما عليه حتى وصل الى قبة المدرسة الأشرفية ، فنزل من الحبل وصعد القبة وهو يجرى فى صعوده جريا قويا فوق هيئة كرسى من رصاص أملس ، حتى وقف بأعلاها والرياح عمالة فى طول ذلك بحيث لا يثبت لها طير السماء ، ولا يقدر على المرور لشدة هبوبها ، والشاب رغم ذلك يروح ويجيء شاقا لها ومارا فيها ، كأنما خلق من ريح ، فكان على حد تعبير أحد المؤرخين « شيئا عجبا ، لا سيما ولم يتقدم له ادمان فى ذلك ، ولا دربه فيه معلم ، وانما تاقت اليه نفسه فامتحنها ، فاذا هى متأتية له فيما أراد ، فبرز وأبدى ما يعجز عنه سواه (١) » . نخرج من هذا بان اللعب على الحبل والسير عليه ليس من ابتداع السيرك فى العصر الحديث ، وأنما هو قديم بدليل ظهوره زمن سلاطين المماليك .

ووصلتنا من هذا العصر أيضا تصويرة من مقامات الحريرى المحفوظة بالمكتبة الأهلية فى فينا ، تنسب الى مصر حوالى سنة ٧٣٤هـ / ١٣٣٤م (٢) ، تمثل صورة أمير فى مجلس شراب وطرب وتسلية حيث يوجد أسفل منه رسم لشخص يقوم ببعض الحركات البهلوانية مما يعطينا صورة واضحة عن بعض ألعاب هذا العصر (لوحة رقم ٤ شكل أ) .

ويدخل فى هذا النوع من الألعاب الرياضية التى كانت تتسم بطابع التلهى والتسلية المعالجة والمقصود بها رفع الأثقال اذ يحدثنا المقريزى فى خططه بأن الأمير علاء الدين على حفيد بيبرس الحاجب ، كان مشهورا بالعلاج ، وأنه يعالج بمائة وعشرة أرطال (٣) . والمثاقفة من الثقاف ، وهو الخصام ، والجلاد والطعان بالرمح (٤) . والملاكمة (لوحة رقم ٤ شكل ب) والمشابكة والمصارعة التى عرفها العرب قبل وبعد الاسلام فقد روى ان الرسول صلى الله عليه وسلم دعا الى الاسلام ركانة بن عبد يزيد بن هاشم ، وكان ركانة معروفا بقوته الفائقة ، وبأنه لم يصارع أحدا الا صرعه ، ولكن ركانة طلب معجزة واضحة من الرسول ليقبل دعوته « فقال محمد : أرأيت ان صرعتك ؟ ، قال ركانة : أومن » . وتصارعا

(١) المقريزى ، سلوك ، جـ ٤ ، ص ٧١٣ — ٧١٤ .

(٢) ايتنجهاوزن ، التصوير عند العرب ، ترجمة عيسى سليمان وطه التكريتى ، بغداد ١٩٧٤ ص ١٤٨ — ١٤٩ .

(٣) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٥٥ .

(٤) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٧٣٩ ، حاشية (٢) .

فصرعه الرسول ، فتعجب ركانة وطلب الاقالة والعودة ، فصرعه الرسول مرة ثانية وثالثة ، فأسلم وحسن اسلامه (١) • واستمرت هذه اللعبة على مر العصور الاسلامية كوسيلة من وسائل التسلية وقضاء أوقات الفراغ ، اذ وصلنا من العصر الفاطمي صحن من الخزف ذي البريق المعدني ينسب الى لقرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، محفوظ بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، قوام زخرفته رسوم تمثل صراعا بين اثنين ملتحيين ، ويرتدى كل منهما سروالا طويلا فقط يحيط بهما جمهور المتفرجين حيث يغلب على بعضهم الحماس الذى يتجلى من خلال ايماءات الأذرع (لوحة رقم ٥ شكل أ) • مما يشير الى أن هذه اللعبة أصبحت من الأهمية بمكان بدليل انها استحقت أن تكون موضوعا تصويريا على اناء يستعمل بكثرة فى المنازل وغيرها (٢) •

كذلك يحكى أن معز الدولة لما جاء الى بغداد اشتهى رؤية الصراع ، فكان يعمل بحضرته حلقة في ميدان ، فتقام شجرة وتجعل عليها ثياب الديباج والمروزى ونحوهما ، وتوضع تحتها أكياس فيها دراهم ، ويقف على سور الميدان أصحاب الطبول والزمور ، وعلى الباب أصحاب الدبادب ، ثم يؤذن للعامة فى الدخول الى الميدان ، فمن غلب أخذ الثياب والشجرة والدراهم ، ثم دخل فى ذلك أحداث بغداد حتى صار بكل موضع صراع ، فاذا برع أحدهم صار بحضرة معز الدولة ، فان غلب أجريت عليه الجرايات ، « فكم من عين ذهبت بلطمة ، وكم من رجل اندقت » (٣) • وتروى المصادر المملوكية أيضا أن السلطان المظفر حاجى كان يمارس المصارعة بنفسه مع العوام ، حيث كان يلبس تبان جلد ، أى سراويل قصيرة ، ويتعرى من جميع ثيابه ويصارعهم (٤) ، لذلك كان من الطبيعى أن تشتمل مخطوطات الفروسية التى وصلتنا من هذا العصر على بعض التصاوير التى توضح طريقة ممارسة هذه اللعبة ، من بينها تصويرة من مخطوط محفوظ فى متحف طوبقا بسراى باسطنبول (٥) تمثل أربعة أوضاع مختلفة للتدريب على هذه اللعبة (لوحة رقم ٥ شكل ب) •

---

(١) عبد الحى الكتانى ، التراتيب الادارية ، ج ٢ ، ص ١٤٧ •

(٢) ايتنجهاوزن ، التصوير عند العرب ص ٥،٦ •

(٣) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ •

(٤) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٤٠ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ١٦٩ •

(٥) M. Mostafa Miniature Paintings in some Mamluk Manuscripts BIE, LII, (1971), p. 6.

وكثر فى هذا العصر أيضـا جرى السعاة ، أى مسـابقات الجرى بين المشهورين بسرعة العدو (١) • وعن الجرى حدثتنا كتب السيرة النبوية بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يسابق زوجته السيدة عائشة ، اذ جاء على لسانها ما نصه : « سابقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته ، ثم عاد وسابقنى بعد أن أرهقنى اللحم ، فسبقنى ، فقال : هذه بتلك » (٢) •

ومن الألعاب التى تلهى بها العرب فى أوقات فراغهم لعبة اللبخة (٣) التى عرفت بعدة أسماء متعددة منها التحطيب والمطر والجريد وغيرها (٤) ، والتى فسرها لنا الشعرانى فى طبقاته الكبرى فذكر فى ترجمة عثمان الحطاب انه « كان شـجاعا يلعب اللبخة ، فيخرج له عشرة من الشـــطار يهجمون عليه بالضرب فيمسك عصاه من وسطها ويرد الجميع فلا تصبه واحدة » • ويبدو أن هذه اللعبة كانت من الأهميـة بمكان بدليل أنهـا سجلت على آنية من الخزف ذى البريق المعدنى ، تنسب الى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، نشاهد عليها رسما لرجلين يتبارزان بالعصى، أحدهما قد رسم رسما جانبيا، بينما يبدو الآخر فى وضعه ثلاثية الأرباع (لوحة رقم ٦ شكل أ) • ويذكرنا هذا المشهد ببعض التصاوير التى وصـلتنا من عصر المماليك الجراكسة ضمن مخطوط فى ألعاب الفروسية من بينها رسم محفوظ بمتحف الفن الاسلامى أيضا ينسب الى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميـلادى يمثل مبارزة بين رجلين (٥) ، وقد وقف خلفهما رجل ثالث يمسك بعصا أو بعمود فى احدى يديه ، هذا ويبدو أحد المتبارزين وقد أمسك بعصا

---

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٥٦ ، ٦٩٥ ، ٦٩٧ ، ٧٣٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ١٦٨ •

(٢) أحمد شلبى ، موسوعة النظم والحضارة الاسلامية ، الحياة الاجتماعية ، القاهرة ١٩٧٣ ، ج ٥ ، ٢١٥ •

(٣) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٠٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ١٢٨ •

(٤) أحمد تيمور ، لعب العرب ، القاهره ١٩٤٨ ، ص ٥٧ ، محمد مصطفى ، مخطوط مصور فى تعليم فنون القتال والفروسية من أواخر عصر المماليك الجراكسة ، مجلة المجمع العـلمى المصرى ، المجلد ـ ٥١ ، ١٩٦٩ / ١٩٧٠ ، ص ١٣ ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسـلام السياسى ، ج ٢ ، ص ٤٤٥ ، حسن الباشا ، التصوير الاسلامى فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٧٦ •

(٥) زكى حسن ، أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية ، بغداد ١٩٥٦ ، شكل ٨٩٧ ، ٥١٨ ، محمدمصطفى ، الوحدة فى الفن الاسلامى ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٦ ، شكل ٣٦ ، حسن الباشا ، التصوير الاسلامى ، شكل ٢٢ ، ص ١٧٧ ،
M. Mostafa, Miniature Paintings in some Mamlûk Manuscripts, BIE, LII, (1970 / 1971), pl. 35.

زميله (لوحة رقم ٦ شكل ب) • كما وصلنا رسم آخر مشابه ضمن مجموعة أدموند دى أونجر بلندن ، يمثل لعبة التحطيب هذه أو كما يسميها المخطوط بلعبة المطروق (١) • ويفهم أيضا من تصاوير بعض مخطوطات الفروسية التى تنسب الى هذا العصر• ان هذه اللعبة لم تكن تمارس على الأرض فقط ، بل كانت تمارس كذلك من على ظهور الخيل (٢) •

ووصلتنا أيضا اشارات عن ألعاب أخرى أقبل المسلمون عليها كوسيلة من وسائل التسلية فى أوقات فراغهم ، نذكر منها على سبيل المثال لعبة القراح التى شبهها البعض بلعبة الكريكيت الحالية (٣) ، ولعبة الطبطاب التى قيل أن هارون الرشيد كان يمارسها (٤) والتى رجح فيليب أنهــا كانت تمثل لعبة التنس الحالية ولكن فى شكلها البدائى (٥) ، على حين زعم البعض الآخر انه ربما كان المقصــود بها لعبة الكرة أو الصولجان (٦) التى سنشير اليها فى الصفحات التالية • والحق ان قلة المعلومات التى وصلتنا عن هاتين اللعبتين كانت السبب الرئيسى فى عدم القاء الضوء الكافى عليها •

بيد أنه فى الوقت الذى ضنت علينا فيه المصادر العربية وغيرها بمعلوماتها عن لعبتى القراح والطبطاب ، الا أنها قد أفاضت بصدد لعبتى الكرة والقبق • أما الكرة أو الأكرة ، فقد عرفت بأسماء متعددة أغلبها فارسى الصوالجة مفرد صولجان (٧) أو الجوكان (٨) نسبة الى العصا الذى تلعب به ، وهى عبارة عن

---

(١) محمد مصطفى ، مخطوط مصور فى تعليم فنون القتال والفروسية ، مجلة المجمع العلمى المصرى ، المجلد ٥١ ، ١٩٦٩ / ١٩٧٠ ، لوحة ٩ ، ص ١٣ •

(٢) M. Mostafa, Miniature Paintings, BIE, LII, pls. 32, 33 ; Mercier, La chasse et les sports chez les arabes, Paris, 1927, pp. 206-210;

حسن الباشا ، التصوير الاسلامى ، شكل ٢١ ، ص ١٧٨ •

(٣) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، ج ٢ ، ص ٤٤٦ •

(٤) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٢٥ •

(٥) فيليب حتى ، تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٤١٦ •

(٦) عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية ، ص ١٤٣ ، احمد تيمور ، لعب العرب ، ص ٥٤ _ ٥٥ •

(٧) الصولجان هو العصا الذى نضرب به الكرة وهو معكوف فى جزئه العلوى أنظر :
M. Quaremère, Histoire des sultans mamlouks de l'Egypte Paris, 1844-845, I, p. 124; D. S. Rice, Studies in islamic metal work, BSOAS, XIV/111, (1952), p. 372.

(٨) اما الجوكان فهو أيضا المحجن الذى نضرب به الكرة ويعبر عنه خطأ بالصولجان وهو عبارة عن عصا مدهونة طولها نحو من أربعة أذرع وبرأسها خشبة مخروطة معقوفة تزيد عن نصف ذراع أنظر : الخالدى ، ديوان الانشاء ، مخطوط محفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٤٤٣٩

كرة كانت تصنع من مادة خفيفة كالفلين ونحوه ، وتلقى فى أرض الميدان فيتسابق الفرسان الى التقاطها بالصولجان أو الجوكان حيث يرسلون الكرة فى الهواء وهم على ظهور الخيل ويرجح أنها ظهرت للمرة الأولى فى بلاط الفرس حوالى القرن الرابع قبل الميلاد (١) ، حيث انتقلت منه الى بلاد العرب (٢) بيد أننا لم نسمع عنها فى بلاط بنى أمية (٣) ، فى الوقت الذى يحدثنا فيه المسعودى بأن هارون الرشيد هو أول من لعبها من خلفاء بنى العباس (٤) كذلك كان الخليفة المعتصم شديد الرغبة فيها ، ومن لطيف ما روى عنه أنه قسم أصحابه يوما للعب بها فجعل الافشين فى جهة ، وهو فى جهة ، فقال الافشين « يعفينى أمير المؤمنين من هذا » فقال : ولم ، قال : « لأنى ما أرى أن أكون على أمير المؤمنين فى جدل وهزل » فاستحسن ذلك منه وجعله فى حزبه (٥) ٠

كذلك أقبل أمراء بنى طولون على ممارسة هذه اللعبة وشغفوا بها ، اذ شيد لها أحمد بن طولون ميدانا خاصا ، خارج فسطاط مصر (٦) على نمط الميدان الذى ألحقه الخليفة المعتصم بقصر الخلافة بمدينة سامراء (٧) ٠ كما شغف بها خلفاء الدولة الفاطمية ووزراؤهم ٠ فقد ذكر ابن ميسر فى تاريخه بأن الخليفة العزيز كان أول خلفاء هذه الدولة وأكثرهم اقبالا على لعب الكرة (٨) ،

ورقة ١٢٩ أ ، المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٥ ، حاشية (١) ، القلقشندى ، صبح الاعشى فى صناعة الانشاء ، القاهرة ١٩١٤ — ١٩٢٨ ، ج ٥ ، ص ٤٥٨ ، السبكى ، معيد النعم ومبيد النقم ، لندن ١٩٠٨ ، ص ٣٥

Quatremère, Sultans, I, p. 122 ; Rice, Studies, BSOAS, XIV/111, p. 572; Ahmad Abd ar-Raziq, Deux jeux. ds. Annales Islamologiques, XII, (1947), p. 107.

(١) الاصفهانى ، الآغانى ، ج ٣ ، ص ١٠١ ٠

(٢) من المعروف ان هذه اللعبة وجدت أيضا منذ عصر متاخر فى كل من بلاد التبت والهندالا انه من الصعب علينا تحديد الوطن الأصلى لها أنظر :

Mercier, La chasse, p. 223.

(٣) زعمت بعض الكتابات بأن الرسول صلى الله عليه وسلم مارس هذه اللعبة أنظر : ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، بيروت ١٩٥٠ ، ص ١٣٩ — ١٤٠ ، حاشية (أ) ٠

(٤) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٣٤٨ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص ١٦٣ ، جورجى زيدان ، التمدن الاسلامى ، ج ٥ ، ص ١٥٩ ، عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية ص ١٤٣ ٠ العصر العباسى : ص ٢٤٥ ٠

(٥) جورجى زيدان ، التمدن الاسلامى ، ج ٥ ، ص ١٥٩ ، حسن عبد الله العباسى ، آثار الأول فى ترتيب الدول ص ١٣٠ ٠

(٦) المقريزى ، خطط ، ج ١ ، ص ٣١٣ ، ج ٢ ، ص ١٩٧ ٠

(٧) P. Schwarz, Die Abbassiden residenz Samarra, p. 21 : Ahmad Abd ar-Raziq, Deux jeux, ds. Annales Islamologiques, XII, p. 109.

(٨) ابن ميسر ، اخبار مصر ، تحقيق مارسيه ، القاهرة ١٩١٩ ، ج ٢ ، ص ٥٢ ٠

على حين أشار المقريزى بأن الوزير شاور كان من أجل أمراء هذه الدولة وأجودهم لعبا بالكرة (١) .

وشغف أيضا ملوك بنى أيوب بلعب الكرة مثل نور الدين زنكى الذى اعتبرها نوعا من رياضة النفس والبدن (٢) ، والذى بلغ من شغفه بها أن لعبها بالليل مثل النهار (٣) . وكذا نور الدين ، الذى اعتقد كل من رآه أنه سوف يصطدم يوما بالأرض من شدة عدوه بالخيل أثناء ممارسته لها (٤) . ويفهم أيضا من المصادر المعاصرة ان ابنه صلاح الدين كان يفوق الناس جميعا فى لعب الكرة ، ومن أجل هذا قربه نور الدين اليه وألحقه بخواصه وكان لا يفارقه فى سفر ولا حضر (٥) . أما السلطان الصالح نجم الدين فقد فاق جميع أمراء هذه الأسرة شغفا بلعبة الكرة فشيد برسمها ميدانا بأراضى اللوق من بر الخليج الغربى وجعل فيه مناظر جليلة تشرف على النيل ، وصار يركب اليه ويلعب فيه بالكرة (٦) ، بل ذهب أبعد من ذلك حين نصح ابنه توران شاه بألا يدخل فى بلاطه أحـدا لا يجيد على الأقل هذه اللعبة (٧) ، ولقد بلغ من اهتمام هـذا السلطان بلعبة الكرة أن أمر صناع التحف بنقش بعض صورها على الأوانى التى كانت تصنع خصيصا له وبرسمه ، اذ وصلنا من عصره طست من النحـاس المكفت بالذهب والفضة يزينه رسوم تمثل لعبة الكرة تتألف من أربعة فرسان بأيدى كل منهم عصا طويلة تشير الى الجوكان يقاذفون بها الكرة فى الهواء (٨) ، من فوق ظهور الخيل التى تبدو فى حالة ركض (لوحة رقم ٧ شكل ب) كذلك يحتفظ متحف الفن الاسلامى بالقاهرة بطست آخر يحمل اسم السلطان نفسه ، من النحاس المكفت بالفضة ويزينه أيضا بعض الرسـوم التى تشير الى هـذه

---

(١) المقريزى ، خطط ، ج ٢ ، ص ١٣ .

(٢) أبو شامة ، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، القاهرة ١٢٨٧ هـ ، ج ١ ، ص ٨ .

(٣) أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٨ .

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، القاهره ١٩٥٣ ، ج ١ ، ص ٤١ .

(٥) أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

(٦) المقريزى ، خطط ، ج ٢ ، ص ١٩٦ ، القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ٣٧٨ .

(٧) النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، ج ٢٦ ، ورقة ١٨٧ ب .

(٨) Kuhnel, Meisterwerke der muhammedanischen kunst, Munich, 1910 ; II, p. 147 ; Rice, Studies, BSOAS, XIV/111, (1952), pl. 9b ; Migeon, Exposition des arts musulmans, Paris, 1927, 11, pp. 51-52; Ahmad Abd ar-Raziq, Deux jeux, ds. Annales Islamologiques, XII, pl. XI/ A., fig. 2.

اللعبـة (١) حيث نشاهد عليه مناظر لفارس يمسـك فى يده اليسرى بعصا طويلة ترمز الى الجوكان ، داخل جامة مفصصة ، فوق أرضـية من الزخارف النباتية (لوحة رقم ٨ شكل أ) ٠

كذلك شغف سلاطين المماليك بهذه اللعبة وأنشأوا لها الميادين كالميدان الظاهرى الذى شيده السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى بعد ما انحسر ماء النيل وبعد عن الميدان الصالحى وجعله يرسم لعبة الكرة (٢) ، حيث ظل كذلك حتى سنة ٧١٤هـ /. ١٣١٤م فهدمه السلطان الناصر محمد بن قلاوون وشيد مكانه الميدان الناصرى فيما بين مدينة مصر والقاهرة ٠ وخصصه أيضا لهذه اللعبة ، وكان يركب اليه دائما يوم السبت فى قوة الحر بعد وفاء النيل مـدة شهرين من السنة (٣) ٠ ويفهم أيضا من المصادر المعاصرة ان هذا السلطان أنشأ عدة ميادين أخرى برسم لعبة الكرة نذكر منها ميدان القلعة الذى ابتدأ فى عمارته سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م فوق بقايا الميدان الطولونى وجعله فسيح المدى يسافر النظر فى أرجائه ، ولما اكتمل نزل اليه ولعب فيه الكرة مع امرائه ، واستمر يلعب فيه يومى السبت والثلاثاء من كل أسبوع (٤) ، وميدان المهارى الذى شيده سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م ــ بالقرب من قناطر السباع فى بر الخليج الغربى ولعب فيه الكرة مع الخاصكية (٥) ، وكذلك ميدان سرياقوس الذى شيده بالقرب من خانقاته سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م ، والذى كان يتوجه اليه فى كل سنة ويقيم به الأيام ، ويلعب فيه بالكرة وقد ظل هذا التقليد مستمرا بعد وفاته الى أن أبطله السلطان الظاهر برقوق فى سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م (٦) ٠

كذلك أعد سلاطين المماليك لهذه اللعبة ما يلزمها من خيول وأدوات (٧) ، بل وخصصـوا لها موظفين من المماليك يشرفون عليها يسـمى الواحد منهم

---

(١) Wafiyyah 'Izzi, An ayyubid basin of al-Salih Najm al-Din, in Studies in Islamic art and architecture in the hounour of professsor K.A.C. Creswell, Le Caire, 1965, pp. 253-259, fig. 1, 2, 8 9 ; Ahmad Abd ar-Raziq, Deux, jeux, pl. XI/B, fig. 5.

(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٩٨ ٠

(٣) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٠٠ ٠

(٤) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٢٢٦ ــ ٢٢٧ ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ١٢٣ ٠

(٥) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ١٩٧ ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٢١٠ ٥٢٥ ــ ٥٢٦ ٠

(٦) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ١٩٧ ٠

(٧) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٥٤ ٠

جوكندار ، أي الذي يحمل الجوكان (١) وجعلوا رنكه عصوين (٢) (لوحة رقم ٨ شكل ب) ، كما اعتادوا عند الخروج للعب الكرة ان يفرقوا حوائص من ذهب على بعض الأمراء المقدمين (٣) .

وشهد الرحالة تافور الذى زار مصر زمن المماليك الجراكسة أحد سلاطين المماليك وأمراءه يلعبون الكرة فذكر ان الميدان الفسيح الذى لعبوا فيه كان مقسما ومخططا بخطوط بيضاء وعلى جانبى الميدان عدد كبير من فرسان المماليك بيد كل منهم عصا طويلة وفي وسط الميدان كرة ، ويكون اللعب بأن يحاول كل جانب اجتذاب الكرة الى جانبه ، والذى ينجح فى ذلك تكون له الغلبة (٤) . وكان اللاعبون بعد الفراغ من لعبهم يدخلون الحمام الساخن ويدلكون (٥) ، ومن شروط اجادة اللعب ان يضرب اللاعب الكرة ضربة خلسة ، ويكون ضربه متشازرا مترفقا مترسلا ، وان يتوخى الضرب للكرة تحت مخزم الدابة من قبل لبتها فى رفق ، وان يستعين بسوط يؤثر فى الأرض بالصولجان أو يكسره ، أو يعقر قوائم دابته ، وعليه ان يحترس أيضا من ايذاء من جرى معه فى الميدان وأن يحسن الكف للدابة فى شدة جريانه ، متوقيا من الصرعة والصدمة فى تلك الحال ، وأن يجانب الغضب ويتحفظ من القاء كرة على ظهر بيت ، وان يتجنب طرد النظارة والجالسين على حيطان الميدان ، لان عرض الميدان انما جعل ستين ذراعا لئلا يجال ولا يصال من جلس على حائطه (٦) . وجرت العادة أن يقوم المهزوم فى اللعب بعمل مهم حافل أو وليمة كبيرة وربما وصلت تكاليف هذه الوليمة الى مائتى ألف درهم نظرا لما كان يذبح فيها من مئات المواشى والخيول والطيور ، عدا الحلوى والمشروبات (٧) . وفى بعض الأحيان كان

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٥٨ ، حسن الباشا ، الفنون والوظائف على الآثار العربية ، القاهرة ١٩٦٦ ، جـ ٢ ، ص ٣٧٣ — ٣٧٧ ،

Gaudefroy — Demombynes, La Syrie à l'époque des mamlouks, d'après les auteurs arabes, Paris, 1923, p. LXV.

(٢) Mayer, Saracenic Heraldry, Oxford, 1933, p. 5.

أحمد عبد الرازق ، الرنوك على عصر سلاطين المماليك ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الحادى والعشرين (١٩٧٤) ، ص ٦٨ ، ٧١ — ٧٥ .

(٣) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٢٠٠ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٥٢ — ٥٥ ، سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٧١ .

(٤) P. Tafur, Travels and adventures, London, 1926, p. 80.

(٥) تاريخ الطبرى ، جـ ٣ ، ص ١٣٢٧ ، متز ، الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ٢٦٢ .

(٦) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ص ١٦٦ — ١٦٧ ، كتاب علم الضرب بالصولجان ، مخطوط باسطنبول ، ورقة ١٢ أ .

(٧) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٧٢٤ ، ٧٨٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم جـ ١٠ ص ١٥٥ .

السلطان يتحمل نفقات هذا المهم ـ رغم انه الغالب ـ وذلك تخفيفا عن المغلوب (١) ٠

وقد حفظت لنا روائع التحف المملوكية أيضا بعض مناظر هذه اللعبة زمن سلاطين المماليك ، اذ عنى بعض فنانى هذا العصر بتسجيلها فوق منتجاتهم الفنية ،مثال ذلك طست من النحاس المكفت بالذهب والفضة باسم فاطمة ابنة الأمير سنقر الأعسر ينسب الى أواخر القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، ومحفوظ بمتحف بناكى فى أثينا (٢) ، يزينه زخارف متنوعة من بينها ثلاث جامات دائرية الشكل يضم كل منها نقشا لفارس وضعه ثلاثية الأرباع ، الأول يحمل كرة فى يده اليسرى ، فى الوقت الذى ارتفعت فيه اليد اليمنى ممسكة بالجوكان خلف رأسه ، أما اللاعب الثانى فقد رفع العصا بيده اليمنى ، على حين استعد اللاعب الثالث لقذف الكرة بالمحجن الذى يوجد فى يده اليسرى ٠ ووصلنا أيضا قارورة من الزجاج المموه بالميناء المتعددة الألوان محفوظة بمتحف الفن الاسلامى ببرلين ، وتنسب الى نفس الفترة تقريبا (٣) ٠ قوام زخرفتها مجموعة من اللاعبين فوق ظهور الخيل وقد أمسك بعضهم بمحجن طويل فى يده اليمنى وأخذ وضعه استعدادا لقذف الكره التى توجد أسفل المحجن ٠

ومن الألعاب الرياضية التى أقبل المسلمون عليها ومارسوها فى أوقات فراغهم ، لعبة القبق ، وهى كلمة تركية تعنى القرعة العسلية ، والأصل فيها هو اتقان علم ركوب الخيل وحبس رؤوسها باللجم ، والتدريب عليها فى الكر والفر ، حتى يتعودها الفارس ، ويصير له ذلك عادة (٤) ٠ وتفصيل هذه اللعبة هو ان يجعل فى الميدان حبل معترض مرتفع على خشبتين ، ويجعل القبق فى

---

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٩٠٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٢ ص ٨٠ ـ ٨١ ، ابن حجر ، أنباء الغمر بأنباء العمر ، القاهرة ١٩٦٩ ـ ١٩٧٢ ، ج ٢ ، ص ١٥ ، ابن اياس ، بدائع الزهور طبعة بولاق ج ١ ، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ ٠

(٢) Wiet, Matériaux pour uncorpus inscriptionum arabicarum, Egypte, MIFAO, LII, 11, Le Caire, 1930, p. 199 ; L.A. Mayer, Saracenic, pl. XX/1 ; Rice, Studies, BSOAS. XIV/111, (1952), pp. 564-573, fig. 3-5, pl. 6 ; Ahmad Abd ar-Raziq, Deux jeux, figs. 6-8, pl X111/A.

(٣) Diez, Die kunst der islamischen volker, Berlin, 1915, p. 151. fig. 254 ; Kuhnel, Meisterwerke, 11, pl. 167; Lamm, Mittelaterlich gläser, Berlin, 1929, 1, p. 368 ; II, pl. 158/2 ; Museum für Islamische hunst, Berlin, Katalog 1917, p. 134, pl. 10.

(٤) طيبغا الاشرفى ، كتاب بغية المرام وغاية الغرام فى الرمى بالنشاب ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٣ فروسية ، ورقة ١٨ ب ٠

وضع متوسط بين الخشبتين ، ويكون سوق الرماة عند الرمى من تحت الحبل ، وفى بعض الأحيان كان يستعاض عن الحبل برسم دائرة اتساعها عشر باعات ، يكون القبق فى مركزها ، ثم يرمى اللاعبون الى السماء لاصابته (١) • وقد ينصب أيضا خشبة عالية فى ميدان اللعب ويعمل فى أعلاها شكل قرعة عسلية من ذهب أو فضة ويكون فيها طير حمام • ثم يأتى اللاعبون للمباراة فى رمى الهدف بالنشاب أو السهام وهم على ظهور الخيل ، فمن أصاب القرعة أو أطار الحمام حاز السبق وأخذ القرعة المعدنية نفسها (٢) وقد حذرت كتب الفروسية والرماة على القبق من لطمة الفرس واصطدامها فى خشبة القبق ، وأوصتهم بأن يجعلوا ما بينهم وبينها من البعد مسافة معينة قدر باع ، كما أوصتهم بأن يختبروا الخيل قبل الرمى عليها ، وذلك بترويضها على الجرى والدخول نحو الخشبة والعـــلامة مرات ، حتى يرى الفرس ذلك ويعرفه ، قبل البـــدء فى الرمى (٣) •

وقد شاعت هذه اللعبة بصفة خاصة زمن ســلاطين المماليك (٤) الذين أقبلوا على ممارستها ليس فقط فى الأيام العادية ، بل أيضا فى شتى المناسبات اظهارا لشعورهم كما حدث فى سنة ٦٩٢هـ / ١٣٩٣م عندما أمر السلطان الاشرف خليل بلعب القبق ، وذلك بسبب ظهور أخيه الناصر محمد بن قلاوون وكذا ظهور ابن أخيه الأمير مظفر الدين موسى بن المالك الصالح علاء الدين على ابن قلاوون ، فنصب القبق تحت القلعة مما يلى باب النصر ، وفرفت الأموال والخلع على من أصاب رمية (٥) • وتروى المصادر المعاصرة أن الأمير بدر الدين بيسرى قد رماه ما لم يرمه غيره قبله ، اذ اقترح له سرجا وطىء الرادفة جدا ، ثم سار نحو صارى القبق ، والعادة جارية ان الرامى لا يرميه الا اذا صار بجانب الصارى ، بيد أن الأمير بدر الدين ساق الى أن تعدى الصارى ، فاعتقد الناس أنه قد فاته الرمى ، الا أنه استقر على ظهر فرسه حتى صار رأسه على كفل

---

(١) طيبغا الاشرفى ، بغية المرام ، ورقة ٢١ ب •

(٢) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ١١١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ١٦ •

(٣) طيبغا الاشرفى ، بغية المرام ، ورقة ٢١ ب •

(٤) عن تاريخ هذه اللعبة أنظر التفاصيل فى :

J. T. Reinaud, De l'art militaire chez les Arabes au Moyen-Age, JA, XII, (1848), pp. 219–221 ; Ahmad Abd ar-Raziq, Deux jeux, Annales Islamologiques, XII, (1974), pp. 96-107.

(٥) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٥٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ١٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، القاهرة ١٩٣٢ — ١٩٣٩ ، جـ ١٣ ، ص ٣٣٢ ، زتير شتين ، تاريخ سلاطين المماليك ، ليدن ١٩١٩ ، ص ٢٣ •

الفرس ورماه وهو كذلك بعد أن تعداه ، فأصاب القرعة وكسرها ، فصرخ الناس لذلك واستعظموه وظهرت للسلطان فائدة السرج • فأنعم عليه بخمسة وثلاثين ألف درهم وعظم فى صدر الناس « وعلموا عجزهم بما أتى به وفعل ما فعل » (١) •

وبلغ من اهتمام سلاطين المماليك بلعبة القبق أن شيد لها السلطان بيبرس البندقدارى ميدانا خاصا خارج القاهرة من شرقيها ، عرف بميدان القبق ، وبميدان العيد ، وبالميدان الأسود ، وبالميدان الأخضر ، وأيضا بميدان السباق (٢) ، وصار ينزل اليه كل يوم من الظهر الى عشاء الآخرة ، وهو يرمى ويحرض الناس على الرمى والنضال والرهان • فما بقى أمير ولا مملوك الا وهذا شغله ، وتوفر الناس على لعب الرمح ورمى النشاب • وما برح هذا الميدان فضاء من قلعة الجبل الى قبة النصر ليس فيه بنيان الى أن كانت سلطنة الناصر محمد ابن قلاوون ، فترك النزول اليه ، وبنى مصطبة برسم طعم طيور الصيد بالقرب من بركة الحبش وصار ينزل هنالك • ثم ترك تلك المصطبة فى سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م وعاد الى ميدان القبق هذا وصار يركب اليه للرمى على القبق على عادة من تقدمه من الملوك الى « أن بنيت فيه الترب شيئا بعد شىء حتى انسدت طريقه ، واتصلت من ميدان القبق الى تربة الروضة خارج البرقية ، وبطل السباق منه ورمى القبق فيه من آخر أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون (٣) •

بقى أن نشير الى أن مخطوطات الفروسية التى تنسب الى هذا العصر قد اشتملت على بعض التصاوير التى توضح طريقة الرمى على القبق وكيفية الدخول فيه (٤) من بينها تصويرة محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس (٥) تنسب الى

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، بيروت ١٩٣٦ ــ ١٩٤٢ ، جـ ٣ ، ص ١٥٨ ، النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، جـ ٢٩ ، ورقة ٣٠٤ ب ، المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٨٦ ، الذى يشير الى حصوله على خمسة وثلاثين الف دينار ، خطط ، جـ ٢ ، ص ١١١ •

(٢) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ١١١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ١٨٧ ــ ١٨٨ ، سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ١٩٢ •

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٥٤٠ ، خطط ، جـ ٢ ، ص ١١٣ •

(٤) M. Mostafa, Miniature Paintings in some Mamluk manuscripts, BIE, LII, (1972), pls. 24-25; An illustrated manuscript on chivalry from the late circassian Mamluk period, BIE, LI, (1970), pl. XIV ; Ahmad Abd ar-Raziq, Deux jeux, pl. VIII-IX.

نبيل محمد عبد العزيز ، الخيل ورياضتها فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ١٨٢ ، شكل ٤ •

(٥) De Slane, Catalogue des manuscripts arabes, Paris, 1883-1895, p. 508, no. 2824.

عصر السلطان الأشرف قايتباى سنة ٨٧٥ هـ / ١٤٧١ م ، تمثل فارسين متواجهين يعدوان بجواديهما فى وضعة ثلاثية الأرباع ، حيث يحاول كل منهما اصابة هدف على هيئة قرعة ، مرفوع فوق صارى طويل عن طريق اطلاق سهم من قوس فى يده (لوحة رقم ٩ شكل ب) ٠

وكانت السباحة أيضا من أهم أنواع التسلية عند المسلمين ، فقد أشارت المصادر العربية الى اقبال شباب بغداد على عهد الخليفة المستكفى بالله على تعلم المصارعة والسباحة حتى صار الواحد منهم يسبح وعلى يده كانون وفوقه قدر ، ويستمر فى سباحته حتى ينضج اللحم (١) ونقرأ أيضا عن السلطان المملوكى الظاهر بيبرس البندقدارى الذى عرف بولعه الشديد بالسباحة لمسافات طويلة أنه سبح مرة فى النيل وهو يرتدى ملابس الحرب ، ويسحب خلفه بعض أمرائه جالسين على عوامة مسطحة (٢) ٠

ومن وسائل التسلية التى أقبل المسلمون عليها ، والتى يمكننا أن نضعها فى مرتبة الألعاب الرياضية ، سباقات الخيل ، التى حظيت بعناية الخلفاء واهتمامهم لما عرف عن الرسول صلى الله عليه وسلم من حبه للخيل ، حتى قيل أنه كان يمسح فرسه بثوبه ، ويجرى الخيل ويسابق بها ، بل ويراهن عليها أيضا (٣) لما فى ذلك من فوائد « على التمرن على القتال والحذق فيه ورياضة الأعضاء » (٤) ٠ ويروى أيضا أن الخليفة عمر بن الخطاب قد أمر بالسباق فى الكوفة (٥) ٠ كذلك عنى بنو أمية بسباق الخيل ، وأقاموا الحلبات للسباق

---

(١) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٩٧ ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، جـ ٣ ، ص ٤٦٠ ، متز ، الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ٢٦٣ ٠

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٠٨ ، محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٥٢ ، سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٧٤ ٠

(٣) ابن هذيل ، كتاب حلية الفرسان وشعار الشجعان ، ص ١٤١ ــ ١٤٢ ، واصف بطرس غالى ، تقاليد الفروسية عند العرب ، ترجمة أنور لوقا ، ص ١٦٩ ، عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية ، ص ١٣٩ ، أحمد شلبى ، موسوعة النظم والحضارة الاسلامية ، جـ ٥ ، ص ٢١٥ ــ ٢١٦ ، النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٩ ، ص ٣٧١ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ ١ ، ص ٨٩ ، السبكى ، معيد النعم ، ص ٤٦ ، ابن قيم الجوزية ، الفروسية ، تحقيق عزت العطار ، القاهرة ١٩٤٢ ، ص ٣ ، نبيل محمد عبد العزيز ، الخيل ورياضتها ، ص ٧٢ ٠

(٤) السخاوى ، القول التام فى الرمى بالسهام ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢ م فنون حربية ، ورقة ٢٤ ب ٠

(٥) ابن هذيل ، كتاب حلية الفرسان ، ص ١٤٣ ٠

مثل الوليد بن عبد الملك (١) وأخوه سليمان الذى ذكر عنه أنه أعد العدة لسباق عظيم تشترك فيه خيول الأمة ولكنه مات قبل أن تجرى الحلبة (٢) . أما أخوهما هشام فقد اجتمع له فى احدى الحلبات من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس ، « ولم يعرف ذلك فى جاهلية ولا اسلام لأحد من الناس » (٣) . وكانت أحب بناته اليه ، ولوعة مثله باقتناء الخيل للسباق (٤) ، ويفهم أيضا من المصادر التاريخية أن الوليد الثانى كان مغرما بالخيل وجمعها وكذا اقامة الحلبة ، حتى اجتمع له فيها ألف قارح ، كما أنه جمع بين الفرس المعروف بالزائد ، والفرس المعروف بالسندى وكانا قد برزا فى الجرى على خيول زمانهما (٥) .

وكان سباق الخيل أيضا من أجمل وأمتع أنواع التسلية عند خلفاء بنى العباس وأمرائهم ووزرائهم ، لدرجة أنهم تنافسوا فيما بينهم على تربية خيل السباق ، اذ يحدثنا الجهشيارى بأن الخليفة هارون الرشيد أمر جعفر بن يحيى البرمكى أن يتخذ خيلا يجريها فى الحلبة ، فأجرى جعفر خيله يوما بالرقة ، فسبقت خيل الرشيد (٦) . وأنه كان من عادة هذا الخليفة أن يسير الى مجلسه فى صدر الميدان المخصص للسباق حيث تتوافد عليه الخيل ، وان خيله كانت تتميز عادة عن خيل ابنه المأمون ، حيث اشتهر منها فرس له اسمه الربد كان يسر به (٧) كثيرا .

كذلك عنى أحمد بن طولون بحلبات السباق ، فبنى مكانا لعرض الخيل سماه المنظر ، واعتبره القضاعى أحد عجائب الاسلام الأربعة (٨) ذلك أن حلبة السباق عند الطولونيين لا سيما فى أيام خمارويه — كانت بمثابة الأعياد لما يصحبها من اقامة معالم الزينة ، وركوب الغلمان والعساكر على كثرتهم بالعدد

---

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ٦ ، ص ١٣ — ١٧ .

(٢) ابن الجوزى ، سيرة عمر ، ص ٥٦ ، فيليب حتى ، تاريخ العرب ، جـ ٢ ؛ ص ٢٩٦ .

(٣) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٢٠٥ .

(٤) كتاب العيون والحدائق فى أخبار الحقائق ، ليدن ١٨٦٨ — ١٨٧١ ، ص ٦٩ .

(٥) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٢١٧ — ٢١٩ ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، جـ ١ ، ص ٥٤٩ .

(٦) الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الأبيارى ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ٢٠٧ .

(٧) ابن هذيل ، كتاب حلية الفرسان ، ص ٦٤ ، عبد المنعم ماجد ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٤٠ .

(٨) أشار القضاعى الى أن عجائب الاسلام الأربعة هى : هذا العرض ، ورمضان بمكة ، والعيد بطرسوس ، والجمعة ببغداد أنظر : المقريزى ، خطط ، جـ ١ ، ص ٣١٨ — ٣١٩ .

الكاملة والأسلحة التامة (١) • وجرت العادة فى مثل هذه الحلبات أن يجلس الناس لمشاهدة السباق ، حيث تطلق الخيل على غايتها ، فتمر متفاوتة ، يقدم بعضها بعضا حتى نهاية الشوط ، بل بلغ من شغف الناس بسباق الخيل وتقديرهم له ان السابق كان يستولى على الحصان المسبوق فى بعض الأحيان (٢) •

وشرع الأخشيد أيضا فى اجراء حلبة السباق فى سنة ٣٢٤ هـ / ١٩٣٦ م على رسم أحمد بن طولون (٣) • كما أصبح عرض الخيل جزءا من رسوم الخلافة الفاطمية (٤) فكان يخصص يوم قبل الموكب الرسمى ، لعرض الخيل يحضره الخليفة وكبار رجال دولته • وتمدنا المصادر العربية أيضا بصورة حية عن سباق الخيل فى زمن سلاطين المماليك • فالسلطان بيبرس البندقدارى مثلا كان يأمر العسكر بالركوب الى الميدان الأسود تحت قلعة الجبل فى أحسن زى للتريض على ظهور الخيل حيث يزدحم الناس بالميدان للفرجة عليهم على مدى خمسة أيام (٥) • ويبدو أن هذا التقليد قد استمر الى أيام السلطان المنصور قلاوون وابنه الأشرف خليل ، اذ يحدثنا المقريزى بأن الأمراء والمماليك السلطانية كانت تسابق بالخيل فى هذا الميدان أمامهم (٦) • وأثر عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون حبه أيضا للخيل وللسباق اذ بلغت عدة خيول الجشارات فى أيامه نحو ثلاثة آلاف فرس ، عدا أربعة آلاف وثمانمائة أخرى فى الاصطبلات(٧) وكان يدفع فى الفرس العشرة والعشرين والثلاثين ألف درهم ، بل قيل انه اشترى بنت الكرماء (٨) بمائتى ألف درهم (٩) وهذا شىء لم يقع لأحد من قبله ولا من بعده ، لان المائتى ألف هذه كانت تساوى حينذاك عشرة آلاف

(١) المقريزى ، خطط ، ج ١ ، ص ٣١٨ ، متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، ج ٣ ، ص ٤٦٠ •

(٢) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، ج ٣ ، ص ٤٦٠ •

(٣) ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب والمشرق فى حلى المشرق ، ليدن ١٨٩٨ ـ ١٨٩٩ ، ص ١٨ •

(٤) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٥٠٤ ـ ٥٠٥ ، عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، القاهرة ١٩٥٥ ، ج ٢ ، ص ٨١ •

(٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ١٦٤ ـ ١٦٥ •

(٦) المقريزى ، خطط ، ج ٢ ، ص ١١٠ ـ ١١١ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٤٠ •

(٧) المقريزى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١٧٠ •

(٨) ذكرتها المصادر تحت أسماء متعددة منها بنت الكرداى ، وبنت الكرشاء ، أنظر : ابن

(٩) اشار المقريزى أنه اشتراها بمائة ألف درهم ، عنها خمسة آلاف مثقال من الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ •

دينار (١) ٠ كما رسم للأمراء آن يضمروا الخيول فى كل سنة ، وألزم كل واحد منهم بتضمير أربعة أفراس ، فى الوقت الذى أوصى فيه أمير أخور أن يضمر له عدة منها على أن يكتم خبرها ، خشـية أن يسبقها فرس لأحـد الأمراء ، فلا يحتمل ذلك ٠ فاتفق انه كان عند الأمير قطلوبغا الفخرى حصان أدهم سبق خيل مصر كلها ثلاث سنين متوالية ٠ فبعث اليه الأمير مهنا فرسا شهباء على أنها ان سبقت خيل مصر فهى للسلطان وان سبقها فرس ردت اليه شريطة ألا يركبها أثناء السباق « الا بدوى قادها » ، فركب السلطان الناصر للسباق فى أمرائه على عادته ، ووقف معه سليمان وموسى ابنا مهنا ، وأرسلت الخيول من بركة الحاج على عادتها فيها هذه الفرس ، وقد قادها البدوى المذكور عريا بغير سرج ، فأقبلت سائر الخيول تتبعها حتى وصلت المدى فلما وقفت بين يدى السلطان صاح البدوى : « السعادة لك اليوم يا مهنا ، لا شقيت » فشق على السلطان أن تسبق خيله ، خيل الأمراء وأبطل التضمير على خيله ، وصارت الأمراء تضمر على عادتها (٢) ٠

وتتحدث المصادر المعاصرة أيضا عن السلطان الظاهر برقوق الذى عرض فى سـنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م خيل السـباق وفرقها على الأمراء ، « كما كانت العادة يوم ذاك » (٣) ٠ كما ذكرت أنه مات عن سبعة آلاف فرس ، وخمسة عشر ألف جمل (٤) ٠ ونقرأ كذلك عن السلطان المؤيد شيخ ، الذى ما آن نصل من مرضه فى سنة ٨٢٢هـ / ١٤١٩م حتى ركب ونزل للفرجة على سباق الخيل ، وكان قد أعد له أربعين فرسا ، فأطلق اعنتها من بركة الحاج ، فأجريت منها حتى أتته ضحى النهار « فحصل له برؤيتها النشاط » (٥) لذلك من الطبيعى ان تشتمل بعض مخطوطات الفروسية والبيطرة المنسوبة الى هذا العصر على رسوم تمثل سـباق الخيل ، من بينها واحـدة من مختصر كتاب البيطرة لابن

---

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١٦٧ ٠

(٢) المقريزى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ ، السلوك ، ج ٢ ص ٥٢٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ١٦٩ ٠

(٣) المقريزى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٢ ، ص ٩٢ ، ابن ايأس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٢ ٠

(٤) المقريزى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٢٩ ٠

(٥) المقريزى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٥٠٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٤ ، ص ٨٨ ، الصيرفى ، نزهة النفوس والابدان فى تواريخ الزمان ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٤ ، ج ٢ ، ص ٤٤٨ ٠

الأحنف (١) المحفوظ بدار الكتب المصرية ، تمثل فارسين يتسابقان (لوحة رقم ١٠ شكل أ) .

ويعتبر الصيد والقنص أيضا من أهم أنواع التسلية عند المسلمين ، « لما فى ذلك من تمرين النفوس على اكتساب التأييد وحصول المسرة بكل ظفر جديد » (٢) . ولهذا الغرض اهتم العرب بالصيد فى الجاهلية وفى الاسلام ، حيث اتخذوا من الطير وهى الباز والشاهين والعقاب والصقر يعلمونها صيد الطيور (٣) ، وغالوا فى اقتناء الكلاب والفهود (٤) ونحوها للاستعانة بها على صيد الخنازير والغزلان وحمر الوحش وغيرها وكان يزيد بن معاوية من أشد الأمويين كلفا بالصيد ، حتى قيل انه كان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب ، والجلاجل المنسوجة منه ، كما قيل أيضا انه عين لكل كلب عبدا يقوم على خدمته ، وأنه شرع فى تعليم الفهود طريقة الجلوس على أكفال الجياد (٥) .

وكان العباسيون يتسلون أيضا بالصيد حيث تفننوا فى تربية الجوارح والكلاب والفهود وغالوا فى انتقائها ، وبذلوا الأموال فى اقتنائها بل وأقاموا عليها أناسا ينظرون فى شئونها كالبيازرة والحجالون ، والفهادون ، وأصحاب الصقور والكلاب ، وأطلقوا لهم الأرزاق الجليلة ، وأقطعوهم الأقطاعات السنية ، ومن ثم فقد تسابق الشعراء فى وصف هذه الجوارح وحركاتها وسرعتها وخصالها (٦) ، وكتبوا فى فنون الصيد وأساليبه كتبا عدة مثل كتاب البزاة والصيد ، وكتاب مصائد الشوارد (٧) . كما أشارت المصادر المعاصرة الى

---

(١) ابن الأحنف ، مختصر كتاب البيطرة ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٨ طب ، خليل أغا .

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ١٤ ، ص ١١٦ .

(٣) عن الصيد بالصقر أنظر : Ahmad Abd ar-Raziq, La chasse au faucon ds. Annales Islamologiques, IX, pp. 109-121 ; F. Viré, Le traité de l'art de volerie, (Kitab al-Bayzara), Arabico, XII, (1965), pp. 277-278;

سعاد ماهر ، البيزرة فى التاريخ الآثار ، مجلة الدارة ، العدد الأول (١٩٧٧) ، ص ٩٢ ـ ١١٥ .

(٤) عن الصيد بالفهد أنظر :

Ahmad Abd ar-Raziq, La chasse au guépard d'après les sources arabes et les oeuvres d'art musluman, Arabica, XX-1, (1973), pp. 11-24.

(٥) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص ٧٦ ، المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٦٧ ، جورجى زيدان ، التمدن الاسلامى ، جـ ٥ ، ص ٥٦ ، فيليب حتى ، تاريخ العرب ، جـ ٢ ، ص ٢٩٦ ، عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية ، ص ١٤١ .

(٦) ابن العباس ، آثار الأول فى ترتيب الدول ، ص ١٣٦ ، انظر أيضا ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ ، الاصفهانى ، الأغانى ، جـ ٩ ، ص ١١٦ ، الجاحظ ، كتاب الحيوان ، جـ ٢ ، ص ٥٢٣ .

(٧) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق احسان عباس ، جـ ٤ ص ٧٤ ، جـ ٦ ، ٦٢ .

ولع الأمين بصيد السباع بصحبة الفرقة المعروفة بأصحاب اللبابيد (١) ، والى أخيه صالح الذى شغف بصيد الخنازير (٢) • ويفهم أيضا من المؤلفات العربية القديمة ان الخليفة المهدى كان ولعا بالصيد ، حتى أنه ربما مات أثناء حادثة صيد (٣) • أما المعتصم فقد ذكر أنه بنى فى أرض دجيل قرب بغداد حائطا على هيئة نعل الفرس ، طوله فراسخ كثيرة ، وجعل طرفيه جهة نهر دجلة ، حيث يقوم رجاله بمطاردة الصيد حتى يتم حصره بين الحائط والنهر ، ولا يبقى مجال للنجاة ، فيقبل الخليفة وأولاده وأقاربه وخواصه وحاشيته ويتأنقون فى القتل والصيد ، ويتفرجون ثم يطلقون الباقى (٤) • وذكر عنه أيضا أنه كان بقصره فى مدينة سمراء مكان يحفظ فيه الحيوان يعرف باسم « حير الوحش » شأنه فى هذا شأن الخليفة المقتدر الذى اشتمل قصره فى بغداد على دار كان بها قطعان من أصناف الوحوش (٥) •

كذلك أولع خمارويه صاحب مصر زمن الطولونيين بالصيد ولعا شديدا حيث كان يخرج الى الأهرام وغيرها بحثا عن السباع ، وأنه « لا يكاد يسمع بسبع الا قصده ومعه رجال عليهم لبود ، فيدخلون الى الأسد ويتناولونه بأيديهم عنوة وهو سليم ، فيضعونه فى أقفاص من خشب محكمة الصنعة يسع الواحد منها السبع وهو قائم » ، فاذا عاد من صيده سار القفص وفيه السبع بين يديه حيث تجتمع العامة لمشاهدته (٦) •

كذلك كان خلفاء الدولة الفاطمية ، ونخص منهم بالذكر الخليفة العزيز بالله ، الذى اعتاد الخروج الى الصيد وفى رفقته عشرون جملا عليها محامل فيها كلاب الصيد ، حتى عرف بالخليفة الصياد (٧) • وضرب المثال أيضا بمهارة السلطان السلجوقى ملكشاه ، الذى بلغ مجموع ما اصطاده فى أحدى الجولات عشرة آلاف طير ، تصدق عنها بعشرة آلاف دينار (٨) ، بل بلغ من شغفه بالصيد أنه أمر بأن يحفظ بسجل خاص لكل ما كان يصيده ، شاهد الراوندى صاحب

---

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٢١٣ •

(٢) الاصفهانى ، الأغانى ، حـ ٩ ، ص ٩٧ •

(٣) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص ١٦٣ ، عبد المنعم ماجد ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٤٠ •

(٤) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص ٧٣ ــ ٧٤ •

(٥) متز ، الحضارة الاسلامية ، جـ ١ ، ص ٣١٨ •

(٦) المقريزى ، خطط ، جـ ١ ، ص ٣١٨ •

(٧) ابن الحسين ، كتاب البيزرة ، تحقيق كرد على ، دمشق ١٩٥٢ ، ص ٧ ، ٢٤٠ •

(٨) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٧٩ ، عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية ، ص١٤١ •

كتاب راحة الصدور أحدها بخط الشاعر أبي طاهر الخانونى (١) ، وقيل عنه أيضا انه بنى فى السبعينى بطريق مكة منارة من جماجم الحيوانات التى اصطادها كما بنى أخرى مماثلة فى بلاد ما وراء النهر (٢) .

واشتهر أيضا بنو أيوب والمماليك بولعهم الشديد بالصيد حيث أعدوا لها الأحواش فى مختلف أقاليم الديار المصرية وزودوها بالشباك والصيادين (٣) ، كما اهتموا بطيور الصيد وكلابها على اختلاف أنواعها . فأنشأوا لها المطاعم وعينوا لها البازدارية والخولة والكلابزية يشرفون عليها تحت رقابتهم ، حيث وصل اقطاع بعضهم زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قرابة الألف دينار (٤) . وكان هذا الأخير يعشق الصيد ولم يدع أرضا تعرف بصيد الجوارح الا وأقام بها صيادين مقيمين فى البرية فى أوان الصيد . كما جلب الجوارح من الصقور والشواهين والسناقر والبزاة حتى كثرت فى أيامه ، فصار كل أمير عنده منها عشرة سنافر وأقل وأكثر ، وقيل انه ترك بعد وفاته مائة وعشرين سنقرا لخاصه ، ولم يعهد مثل هذا لملك قبله بمصر ، بعكس الحال زمن أبيه المنصور قلاوون اذ لم يكن هناك سوى سنقر واحد ، كما ترك من الصقور والشواهين ونحوها ما لا ينحصر ، وترك أيضا ثمانين جوقة من كلاب الصيد بكلابزيتها (٥) وكان قد اتخذ لها موضعا بقلعة الجبل (٦) . وأثر عن الأمير تنكز نائب الشام حبه أيضا للصيد اذ كان يركب له فى السنة ثلاث مرات آخرها تعديه الفرات فى الشتاء ، وكان اذا ضرب الحلقة فانها تشتمل على ثلاثمائة غزال ونيف ، وعلى مائتى رأس من بقر ونعام وغير ذلك (٧) . أما السلطان اينال فقد اعتاد أن ينزل بين حين وآخر الى مطعم الطيور ، حيث تطلق البازدارية (٨) طيورا أعدوها ، ثم يطلقون وراءها الطيور الجارحة لاصطيادها

---

(١) Browne, History of Persia from Firdawsi to Sa'dî, London, 1906, II, pp. 183-184.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٧٩ ، جرجى زيدان ، التمدن الاسلامى ، ج ٥ ، ص ١٥٧ حسن ابراهيم ، تاريخ الاسلام ، ج ٤ ، ص ٦٥٥ .

(٣) ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص ١٢٨ .

(٤) المقريزى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٣١ .

(٥) الكلابزية جمع كلابزى وهو الشخص الذى يركب بكلاب الصيد عند السلطان أو الأمير أنظر . السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ ، حاشية (١) ، Dozy, Suppl.

(٦) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٣٠ — ٥٣١ .

(٧) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥١١ — ٥١٢ .

(٨) المقصود بهم هم حملة البزاة أثناء الصيد ، انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٩ .

حتى يتسلى السلطان برؤية هذا المنظر (١) • وجرت العادة عند خروج السلاطين الى الصيد أن ينعموا على أكابر أمراء الدولة بالأموال والخيول ، وكذا حوائص الذهب والسيوف والقماش وغير ذلك (٢) ، وأن يصطحبوا معهم كل من تدعو الحاجة اليه من أطباء وكحالين وأشربة وعقاقير ،، فضلا عن عدد كبير من الخيام• فقد شهد ليناردو فى سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م أكثر من خمسة آلاف خيمة فى موكب السلطان الظاهر برقوق عند عودته من احدى سرحات الصيد (٣) • وكثيرا ما انتهز بعض سلاطين المماليك فرصة الخروج الى الصيد للتحرر من قيود الملك فارتكبوا فى هذه المناسبة كثيرا من المعاصى وتجاهروا بالفواحش • وحسبنا دليلا على ذلك ما كان يفعله السلطان الأشرف شعبان اذ كان يستصحب معه عند خروجه الى الصيد عددا من الغوانى وجرار الخمور وأرباب الملاعيب والملاهى (٤) •

والحق ان اهتمام الخلفاء والسلاطين والأمراء وكبار رجال الدولة بالصيد وولعهم به قد تجلى بوضوح من خلال روائع التحف الاسلامية التى وصلت الى أيدينا ، اذ حرص الفنان المسلم على تسجيل بعض صور هذه الرياضة المحببة على منتجاته الفنية (لوحة رقم ٩ شكل أ) • الا أن كثرة هذه التحف يجعل من الصعب علينا التعرف على أغلبها ، لذلك سوف نقتصر هنا على بعض أمثلتها البارزة • ولعل أقدم هذه الأعمال صورة مائية عثر عليها فى قصر الحير الغربى فى تدمر ، الذى شيده الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك حوالى سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م ، يشاهد فى قسمها الأوسط صورة فارس قد امتطى صهوة جواده الراكض ، وشرع يرمى غزالا بسهم ، على حين سقط آخر جريحا على الأرض(٥)• ويعتقد البعض ان موضوع هذا الرسم ربما كان يمثل النصف الأول من قصة بهرام جور مع محظيته التى ذكرتها الشاهنامة وغيرها من القصص الفارسية(٦) والتى كثيرا ما صور فى الفن الاسلامى •

---

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ٢٩ ، حوادث الدهور ، ص ٤١٦ – ٤٨٤ •

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٧ ، ص ١٤٧ ، جـ ٨ ، ص ١٤٢ •

(٣) Dopp, Le Caire vu par les voyageurs occidentaux du Moyen Age, BSRGE, XXIII, (1950), p. 131.

(٤) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٧٤٥ •

(٥) زكى حسن ، أطلس الفنون الزخرفية ، شكل ٨٠٧ ، حسن الباشا ، التصوير الاسلامى ص ٦٤ ، ايتنجهاوزن ، التصوير عند العرب ، ص ٣٤ ، لوحة ٣٧ •

(٦) ملخص هذه القصة ان بهرام جور أراد يوما ان يثبت لمحظيته براعته فى الصيد فرمى غزالا بقطعة من الطين المتجمد فى أذنه فرفع الغزال حافره ليحك أذنه فضربه بهرام جور بسهم ربط بين الحافر والأذن • أنظر التفاصيل فى حسن الباشا ، التصوير الاسلامى ، ص ٦٣ •

ومن هذه التحف أيضا اناء من الخزف ذى البريق المعدنى ، محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، ينسب الى القرن السادس عشر الهجرى / الثانى عشر الميلادى (١) • قوام زخرفته رسم لفارس على جواد وفوق يده اليسرى طائر من الطيور الجارحة التى تستخدم فى الصيد (لوحة رقم ١٢ شكل ب) • وهو رسم مألوف فى الطراز الفاطمى ، كما نراه فى سقف الكلابلا بالاتينا بمدينة بالرمو وفى بعض التحف الاسلامية الأخرى مثل علبة المغيرة بن عبد الرحمن الناصر المحفوظة بمتحف اللوفر بباريس والتى تنسب الى حوالى سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م ، وعلبة زيادة بن أفلح المحفوظة بمتحف فكتوريا وألبرت بلندن من حوالى سنة ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م وغيرها من التحف العاجية الأندلسية (٢) ولعله من المناسب أن نشير هنا الى بعض ملاحظات أسامة بن منقذ أثناء رحلة صيد بصحبة ملك الأمراء الأتابك زنكى اذ يقول : « وكان له جوارح كثيرة ، فرأيته ونحن نسير على الأنهار فيتقدم البازدارية بالبزاة ترميها على طيور الماء وتدق الطبول كجارى العادة فتصيد منها ما تصيد وتخطىء ما تخطىء ووراءهم الشواهين الكوهية على أيدى البازدارية ، فاذا اصطادت البزاة وأخطأت أرسلوا الشواهين الكوهية على الطيور فتلحق ونصيد ، وترسل على الحجل فى طلوعها فى سفح الجبل ، فتصيدها فانها من سرعة الطيران على صفلة عجيبة » (٣) •

كذلك وصلتنا بعض التحف التى يزينها نقوش تمثل بعض مناظر الصيد بالفهد (لوحة رقم ١٠ شكل ب) ، ومن المعروف أن القنص بهذا الحيوان يعتبر عادة هندية قديمة ، يبدو أنها انتقلت الى العرب (٤) منذ عصر مبكر فقد قيل ان كليب بن وائل يعتبر أول من صاد بها (٥) ، وأن يزيد بن معاوية أول من شرع فى تعليمها الركوب على أكفال الجياد كما سبق أن نوهنا من قبل (٦) •

---

(١) زكى حسن ، تحف جديدة من الخزف الفاطمى ذى البريق المعدنى ، ص ٩٧ ــ ٩٨ ، زكى حسن ، أطلس الفنون الزخرفية ، ص ٤٠٨ ، شكل ٤٣ ، Zakî Hasan
Hunting as Practised in Arab Countries of the Middle Ages, pl. 3;
Ahmad Abd ar-Raziq, La chasse au faucon, p. 110, pl. IX/A.

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، صور من المجتمع الاسلامى الأندلسى ، الكتاب الذهبى جـ ١ ، ص ١٣١ •

(٣) نقلا عن سعاد ماهر ، البيزرة فى التاريخ والآثار ، الدارة ، العدد الأول ، (١٩٧٧) ، ص ٩٩ ــ ١٠٠ •

(٤) José Ferrandis, Marfiles arabes de Occidente, Madrid, 1935, II, p. 56.

(٥) الفاكهى ، منازل السرور والرشاد فى الرمى والصيد والجهاد ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٨٤٣ ، ورقة ٦٥ ب •

(٦) ابن المنجلى ، انس الملا بوحش الفلا ، تحقيق فرعون ، باريس ١٨٨٠ ، ص ٧١ ، الفاكهى ، منازل السرور ، ورقة ٦٥ ب ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص ٧٦ •

ولقد وصلتنا بالفعل مجموعة من التحف تمثل هذا المنظر أى الفهد جالسا على مؤخر جواد الصياد من بينها علبة من العاج محفوظة بمتحف اللوفر فى باريس من حوالى القرن السادس أو السابع الهجرى / الثانى عشر أو الثالث عشر الميلادى ، يرجح انها من صناعة الأندلس أو صقلية ، وان كانت رسومها غير واضحه المعالم (١) . الا أنه يمكننا مشاهدة هذا المنظر من خلال تصويرة تنسب الى المدرسة الهندية (٢) . يزينها رسم لفارس على صهوة جواد ، جلس على مؤخرته فهد ملتفت جهة الصياد ، يتقدمه تابع أمسك بيده سيفا مرفوعا الى أعلى على حين يحتفظ بيده اليسرى على جبل ينتهى بحيوان لعله غزال (لوحة رقم ١١ شكل أ) . ومن أجمل التحف المعدنية التى يزينها رسوم صيد بالفهد طست من النحاس مكفت بالفضة محفوظ بمتحف اللوفر فى باريس . يعرف بمعمدانة سانت لويس ، لانه استعمل فى تعميد لويس الثالث عشر ثم نسب الى لويس التاسع ملك فرنسا ، الذى قيل أنه أحضره اليها عند عودته من الحروب الصليبية . وهو من صناعة مصر فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى (٣) قوام زخرفته مناظر مختلفة من البلاط المملوكى للصيد والقتال والحياة اليومية ، من بينها رسوم لمجموعة من الصيادين يحمل ثلاثة منهم الباز ، على حين يمسك الرابع بمقود فهد فى يده اليمنى (لوحة رقم ١١ شكل ب) . ويفهم من المصادر المملوكية ان سلاطين هذه الدولة اقتنوا الفهود للصيد بها وعينوا لها الفهادة لحراستها والاشراف عليها ، حيث أقام هؤلاء بالقاهرة فى حى خاص بهم ، فيما بين الجوانية والمناخ ، عرف بخط الفهادين نسبة اليهم (٤) .

ومن التحف الاسلامية ما اشتمل أيضا على بعض النقوش التى تمثل الصيد بالكلاب التى كان أشهرها سلوق اليمنية (٥) . التى وردت بكثرة فى الاشعار القديمة كشعر أبى النواس اذ قيل أنه لعب بها زمانا ، وأنه عرف منها ما لا تعرفه الأعراب (٦) ويتضح من دراسة التحف الاسلامية التى يزينها بعض

---

(١) زكى حسن ، أطلس الفنون الزخرفيه ، شكل ٤٣٣ ،

Exposition Arts décora — tifs, 1903, no 26 ; Exposition Arts de l'Islam, Paris, 1971, no. 262 ; Ahmad Abd ar-Raziq, La chasse au guérpard, Arabica, pp. 22-23, pl. V/A.

(٢) Mercier, La chasse, fig. 3; Ahmad Abd ar-Raziq, La chasse, au guépard, Arabica, X , (1973), p. 23, pl. V/B

(٣) D. S. Rice, Survey of Persian Art, Oxford, 1939, III, p. 2480 : The Blasons of Baptistère de Saint Louis, BSOAS, (1951), pp. 367-380; T. Rice, L'art de l'Islam, p. 159, fig. 138 ; G. Migeon, Manuel d'art musulman, II, p. 56; Ahmad Abd ar-Raziq, La chasse au guépard, p. 22, pl. IV/A.

(٤) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٣٦ .

(٥) ابن الحسين ، كتاب البيزرة ، ص ١٤٠ .

(٦) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ص ٢٧ .

رسوم الصيد أن الكلاب كانت تشترك عادة فى رحلات الصيد المؤلفة من البازدارية والفهادة ، حيث يبدو هذا بوضوح فى الجزء العلوى من تصويرة محفوظة بالمكتبة الوطنية فى فينا ، تنسب الى منتصف القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى من كتاب الدرياق المنسوب الى جاليتوس (١) ، يشاهد فيها مجموعة من الصيادين على ظهور الخيل وقد حلقت البزاة فى السماء ، على حين قامت الكلاب بمطاردة بعض الغزلان أسفل الصورة (لوحة رقم ١٢ شكل أ) هذا ويمكن ملاحظة الصيد بالكلاب أيضا على الطست المعروف بمعمدانة سانت لويس السابق الاشارة اليه (لوحة رقم ١١ شكل ب) ٠

والحديث عن الصيد كاحدى وسائل التسلية يحتم علينا أيضا الاشارة الى الرمى بالبندق ، الذى كان يستعمل فى الرمى على الطيور وغيرها (٢) وهو عبارة عن كرات كانت تصنع من الطين أو الحجارة ، وأحيانا من الرصاص أو الفضة ، بل وأيضا من الذهب (٣) وكان لرمى البندق شأن عظيم فى العصور الوسطى الاسلامية ، حيث يرجح أن العرب أخذوه عن الفرس زمن الخليفة عثمان ابن عفان ومن ثم فقد عدوا ظهوره فى المدينة منكرا(٤) ، بيد أنهم سرعان ما ألفوا اللعب به حتى قيل ان الخليفة هارون الرشيد كان عنده فرقة تعرف بالنمل كانت تسير بين يديه للرمى بالبندق على من يقف فى طريق الموكب ٠ وكان رماة البندق يؤلفون ابان هذا العصر طائفة كبيرة كانت تخرج الى ضواحى المدن للتسابق على رمى الطير ونحوه (٥) اتخذت لنفسها زيا خاصا عرف بسراويل الفتوة ٠ وقد جعل الخليفة الناصر لدين الله العباسى رمى البندق فنا لا يتعاطاه الا الذين يشربون كأس الفتوة ويلبسون سراويلها ، وكتب فى سنة ٦٠٧هـ / ١٢١٠م الى ملوك الأطراف الذين يعرفون بخلافته ان يشربوا له كأس الفتوة ويلبسوا سراويلها وأن ينتسبوا اليه برمى البندق ، وعلى من أراد الانتظام فى سلك هذه الطائفة أن يأتى الى بغداد ليلبسه الخليفة السراويل بنفسه ٠ وقد أجابه الناس فى العراق وغيره الا شخصا يدعى ابن السفت هرب من بغداد

(١) عبقرية الحضارة العربية ، كمبردج ١٩٧٨ ، ص ١٢٧ ، ايتنجهاوزن ، التصوير عند العرب ، ص ٩١ – ٩٢ ٠

(٢) سبط بن التعاويذى ، ديوان سبط بن التعاويذى ، القاهرة ١٩٠٣ ، ص ٢٢٥ ٠

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٣٤٢ ٠

(٤) ابن العباس ، آثار الأول ، ص ١٣٠ ، جورجى زيدان ، التمدن الاسلامى ، جـ ٥ ، ص ١٥٩ ٠

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٣ ، ص ٩٠ ٠

الى الشـــام قائلا : « يكفينى فخرا أنه ليس فى الدنيـــا أحـــد لا يرمى للخليفة الا أنا » (١) ٠

ولقد أصبح من رسوم دار الخلافة ببغداد انه اذا جلس الخليفة جلوسا عاما حمل خادم بيده قوس البندق ليرمى به كل غراب أو طير يقع قريبا من الموضع الذى يجلس فيه الخليفة ويحدث أصواتا(٢) ويبدو أن استعمال البندق أصبح من الكثرة بحيث دخل فى أمثال العوام فقالوا « من كثرت بنادقه رمى طير الماء » (٣)، لذلك ليس بعجب أن يصبر لرمى البندق شأن كبير بمختلف البلاد الاسلامية ومنهـــا مصر حيث أفرد لصـــناعة أقراصـــه حىّ خاص بالقـــاهرة عرف بحى البندقانيين كانت تبـــاع فيه أيضـــا الأقواس الخاصة برمى البندق (٤) والتى عرفت كذلك باسم الجلاهق (٥) ٠

ومن وســـائل التسلية الهادئة التى أقبل المسلمون عليها فى العصـــور الوسطى ألعاب الورق ، والنرد ، والشطرنج ، التى لا شك أنهم أخذوها عن غيرهم من الشعوب التى احتكوا بها بعد الاسلام ، لأنها كانت تجرى والقوم جلوس بعضهم الى جانب بعض وذلك على النقيض من عادات العرب، اذ ان العربى القح كان يشعر بما فى ذلك من غرابة عن طباعه (٦) ٠

والنرد لعبة فارسية الأصل تعرف بنرد شير وضعها أردشير بن بابك(٧) ويستعمل فى اللعب به ثلاثون حجرا وفصان ، على رقعة رسم عليها اثنا عشر منزلا ، وفى بعض الأحيان أربعة وعشرون منزلا ٠ ومن المعروف ان أساس هذه اللعبة كان يقوم على الصدفة والاتفاق ٠ لذا يقول أبو النواس فيها ٠

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٢٠٢ . أبو الفداء ، المختصر فى اخبار البشر ، القاهرة ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨ ، ج ، ص ١١٩ ، ١٤٢ ، ابن خلدون ، العبر وديوان المبدأ والخبر ، ج ٣ ، ص ٣٥٥ ٠

(٢) الصابى ، رسوم الخلافة ، تحقيق ميخائيل عواد ، بغداد ١٩٦٤ ، ص ٨٢ ، ٩١ ٠

(٣) بدرى محمد فهد ، العامة ببغداد فى القرن الخامس الهجرى ، ص ٢٠٧ ٠

(٤) المقريزى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٣١ ، ١٠٦ ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٧٢ ٠

(٥) ابن طيفور ، تاريخ بغداد ، ص ١٢ ، الجواليقى ، المعرب من الكلام الاعجمى على حروف المعجم ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٧١ هـ ، ص ٦٩ ، ٩٦ ٠

(٦) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ ، أحمد شلبى ، موسوعة النظم والحضارة الاسلامية ، ج ٥ ، ص ٢١٨ ٠

(٧) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٩٥ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١٤١ ـ ١٤٣ ، أحمد تيمور ، لعب العرب ، ص ٦٢ ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، ج ٣ ، ص ٤٦٠ عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية ص ١٣٨ ٠

ومأمـــورة بالأمـــر تأتي بغـيره ولم تتبع في ذاك غيا ولا رشدا
اذا قلت لم تفعل ، وليست مطيعة وافعل ما قالت ، فصرت لها عبدا(١).

ولقد شبه بعض الحكماء النرد هذه بالأرض الممهدة ، لساكنها ، ومنازل الرقعة ، بسـاعات النهار وسـواد الليل ، وبيادتها أى احجارها ، بعدد أيام الشهر ، وما يخرج من الفصين اذا رمى بهما ، بالقضاء الجارى على العباد ، ولذا فقد حرمه الرسول صلى الله عليه وسلم اذ قال : « من لعب بالنرد فكانما صبغ يـده فى لحـم خنزير ودمـه » ، كما قال : « من لعب بالنرد فقـد عصى الله ورسوله » (٢) كما اعتبره البعض « من عمل الشيطان » (٣) لما كان يقصد به من ابتغاء الكسب والمقامرة ، ومع هذا فقد شاع اللعب بالنرد حيث أقبل عليه الخلفاء والأمراء وغيرهم ، حتى قيل ان هارون الرشيد قدم اللعاب به وأجرى عليهم الأرزاق (٤) ، وان الأمير طغانشاه بن ألب أرسلان ، حاكم هراة لعب بالنرد مع البديهى الشاعر على عشرة آلاف دينار ، ولما أوشك اللعب على الانتهاء « كان عند الأمير حجران فى بيت الشيش ، ولأحمد البديهى حجران فى بيت اليك ، واللعب للأمير فاحتاط كثيرا ، ثم رمى ليأتى بالدش ، فجاء الزهر هبيك ، فغضب الأمير غضبا شديدا واشتد به الغضب ، فكان يمسك السيف فى كل لحظة ، وارتعدت فرائص الندماء ، فقد كان أميرا حدثا ، ومقمورا ومحرجا »(٥) .

أما الشطرنج فيبدو أنها كانت معروفة عند قدماء المصريين وعند حكماء الهند ، حيث رسموا لها رقعة مربعة تتألف من ثمانى خانات طولا وعرضا ، ورسموا عليها أربعة وستين مربعا بالتساوى ، وجعلوا فيها ثمانى قطع ومثلها من البيادق وطلوها بلونين من كلا الطرفين ، وأجلسوا الملك والوزير فى القلب وأوقفوا فيلين على الميمنة والميسرة ، ووضعوا بجانب الفيلين حصانين من الجانبين، وجعلوا الرخين فى الزاويتين ، وصفوا أمامهم صفا من العساكر ، وعلى هـذا النحو يستعد المتنافسان من الجانبين للمباراة . ثم تطورت هذه اللعبة على أيدى الفرس الذين جعلوها قائمة على أصول رياضية ، لا سيما زمن بزرجمهر ، الذى أحضر رقعة مستطيلة ورسم عليها أربعة وستين مربعا بالتساوى طولها ستة

---

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٩٥ ، ج ٤ ، ص ٢٣٦ .

(٢) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ ــ ٢٥٩ .

(٣) أحمد تيمور ، لعب العرب ، ص ٦٢ ، أحمد شلبى ، موسوعة النظم والحضارة الاسلامية ، ج ٥ ، ص ٢١٨ ، يوسف القرضاوى ، الحلال والحرام فى الاسلام ، ص ٢١٧ ، أبو بكـر الخوارزمى ، كتاب مفيد العلوم ، ومبيد الهموم ، القاهرة ، ١٣١٠هـ ، ص ١٠٧ ــ ١٠٨ .

(٤) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٢٥ .

(٥) نظامى عروضى ، جهار مقالة ، الترجمة العربية ، ص ٥١ ــ ٥٢ .

عشر مربعا ، وعرضها أربعة مربعات كما جعل عدد أدوات اللعب ست عشر أداة أيضــا (١) ٠

ويبدو أنه انتقل منهم الى العــرب حيث ظهر فى زمن الصحابة ، الذين اختلفوا فى شأنه فوصفه ابن عمر بأنه « شر من النرد » ، على حين اعتبره على ابن أبى طالب نوعا من الميسر ، وعلى هذا فقد كان طبيعيا ألا يزوج أهل المدينة لاعب الشطرنج ، كما زعموا أن سبب وضع العجم له ، انهم كانوا اذا اجتمعوا تلاحظوا تلاحظ البقر ، ومن ثم فقد جعلوا من الشطرنج مشغلة لهم (٢) ٠ ورغم هذا فقد أباحه عدد جم من الصحابة والتابعين شريطة خلوه من القمار ، لأنه مبنى على اعمال الفكر ورياضة الذهن (٣) على النقيض من النرد الذى كان يبنى دائما على الحظ ، كما أجازوا لعبه فى أوقات الفراغ بشرط أن يحفظ اللاعب لسانه من الفحش ورديء الكلام أثناء اللعب والا اعتبر حراما (٤) ٠ وتجمع الكتب القديمة على أن هارون الرشيد يعتبر أول خليفة عباسى لعب به ودعا الى لعبه (٥) وأنه أرسل شطرنجا رائعا فيما أرسله من الهدايا الى شارلمان ملك الفرنجة بأوربا (٦) ٠ كما يروى ان الخليفة المأمون اشتهى لعب الشطرنج بعد قدومه من خراسان وارتقائه عرش الخلافة، فاستحضر كبار أهله، فكانوا يتوقرون بين يديه ، حتى ضاق بذلك ، وقال « ان الشطرنج لا يلعب مع الهيبة ، قولوا ما تقولون به اذا خلوتم » (٧) ٠

وكان الشطرنج يلعب فى ذلك الوقت على رقعة مربعة من أدم أحمر اللون قيل فيها :

أرض مربعــة حمــــراء من أدم	مابين الفين موصــــوفين بالكــرم
تذاكرا الحرب فاحتالا لها شـــبها	من غــير ان يســعيا فيها بســفك دم
هــذ يغــــير على هــذا ، وذاك على	هــذا يغير ، وعين الحـــرب لم تنم

(١) الراوندى ، راحة الصدور راية السرور ، ترجمة ابراهيم الشوراربى وآخرين ، القاهره ١٩٦٠ ، ص ٥٦٧ ــ ٥٧٠ ٠

(٢) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ ، محاضرات الادباء ، ج ١ ، ص ٤٤٨ ٠

(٣) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٣٧ ٠

(٤) يوسف القرضاوى ، الحلال والحرام فى الاسلام ، ص ٢١٧ ، ابن تيمية ، مجموع فتاوى ، القاهرة ١٣٢٦ هـ ، ج ٢ ص ٥ ٠

(٥) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ١٦٣ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٨٦ ، اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، بيروت ١٩٦٠ ، ج ١ ، ص ١٠١ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١٤١ ــ ١٤٣ ، فيليب حتى ، تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٤١٦ ، عبد المنعم ماجد ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٤٤ ٠

(٦) عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية ، ص ١٣٨ ٠

(٧) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٥٢٢ ، محاضرات الادباء ، ج ١ ، ص ٤٤٩ ٠

فانظر الى الخيل قد جاشت بمعرفة في عسكرين بلا طبل ولا علم (١)

كما ظهر فى زمن الخليفة المعتضد فى أواخر القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى نوع جديد يسمى الجوارحية وهى عبارة عن سبعة أبيات فى ثمانية ، وأمثلتها اثنا عشر فى كل جهة منها ستة ، كل واحد من الستة يسمى جارحة من جوارح الانســان التى بها يميز ، وينطق ، ويســمع ، ويبصر ، ويبطش ، ويسعى ، وهى سائر الحواس ، والحاس المشترك هو الذى من القلب » (٢) ٠

كما يصــور لنا الجاحظ بعض مبــاريات الشــطرنج فى حضرة عبد الله ابن طاهر ، حيث كان المتنافسون فى هذه اللعبة يناظر كل منهما الآخر ، بالجد والهزل ٠ والأمير مستمتع بهذه المناظرات الهزلية حتى أنه فى احدى المباريات فحص برجليه من شدة الضحك (٣) ٠ ويبدو ولع المسلمين بالشطرنج من خلال لعب الحجاج به للتسلية وهم فى طريقهم الى الحج على ظهور الشقاديف (٤) ٠ لذلك لاعجب ان أمر الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى بمنع اللعب به ، بل وضرب جمــاعة بسبب اللعب بالشــطرنج ، وأحرق ما وجد منه (٥) فى محاولة منه للتخفيف من شدة الاقبال عليه لما يترتب عليه من ضياع الوقت ٠

كذلك أقبــل سلاطين الأيوبيين والمماليك على الشطرنج وعلى اللعب مع المقربين اليهم من الأمراء والعلماء والأدباء (٦) بل حرص بعضهم اذا خرج فى أسفاره أن يحمل معه كمية ضخمة من العاج برسم خرط الشطرنج ، حتى اذا لعب السلطان بشطرنج مرة أخذه بعد ذلك أرباب النوبة وجدد غيره للسلطان (٧) ٠ وجرت العادة أيضا بأن تصنع أدوات الشطرنج من سائر أنواع الجوهر والذهب، والفضة والأبنوس برقاع الحرير المذهب (٨) ، كما صنعت من البللور الصخرى حيث وصلتنا منه بالفعل بعض القطع ضمن مجموعة الكونتس دى بهاج فى باريس تنسب الى أواخر العصر الفاطمى (٩) ٠ لهذا كان من الطبيعى أن نعتبر

---

(١) **المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ابن طيفور ، تاريخ بغداد ، ص ٢٩٣ ٠**

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٣٤ ، متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٣ ، ص ٤٦٠ ٠

(٣) الجاحظ ، كتاب التاج ، ص ٧٤ ، ٧٥ ، فتحى أبو سيف ، المشرق الاسلامى بين السبعية والاستقلال ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٢١٠ — ٢١١ ٠

(٤) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، تحقيق حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٣٨ — ٣٩ ، الراوندى ، راحة الصدور ، ص ٥٧١ ، عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية ، ص ١٣٨ ٠

(٥) المقريزى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ ، ٣٤٣ ٠

(٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٨ ، ١٠١ ٠

(٧) **سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ٦٧ ٠**

(٨) المقريزى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٤١٥ ٠

(٩) زكى حسن ، كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٩٣ ٠

لعبة الشطرنج من الألعاب الأرستقراطية الخاصة بالملوك والأمراء « لا الفقراء والأراذل » ، وقالوا أيضا فى ذلك « مثل الفقير الذى يلعب الشطرنج ، كمثل أعمى ينظر فى النجـوم » (١) • ورغم هـذا فقد شاع الشطرنج بين مختلف الطبقـات ، حيث لعبه السلاطين والأمراء ، والتجار والفقهاء وغيرهم (٢) • بل نسب بعض الأشخاص اليه (٣) ، كما صنفت فى هذه اللعبة وقواعدها العديد من المؤلفات •

أما عن لعبة الورق ، فالحق أننا لا ندرى عنها شيئا فيما عدا اسمها ، خاصة أن المصادر التى تحت أيدينا وغيرها من الكتب القديمة لم تتعرض لها فى شىء من التفصيل ، وربما كان المقصود بها تلك اللعبة التى أشار اليهـا الادفوى فى عصر متأخر أثناء ترجمته لمحمد بن اسماعيل السفطى ، وملخصها ان يجلس جماعة ويكتبون أوراقا فى بعضها صورة شخص صاحب متاع • وفى البعض الآخر صورة لص ، فاذا حصلت الورقة التى فيها صاحب المتاع لأحدهم قال : « يا جماعة ضاع لى كذا وكذا وأريد فلانا يحضر لى اللص ••• » (٤) •

وبعد فان الألعاب السابقة ليست وسائل التسلية الوحيدة التى عرفها المسلمون فى العصور الوسطى ، فكثيرا ما تضمنت المؤلفات القديمة أسماء بعض الألعاب الخاصة بالصبيان مثل الأسـن ، والبقيرى ، والتدبيج ، والخذروف ، والكبكب والدورباكة (٥) وغيرها مما أضربنا عن ذكرها هنا لقلة المعـلومات الواردة عنها ولصعوبة تفسيرها • وعلى هذا فقد بات واضحا ان وسائل التسلية عند المسلمين كانت على ثلاثة ضروب ، الضرب الأول يمثله المجالس بأنواعها المختلفة من قصص ووعظ وشراب وطرب ، والضرب الثـانى يمثله الألعاب الرياضية بشتى أنواعها من ركض وقنص ، أما الضرب الثالث والأخير فهو يختص بالألعاب الهادئة التى اصطلح على تسميتها أيضـا بالألعاب المنزلية كالنـرد والشطرنج والورق ونحوها ، حيث أقبلت جميع طبقـات المجتمع الاسلامى على الاشتراك والمساهمة فى جميع ضروب التسلية المتاحة لها ولم يتخلف عنها أحد من كبير أو صغير •

---

(١) أبو زكريا الحكيم ، كتاب فى الشطرنج ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٩٧ ، ورقة ١٤ أ •

(٢) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٩٦ ، السخاوى ، التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ٢٣٠ ، زتير شتين ، ناريخ المماليك ، ص ٥٠ ، سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى زمن سلاطين المماليك ، ص ١٠٧ ، كما جرت العادة بأن يشتمل شوار العروس على الشطرنج ، أنظر تاريخ ابن الفرات ، جـ ٩ ، ص ٣٤ ، أحمد عبد الرازق ، المرأة فى مصر المملوكية ، ص ٧٦ •

(٣) أنظر : ترجمة احمد بن ممد الشطرنجى فى ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ١ ، ص ٢٥٣ •

(٤) الادفوى ، الطالع السعيد الجامع لاسماء نجباء الصعيد ، القاهرة ١٩١٤ ، ص ٢٧٨ •

(٥) أحمد تيمور ، لعب العرب ، ص ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٤ ، ٥٦ •

اللغة العربية

تاريخها وخصائصها وآثارها
فى الحضارة العالميــة

للدكتور أحمد الحوفى

عضو مجمع اللغة العربية

وأستاذ بكلية دار العلــوم

ومقرر لجنة التراث بالمجلس الأعلى للثقافة

اللغة مفردات وجمل ، أو ألفاظ وعبارات ، تلفظ حينا ، وتكتب حينا ، وسواء أكانت مكتوبة أو ملفوظة فهي وعاء التفكير ووسيلة اظهاره ، ولا يستطيع أحد أن يفكر بغير لغة • ولغتنا العربية سامية قديمة موغلة فى القدم •

اللغات السامية هى لغات الجنس السامى الذى اتصلت شعوبه اتصالا وثيقا ، واتحدت فى النشأة ، والبيئة ، واللون ، وارتبطت بروابط طبيعية واجتماعية جعلتها جنسا من البشر متميزا ، سواء رجعنا الى تقسيم التوراة أم الى التقسيم الطبيعى (١) •

وأول من أطلق على لغات هذا الجنس (اللغات السامية) المستشرق الألمانى شلوتزر ١٧٨١ م ولكن هذه التسمية على ذيوعها أو خفتها غير جامعة وغير مانعة، لأن بعض من يتكلمون بها ليسوا من الجنس السامى ، مثل الأحباش فلغتهم سامية وهم حاميون (٢) •

اللغة العربية سامية :

واللغة العربية المستعربة سامية ، ولابد أنها استمدت كلمات من أخواتها الساميات كالحبشية والحميرية والعبرية والآرامية القديمة •

ذلك أن اسماعيل عليه السلام تعلم العربية من جرهم الثانية التى كانت

---

(١) التوراة ترجع النوع الانسانى كله الى أبناء نوح الثلاثة : سام وحام ويافث فتقسمه الى ثلاثة أجناس • والتقسيم الطبيعى يعتمد على طبيعة الناس من اللون ، والفطرة ، والبيئة •• الخ والجنس السامى فى رواية التوراة هو نفسه فى رأى العلم •

(٢) بعد أن تفرعت من اللغة الأثيوبية الحبشية لهجات حامية امتزجت بالعربية السامية امتزاجا محا الأولى وأبقى الثانية حتى صارت اللغة الأثيوبية أو الحبشية تعد من اللغات السامية ، كما أن اللغة المصرية القديمة امتزجت باللغات السامية حتى خرجت من طبيعتها الأولى وعدها بعض اللغويين من السامية (مقدمة الأساس فى الأمم السامية ولغاتها) •

قد هاجرت من اليمن الى مكة ، وامتزج بهم وأصـهر فيهم · ويقـال انه كان لاسماعيل لغة أخرى عبرية أو كلدانية ، فقد كانت أمه هاجر مصرية ، وأبوه يعرف الكلدانية ، ومن البعيد أن ينسى اسماعيل لغة أبيه ولغة أمه ، بل القريب أن تمتزج لغة أبويه بلغة أصهاره ، ونشأ من اسماعيل ومن ذراريه جيل عربى جديد هم العرب المستعربة ·

وانتسب المضريون ـ العرب المستعربة ـ الى أبيهم لا الى أمهم القحطانية ، وان كان النسب الى الأم شائعا فى العصر الجاهلى ، ولذلك رفض النبى صلى الله عليه وسـلم أن ينسب المضريون الى آكل المرار ، وذلك أن وفد كندة قدم على النبى برياسة الأشعث بن قيس ، وقال الأشعث للنبى : « يا رسول الله نحن بنو آكل المرار ، وأنت ابن آكل المرار ، فتبسم النبى وقال : ناسبوا بهذا النسب العباس ابن عبد المطلب وربيعة بن الحـارث » وكانا تاجرين يوغـلان فى بلاد العرب ، فاذا سئلا ممن هما ؟ قالا : نحن بنو آكل المرار · يتعززان بذلك ـ لأن كندة كانوا ملوكا ـ ثم قال لهم : « لا بل نحن بنو النضر بن كنانة ، لا نقفوا أمنا ، ولا ننتفى من أبينا (١) ·

ويقال ان القحطانيين كانوا قد هاجروا من الفوات أو الحبشة الى اليمن وعمروها وأضافوا الى لغتهم من لغة أسلافهم المعينيين الذين هم من بدو الآراميين أو بقايا البابليين ، عبروا الى اليمن قبل القحطانيين ، وكانت لهم بها دولة سبأ وحمير ، وهم الذين اقتبسوا الحروف الفينيقية التى تطورت الى الخط المسند أو القلم الحميرى ·

فاللغة العدنانية استرفدت من هذه كله ، وقد تطورت الى المصرية الفصحى فى الوقت الذى زالت فيه الدولة الحميرية حوالى أوائل القرن السادس للميلاد ، وفى الوقت الذى بسطت فيه سلطانها على أكثر أرجاء الجزيرة ، وتوحد اللسان العربى الا ما ينجم عن طريقة النطق ، ويسميه العلماء اختلاف اللهجات ·

وعلماء اللغات يفضلون اللغات السامية على الحامية والآرية بكثرة مفرداتها وتنوع أساليبها ، واطراد قياسها ، ووضوح مخارج حروفها ، وهم أنفسـهم

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/٢٥٤ وآكل المرار : الحارث بن عمرو بن حجر الـكندى ، والمرار نبات مر اذا أكلته الابل نقبضت مشافرها ، وسمى الحارث بذلك لأن عمرو بن الهبولة النسائى أغار عليهم والحارث غائب ، فغنم وسبى ، وكان فى سبيه امرأة الحارث فقالت لعمرو فى سيره : لكانى برجل أدلم ـ مسترخى الشفتين ـ أسود كان مشافره مشافر بعير آكل مرار قد أخذ برقبتك تعنى الحارث ، فسمى آكل المرار ، ثم تبعه وقتله واستنقذ امرأته وما كان أصاب (سيرة ابن هشام ٤/٢٥٥) ·

يقدمون العربية على اخواتها السامية بهذه المميزات وبغيرها ، حتى رأى كثير منهم قدماء ومحدثون شرقيون وغربيون أن العربية أصل اللغات السامية أو أقربها الى السامية الأولى ، لنشأتها فى أقدم موطن للساميين ، وبقائها بمعزل عن الاحتكاك باللغات الأخرى .

وهم قد وازانوا بين العربية والسريانية والعبرية ، فاتضح أنهما متأثرتان بها ، بدليل أن الكلمات التى بها ضاد ــ وهو حرف خاص بالعربية ــ نقلت الى العبرية بالصاد والى السريانية بالعين ، ولو كانت العربية هى الناقلة لبقيت الصاد أو العين على أصلهما لأن الحرفين فى العربية فلا مدعاة للابدال .

أطوار تهذيبها وتقارب لهجاتها :

لسنا نستطيع أن نزعم أن اللغة العربية قد ولدت ناضجة كما وصلت الينا ، لأن هذا مخالف لقوانين التطور ، وطبيعة اللغات تأباه ، فلابد أن مرت بهذه اللغة أطوار ومؤثرات رقتها وأنضجتها وأوصلتها الى درجة الكمال جعلتها خليقة أن ينزل بها كتاب الله .

وأهم أطوار التهذيب هى :

(أ) نزل ابراهيم بالحجاز وترك هنالك ابنه اسماعيل عليهما السلام ، وأصهر اسماعيل فى جرهم الثانية وهى قحطانية ، فكان لسانه ولسان نسله متأثرا بلغة أبيهم وبلغة قحطان .

وكان من الطبيعى أن تمتزج لغة اسماعيل بلغة جرهم ، وأن ينطلق لسانه فى مجال أوسع ، ويشتق عبارات أوضح ، لكماله الفطرى الذى لا يفتقر الى تلقين ولا تعليم ، وجرى على لسانه بنوه من بعده ، وامتد الزمن باللغة ينميها ويكملها ، حتى ظهر عدنان أبو العرب المستعربة ، فنشأ جيل جديد ذو لغة أعظم ثروة ونموا ، أسهم فيها الجميع ، لأن دارهم وبيئتهم وأخلاقهم وشيمهم واحدة ، وبينهم تصاهر وتشابك واجتماع لا ينقطع (١) .

(ب) ثم انشعبت قبائل من أولاد اسماعيل ، وجعلت لغتها تنمو وتتطور ، وساعدها أنها لم تكتب فتتأتى فى تطورها أو تجمد ، لأنها لغة قوم أحرار ذوى فطر سليمة يصرفون لغتهم كما يصرفون أزمة نوقهم وأعنة خيلهم ، وكان

---

(١) راجع البيان والتبيين للجاحظ ٣/٢٩٠ ــ ٢٩٦ طبعة هارون .

يأخذ بعضهم عن بعض بالمخالطة والمجاورة والتلاقى فى الأسواق ، فتنتقل الكلمات من قبيلة الى أخرى كما تنتقل العروض •

(ج) ولقريش وحدها فى هذا المضمار نصيب عظيم من الجهد والفخار ، فان التطور الأول كان عمل القبيلة الأولى ، والثانى كان من صنع القبائل جميعا ، أما هذا فجهد قريش ، **وقد أعانتها على ذلك أمور :**

١ ـ أعانها الدين ، فالقرشيون يقيمون بواد غير ذى زرع ، وهم مفتقرون الى أن تهوى أفئدة الناس الى البيت الحرام ، وقد استجاب الله دعاء سيدنا ابراهيم ، فجعل الكعبة الشريفة وجهة العرب أجمعين يحجون اليها أو يعتمرون ، وكانت القبائل التى تفد على مكة للحج ذات لهجات منها الجيد ومنها الردىء ، وقريش تستمع الى الوافدين وتستصفى من لهجاتها ما يروقها ، وكان النازلون ينقلون عن قريش ويبثون فى الجزيرة ما نقلوا •

٢ ـ وساعدتها التجارة ، فقد كان القرشيون يرتحلون فى كل عام رحلتين : رحلة فى الشتاء الى اليمن ، ورحلة فى الصيف الى الشام ، وكانوا أحيانا يضربون فى الأرض ويمشون فى مناكبها الى فارس والى الحبشة • وهم قوم صناعتهم الكلام ، يضيفون الى لغتهم ما يغذيها ، ويزودونها بما ينميها ويرقيها •

وقد ساعدهم على التجارة موقع بلادهم الجغرافى ، وأنهم أهل الكعبة التى يدين العرب لها ، فلا يعتدى عليهم أحد فى رحيلهم ، وان اطمئنانهم على حياتهم وأموالهم ، وان امتيازهم بالرحلات التجارية لجدير بأن يكونا نعمة يذكرهم الله بها ، قال تعالى : « لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » قال الزمخشرى : انهم كانوا آمنين فى رحلتهم ، لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته ، فلا يتعرض لهم ، والناس غيرهم يتخطفون ، ويغار عليهم ، قال الله تعالى :

« أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » (١) •

٣ ـ وظاهرتها المكانة السياسية التى استمدتها من نفوذها الدينى والاقتصادى ، حتى قال أبو بكر فى رده على الأنصار يوم السقيفة مؤيدا حق المهاجرين فى الخلافة : « ••• وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر

---

(١) الكشاف ٢/٥٦١ •

من بعده ، ولا ينازعهم ذلك الا ظالم » وقال فى خطبته الثانية « لا تدين العرب الا لهذا الحى من قريش » ٠

٤ ـ وكانت لهجة قريش أغنى اللهجات وأطوعها وأقدرها على التعبير ، لأن أهلها أرقى ، ولأنهم أغنوها بما أضافوا اليها ٠

٥ ـ على أن الأسواق المشهورة ـ وهى عكاظ ومجنة وذو المجاز ـ كانت على مقربة من مكة ومن موسم الحج تفد اليها القبائل ٠ وعكاظ خاصة مجتمع العرب جميعا يتوافدون اليها من كل حدب وصوب ليتفادوا أسراهم ، ويتحاكموا فى خصوماتهم الى بنى تميم ، ويتفاخروا بأحسابهم ومحامدهم وشجاعتهم ، ويتباهوا بالبليغ الرائع من القول ، فينشد الشاعر قصيدته ، ويخطب الخطيب خطبته ، فى عكاظ أنشد عمرو بن كلثوم مطولته ، وفيها كانت تضرب للنابغة قبة من آدم ليتحاكم اليه الشعراء ، وقد أنشده الأعشى والخنساء وحسان فى قصة مشهورة (١) ، وفيها خطب قس بن ساعدة خطبته التى سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورواها ، ذلك أن وفد بكر بن وائل قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما فرغ من حوائجهم قال : هل فيكم أحد يعرف قس بن ساعدة الايادى ؟ قالوا : كلنا نعرفه ٠ قال : فما فعل ؟ قالوا : هلك ٠ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كأنى به على جمل أحمر بعكاظ قائما يقول : « أيها الناس اجتمعوا ، واستمعوا ، وعوا ، كل من عاش مات ، وكل من مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ان فى السماء لخبرا ، وان فى الأرض لعبرا ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، وبحار تموج ، وتجارة تروج ، وليل داج ، وسماء ذات أبراج ، أقسم قس حقا لئن كان فى الأرض رضا ليكونن بعده سخط ، وان الله عزت قدرته هو أحب اليكم من دينكم الذى أنتم عليه ، مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرضوا فأقاموا أم تركوا فناموا ؟ » **ثم أنشد أبو بكر رضى الله عنه شعرا حفظه له وهو :**

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها ... يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى الى ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محا ... لة حيث صار القوم صائر (٢)

---

(١) الأغانى ٤/٣٥ ساسى ٠

(٢) مجمع الأمثال للميدانى ١/٩٩ ٠

وكانت عكاظ ملتقى الجميع ، حتى ان من أراد أن يثأر ولم يعثر على واتره طلبه في الموسم ، ومن أراد أن يعمل عملا تعرفه العرب ويشهدها عليه عمله في عكاظ (١) وقد عمرت من ٥٤٠ م الى أن نهبها الخوارج الحرورية ٧٤٦) (١٢٩ هـ) .

وكانوا يجتمعون (بسوق عكاظ) من أول القعدة الى العشرين وفي (مجنة) قرب مكة بقية القعدة ، وفي « ذى المجاز » بجانب عرفة أول ذى الحجة ، ومنها ينصرفون الى عرفات حيث الموقف الأعظم .

وكانت لهم أسواق بين بلادهم وبلاد العجم ، يلتقون فيها للتسوق والبيع، وهي أوسع أبواب الدخيل والمعرب ، ذكر منها الجاحظ سوق الأبلة وسوق الأنبار وسوق الحيرة .

وكانت لهم أسواق أخر تتوالى ، مثل دومة الجندل (٢) بقرى كلب وهي في النصف بين العراق والشام ، كان ينزلها الناس أول يوم من شهر ربيع الأول فيقيمون أسواقهم بالبيع والشراء والأخذ والعطاء ، وكان يعشرهم أكيدر دومة(٣) وربما غلبت على السوق كلب فيعشرهم بعض رؤساء كلب ، فيقوم سوقهم الى آخر الشهر .

ثم ينتقلون الى سوق هجر (٤) في شهر ربيع الآخر ، فتقوم أسواقهم ، وكان يعشرهم المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم .

ثم يرتحلون نحو عمان (٥) ، فتقوم سوقهم بديار دبا (٦) ثم بصحار (٧). ثم يرتحلون فينزلون أرم (٨) وقرى الشحر (٩) فتقوم أسواقهم أياما .

---

(١) الأغاني ١٣/٢ .

(٢) دومة الجندل : حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيىء بينها وبين دمشق سبع مراحل ، وكانت منازل لكنانة من كلب .

(٣) صاحب دومة .

(٤) مدينة هجر قاعدة البحرين . وقيل ناحية البحرين كلها هجر قال ياقوت وهو الصواب .

(٥) كورة عربية على ساحل البحر شرقي هجر .

(٦) سوق بعمان .

(٧) بلدة بعمان على البحر .

(٨) فلاة قرب عدن .

(٩) على ساحل البحر بين عدن وعمان .

ثم يرتحلون فينزلون عدن ، ومن سوقها تشـترى اللطائم (١) وأنواع الطيب ٠٠٠٠ ثم يذهبون الى الرابية من حضرموت ، ومنهم من يجوزها ، ويرد صنعاء ، فتقوم أسواقهم بها ، ومنها كانت تجلب آله الحرز والأرم والبرود ٠٠٠

ثم يرتحلون الى عكاظ وذى المجاز فى الأشهر الحرم ، فتقوم أسواقهم بها ٠٠٠٠٠ ثم يقفون بعرفة ، ويقضون مناسكهم ، ثم يتجهون الى أوطانهم ٠

وهذه الأسواق كانت تقوم طول السنة ، فيحضرها من قرب من العرب ومن بعد (٢) ٠ وكان (بدر) موسما من مواسمهم يجتمعون فى سـوقه كل عـام (٣) ٠

فالأسباب التى كانت تقرب بين لهجات العرب أثرت وأنتجت قبل أن تصير لقريش السيادة فى الاسلام ٠

وللشعر نصيب فى هذا التقريب قال الدكتور شورتز والأستاذ ليونارد كنج فى تاريخ هارمزورث العالمى ص ١٨٩٢ : « وقبل أن تؤسس مكة بزمن طويل كان من عادة الحجـاج أن يجتمعوا فى بعض الأماكن فى الأشـهر الحرم يقيمون أسواقا يتبادلون منتجات القرائح ، وكان أشهرها عكاظ ، يجتمع فيها من قبائل العرب شجعانهم وفصحاؤهم يتنافسون فى الأشعار ، ينشدونها فخرا بعشائرهم واشادة بأعمال رجالهم ، أو اجتهادا فى الفوز بالجائزة التى كانت تعطى لأحسنهم غزلا ونسيبا ، وكان مشايخ القبائل يرأسهم من ينصبونه (أمير الشعراء) يحكمون فى تلك المسابقة التى كانت تقام فى أشهر السلم ، والتى كان يتشوق الى نتيجتها فى جميع أنحاء بلاد العرب ٠

وقد عرض هذا الكاتب نفسه لسوق عكاظ وبين أثرها فقال :

« وفى أيام ماقبل الاسـلام على بعد يوم فقط من مكة كان يقام السـوق والمجتمع السنوى العظيم : سوق عكاظ ، نسبة الى السهل الذى كان يقام فيه ، كان يأتيه الناس من جميع الطبقات من كل فج فى الجزيرة ، ويستمر شهر ذى القعدة الذى كان يسبق شهر الحج فى الجاهلية كما يسبقه فى الاسلام ، فيه كانت المسابقات بين الخيل ، والألعاب ، وتناشد الأشعار ، وجميع أنواع الملاهى تروح على الناس عناء الأعمال التجارية فى سوق عام يكاد فى شموله

(١) نوافج المسك ٠

(٢) الامتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ١/٨٣ ٠

(٣) تاريخ الطبرى ٢/٢٧٦ ٠

واتساعه يكون معرضا قوميا ، وفيه أيضا كان الرؤساء من عرب الشمال ينظرون بينهم فى أمهات الأمور من حرب وسلم ، وحلف وتعاهد ، وثأر ونقاض ، فكان أولاد نزار ـ كما كانت العرب المستعربة تحب أن تدعى ـ يجتمعون فى نوع من منتدى عام لا يقل عراقة فى القدم عن منتدى طيبة ، وإن كان أثره ما دام قائما أكبر فى بلاد العرب كلها مما يمكن أن يكون قد أتيح لمنتدى طيبة فى قديم اليونان ، وكان لرؤساء قريش المقام الأول فى ذلك المجتمع ، لقربه من ديارهم ، ولما كان لهم من ثروة وشجاعة وحسن خطاب » (١) .

فلابد أن لهجات العرب فى ذلك الوقت كانت متقاربة يسهل التفاهم بها . ونستطيع أن نتصور زحمة الأسواق بالوافدين عليها وكثرتهم اذا ما نظرنا الى أسواقنا فى الأقاليم ، والى اجتماعات الناس فى الموالد كالمولد الأحمدى والدسوقى ، ثم اذا ما علمنا أن للهنود سوقا يقيمونها فى هردوار على ضفاف الكنج فى كل سنة ، ويجتمع فيها نحو ثلاث مائة ألف نفس ، ويقيمون حجا فى ذلك المكان مرة كل ١٢ سنة يبلغ فيه عدد الحجاج نحو مليون نفس .

وشأن العرب فى أسواقهم شأن اليونان القدماء فى الجمناسيوم (الملعب الرياضى) اذ كانوا يجتمعون للألعاب البدنية وفيهم الفلاسفة والعلماء ، فيغنمون فرصة الاجتماع ويتباحثون ويتناظرون ، كما كان يفعل العرب فى عكاظ .

وبعد ، فقد كانت هذه الأسواق على مقربة من مكة ، والعرب جميعا يدينون لقريش بسيادة دينية ولغوية كما قدمنا ، فهم يحاكون لهجتها ، ويتأثرون منطقها ، وقريش أيضا تنتقى من لهجاتهم أفصحها ، ومن كلماتهم أعذبها .

فليس فيها شىء من معيب اللهجات . قال معاوية يوما : من أفصح الناس ؟ فقال قائل : قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات : وتيامنوا عن عنعنة تميم ، وتياسروا عن كسكسة بكر ، ليست لهم غمغمة قضاعة ، ولا طمطمانية حمير . قال : من هم ؟ قال : قريش . قال : ممن أنت ؟ قال : من جرم (٢) .

---

(١) النقد التحليلى لكتاب الادب الجاهلى ٢١٠ ـ ٢١١ .

(٢) البيان والتبين ٣/٢١٢ لخلخانية الفرات أو العراق : لهجة لأعراب السحر وعمان باليمن يحذفون بعض الحروف اللينة كقولهم مشاء الله يريدون ما شاء الله ، والظاهر أن بعضهم نزلوا بشط الفرات بعد الاسلام . العنعنة : قولهم فى موضع أن عن الكسكسة : لهجة لبنى بكر ابن وائل أو ربيعة ومضر أو تميم يلحقون بعد كاف الخطاب للمذكر أو مكانها سينا . الغمغمة : الكلام المبهم . الطمطمانية : لهجة لحمير يبدلون لام التعريف ميما مثل أمصيام فى الصيام .

وقالوا أيضا بأن لغتهم سلمت من عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن ، وتضجع قيس ، وعجرفية ضبة ، وتلتلة بهراء (١) .

وبذلك كله بلغت اللغة درجة من الرقى والوحدة أعدتها لأن ينزل القرآن الكريم بأسمى لهجاتها وهى لهجة قريش ، فتمت به الوحدة اللغوية ، وما زال القرآن الكريم هو الحفيظ على هذه الوحدة والدرء لهذه اللغة ، يصونها من أن تمحوها النوازل ، أو تتشعب منها لهجات مختلفات تنقطع صلتها بالنبع الأول فينضب ويجف .

اللغة العربية واللهجات

ذكر الدكتور طه حسين فى شكه فى الشعر الجاهلى أن لغة الشمال غير لغة الجنوب ، معتمدا على كلمة لأبى عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم كعربيتنا » ، ومعتمدا على أن الكشف الحديث قد أثبت خلافا جوهريا بين اللغتين ، فكيف جاء الشعر الجاهلى كله بلغة أهل الشمال ؟ ثم نفى أن يتخذ القحطانيون لغة الشمال ترجمانا عن عواطفهم ولغة أدبية لهم ، مع أن السيادة السياسية والاقتصادية والحضارية — وهى أمور من شأنها أن تفرض اللغة على شعوب — قد كانت للقحطانيين لا للعدنانيين .

ورد على من يقول ان أهل الجنوب هاجروا الى الشمال وتأقلموا واصطنعوا لغة الشمال ، بأنه يشك فى صحة نسب الذين هاجروا ، بل يشك فى الهجرة نفسها : متى كانت ؟ ومن المهاجرون ؟ والى أين هاجروا ؟ (٢) .

ثم قرر أن العدنانيين أنفسهم كانت لهم لهجات ، فكيف جاء الشعر المروى كله بلهجة قريش ، مع أن فى الشعراء يمنيين وقيسيين وربيعيين الخ ؟ وقد قرأ العرب القرآن الكريم بلهجاتهم ، فأمالوا حيث لم تكن تميل قريش ، ومدوا حيث لم تمد الخ . وعجب من أنه لم يحدث مثل هذا فى الشعر المروى .

ورد على من اعترض عليه بأن اللهجات كانت قائمة بعد الاسلام ولم تظهر

---

(١) مجالس ثعلب ١/١٠٠ — ١٠١ كشكسة ربيعة : أن تجعل بعد كاف الخطاب مشينا . تضجع : تباطؤ وتقعد . عجرفية : جفوة فى الكلام . تلتلة بهراء كسرهم التاء فى الفعل نفعلون كما قيل .

(٢) فى الأدب الجاهلى ص ٨٨ — ١٠٢ .

فى الشــعر الذى قيل بعده بأن العرب قـد اتخذوا بعد الاســلام لغة قريش دستورهم (١) ·

اختلاف اللهجتين طبيعى :

ولا يمارى أحد فى ان لهجة الشمال كانت مغايرة للهجة الجنوب ، ولا يدفع أحد أن لهجات القبائل فى الشمال كانت تختلف الى حد ما، لأن هذا وذاك راجعان الى طبيعة المنطق وتأثير الوراثة والبيئة . فليس بعجيب أن اختلفت اللهجات ، بل كان العجيب لو أنها اتحدت ، فمازالت اللهجات تتشـعب من اللغات وتتباعد وتتقارب حسب العوامل المؤثرة فى الناطقين بها وفى اللغة نفسها ·

والأمثلة على ذلك كثيرة جدا ، فالأمة العربية تصـطنع لهجة قريش الآن وتتخذها لسانها الأدبى والرسمى ، ولكنا نجد أن لهجة المصرى مغايرة للهجة السورى والعراقى والحجازى ، وهذه المغايرة قائمة حتى فى النطق باللغة الفصحى شعرا وخطابة ·

بل اللغة المصرية العامية ذات لهجات ، مع أن أصـلها واحد ، فللصعيد لهجة وللدلتا أخرى ، ولقد تختلف لهجة الناس فى قريتين من (مركز) واحد على قرب ما بينهما ·

كانت اللهجتان مختلفتين اذا ، ولكنه خلاف بين لهجتين أو لهجات من لغة واحدة ، وقد تقاربت اللهجات فى أواخر العصر الجاهلى حتى كان أهل الحجاز ونجد يفهمون عن أهل اليمن ويفهمونهم ، كما يتفاهم الآن سكان الصعيد وسكان الوجه البحرى ، أو سكان السودان وسكان مصر ، وكما يتفاهم أهل باريس وسكان بروكسل ·

أريد من هذا أن أقرر أنه لا عجب فى أن يروى الرواة أن لهجة الشمال كانت غير لهجة الجنوب ، وأن هذا لا يطعن فى صحة ما قرره التاريخ أن لغة الشمال وليدة لغة الجنوب ·

وقد جلى ابن خلدون هذه الفكرة فى قوله : « ولعلنا لو اعتنينا بهـذا اللسان العربى لهذا العهد ، واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية فى دلالتها بأمور أخرى ··· ولعلها تكون فى أواخره على غير المنهاج الأول فى لغة مصر ··· ولقد كان اللسان الحميرى بهذه المثابة ، وتغيرت عند مضر كثير

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ١٠٤ ــ ١٢٣ ·

من موضـوعات اللســان الحميرى وتصاريف كلمــانه ، تشهد بذلك الأنقال (النقوش) الموجودة لدينا ٠٠٠ ولغة حمير لغــة أخرى مغايرة للغة مضر فى الكثير من أوضاعها ، وتصاريفها وحركات اعرابها ، كما هى لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر » (١) ٠

لم ير ابن خلدون اذا فى اختلاف اللهجتين دليلا على أن العدنانية لم تنشأ من القحطانية ، بل احتج لهذا الخلاف بأنه يشبه ما بين لغة عصره ولغة مضر التى نزل بها القرآن الكريم ٠

وذكر ابن خلدون أيضا أن اللغة المستحدثة هى لغــة العرب المستعربة « وانما سمى أهل هــذه الطبقة بهذا الاســم العرب المستعربة ، لأن السمات والشعائر العربية لما انتقلت اليهم ممن قبلهم اعتبرت فيها الصيرورة ، بمعنى أنهم صاروا من حال لم يكن عليها أهل نسبهم ، وهى اللغة العربية التى تكلموا بها ، فهو من استفعل بمعنى الصيرورة ، من قولهم : استنوق الجمل واستحجر الطين ٠ وأهل الطبقة الأولى لما كانوا أقدم الأمم جيلا كانت اللغة العربية لهم بالأصالة ، وقيل العاربة » (٢) ٠

اللغة واحدة وان اختلفت اللهجة :

اللهجــات :

لم يكن غريبا أن وصل الينا الشعر الجاهلى بلهجة قريش ، لأن قريشــا كانت قد سادت قبل الاسلام سيادة دينية وتجارية ، وكانت الأسواق الكبار ــ عكاظ وذو المجنة وذو المجاز ــ تقام على مقربة من ديارها ، فتفد اليها القبائل فى موسم الحج ، وكانت عكاظ بخاصة مجتمع العرب ، يقبلون اليها من كل فج ، ليحققوا منافع لهم ، وليتباهوا بالبليغ الرائع من القول ، فينشد الشاعر قصيدته ، ويخطب الخطيب خطبته ٠ فى هذه السوق أنشد عمرو بن كلثوم مطولته ، وفيها كانت تضرب للنابغة قبة من جلد ليتحاكم اليه الشعراء ، وفيها خطب قس بن ســاعدة خطبته التى سمعها رســول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر (٣) ، فمن الطبيعى اذا ــ وهذه الأسواق تقام قريبة من مكة ــ والعرب يقرون لقريش بالسيادة ، ولقريش رحلات تجارية تساعد على تهذيب لغتهــا وتنميتها ــ أن تحاكى القبائل قريشا فى لهجتها ، وتتأثر منطقها ، وأن تنتقى قريش من لهجات القبائل أفصحها ، ومن ألفاظها أعذبها ٠

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩١ ٠

(٢) تاريخ ابن خلدون ٧٥ ٠

(٣) الجعفرى : لبيد بن ربيعة الجعفرى ٠

فلا عجب فى أن اصطنع الشعراء لغة قريش لغة أدبية لهم ، شأنهم فى ذلك شأن أدباء العربية المعاصرين ، ففيهم المصرى والسورى والعراقى والسعودى والسودانى الخ ·· ولكل منهم لهجتة الخاصة فى حديثه اليومى المعتاد ، لكنهم اذا ما كتبوا أو خطبوا أو شعروا اصطنعوا العربية الفصحى ترجمانا عن مشاعرهم وأفكارهم ·

وهنا ملاحظة جديرة بالالتفات اليها ، هى أن الشعر المروى يرجع الى عهد غير بعيد من الاسلام ، لأن الرواة والمدونين لم يسجلوا منه ما قدم به العهد قبل أن تسود لهجة قريش ، وقبل أن يتعارف الشعراء على اصطناعها لغة أدبية لهم ·

على أننا لا نغفل أمرا آخر ، هو أن الشعراء الذين يمتون الى أصل يمنى كانوا قد أقاموا فى الشمال وتربوا هناك ، وتعلموا لغته الأدبية ، وانقطع أو كاد ينقطع بالجنوب عهدهم ، فهم فى هذا يشبهون الأسر التركية التى وفدت الى مصر فى العصر الحديث وأقامت بها ، ثم لم تلبث الا جيلا أو جيلين حتى نسيت تركيتها ، وانطلقت بالعربية ألسنتها ، مع ما بين التركية والعربية من بعد ، وما بين لغة الجنوب ولغة الشمال من قرب ·

وكيف ننسى أن اليهود الذين عاشوا فى الحجاز ، وكانت لغتهم عبرية ، ما لبثوا أن حذقوا العربية وصاروا من شعرائها ، ولا يتبين فى شعرهم ما يشف عن مخالفة للشعر العربى الذى وصل الينا بلهجة قريش ·

ولم يكن العرب بدعا فى وحدة اللغة الأدبية ، ففى الجزر البريطـانية سلالات من ايقوسيا ومن ايرلندا ومن ويلز وغيرها ، ولكل منها لهجة خاصة تختلف أحيانا الى حد أن أهل الشرق يكادون لا يفهمون عن أهل الغرب ، وسكان الجنوب يكادون لا يفهمون لهجة ايقوسيا ، ولكنهم جميعا يرتبطون بلهجة أدبية واحـدة ، والمدارس والجامعات تحـرص على أن تكون الدراسـة بالانجليزية الموحـدة ·

ومثل هذه الحال فى فرنسا ، فلكل اقليم لهجته التى يكاد يصعب فهمها على الاقليم الآخر ، ولكن للأقاليم كلها لغة أدبية واحدة ، هى وسيلة العـلم والتعليم والثقافة ·

بقيت حقيقة لابد من التنبيه عليها ، وهى أن بعض الشعر الذى وصـل الينا يمثل بعض لهجات القبائل المختلفة ، وقد دونها العلماء لحاجتهم اليها فى تصـاريف الكلام ، أو التدليل على قاعدة أو نطق ، وان لم يكن من أغراضهم تسجيل اللهجات كلها ·

على أن النقوش التى تظهر اختلافا بين لهجة الشمال ولهجة الجنوب غير القديمة ليس تاريخها محددا ، والخلاف فى جملته قليل طفيف لا يقطع الصلة بين اللغتين ، بل انه يعززها ، لما بينهما من كثير من وجود الاتحاد • وليس معنى الخلاف أن لغة الجنوب ليست أصلا للغة الشمال ، فلغتنا العامية انشعبت من العربية ولكنها تغايرها ، والانجليزية الحديثة تولدت من الأنجلوسكسونية وهى تباينها ، وفى فرنسا لغات لها خصائصها ومع ذلك فانها لا أثر لها فى انتاج الأدباء من أبناء هذه الأقاليم ، فلغة النقوش محلية ليست بذات صبغة أدبية ، والنوبيون يكتبون اليوم بالعربية مع أنهم يتكلمون غيرها فيما بينهم ، والأمة العربية الآن تتكلم لغة وتكتب أخرى ، وما من شك فى أن اللغة الانجليزية واحدة ، ولكن البون عظيم بين انجليزية تشوسر وانجليزية ماكولى ، وبين انجليزية ألفرد وانجليزية تشوسر •

وربما كانت لهجة الشمال فى ذلك الوقت أيضا مقاربة جدا للهجة الجنوب، ولو عثرنا على نقوش بلغة الشمال من عهد نصوص الجنوب لوجدنا اللغتين متشابهتين ومتقاربتين تقارب الفرع وأصله ، لأن الموازنة بين لهجة عدنان التى رويت قبيل الاسلام بقرن ونصف قرن وبين لهجة قحطان التى كانت قبل ذلك بنحو خمسة عشر قرنا (١) موازنة تغفل البيئة والزمن وأثرهما فى اللغة ، وتهمل ما تعرض له سكان الجنوب من اختلاط بالأحباش والفرس ، ثم هى موازنة بين لغة عدنان فى الشمال وبين لغة من بقوا من قحطان فى الجنوب ولم يرتحلوا الى الشمال ، ونحن نعلم أن كثيرا من القحطانيين قد هاجروا الى الشمال ، وتربوا فى بيئة أخرى ، ولهجت بلغة الشمال ألسنتهم ، وانقطع بلغة الجنوب عهدهم ، شأنهم شأن الأسر التركية الكثيرة التى وفدت على مصر ، وأقامت بها فى العصر الحديث ، فما هو الا ردح من زمن حتى نسوا تركيتهم ، وانطلقت باللغة العامية والعربية ألسنتهم • ولم يعد لهم بالتركية الا نسب يحفظونه ، وكثير منهم ينسونه ، هذا مع البون الشاسع بين التركية والعربية العامية ، ومع القرابة الوثيقة بين لهجة الجنوب ولهجة الشمال ، وفى تاريخ اللغات مثل كثيرة تعزز هذا الرأى •

ونحن نعلم أن العرب كانوا يتفاهمون ، ولا يجدون مشقة فى تفاهمهم ، سواء التقوا فرادى أم جماعات فى نواديهم أو أسواقهم أو مواسمهم أو حروبهم ،

---

(١) يرى جلازر أن أقدم النقوش هى المعينية وأن أقدمها يرجع الى القرن الخامس عشر او السادس عشر قبل الميلاد ، وأحدثها يرجع الى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد • ويرى مولر أن أقدمها يرجع الى ما بين القرن التاسع والثامن قبل الميلاد • (النقد التحليلى لكتاب الأدب الجاهلى ص ١٧٢) •

فمثلا كانت قريش ترحل الى الشمال والى الجنوب قبل الاسلام ، فتخالط هؤلاء وهؤلاء فتفهم عنهم ، ويفهمون عنها · ثم استهل الاسلام وعرض النبى عليه الصلاة والسلام الدين الجديد على القبائل ، ووفدت عليه وفودهم من أنحاء الجزيرة فتكلموا وتكلم دون حاجة الى ترجمان ، ونجد تفصيلا عن وفد كندة برياسة الأشعث بن قيس ، وعن وفد همدان وما دار بينهم وبين الرسول عليه الصلاة والسلام من قول ، ولا نجد اشارة الى صعوبة فى التفاهم (١) وبعث النبى كتبا الى جهات كثيرة بلغة قريش ، وأوفد الى اليمن على بن أبى طالب ومعاذ ابن جبل فلم يحتاجا فى التفاهم الى وسيط ، وأناب عنه بعض المسلمين ليفقهوا القبائل فى الدين ويجمعوا الزكاة · ولم يرو التاريخ أن صعوبة فى التفاهم نشأت فى حالة من هذه الحالات ·

حقا كان لأهل اليمن لهجة تختلف عن لهجة الحجاز ، ونجدها فى بعض مظاهر الصوت والدلالة ، والقواعد والمفردات ، فالنقوش التى قرئت تدل على أن لغة الجنوب أقدم من لغة الشمال ، وعلى أن الأولى أصل الثانية وليس بينهما فرق كبير ·

فمن حيث الهجاء ترسم التاء المربوطة مفتوحة فى اليمن كما فى (كلبت) الحميرية وكلبة العدنانية ، ويحذف حرف المد غالبا من أواسط الكلمات وأواخرها كما فى (ذ) الحميرية بمعنى (ذو) العدنانية و (ذن) بمعنى « ذان » ·

على أن هذه المغايرة الهجائية ليست فرقا حاسما ، لأن الكتابة رمز للغة ، وقد تقصر عما ترمز اليه ، ونحن الآن نكتب « ذلك » بدون ألف بعد الذال « وهذان » بدون ألف بعد الهاء ، ونكتب اسماعيل وابراهيم أحيانا بغير الألف الوسطى ، وكان العرب فى صدر الاسلام يكتبون بغير نقط ولكنهم يقرأون ما يكتبون ·

ومن حيث القواعد بعض الخلاف صغير كرسم القحطانيين نون التنوين ميما مثل (نعمتم) فى (نعمة) والنون والميم متقاربا المخرج ، وبعضه كبير مثل اثبات حرف العلة فى الفعل الناقص اذا اتصل بواو الجماعة كما فى (هقنيوا) الحميرية وأقنوا العدنانية بمعنى أعطوا فى اللغتين ·

ومن حيث المفردات بعض الخلاف طفيف كما فى (هقنيوا) السابقة اذ قلبت الهاء همزا فى لغة الشمال ، وهذا القلب شائع عندهم نحو هراق وأراق وهيا وأيا ، وكما فى عدو بمعنى اجتاز ، وبعضه كبير كوجود كلمات فى اليمنية ليست فى العربية الشمالية مثل (حجن) بمعنى لأن ·

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/٢٥٤ ، ٢٦٨ ·

ومن المستطاع رد هذا الخلاف كله الى أنه تطور فى اللغة ٠

أما اختلاف الدلالة فانه تطور أيضا ، وتمشى مع الزمن والاستعمال والتجوز، فمثلا (بعل) معناها فى الجنوب صاحب وفى الشمال زوج ، و (وقه) معناها فى الجنوب أجاب وفى الشمال أطاع ، وبين المعنيين ارتباط وثيق كما ترى ٠

وأما التغاير المبنى على التخفيف فكثير كابدال الهاء همزا فى أفعل الرباعى، وكحذف آخر الفعل الناقص المسند الى واو الجماعة كما سبق ، وكحذف الاشباع من الضمير المتصل الغائب نحو (أخوه) فى لغة الشمال و (أخهو) فى لغة الجنوب ، وهذا التخفيف دليل واضح على أن عربية الشمال تطورت من عربية الجنوب ، لأن التطور يجنح دائما الى التخفيف والتسهيل ، ونحن نرى ذلك فى لغتنا العادية المولدة من العربية ، ونراه فى الانجليزية فمثلا iarge كانت تنطق فى عصر تشوسر (١٣٤٠ ــ ١٤٠٠ م) بتحريك الآخر و Have كانت تنطق فى عصر مارلو وشكسبير بتحريك الآخر أيضا ، وكانت علامة المضى تنطق متحركة فى الأفعال الضعيفة فيقال loved

أما التشابه بين اللغتين فقوى وكثير جدا ، كاتحاد الضمائر واسم الاشارة واتحاد بعض الكلمات لفظا وان لم يتفق المعنى تماما ، واتحاد بعضها معنى وان تغاير اللفظ بعض التغاير ، واتحاد بعضها لفظا ومعنى (١) ، وهذا الاتحاد وهذه المغايرة الناشئة عن التطور تعزز رأى العرب القدماء فى أن لغة الشمال وليدة لغة الجنوب ، وتعزز ما قاله ابن خلدون من أن المضرية نشأت من الحميرية كما نشأت لغة العرب فى عصره من اللغة المضرية ٠

ومن الأمثلة على الاتحاد (بورك وتبارك اســم الرحمن الذى بالسماء) و (نذرت للذى بالسماء نذرا لأنها أخطأت ببيته ومحرمه ، ولأنها وطئت موطنا غير طاهر) وهناك مئات من الكلمات المشتركة بين اللغتين فى أقدم النقوش مثل أخ وأخت وركب ووثن وشبل وأسد وسبع وشهر وشيب وقلب وقليل وحادثة وغـــلام وثمن وفرس وابل وحــرة وخميس وخــريف ومقتو بمعنى مساعد الخ (٢) ٠ واذا كانت اللغات السامية متقاربة فى أول أمرها فأحرى بلهجة الشمال ولهجة الجنوب أن تكو نامتقاربتين بصورة أوضح وأقوى ، يقول الأستاذ جرجى زيدان : « وقد ساعد العرب على التوسع فى وسائل التجارة فضلا عن توسط بلادهم أنهم كانوا يتكلمون لغة قريبة من لغات أكثر الأمم المتمدنة فى

---

(١) النقد التحليلى لكتاب الأدب الجاهلى ١٨٢ ــ ١٨٦ ٠

(٢) النابغة الذبيانى عمر الدسوقى ١٢ ٠

ذلك الحين ، لأن اللغات السامية كانت يومئذ لا تزال متقاربة لفظا ومعنى ، فالعربى والكلدانى والأشورى والعبرانى والحبشى والفينيقى كانوا يتفاهمون بلا واسطة ، لقرب عهد تلك اللغات من التشعب بما يشبه حال اللغات العامية العربية اليوم من اللغة الفصحى ، فكان العربى من حمير أو مضر اذا جاء العراق لا يحتاج فى مخاطبة الكلدانى أو البابلى أو الأشورى الى ترجمان ، وكذلك اذا يمم فينيقية أو الحبشة فانه يفهم لسان أهليهما كما يفهم الشامى لسان أهل مصر اليوم ، ويؤيد ذلك ما جاء فى التوراة عن ابراهيم الخليل ، فانه تزوج من بلاد الكلدان فى نحو القرن العشرين قبل الميلاد ، فاجتاز سورية وفينيقية وبلاد العرب وخالط أهلها ، ولم يفتقر فى مخاطبتهم الى مترجم ، وكذلك بنو اسرائيل فى تيههم حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، فانهم قضوا أربعين سنة فى أعالى جزيرة العرب ، ولم يحتاجوا الى مترجم بينهم وبين أهلها (١) ٠

لكن لماذا لم يظهر اختلاف اللهجات فى أكثر الشعر المروى ؟

وهذا سؤال يدور بالخلد ويسترعى النظر ، معتمدا على ما سبق من تقرير المخالفة بين اللهجات ، ولكن الاجابة عنه ميسرة ، ومستمدة من حقائق مقررة :

١ ــ علمنا فى تهذيب أطوار اللغة أنهـا بتراخى الزمن وتطاوله وجهود أبنائها واختلاط بعضهم ببعض تقاربت ، حتى كادت تمحى فروقها قبيل الاسلام، الا ما بقى من لهجات خاصة لم تستطع الألسنة أن تنفلت منها ٠ وقد نبه عليها العلماء ٠ ولو كان هناك خلاف جوهرى ما استطاع الاسلام فى سنوات قليلة أن يلوى ألسنة الحميريين الى لسان قريش ، ولما استطاع أن يستلغى العرب كافة بلهجة قريش ٠

٢ ــ والتاريخ يحدثنا بأن سيادة اليمن كانت منذ أواخر القرن الرابع الميلادى قد زالت ، وتناوشتها الفتن والمنازعات الداخلية ، ومنيت بالاحتـلال الأجنبى الحبشى ثم الفارسى ، وفى ذلك الوقت شرع نجم الفرشيين يتألق ، وشرع سلطانهم التجـارى والثقـافى والدينى يمتـد على جيرانهم وعلى اليمن ، ولغة العدنانيين كانت حينئذ أرقى من لغة القحطانيين ، وقد خلفهم الحجازيون فى مكانتهم التجارية منذ القرن السادس للميلاد ٠

على أن انتصار لغة على أخرى ليس ناشئا عن الغلب السياسى وحده ، بل يرجع أيضـا الى عـوامل أخرى منها رقى اللغة ، وثروتها الأدبية والعلمية ،

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ١/١٠ ٠

فالرومان أخضعوا اليونان سياسيا ، ولكنهم خضعوا لهم أدبيا وثقافيا ، والأتراك لم يستطيعوا أن يثبتوا لغتهم فى بلد من البلدان التى فتحوها .

٣ — ثم ان الرواة والعلماء لم يرووا الشعر ، ولم يدونوا اللغة على نطق القبائل قبل تهذيب قريش للغة ، بل تناقلوا ما كان قبيل الاسلام ، وفى صدر الاسلام ، اذ الأدب بلغة قريش فى الأعم الأغلب « ولم تحفظ العرب من أشعارها الا ما كان قبيل الاسلام » (١) وهم أرادوا من جمع اللغة وتدوينها تسجيلها وتسهيل تعلمها ، وتخليد أدبهم ، وخدمة علوم القرآن والحديث ، واللغة الكفيلة بتحقيق ذلك كله قرشية وهى مضرية راقية ، يقل فيها الاختلاف .

وأقدم ما وصل الينا عن الأدب الجاهلى لا يعدو قرنين قبل الاسلام ، وكانت لغة الشمال قد تغلبت على لغة الجنوب ، واستأثرت بالمحادثة مع بعض تحريف ، وبالأدب دون تحريف . والموازنة بين لغة الشعر الجاهلى الذى وصل الينا منذ أول القرن الخامس الميلادى وبين لغة النقوش التى ترجع الى قرون قبل ذلك موازنة فيها تعسف ، وليس من الصواب أن يحكم باحث — بناء على مابين اللهجتين المتباعدتين الزمن من بعض الفروق — أن شعر امرىء القيس كله منحول لأنه بلهجة قريش ، وامرؤ القيس يمنى الأصل .

وكيف ينسى أن لغة اليمن فى عهد امرىء القيس كانت غير لغة اليمن التى ترويها النقوش وهى قبلة بقرون ، وأن امرأ القيس وأضرابه قد اصطنعوا لهجة الشمال لغة أدبية لهم ؟ .

وليس شأن امرىء القيس وأضرابه من شعراء اليمن بأغرب من شأن اليهود ، فقد دخل اليهود الحجاز وهم يتكلمون الآرامية والعبرية ، ثم تعلموا العربية وصاروا من أهلها ، وفيهم شعراء لا يختلفون عن شعراء العرب فى شىء .

فمن الطبيعى أن يتم الاتحاد بين لهجة العرب فى الشمال وفى الجنوب وفى الشرق وفى الغرب أسرع وأقوى مما تم بين لغة العرب ولغة اليهود ، لأن وحدة اللهجات من لغة واحدة أدنى من وحدة لغات ترجع الى أم واحدة .

٤ — أضف الى ذلك أن اللغة العربية الشمالية جاورت اليمنية القديمة وصارعتها صراعا انتهى فى أواخر العصر الجاهلى بانتصار العربية الشمالية ، لأنها كانت أرقى ثقافة وأدبا ، وأغزر مفردات ، وأدق قواعد ، وكان نفوذ عرب الشمال التجارى والسياسى والأدبى والدينى قد شرع يتغلغل فى اليمن التى

---

(١) كتاب الأصنام لابن الكلبى ص ١٢ .

كانت ضعيفة فى ذلك الوقت ، فكانت جميع الظروف الملائمة للتغلب اللغوى عونا للغة الشمال على لغة الجنوب ، وهذه الحالة شبيهة بحال اللغة الالمانية فى صراعها مع لهجات المناطق السويسرية المجاورة لألمانيا ، وبحال اللغة الفرنسية فى صراعها مع لهجات المناطق البلجيكية والسويسرية المجاورة لفرنسا ، فقد انتصرت الألمانية والفرنسية كما انتصرت لغة العدنانيين على لغة القحطانيين ، لأن الظروف متشابهة ، بل ان القرابة القوية بين العربية الشمالية والجنوبية قد سلحت الأولى بسلاح لم يكن للألمانية والفرنسية ، لأن قوة القرابة بين اللسانين المتصارعين تذلل لأرقاهما سبل الانتصار (١) .

وقد صرعت العربية الفارسية ، واستعرب كثير من الفرس ، وكان من ذراريهم أدباء شعروا ونثروا بلسان عربى مبين كما شعر ونثر العرب الخلص .

وكان للدوريين من اليونان شعر وأوزان ، ولليونانيين شعر وأوزان ، فلما ظهرت أثينا على البلاد اليونانية ذاع الشعر اليونانى والأوزان اليونانية ، وجرى عليهما الدوريون اذا شعروا أو نثروا ، وعدلوا عن لغتهم ولهجاتهم وأوزانهم وأساليبهم الى لغة الأثينيين ولهجتهم وأوزانهم وأساليبهم .

ولم يكن اصطناع اللغة السائدة للتعبير الشعرى نهج الشعراء وحدهم بل شاركهم رعاة هذيل الضاربون قرب مكة ، فاصطنعوا فى شعرهم لغة تغاير لغة التخاطب ، على أنها مستمدة من جميع اللهجات ، والعرب يفهمونها فى كل مكان، ويبدو أن هذه اللغة الغنائية أو الشعرية لم تسد فى الحجاز ونجد وحدهما ، بل امتدت الى قلب البلاد العراقية أيضا ، وصارت بعد أم العربية الفصحى(٢)

وقد اتخذ شعراء الجزيرة فى شتى أماكنهم وعلى الرغم من اختلاف قبائلهم لغة مشتركة ، تدل سماتها على لغة شعرية ... وهناك أمثلة عدة تدل على وجود لغات أدبية فى الأمم البدائية مع وجود لهجات مختلفة للقبائل الشمالية لم يحدثنا النحاة الا عن قليل منها (٣) .

تغلبت لغة الشمال فى ميادين الأدب كما تغلبت فى الخطاب ، غير أن لغة الأدب دامت خالصة فصيحة ، لأن طبيعة اللغات المنتشرة فى كل عصر وكل أمة أن يصيبها التحريف فى لغة الحديث ولا يكاد يمسها فى لغة الأدب . فاللغة اللاتينية تطورت تطورا كبيرا فى لغة المحادثة فى البلاد التى دانت لها ، فنشأت منها

---

(١) فقه اللغة على عبد الواحد بتصرف ص ٦٠ ــ ٦٣ .
(٢) العرب والامبراطورية العربية . بروكلمان ٣٢ .
(٣) النابغة الذبيان ص ١٧ . عن بركلمان .

لهجات مغايرة لأصلها : الفرنسية ، والايطالية ، والاسبانية ، والبرتغالية الخ . ولكنها ظلت لغة أدب وكتابة حتى فاتحة العصر الحديث دون أن يعتريها تغيير كبير ، واللغة العربية القرشية مازالت لسان الأدباء الى اليوم ولم تتأثر باللهجات المحلية ولكنها فى لغة المحادثة خاضعة لتأثير البيئة والنطق .

ولم يكن العرب وحدهم بدعا فى وحدة اللغة الأدبية ، فان لها أشباها من الأمم القديمة والحديثة .

« قال سترابون انه وجد الأقوام فى بلاد العجم تتفاهم بلغة واحدة ، وهى بلاد تعاقبت عليها سلالات الآرايين والطورانيين والساميين ، ويقال فى روايات شتى ان الحاميين وصلوا اليها فى زمن قديم كما كانوا يصلون اليها ويتجمعون فيها بعد الاسلام بعدة قرون ، ولم تكن عوامل الوحدة اللغوية بينهم أقوى من عواملها فى جزيرة العرب ، ولم يمض عليهم من الزمن ممتزجين متقاربين أكثر مما مضى على القبائل العربية التى من عادتها الترحل والانتقال من مرعى الى مرعى ومن جوار الى جوار .

وقد كتب مارتن لوثر باللهجة السكسونية ، واستخدمها فى ترجمة الانجيل، فصارت لغة ألمانيا الأدبية القومية ، وكذلك فعل دانتى حينما كتب باللهجة التسكانية ، ففرضها على سائر اللهجات الايطالية ، وصارت بفضله لغة ايطاليا الأدبية .

وهذا يذكرنا بما تم على يد شوسر فى انجلترا ، حين أنشد شعره باللغة الشائعة فى جنوبى انجلترا بالقرب من لندن، فسرعان ما طغت على سائر اللهجات فى البلاد ، واعترف بها الجميع لسانا قوميا (١) .

وفى العصر الحديث — من القرن التاسع عشر الى القرن العشرين — لا نرى أحدا يستغرب تخاطب القوم فى جزائر البريطان بلغة واحدة ، ومنهم الايرلنديون والايقوسيون والغاليون ، وفى كل أمة من الأمم خطباء مفوهون وشعراء مشهورون يحسنون الانجليزية منظومة ومنثورة ، ولا نرى أحدا يستغرب ذلك فى بلاد الأسبان ومنهم القشتاليون والباسكيون (٢) .

وفى انجلترا اليوم عشرات من اللهجات التى يشق على كثير من الانجليز

---

(١) قصة الأدب فى العالم ٢/٦٩ .

(٢) مطلع النور ٧٨ عباس العقاد .

فهمها ، والاحاطة بها كلها ، بيد أن هناك لهجة واحدة ينطق بها الجميع حين يتقابلون أو يتعلمون أو يكتبون ، وهى لغة الأدب والصحافة ولغة الطبقة الراقية واسمها لهجة المدارس الخاصة . Public School Dialect

بعض الشعر المروى يسجل اللهجات :

على أنهم دونوا لهجات شافههم بها الأعراب فى البادية ، وهى بقايا من اللهجات المتباينة التى كانت فى الجاهلية ، وقد اقتصروا فى تدوينهم على ما يحتاجون اليه فى تصاريف الكلام ، أو اقامة الدليل على قاعدة أو منطق . ولم يتوسعوا ليدونوا اللهجات كلها وتاريخها . ولو فعلوا ذلك لجاءنا علم كثير .

وقد وصل الينا كثير من اللهجات المختلفة حفظها التاريخ على أنها مناح من النطق اختصت بها بعض القبائل ، وقررها كثير من العلماء ، ورووا عليها شواهد ، ويمتد بنا البحث لو تقصينا كل ما قيل ، فنجتزى ببعض اشارات لتكون مثالا لهذا الاختلاف الذى قال الدكتور طه انه لاأثر له فيما روى من شعر .

وكتب اللغة والأدب والنحو حوافل بهذا الاختلاف .

وسنضرب أمثلة لبعض أنواعه معتمدين على نصوص تمثل هذه الأنواع :

١ ـ قد تختلف دلالة اللفظ على معنى ، **كهذه الأبيات من قصيدة خنافر الحميرى التى رواها أبو على القالى :**

ألم تـر أن الله عـاد بفضـله   فأنقـد من لفح الزخيخ خنافرا
وكشـف لى عن جحمتى عمـاهما   وأوضح لى نهجى وقد كان داثرا
دعـانى شصـار للتى لو رفضـتها   لأصليت جمرا من لظى الهوب واهرا

وفسر الزخيخ بالنار ، والجحمتين بالعينين ، والهـوب بالنار ، والواهر بالساكن مع شدة الحر ، وقال انها كلها كلمات يمانية .

وأورد لشاعر يمنى أيضا قوله فى أمه التى أكلها الذئب :

فيا جحمتـا بكى على أم واهب   أكيلـة قلـوب ببعض المـذانب

وفسر القلوب بالذئب ، وهو القلب أيضا ، والكلمتان يمانيتان (١) .

---

(١) الأمالى ١/١٣٥ ـ ١٣٦ .

وقال ابن منظور فى لسان العرب : القليب والقلوب والقلاب الذئب ، يمانية ، وذكر البيت السابق (١) .

وقال القالى فى موضع آخر : السرجان الأسد بلغة هذيل ، والذئب بلغة غيرهم من العرب (٢) .

وتستعمل ذو اسما موصولا عاما فى لهجة طيىء ، قال بجير بن عنمة الطائى :

وان مولاى ذو يعيرنى لا احنة عنده ولا جرمه
ينصرنى منك غير معتذر يرمى ورائى بالسهم والسلمه (٣)

وفى رواية لسان العرب بأسهم وامسلمه .

وقال سنان بن الفحل الطائى :

فان الماء ماء أبى وجدى وبئرى ذو حفرت وذو طويت (٤)

وأهل الجنوب يعرفون بأم لابأل كما فى رواية اللسان لبيت بجير .

٢ ــ وتختلف القواعد النحوية نفسها اختلافا كان له ضجيج وعجيج ، فمثلا بعض اللهجات على اعراب المثنى بالألف ، ومنه :

تزود منا بين أذناه طعنة دعته الى هابى التراب عقيم (٥)

وبعضها على لزوم الأسماء الخمسة الألف ، ومنه قول أبى النجم العجلى أو رؤبة (٦) .

ان أباها وأبا أباها قد بلغا فى المجد غايتاها

وهذيل تستعمل متى بمعنى من ، ويجرون بها ، ومنه قول أبى ذؤيب :

شربن بماء البحر ثم ترفعت متى لجج خضر لهن نئيج

(١) لسان العرب مادة قلب .
(٢) الأمالى ١/١٠٦ .
(٣) المؤتلف والمختلف للآمدى ٥٨ جرمة . جريمة . سلمة : حجارة .
(٤) حماسة أبى تمام ١/٢٣٦ .
(٥) فقه اللغة لابن فارس وتاريخ آداب العرب للرافعى ١/١٤٥ .
(٦) الدرر اللوامع ج ١ ص ١٢ .

وبعض القبائل لا يجزمون الفعل بلم ، **ومنه :**

لولا فوارس من نعم واخوتهم يوم الصليفاء لم يوفون بالجار (١)

وبعضها تحذف النون من المضارع المرفوع ، **ومنه :**

أبيت أسرى وتبيتى تدلكي وجهك بالعنبر والمسك الذكى (٢)

والطائيون يحذفون آخر الفعل الناقص فى غير اسناد الى ضمير بارز ومنه :

نستوقد النبل بالحضيض ونصطاد نفوسا بنت على الكرم (٣)

وقد وردت كلمة (أملوك) دالة على الجمع فى مدح حجية بن المضرب ليعفر بن زرعة ملك ردمان ـ قبيلة من عرب اليمن :

فان كنت سآلا عن المجد والعلا وأين العطاء الجزل والنائل الغمر

فنقب عن الأملوك واهتف بيعفر وعش جار ظل لا يغالبه الدهر (٤)

وقالوا ان الأملوك اسم جمع بمعنى الملوك ، ولكن الراجح انها ليست اسم جمع بل هى جمع لملك ، وهذه الصيغة اليمنية ومثيلاتها متأثرة بصيغة حبشية مماثلة لها ، فالأحباش يستعملون (أفعول) للدلالة على الجمع ، والعرب قد ضموا أول الجمع ، على أنه نادر فى العربية ، فلم يذكر السيوطى منه الا ثلاث كلمات : أمعوز للقطيع من الظباء ، وأحبوش لجيل الحبش ، وأركوب لجماعة الركاب (٥) .

القراءات واللهجات

على أن قراءات القرآن الكريم مظهر لتسجيل هذه اللهجات ، وهى أمثلة تاريخية لا ريب فيها .

ذكر المبرد أنه قد قرىء « ولا تأخذكم بهما رآفة فى دين » بدل رأفة (٦) وقرىء « أفتمرونه على ما يرى » بمعنى أفتدفعونه بدلا من أفتمارونه (٧) وذكر

(١) الخصائص لابن جنى ٣٩٣/٢ والمغنى والاشمونى .
(٢) الخصائص ٤٩٤/١ .
(٣) شرح حماسة أبى تمام للمرزوقى ١٦٥/١ .
(٤) الأمالى ٥٣/١ .
(٥) المزهر ٨٣ .
(٦) الكامل ٣٢٤/١ .
(٧) الكامل ٣٥١/١ .

أن فى مصحف ابن مسعود (ودوا لو تدهن فيدهنوا) (١) والقراءة فيدهنون على العطف ، وقرأ عبد الله بن مسعود (ما ينظرون الا زقية) والقراءة الا صيحة والمعنى واحد (٢) ٠

وذكر الطبرى أن قراءة زيد بن ثابت (ان آية ملكه أن يأتيكم التابوه) وأن قراءة أبان بن سعيد وعثمان (التابوت) ، وقرأ عيسى الثقفى قوله تعالى : (يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون) (على هوان) وقرأ الأعمش (على سوء) (٣) ٠

اللغـة واللهجات :

ولم تتمثل اللهجات فيما روى من شعر فحسب ، بل تمثلت أيضا فى اللغة المروية نفسها ، فالتضاد ، والترادف ، وكثرة الجموع للكلمة الواحدة ، وتغيير بنية الكلمة بتقديم حرف وتأخير حرف ـ هذه كلها آثار من اللهجات ٠

فمن أسباب الترادف فى اللغة أن اللهجات امتزجت فصارت أشبه ببحيرة ، امتزج بمياهها الأصلية مياه أخرى انحدرت اليها من جداول كثيرة ، والى هذا يشير ابن جنى فى كتابه الخصائص اذ يقول : وكلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد كان ذلك أولى بأن يكون لغات لجماعات اجتمعت لانسان واحد من هنا وهناك » ويشير اليه ابن فارس فى كتابه الصاحبى اذ يقول : « فكانت وفود العـرب من حجاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج ، ويتحاكمون الى قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها ، فاذا أتتهم الوفود من العرب يتخيرون من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى سلامتهم التى طبعوا عليها » (٤) وكذلك التضاد ناشىء من اجتماع لغات لقبائل عدة مثل جون للأبيض والأسود ، وجلل للعظيم والحقير ٠

وكثرة صيغ جموع التكسير للكلمة الواحدة كعبد وناقة ناجمة عن اختلاف اللهجات ، وأن لكل قبيلة وزنها القياسى المطرد غالبا ، وشبيه بهذا اختلاف أوزان الأفعال الثلاثية ، وتعدد مصادر الفعل الثلاثى ، وليس من الصواب فى شىء أن يعدد قوم جموع الكلمة الواحدة ويعددوا مصادر الفعل الواحد ، ويختلفوا

---

(١) الكامل ٢/

(٢) تفسير الطبرى والكامل للمبرد ٠

(٣) القرطبى ١١٧/١٠ ٠

(٤) فقه اللغة ص ١١٠ ٠

هذا الاختلاف فى بنية الفعل نفسه ، لأن اللغات وسائط للافهام لا للتعمية والابهام ٠

ثم ان الكلمة قد تكون واحدة فى الأصل ولكن اللهجات تختلف فيها بتقديم حرف أو وضع حرف مكان حرف ، كأن تقول قبيلة فاظ وتقول أخرى فاض ، وتقول قبيلة عاث وتقول أخرى عاث الخ ، وواضح أن أصل الكلمة واحد ٠

وفى كل هذه الأحوال التى أسلفنا جمع مؤلفو المعاجم مفردات اللغة جمعا لا مراعاة فيه لنسبة كل كلمة لقبيلتها ، فخيل الينا أنها كلها لهجة واحدة ٠

على أن جامعى اللغة من النصوص ومن مشافهة العرب فى البوادى قد توخوا العرب الفصحاء الخلص الذين لم يفسد لسانهم بخلاط ولا حضارة ، وآثروا أن يرووا عن قيس وتميم وأسد ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يأخذوا عن غيرهم من بقية القبائل ، أو ممن تأثروا بالحضارة أو ممن كانوا يتاخمون الأمم المجاورة ٠

رحلات القحطانيين الى الشمال :

أما أن القحطانيين نزحوا من الجنوب الى الشمال حتى قبل عصر ابراهيم عليه السلام فان التاريخ يثبته ، فقد كانت قبائل يمنية الأصل فى شمالى الجزيرة قبل الاسلام مثل : لخم وغسان والأزد ، وقد ذكر هوجو فنكلر وليونارد كنج فى الفصل الذى كتباه عن بلاد العرب قبل الاسلام فى المجلد الثالث من تاريخ هارمزورث العالمى : « أن نفس سيل الأمم الممكن تتبعه فى العصر الاسلامى من جنوبى شبه الجزيرة الى الممالك المتمدينة حول البحر الأبيض المتوسط كان جاريا فى الوقت الذى طغى فيه الكنعانيون ثم الآراميون على الشرق » والذى كتب التاريخ العرب القديم فى المجلد الثامن من تاريخ المؤرخ العالمى يقول : « ان اللمحات الأولى المنبعثة من أول شىء يستحق أن يسمى تاريخا تكشف لنا عن بلاد العرب خاضعة جلها أو كلها تقريبا لحكم جنس جنوبى الأصل هم العرب الصرحاء أو العرب القحطانيون » والأستاذ سيس A. H. Sayce العالم الأثرى الكبير يقول فى الفصل الذى كتبه عن الامبراطوريات الأولى فى العراق ومصر فى المجلد الثالث من تاريخ هارمزورث : « ان تاريخ الشرق القديم الذى كان منذ أقل من قرن لا يملأ الا صفحات ، قد كشف البحث الأثرى الآن عنه ، فصار المؤرخون يعرفونه كما يعرفون تاريخ القرون الوسطى ، وان أول ذلك التاريخ المعروف سابق على الألف الثالث قبل المسيح ٠٠٠ ونحن نستطيع أن نقرأ الخطابات التى كتبها الملك البابلى الذى جاهده ابراهيم ، وعصر موسى بل ابراهيم أخذ يبدو لنا

في أدق تفاصيله ، كما يبدو منظر طبيعي من خلال تلسكوب ... وبعض ما كتبه الأقدمون تخليدا لمجد بابل يذهب الى ما وراء عصر حمورابي معاصر ابراهيم ... وكثير من خطابات حمورابي وخلفائه من بعده محفوظ اليوم فى متاحف أوربا ... وكانت مصر خاضعة للهكسوس وكان الساميون الكنعانيون يعبرون الصحراء ذاهبين آيبين ، ويجدون لدى بلاط قومهم الهكسوس ما وجده ابراهيم من الترحاب ، ولم يكن عجيبا أن يرقى عبرى مثل يوسف الى مقام وزير (١) .

ونحن نعلم أن الهكسوس قد حكموا مصر مدة حتى أخرجهم أحمس الأول حوالى ١٦٠٠ ق.م وأن عهد ابراهيم جد يوسف عليهما السلام كان قبل المسيح بما لا يزيد على ألفى عام .

والعرب العاربة كانوا يسودون شبه الجزيرة قبل ذلك كما اتضح من قبل ، واذا فما يقوله تاريخ الأدب عن أصل اللغة العدنانية متفق مع الحقائق التاريخية ، وسيادة القحطانيين على البلاد العربية ، كانت قبل عهد ابراهيم عليه السلام بأمد بعيد .

والتوراة تحدثنا بصلة الجنوب بالشمال ، فتذكر أن ملكة سبأ وفدت على سليمان عليه السلام حوالى ٩٥٠ ق.م ، والقرآن الكريم عرفنا هذه الوفادة .

ثم ان المراجع التاريخية الافرنجية تقرر أن فى العلا شمالى بلاد العرب نقوشا معينية تدل على صلة المعينيين بهذه الجهة .

« وكان اليمنيون يحترفون التجارة ، وينقلون متاجر الهند الى مصر والشام ، مارين فى طريقين من الجنوب الى الشمال ، أحدهما يجوب الحجاز ، وقد أقامت قبيلة جرهم بالحجاز وفادة اسماعيل ، وقيل انها وفدت عليه وكان ذلك قبل الميلاد بنحو ألفى عام .

« وقد ثبت من النقوش التى كشفت أواخر القرن الماضى أن قبائل معينية هجرت الجنوب ويممت الحجاز وشمالى الجزيرة فى الألف الثانى قبل الميلاد ، وهى القبائل التى عرفت فى التوراة باسم (معونيم) وفى الكتابة الهيروغليفية باسم (معين مصران) وغزت بطونا منهم جنوبى فلسطين وأنشأوا لهم دولة فى منطقة غزة ، وظلوا الى عهد الاسكندر الأكبر (٢) .

---

(١) النقد التحليلى لكتاب (فى الأدب الجاهلى) للغمراوى ص ١٦٤ - ١٦٦ .

(٢) النابغة الذبيانى ص ١ .

ولما انهار سد مأرب حوالى ١١٥ ق٠م وغمر الماء البلاد هاجر كثير من سكان اليمن الى الشمال ، والقرآن الكريم يسجل هذا ٠ وكان من المهاجرين بنو ثعلبة (ومنهم الأوس والخزرج) وخزاعة وقد جاوروا الحرم ، وأجلوا عنه قبيلة جرهم الأولى ، والأزد وقد استوطن بعضهم عمان ، وبعضهم استوطن تهامة ، وهم أزد شنوءة ، وأقام جفنة بن عمرو وأبناؤه بالشام ، ومنهم الغساسنة ، وطيىء قد استوطنوا جبلى أجا وسلمى الخ ٠

وهؤلاء المهاجرون قد حملوا معهم لغتهم اليمنية الى المناطق التى هاجروا اليها ، ثم امتزجت اللغتان بالمجاورة ، والمصاهرة ، والمعاشرة ، والمتاجرة ، والمخالطة ، امتزاجا جعلهما لغة واحدة ، الا ما كان ينجم عن بعض العادات الكلامية ٠

وبعد ٠ فليس من الحق أن ننفى هجرة اليمنيين الى الشمال ، على كثرة ما سجل التاريخ من هجراتهم ورحلاتهم فى أزمان شتى ، بتأثير الأحداث والخطوب والحروب والاخصاب والاجداب ٠

واذا كان انتقال اليمنيين الى الشمال وغيره صحيحا ، فصحيح أيضا أنهم تكلموا باللهجة التى يتكلم بها جيرانهم ومخالطوهم ، وصحيح أن تزول الفوارق بعد جيل أو جيلين ان كان ثم فارق فى النطق أو فى بعض الدلالة والاعراب ٠ على حين أن المهاجرين يصطنعون لغة الشمال لغة أدبية لهم لا يحيدون عنها ، لأنها تشبه اللغة الرسمية التى تعارف عليها الجميع ٠

معنى كلمة ابن العلاء :

أما كلمة أبى عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا (١) ، فهى صالحة لأن يكون معناها :

١ ــ أن الحميرية الموغلة فى القدم ــ وكانوا كثيرا ما يعبرون عن القحطانية بالحميرية ــ هى التى تغاير لغة قريش ، فليست حميرية القرن الخامس الميلادى ــ وهو عهد الأدب الجاهلى المروى ــ هى المغايرة للغة قريش ، لأن النصوص التى عثروا عليها فى النقوش وفيها خلاف بين اللغتين ، معينية أو سبئية أكثرها غير مؤرخ ٠ وفى رأى جلازر أن أقدمها هى المعينية ، وأقدم هذه يرجع الى القرن الخامس عشر أو السادس عشر قبل الميلاد ، وأحدثها يرجع الى القرن التاسع

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ٨ ٠

أو الثامن قبل الميلاد، وفى رأى مولر أن المملكة المعينية والسبئية كانتا متجاورتين وأن أقدم تلك النقوش يرجع الى ما بين القرن التاسع والثامن قبل الميلاد ٠

٢ ـ أن اللغتين عربيتـان ، ولكن التطـور والمكان والزمان والأحـداث والألسنة الخ قد شقت من اللغة الواحدة لهجتين ، بدليل قوله « ولا عربيتهم بعربيتنا » والعرب يطلقون على اللهجة اللسان ٠

من خصائص اللغة العربية

للغة العربية صفات أو خصائص تتميز بها ، منها أنها لغة ثرية بمفرداتها، وأنها مركزة موجزة ، تجنح الى الاختصار أكثر مما تجنح الى الاطناب والتطويل ، فمثلا :

١ ـ للكلمة الواحدة عدة مشتقات ، وعدة دلالات ، فالفعل ماض ومضارع وأمر ، ويجىء منه اسم فاعل واسم مفعول وصفة مشبهة واسم زمان واسم مكان واسم آلة ومصدر ، ومصدر ميمى واسم مصدر ، ونسب وتصغير وجمع مذكر سالم وجمع مؤنث سالم وجمع تكسير وهكذا ، وكثيرا ما تتعدد جموع التكسير للكلمة الواحدة مثل كلمة أسد جمعها آساد وأسود وأسد ومثل كلمة بيت جمعها بيوت وأبيات وجمع الجمع بيوتات ٠

وللكلمة الواحدة عدة معان ، وان كانت لغات كثيرة تشارك اللغة العربية في هذه الظاهرة فان العربية فى هذا أغنى ٠

٢ ـ وللكلمة الواحدة عدة مشتقات ، فمثلا يجىء من :

حرض : أحرض الحب فلانا . أشقاه ٠

وحرضه على الشىء : حضه عليه ٠

وتحارضوا على الشىء : حرض بعضهم بعضا ٠

والحراضة : موضع احراق الأشنان وحجر الجص ٠

والاحريض : العصفر ٠

ويجىء من سبح : أسبحه فى الماء : عومه ٠

وسبح فلان : قال سبحان الله ٠

وسبح الله وسبح لله : نزهه وقدسه ٠

والسابحات : السفن والنجوم ٠

والسباحة : رياضة بدنية بالعوم ٠

والسباح : العوام ٠

والسبوح : من صفات الله تعالى ، وهو الذى تنزه عن كل سوء ٠ وسبحان الله كلمة تنزيه ٠

والسبحة والمسبحة : خرزات منظومة للتسبيح ٠

والتسبيح : الدعـاء ٠

٣ ــ ومن أمثلة المعـــانى التى تنشأ عن زيادة السين والتاء فى الفعل قولهم :

استفعل للطلب مثل استفهم أى طلب الفهم ٠

وللصيرورة مثل استحجر الطين أى صار حجرا ٠

وللمطاوعة مثل استقام أى قبل التقويم والتعديل ٠

وللاستعادة مثل استرد ماله ، واسترجع الحديث الذى سمعه ٠

وللصيرورة مثل استحصد النبات أى صار حصادا ٠

٤ ــ اضمار بعض الأفعال فى بعض التراكيب ، مثل : اضمار الفعل فى **قولنا :** تحية طيبة ، مرحبا ، أهلا وسهلا ، سمعا وطاعة الخ ٠ والتقدير : أحييك **تحية** ، وأقول لك مرحبا ، وقصدت أهلا ، وحللت سهلا ، وسمعتك سمعا ، **أو أقول** لك سمعا ٠

٥ ــ حذف بعض الجمل اعتمادا على أنها مفهومة من السياق ، نحو قوله **تعالى :** « فلما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون (أى يسقون **ماشيتهم**) ووجد من دونهم امرأتين تذودان (أى تردان ماشيتهما) قال : **ما خطبكما** ؟ (أى قال لهما : ما السبب فى أنكما تذودان ؟) ، قالتا : لا نسقى **حتى** يصدر الرعاء (أى قالتا له لا نسقى ماشيتنا حتى ينتهى الناس) وأبونا **شيخ كبير** ، فسقى لهما (أى جئنا لنسقى ماشيتنا ، لأن أبانا كبير السن) **فسقى** موسى لهما ماشيتهما ٠

٦ ــ حذف خبر المبتدأ كما نجد فى كثير من الآيات القرآنية ، نحو قوله **تعالى :** « والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، **ومن** يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » (١) ، فقد حذف الخبر ، ودل عليه قوله

---

(١) سورة النساء : ٣٨ ٠

تعالى : « ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » والأصل أن الذين ينفقون أموالهم مراءاة للناس ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر عصاة لله ، خاضعون للشيطان، أو مستحقون عذاب الله ، ومن يكن الشيطان قرينا له جره الى هذا المصير ٠

٧ ــ حذف خبر ان ، لأن السياق يدل عليه ، نحو قوله : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » (١) فقد حذف خبر ان اكتفاء بدلالة جملة التذييل عليه وهى قوله تعالى : « انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » ، والأصل أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثوابهم عظيم أو مقربون الى الله ٠

٨ ــ حذف المقابل فى الاستفهام ، لأنه يفهم من السياق ، نحو قوله تعالى : « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » (٢) ٠

أى : أفمن أسلم واهتدى بنور الله واستحق ثوابه كمن أصر على الكفر فخبط فى الضلال واستحق عذاب الله ؟ أيهما خير المسلم السعيد باسلامه أم الكافر الذى قسا قلبه وضاق صدره فهو فى ظلام بدليل قوله تعالى : « فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » ٠

٩ ــ حذف جواب الشرط ، لأن فى الآية نفسها أو فيما بعدها ما يدل عليه ، ولأن حذفه يوحى بضرب من التهويل والتضخيم واعمال الخيال ٠

من هذا قوله تعالى : « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعا » (٣) ٠

أى لو أن قرآنا حرك الجبال من مواضعها ، أو قطع الأرض وشققها وصدعها ، أو كلم الموتى فأسمعهم واستجابوا له ، لكان هذا القرآن ، لأنه بلغ الحد الأقصى من الترغيب والترهيب ومن الهداية والرشاد ٠

وهكذا نجد فى اللغة العربية ضروبا شتى من الايجاز والتركيز ٠ وحسبنا ما تقدم من بعض الأمثلة ٠

---

(١) سورة الكهف : ٣٠ ٠
(٢) سورة الزمر : ٢٢ ٠
(٣) سورة الرعد : ٣١ ٠

من آثار اللغة العربية فى الحضارة العالمية

١

لقد كان للتراث العظيم الذى خلفه العرب والمسلمون باللغة العربية آثار عظيمة فى الفكر العالمى وفى فنونه وحضارته ، ما زالت تثير الاعجاب ، وتستدر ثناء العلماء من الشرق ومن الغرب على السواء ، لأنها كنوز ثمينة ضخمة متنوعة الجواهر ، كان لها الفضل فى نهضة أوربا من سباتها فى العصور الوسطى ٠

ويكفى أن نعلم أن التراث العربى لم يقتصر على ما كتب باللغة العربية أصلا ، بل كان بعضه ترجمة لكثير من كتب اليونان والفرس ٠

فقد نقل الخليفة المأمون الى بغداد مئات من الكتب اليونانية التى كانت فى القسطنطينية ، ولما عقد الصلح مع الامبراطور اشترط عليه أن يبيح له نقل ما يختاره من كتب العلوم القديمة المخزونة فى بلاد الروم ، فأجابه الى ذلك بعد امتناع ، فأنفذ المأمون جماعة ، منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق ويوحنا ابن ماسويه ، فنقلوا ما اختاروه ، فلما حملوه الى المأمون أمرهم بترجمته ، فترجموه ، وكان من هذه الكتب كتاب بطليموس فى الرياضة ٠

ولما صالح حاكم جزيرة قبرص طلب منه أن يبعث اليه الكتب اليونانية التى بالجزيرة ، فبعثها ، وأقام سهل بن هارون قيما عليها ٠

وكان بنو المنجم ينفقون على جماعة من التراجمة ، منهم حنين بن اسحاق وثابت بن قرة وغيرهم ٠

والذى يتقصى مكتبات العالم اليوم يجدها مليئة بالكتب العربية ، فمثلا فى مكتبة برلين أكثر من عشرة مجلدات كبار بأسماء الكتب العربية التى بها وفى مكتبة الفاتيكان أكثر من خمسة آلاف كتاب مخطوط ٠

وفى مكتبة الأسكوريال أكثر من مئة ألف مخطوطة ٠

وهكذا مكتبات موسكو ولندن وفيينا وغيرها ٠

٣

لا شك أن اللغة العربية بتراثها العظيم كانت الأساس الذى قام عليه المذهب العلمى التجريبى ، وهو أحد الأصول التى دعمت عليها أوروبا نهضتها العلمية ٠

وحسبنا أن نذكر أن علم الضوء مدين للعلامة ابن الهيثم مؤلف كتاب (المنــاظر) ٠

كما أن أصول الرياضيات مدينة للعلامة الخوارزمى ، واليه ينسب علم الجبــر ٠

كذلك ترجع أصول علم الهيئة والنجوم والفلك الى البيرونى مؤلف كتاب (القانون) المسعودى فى الهيئة والنجوم ، وهو الذى أشاد به العلامة سنجاو فى قوله ان البيرونى أعظم عقلية عرفها التاريخ ٠

ولقد قضت أوربا ثلاثة قرون من القرن الثانى عشر الى القرن الرابع عشر وهى تترجم كتب العرب الى اللغة اللاتينية ٠

ولم تقتصر على مؤلفات ابن سينا وابن رشد والرازى ونظرائهم ، بل انها ترجمت عن اللغة العربية كتب اليونان التى كان العرب قد ترجموها ، مثل كتب جالينوس وبقراط وأفلاطون وأرسطو واقليدس وبطليموس ، فزاد عدد ما ترجم من العربية الى اللاتينية على ثلاث مائة كتاب ٠

ولم يظهر فى أوروبا قبــل القرن الخامس عشر عالم لم يستنسخ كتب العرب ، ولم ينتفع بها ، مثل روجر بيكون وألبرت الكبير وسان توما وغيرهم ٠

قال مسيو رينان : ان ألبرت الكبير مدين لابن سينا ، وان سان توما مدين لابن رشــد ٠

ولقد ظلت ترجمات الكتب العربية ولا سيما الكتب العلمية هى المصدر الوحيد تقريبا للتدريس فى جامعات أوروبا خمسة قرون أو ستة ٠

وحسبنا أن الدكتور لوكلير ذكر فى كتابه (تاريخ الطب العربى) أن اللغة العربية لها الفضل فى معرفة أوروبا كتبا يونانية ضاع أكثرها ، مثل كتاب

جالينوس فى الأمراض السارية ، وكتاب أرسطو فى الحجارة ، وكتاب أبولونيوس فى المخروطات ٠

وعقب جوستاف لوبون على هذا بقوله :

اذا كانت هنالك أمة تقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعامل الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة ، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليـونان ، فعلى العالم أن يعتـرف للعرب بجميل صنعهم فى انقاذ تلك الكنوز الثمينة ٠ قال مسيو ليبرى : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا فى الآداب عدة قرون (١) ٠

٣

أما الأدب الأوروبى فقد استمد من الأدب العربى واللغة العربية ، فقد كان كثير من أبناء أوروبا يدرسون فى جامعات الأندلس ، ويصطنعون اللغة العربية لغة أدبية لهم ، حتى ان الشاعر الايطالى بترارك قال : يا للعجب ، لقد استطاع شيشرون أن يكون خطيبا بعد ديموستين ، واستطاع فوجيل أن يكون شاعرا بعد هوميروس ، فهل قدر علينا ألا نؤلف بعد العرب ؟ لقد تساوينا نحن والاغريق وجميع الشعوب ، وسبقناها فى بعض الأحيـان ، ما عدا العرب ، فيا للحماقة ويا للضلال » ٠

على أن القصص العربية كانت ذات آثار واضحة فى القصص الغربية ، وحسبنا أن العلامة جوستاف لوبون يشهد بأن قصص الفروسية من اختراع العـرب ٠

ومن الأمثلة على تأثير القصص العربية أن قصة حى بن يقظان لابن طفيل الأندلسى التى ألفها فى القرن الثانى عشر الميلادى ترجمتها أوربا الى اللاتينية والى الانجليزية فى القرن السابع عشر ، ثم تعددت ترجمتها الى لغات أخرى ٠

وانه ليسترعى النظر أنه بعد ترجمتها ظهرت فى القرن الثانى عشر قصة روبنسن كروزو للكاتب ديفو ، وقصة جلفر للكاتب سوفيت ، وبين قصة ابن طفيل وهاتين القصتين مشابه كثيرة فى جوهر الفكرة ٠

كذلك عرفت أوروبا قصة مجنون ليلى وقصة عنترة وحكايات ألف ليلة وليلة ، وكان الاعجاب بألف ليلـة وليلـة لا نظير له ، حتى ان فولتير قرأها

---

(١) حضارة العرب : جوستاف لوبون ٠ ٦٧٥ ــ ٦٩٠ ٠

أربع عشرة مرة قبل آن يمارس كتابة القصة،وحتى ان استندال ود أن ينسى ألف ليلة وليلة ليستمتع من قراءتها من جديد ٠

أما شعر الفروسية والغزل العفيف والشهامة والنبل وحماية المظلوم ، وأما شـعر التروبادور وتأثرهم بالشـعر العربى فانه حقائق مقررة فرغ منها الدارسون (١) ٠

٤

فاذا ما انتقلنا الى الأدب الفارسى وجدنا اللغة العربية أثرت تأثيرا عظيما جدا فى اللغة الفارسية ، اذ كان الفرس يصطنعون العربية فى أول الأمر وسيلة للتأليف وبخاصة فى العلوم الشرعية ٠

ولهذا كانت طريقتهم فى تربية الملكة الأدبية لا تغاير الطريقة التى نصح العرب بها ، وهى الاسـتزادة من الثقافة العامة ، والتملى بالبليغ من الشـعر والنثر ، وادامة النظر فى القرآن الكريم والحديث الشريف ، وقد بلغت الكلمات العربية فى بعض الكتب الفارسية من خمسين الى ثمانين فى كل مئة كلمة ٠

كذلك تأثر النثر الفنى والقصصى والمقامات والشعر والأوزان والقوافى والبلاغة والحروف الهجائية (٢) ٠

أما بعد ٠٠ فيكفى اللغة العـربية عـلاء ومجدا أنها اللغة التى نزل بها القرآن الكريم على خاتم المرسـلين ، فكان المعجزة الكبرى ، وما زال المعجزة العظمى ، وكان هدى للناس ونورا ، فصلت آياته من لدن حكيم خبير ؟

احمد الحوفى

---

(١) حضارة العرب : جوستاف لوبون ٠ ٥٤٢ ـ ٥٤٨ ٠

(٢) تيارات ثقافية بين العرب والفرس ٠ الدكتور أحمد الحوفي ٢٧٦ ـ ٣٠٢ ٠

أثر الفرس فى حضارة الاسلام

للدكتور/ حسين مجيب المصرى

من الخير بادىء ذى بدء أن نتمثل الحضارة فى مفهومها اللغوى والاصطلاحى جميعا ، كيما نعلم على أى أساس نرسو والى أية غاية نسعى • ويمتاز بحثنا بأنه على تحديد • وان الخاطر ليسبق الى قول ابن منظور فى لسان العرب ان الحضارة بكسر الحاء الاقامة فى الحضر ، وكان الأصمعى يقول الحضارة بالفتح• والحضر والحضرة والحاضرة خلاف البادية وهى المدن والقرى والريف سميت بذلك لأن أهلها حضروا الامصار ومساكن الديار التى يكون لهم فيها قرار •

ويجرى هذا المجرى قولهم مدن بالمكان أى أقام ومشتق من ذلك تمدن الرجل أى تخلق بأخلاق أهل المدن وانتقل من الخشونة والهمجية والجهاء الى الأنس والظرف وللمعرفة وقيل مولده • والمتحصل مما أسلفنا ذكره ان الحضارة والمدنية بمعنى ، والأصل فيها أن تكون المدن مستقرا ومقاما ، وذلك ما يترتب عليه أن يكون ساكنها بمنأى عن البادية ، وبالتالى يتبدل من حياة الضنك والشظف الى حياة اللين والترف ، والفـــارق بين هاتين الحياتين مستقيم فى الفهم • وفى حسباننا ان المدلول الاصطلاحى فى لفظة مدنية وتمدن أظهر منه فى لفظة حضارة • وقد يؤيد ذلك دخول لفظتى تمدن ومدنيت فى الفارسية والتركية والأوردية • بيد أننا نقع على المدلول اللغوى للحضارة فى عموم وشمول وتمام وضوح ، فى لفظة أحلها الأتراك المحدثون محل كلمة مدنيت العربية الأصل وهى أويغارلق المشتقة فى التركية مما يفيد الاقامة والتجمع والعيش فى وئام • وقد تسمى بالاويغور شعب من شعوب الترك شـــرق التركســـتان وحوض نهر تاريم ويغايرون سواهم من شعوب الترك القديمة فى انهم لم يكونوا أهل بداوة • والعلماء يكتشفون دوما عن آثارهم الدالة على أخذهم عن الصين والهند والفرس فى حضارتهم مما هيأ لهم ان يكونوا أعرق الشعوب التركية فى ازدهار حضارتهم واستبحار عمرانهم (١) •

---

(١) د• حسين نجيب المصرى ـ تاريخ الأدب التركي ص ٢٤ (القاهرة ١٩٥١) •

وكأنما استجمع الأتراك مفهوم الحضارة فى تفكيرهم واستجابوا لنزعتهم القومية فلما اهتدوا الى لفظة أدل منها تصح فى بداءة التعقل من حيث تأييد الاشتقاق اللغوى للواقع التاريخى • ومن تتمة القول فى هذا الصدد بعد اذ تبينا الحضـــارة فى لغات الشرق الاســلامية أن نعيرها لمحة منا فى اللغــات الأوروبية • وهى فيها أو فى معظمها من الأصل اللاتينى Civilis الذى يفيد النسبة الى المدنية • وليس بخاف ان لغات الشرق التى أسلفنا الاشارة اليها تطابق لغات الغرب تمام التطابق فى أصل الكلمة وصريح دلالتها •

واذا ما نظرنا فى قاموس ويبستر الانجليزى ألفيناه يورد للحضارة سبعة تعريفات ، يؤخذ منها على الاجمال انها وضع عام لثقافة الانسان الذى أخضر خصائصه التجافى عن مظاهر البربرية فى السلوك ، مع العمل جهد المستطاع على وفق القيم الخلقية والروحية ، وتطويع الفرد لأن يكون مقوما صالحا لتشكيل كيان الجماعة •

ومثل هذا فى التعريف لا يكاد يختلف ويخرج عما سبقت اليه الاشارة الا بعقد الصلة الوثقى بين الفرد والجماعة ، ولا علينا اذا عددناه من نافلة القول فى هذا المقام خاصة ان الحضارة كما عرفنا انما تقوم أساسا على سكنى المدينة ومعايشة أهلها • ومبلغ علمنا اننا لم نتعرف بعد الى من رد المسبب الى السبب • أى من تصدى لايضاح ما يجول فى الخاطر وما تتطلع اليه النفس فى رغبتها ــ الوقوف على جلية أمر الحضارة من حيث كونها نتيجة لها مقدمتها ــ أو على التوضيح لمعرفة ما تنبثق فيه الحضارة ويمدها بمقومات متعاقبة فى دوام تحفظ وجودها وتقيم كيانها • فكل ما سبق القول فيه لا يعدو أن يكون تعريفا لغويا معجميا يقتصر على التحديد اللغوى فى ضيق من نطاق ، ليمكن من يطلب اللغة وحدها أن يدرك الحضارة فى لفظة فى أصول اشتقاقها • ونرى أن نؤيد ذلك المدلول اللغوى الصريح بمفهوم تاريخى ضمنى يؤيده ويؤكده •

فمن الباحثين من انبرى للرد على بعض علماء الغرب الذين نفوا عن العرب أن تكون لهم مدنية خاصة بهم قبل الاسلام خصوصا • وذهب الى انه لا فضل للعرب فى تمدنهم الاسلامى ، لانه فى حقيقة أمره مزيج مما أخذوا من أنقاض مدنية اليونان والفرس • وان عدلوا بعض تعديل فيما أخذوا من ذينك التمدين • فما أقاموا لهم حضارة فى الجاهلية ولا الاسلام •

ويفند هذا الرأى فى العرب بقوله ان العرب من أكثر الأمم اســتعدادا

للحضارة وسياسة الملك لا يجاريهم فى ذلك سواهم من الأمم التى تمدنت قديما أو حديثا (١) .

ويدعم الباحث دعـواه بدليلها فيقول ان سـكان جزيرة العرب عدنانية وديارهم فى شمالها وهى الحجاز ونجد وما جاورهما وقحطانية سكنوا الجنوب أى بلاد اليمن وما حولها . وقد ثمن عرب الجنوب قبل عرب الشمال لان بلادهم أقرب الى الخصب والرخاء من عرب الشمال . ومن مدنهم مأرب وصنعاء وسبأ ، وللعرب استعدادهم للحضارة شأن اخوانهم الاشوريين الكلدانيين والفينيقيين . بيد أنهم لم يقيموا فى بيئة كبيئتهم فقد أقاموا فى جزيرة جرداء قاحلة فى معظم أرجائها . ولو كانت اقامتهم فى مثل ما أقام فيه الاشوريون مثلا من خصب لأثمرت عقولهم وجادت مواهبهم .

ويعود الى قوله ان عرب اليمن كان لهم من ازدهار حضارتهم ما يكشفه العلماء فى دوام ليوفونا بالأعاجيب . وأما العرب البائدة كعاد وثمود ، فيروى التاريخ عنهم ما يستدل منه على أصالة مدنيتهم . وكاف حق الكفاية تذكرنا ما جاء فى الأخبار عن مدينة ارم ذات العماد التى زعموا ان شداد بن عاد بناها فى الأحقاف . فجعل جدرانها من الجزع اليمانى وغشاه بصفائح الفضة المموهة وأقام فى تلك المدينة الفا من القصور .

والكلام فى هذا كله طويل متسع نكتفى منه بذاك القدر لأننا انما أوردنا لحقيقة بعينها هى مناط اهتمامنا وعليها مدار قولنا وما تخصه مشيئتنا ألا وهو وضوح التلازم بين الاقامة فى الحضر وسكنى المدن . وبين نشأة الحضارة فى أمة من الأمم — ولعل فى تلك اللمحة التاريخية الدالة ما يطابق ويساوى مدلولها اللغوى الذى تلمسناه وتتبعناه فى أكثر من لغة .

ولا نصـل بكـلامنا الى غايته الا اذا عززنا المدلولين اللغـوى والتاريخى للحضارة بثالث هو المدلول الأدبى ونعنى به ما يسـتفاد من معناها أخـذا من نص أدبى .

ونسوق لذلك مثالا من شعر بشار بن برد الذى كان معروفا بشعوبيته وشدة تعصبه للفرس على العرب . وهو القائل فى الغض من قدر العرب والزراية بهم .

---

(١) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ص ٩ — ١١ . ج ١ (القاهرة ١٩٠٢) .

أحين كسبت بعد العرب فخرا — ونادمت الكرام على الغفار
تفاخر يا ابن راعية وراع — بني الأحرار حسبك من خسار
وكنت اذا ظمئت الى قراح — شركت الكلب فى ولغ الاطار
وتتشح الشمال كلابسيها — وترعى الضأن فى البلد القفار
وفخرك بين خنزير وكلب — على اذن من الحدث الكبار

فمثل هذا يتم فى وضوح دلالة على ان هذا الشاعر الفارسى النسب ، وانما يركب من يفاخره من العرب بالهزء معيرا اياه بأنه قادم من الصحراء التى سكنها فى عراء وكان يعيش فى ضنك وشظف ولا ألف له بسكنى المدن حيث تتوافر أسباب تفضى به الى أن تجرى عليه صفات الانسان المتحضر بمعنى الكلمة . فكأن المدنية انما هى لأهل المدن لا لأهل الوبر .

وجار هذا المجرى ما قال الشاعر الفارسى أبو القاسم الفردوسى من أهل القرن الرابع الهجرى ، وكان شعوبيا يرى الفضل للفرس على العرب وكان الباعث الأقوى على نظمه تواريخ الفرس فى الشاهنامة اقامة الدليل على ان الفرس سابقة فى المجد ، واحياء القومية الفارسية بعد اذ عمل العرب على تقويض زعمائها واستئصال شأفتها وهو القائل ما ترجمته :

(بلغ بالعربى الأمر لما لديه من أسباب ، من شرب لبن النياق وأكل الضباب أن يكون فى عرش كسرى راغبا الا تبا لك أيها الفلك تبا) (١) .

فهذا الشاعر الذى أظله عصر بلغت فيه حضارة الفرس الاسلامية ما لا غاية بعده فى ازدهارها . يحط من شأن العربى ويطعن عليه . معيرا اياه بأنه يهيم على وجهه فى بادية لا يجد بها من الرزق ما يكاد يقيم أوده ويمسك عليه رقعه ولن يكون ندا للفارسى فى مدنيته متقلبا فى النعم السوابغ وبمثل هذا من قوله ندرك المقصود من تمييزه بين حال العربى فى بداوته والفارسى فى بداوته .

ومما يجدر بنا أن نأنس به فى هذا المقام قول ابن خلدون ان حملة العلم فى الملة الاسلامية بزهم العجم . ذلك ان الملة لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداءة ، ولما كان الرجال ينقلون أوامر الله ونواهيه فى صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع . وأصحابه العرب يومئذ عرب لم يعرفوا التعليم والتدوين . وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين ومن عهد وله الرشيد فيما بعد أمست الحاجة الى

---

١ ــ عرب رابجانى رسيدست كار — زشير شتر خوردن وسوسمار
كل نخت كيانى فى كند آرزو — تفوير بواى جرخ فلك تفو

وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه ، ومعرفة الأسانيد وتعديل الناقلين • وفسد اللسان فاحتيج الى وضع قوانين النحو • وأصبحت العلوم الشرعية ملكات فى الاستنباط والاستخراج والقياس واحتاجت الى علوم أخرى هى وسائل لها • وبذلك أصبحت العلوم حضرية وبعد العرب عنها •

والحضر لذلك العهد هم العجم أو من فى معناهم من الموالى وأهل الحواضر الذين يتبعون العجم فى الحضارة وأحوالها لان الحضارة راسخة فيهم منذ دولة الفرس • وهذا يفسر لنا لماذا كان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسى من بعده والزجاج من بعدهما وكل هؤلاء عجم فى أنسابهم وانما ربوا فى ذلك اللسان العربى فاكتسبوه بمرباهم ومخالطتهم العرب كما ان أكثر حملة الحديث من العجم • وكان علماء أصول الفقه جميعا عجما وكذلك حملة علم الكلام ومعظم المفسرين • وما حفظ العلم ودونه الا الأعاجم • ولا شك أن هذه الحقيقة مصداق لقوله صلى الله عليه وسلم « لو تعلق العلم بأكتاف الثريا لناله قوم من أهل فارس » •

وذاك القدر من كلام ابن خلدون لا يعدو أن يكون اشارة لاحقة الى حقيقة بحذافيرها فليس يذكرنا بما كنا ناسين ولا نعلم ، وان كان ايرادنا له تمهيدا لما سوف يتلوه • فهو يريد ربطا للمعلول بالعلة فيقول ان عدم مشاركة العرب الفرس فى اشتغالهم بالعلم مردود الى أن الرئاسة فى الدولة العباسية شغلتهم وصرفتهم عن العلم ، لانهم كانوا أهل الدولة وحماتها ومن اليهم تدبير سياستها، كما أنفوا الاشتغال بالعلم آنئذ لانه صار من الصنائع ، والرؤساء يستنكفون عنها (١) •

ونحن نستوجب تلقى من رأى ابن خلدون فى شىء من تحفظ • فلو استقام فى الفهم أن ينصرف العرب عن العلم بالرئاسة والسياسة لخطر بالبال ان أهل العلم نادرا ما كانوا من الرؤساء ولا كانت لهم بالسياسة خبرة أو عليها قدرة • كما كانت أزمة الأمور فى أيدى الفرس التى قامت دولة بنى العباس بمسعى منهم وكان الرجحان لهم على العرب فى كل شأن • حتى لقد سميت الدولة العباسية الدولة الساسانية الثانية والأفضل أن يشغل الرؤساء أنفسهم بالعلم تأدبا لا تكسبا •• ت

ولا نقدم لذلك أكثر من مثال ، فقد كان المأمون من أهل التحقيق والنظر • وابن الوتر شاعر له المعجب المطرب وصاحب كتاب البديع ، وهذا أمير أموى هو خالد بن يزيد الذى شغف بعلم الكيمياء ، وجلس فيه مجلس التلميذ من

---

(١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٨٠ ، ٤٨١ (القاهرة ١٩٣٠) •

راهب نصراني ، وأمر بترجمة كتب فى هذا العلم عن اليونانية (١) وفى ذلك ما يكفى لنفى التعارض بين الرئاسة والسياسة والتوفر على النظر فى العلم •

أما ان العرب لم يشغلوا أنفسهم بالعلم كراهة أن يكون ذلك من الصنائع، فدعوى تعوزها حجة لها تدعمها • خاصة ان الصنائع فى قوله مما تمس الحاجة فيه الى ايضاح لأنه لا يصح فى العقل ألا تكون لعربى أو غير عربى صناعة أية صناعة للمعاش كما يلزم من ذلك أن يعيش العربى كلا على الفارسى المتخذ من العلم صناعة • وان كنا لا نعلم ما اذا كان أهل العلم من العرب أو الفرس اتخذوا من علمهم أو تأليفهم وتصنيفهم وتصنيعهم صناعة لهم تدر عليهم رزقهم • وليس لنا أن نعد قرض الشعر من الصنائع حتى لو أفاد بعض المداحين جزيل العطـــاء •

ذلك ما يعن لنا من شتى الفكر ويتحصل للنظر من تعليل ابن خلدون لتوفر العجم على تحصل العلم واستبطان دخائله وتقصى دقائقه دون العرب ، فمن كان نسبهم فى العرب قوم استقصوا أطراف العلوم ومحضوا حقائقها ولكننا لا نريد لابن خلدون تجريحا ، ومثل هذا من رغبتنا يفضى بنا الى الحكم بأن لكل كثير أكثر ولكل قليل أقل غير أن وجود الكثرة لا ينتفى بوجود القلة وتأسيسا على ذلك نقول انه من التحكم نفى الاشتغال بالعلم عن أبناء يعرب عهد العباسيين وقصره على أبناء فارس فى قول جامع مانع بتعليل يثبت على التفكير والتدبر أو لا يثبت •

ولا نتباعد عن ابن خلدون قبل أن نقف عنـــد قوله ان العلوم أصبحت حضرية والحضر لهذا العهد هم الأعاجم ، لان المتحصل من ذلك يؤيد كل ما سبق لنا أن أوردناه فى مفهوم صفات الحضارة على انها مخصوصة بالحضر فى شتى مظاهرها بيد أننا نشفع بما طوفنا طويلا وبسطنا فيه الكلام تفصيلا أن الحضارة كائنة ما تكون لابد منبثقة من الدين والعلم والفن •

وليكن تصورنا للحضارة على هذا النحو من وضوح معالمها كيما يأتى لنا أن تكون على الحجة ونحن نطرق هذا الموضوع من أبوابه وهى أكثر مما استقر عليه الرأى فى الحسبان •

واذا قطبنـــا نتلمس ما بين العرب والفرس من صـــلات ألفيناها منعقدة بطرف فى ماض بعيد يجرى مع الزمان فى عصور تعاقبت وتباينت وهى على

---

(٢) — De Boer, The History of Phelosophy in Islam., p. 17. (London 1933).

التعيين عصر الجاهلية وصدر الاسلام والعصر العباسى ٠ ولما كان لكل عصر منها الخاص من مظاهره كان بالتالى لتلك الصـــلات ما يميزهـا فى الأحايين من تشابه وتخالف واتفاق من حيث تأثر العرب بحضارة فارس ٠

ففى عصر الجاهلية يذكر الحارث بن كلدة طبيب العرب المتـوفى فى العام الثالث للهجرة وذلك لأنه مظهر ذو بال لتأثر العرب بحضارة فارس ، فقد ارتحل الى فارس يطلب علم الطب فيها ومعلوم ان كسرى انوشيروان شيد مدرسـة للطب فى مدينة جنديسابور لها بعيد الصيت آنئذ به يتقدم البها الراغبون فى تحصيل علم الطب وما يتصل به من أشتات العلوم ٠ وكان مقدمهم اليها من أرجاء الأرض فتخرج فيها الأطباء من مختلف الأجناس ٠ وفى تلك المدرسة أمضى حارث بن كلدة أعواما مكبا على الدرس وخدمة قلمه أعواما حتى تهيأ له أن يطب عظماء من الفرس مما أثار اعجاب كسرى فكافأه بمال جزيل ووهبه جارية سماها سمية وهى التى أصبحت من بعد أما لزياد بن أبيه (١) ٠

ثم عاد الحارث الى بلده وفيها اشتغل بعلم الطب وله الفضل فى تعليمه العرب وأشاعته بينهم وجدير بالذكر أن أطباء العرب من بعده حذوا حذوه فى رحيلهم الى فارس لتحصيل علم الطب (٢) ٠

وقيل عنه انه أثناء مقامه فى فارس وصل اسبابه بكسرى وشفاه من داء بعد انقطاع رجاء من شفائه ٠ وهنا مقام ذكر خبر له مع كسرى مجمله انه لما دخل عليه سأله ما صناعته فرد بقوله ٠ انها الطب فقال الملك : أعربى أنت ٠ فما كان من الحارث الا أن امتلأ زهوا وقال : نعم من صميمها وبحبوحة يسارها فسأل الملك : وما تصنع العرب بطبيب مع جهلها وضعف عقولها وسوء اغذيتها: وكان من الحارث ان أجاب قائلا : أيها الملك اذا كانت هذه صفتها ، كانت أحوج الى من يصلح جهلها ويقيم عوجها (٣) ٠

وهذا الحوار بين طبيب العرب وملك الفرس يسـتدل منه على كثير فهو صريح الدلالة على أن العرب فى ذلك الزمان لم يكن لهم حظ من علم حتى عجب كسرى لوجود ذى علم بينهم حتى ولو كان طبيبا مداويا هو ذلك الذى طلب العلم فى فارس التى طبقت من الآفاق شهرة العلم فيها كما يتبين من رد الحارث على سائله المتعجب المتهكم ان الحارث لم ينكر حقيقة جهل العرب بل تأذن لنفسه

---

(١) القفطى : اخبار السماء ص ١٩١ (بغداد) ٠

(٢) همائى : تاريخ أدبيات ايران ص ١٩٣٠ (تهران ١٣٤٠) ٠

(٣) د٠ نجم آبادى : محمد زكرياى وازى ، ص ٣٧٠ (تهران ١٣١٨) ٠

بذلك الجهل وعهد نيته على كشف ظلمته عنهم • وكان له التوفيق كل التوفيق في ذلك • ولكن بفضل من علم الفرس الذى لم يتلمه الا فى أرضهم وما عرفه الامتهم دون غيرهم •

ومن حيث كان العلم مظهرا للحضارة وجوهره كان الدليل كل الدليل فى خبر الحارث بن كلده على أن العرب اقتبسوا من الفرس ما كان من أخص خصائص حضارتهم •

ويجيء ذكر الأعشى وهو من فحول شعراء الجاهلية المتقدين وكان الاصمعى بقوله ما مدح الاعشى أحدا الا رفعه ولا هجاه الا وضعه (١) •

وكان كثير التطواف فى البلاد وطالما ارتحل الى أرض فارس وله خبر مع كسرى يستظرف فقد اتفق له ان مدحه بقوله :

أرقت وما هـذا السهاد المؤرق   وما بى من تعب وما بى تعشق

وسأل كسرى عن معنى قوله ولما عرفه قال هذا النص فأخرجوه •

فكأن كلام الأعشى لم يرق ملك الفرس المزهو بنفسه وملكه وفى عظمته وجبروته حقر أحد العرب فى عينه ولعله كان على ذكر من ان العرب قوم يشنون الغارة على أهل الخفض والسعة ليسلبوا ما بيدهم ويدعوها صفرا • وهم أهل جدب وضيق ، ففى رأيى ان ملوك الفرس أقاموا امارة الحيرة وبسطوا رعايتهم على أمرتها ليأمنوا جانب العرب ويدفعوا عادتهم عن تخوم بلادهم (٢) •

وقيل انه أول من سأل بشعره وانتجع به أقصى البلاد وكان يغنى فى شعره فكانت العرب تسميه صناجة العرب (٣) •

الصناجة والصناج صاحب الطبخ وهو معرب (جنكك) فى الفارسية وهى معزف ذو أوتار ولا علم لنا بشاعر عربى سواه تلقب بلقبه واذا أخذنا بالمعنى اللغوى وتعليل أبى الفرج الأصفهانى للقب الشاعر لم نستفد أن يكون الأعشى قد عرف التغنى بشعره عن الفرس لاننا نعرف من شعراء الفرس ثلاثا هم باربد وركيسا وبامشاد وكان ثلاثتهم من الشعراء المعنيين وكلمة (بربط) فى العربية معرب باربد وأول شعراء الفرس المشاهير بعد الاسلام يسمى رودكى وكان كالأعشى يتغنى بشعره حتى قيل ان اسمه مشتق من (رود) بمعنى وتر القيثارة

---

(١) ابن نباته : سرح العيون ص ٢١٩ (القاهرة ١٣٢١) •

(٢) O'Leory : Arabia before Mohemmed. p. 156. (London 1927). —

(٣) أبو الفرج الاصفهانى : الأغانى ص ١٠٩ جـ ٩ (القاهرة ١٩٣٦) •

في الفارسية والجزء الأهم من كتاب (الاستاق) وهو كتاب الفرس المقدس الذى جاءهم من بينهم زرادشت يسمى (كَاتها) بمعنى الأناشيد لانه منظوم والفرس يسمون الشاعر المبدع (زندخوان) بمعنى المتغنى · المتغنى بكتابهم المقدس وحسبنا هذا كله دليلا قاطعا على اقتران الشعر بانشائه فى فارس القديمة على نحو لا عهد لنا به عند العرب فى جاهليتهم · ومن هنا نميل الى القول بأن الأعشى أنشد شعره جبريا على عادة شعراء الفرس القدامى فى انشاد أشعارهم وبذلك يكون قد آثر من علمهم الحضارة الفارسية واطلع عليه العرب ولم يكن لهم به من علم ·

واستفاضت للأعشى شهرته بالغناء وذلك بسبب كثرة وفادته على الحيرة واختصاصه بكسرى أنوشيروان فى المدائن مما أفضى الى وجوب تأثره بالفرس فى أكثر من منحى من مناحى حياتهم ومظهر من مظاهر حضارتهم التى لم يكن للعرب آنئذ الف بها وقد ضمن شعره امارات على ذلك كله مما أكسبه طابعا خاصا به يلفت اليه من تصدى لتأريخ ما وشج بين العرب والفرس من صلات وما خلف الفرس فىشعر العرب من سمات يقوم بها الدليل على تأثر العرب بهم فالأعشى يصف مجالس الأنس فى فارس ويذكر ما فيها مما لا يعرفه العرب ويورد أسماء لمسميات ليس للعرب بها من عهد ولا لها فى بيئتهم من وجود مما يجعل لشعره غطاء خاصا ويضفى عليه لونا ما له من شبيه مثال ذلك قوله :

ولقـــد شربت ثمانيا وثمانيا	وثمان عشرة واثنتين وأربعـا
من قهـوة بانت ، بفارس صفوه	تدع الفتى ملكا يميـل مصرعا
بالجلســـان وطيـب أردانه	بالون يضرب لى بكر الأصبعا
والناى زم ويربط ذو بحـة	والصبح يبكى شجوه أن يوضعا

ومثل هذا من شعره يشمله حكم التأثر بحضارة الفرس فى شعر العرب أما احتواؤه على ألفاظ فارسية فيعد باكورة ألفاظ لا تقع تحت حصر دخلت لغة العرب على مر الأيام أمارة على دخول الحضارة الفارسية على العرب من أبواب ما أكثرها وأوسعها ·

وما دام الشيء بالشيء يذكر وقد عرفنا ما قيل من حذق الأعشى للغناء أخذا عن الفرس نصل بالكلام الى منتهاه فى هذا الغناء لنتبين ما قد يكون للفرس فيه من أثر وان كنا نحتفظ قبل أن نحكم فى شمول بأن العرب لم يعرفوا الغناء الا عن الفرس أما باعثنا على التزامنا جانب الحيطة فقول الفارابى ان العرب كان لهم ما يعرف بالألحان الجاهلية وليس بمستبعد أن يكون ما أشار اليه الفارابى فى تلك اللمحة الخاطفة بقايا من الحان اختص بها العرب قبل الاسلام (١) ·

---

(١) مهدى بركشلى : موسيقى در دورة ساسانيان ص ٩ ، ١٠ (تهران ١٣٢٦)

وأيا ما كان موجودا من تلك الألحان للعرب وهى التى تعرف لها كنها ، ولا يسعنا أن ننكرها لأن الغناء والميل اليه مركوز فى طبع فطرة كل انسان ودون تمييز بين جنس ولون ولكننا نقطع بأن الغناء عند قوم قل أو انعدم من التحضر حظهم كالعرب آنذاك لا يمكن أن يضاهى بقوم بلغوا من التحضر ذروته • ويلزم من ذلك حتمية أن يكون العرب قد تلقوا عن فارس ما تلقوا ليدخلوه على فن الغناء عندهم •

وفى الحيرة عمرت الحانات بالقيان وهؤلاء لم يكن جميعا عربيات والأقرب الى الفهم أن تكون كثرتهن الكاثرة من الفارسيات وذلك لسببين أولهما متاخمة الحيرة لبلاد الفرس والثانى أن امارة الحيرة كانت تابعة للتاج الكسروى ويذهب أحد الباحثين الى انهن ما كن يغنين الا بالفارسية أو اليونانية وهو فيما يذهب اليه على حجة ان العربى لا يرتضى الاستماع الى غناء عربى من فم غير عربى (١) •

والذى عندنا ان هذا ظن لا سبيل الى الادلاء فيه برأى جازم فما من سبب يمنع أن تغنى فارسية بكلام عربى فى أرض عربية ولو ارتضت لكنة أعجمية ولا ضير أن يكون الغناء فارسى اللحن مما تحسن القينة صنعته كل الاحسان وقد يؤيد هذا تذكرنا أن الأعشى كان يغنى بلغة الضاد وان قلد الفرس فى لحونهم وما عرفنا انه بالفارسية ترنم ولنا أن نلتمس لهذا رأيا تأييدا بما قيل ان النضر بن الحارث بن كلدة وفد على كسرى فتعلم ضرب العود بألحان الفرس وحذق فن الغناء ثم قدم مكة فعلم أهلها (٢) •

وفى هذا الدليل ان العرب أخذوا صناعة الألحان عن الفرس وطوعوها لغنائهم العربى كما ان القيان فى الحيرة غنين للعرب وبطرتن فى أصواتهن الناطقة بالعربية وفى ألحان حسان للفرس الذين كان لهم كل الحذق فى علمهم بأصول تجويدها •

ولما كان الغناء والشعر صنوين من حيث كونهما تعبيرا عن النفس فى انبساطها بالفرح وانقباضها بالأسى واذا صمت اللسان تكلمت الألحان فما من شك أن الموسيقى لها أصالتها فى الفن ، والفن كما أشرنا فى صدر كلامنا مصدر من مصادر الحضارة • وفى الامكان أن يتخذ معيارا لتقويمها فى نوعيتها وتبينها وهى تنقل خطاها فى طريق يمتد أمامها لتعلم كم مرحلة طوت وهل دنت من الغاية أو ما زالت الشقة بعيدة كيما تدنو منها •

---

(١) Former : A History of Arabian Music, p. 12 (London 1929).

(٢) النواجي : حلية الكميت ص ١٨١ (القاهرة ١٢٩٩) •

فالفرس قبل الاسلام كانوا أهل مدنية تنوعت عناصرها وتشكلت سماتها ولا مرية فى أن عرب الجاهلية أخذوا عنهم هذا الفن الذى أمسى له بعد عندهم عظيم شأن .

ولنا أن نجمل القول بالاشارة الى أن عرب الحيرة كانوا أعلى عروجا فى تقدمهم الحضارى من غيرهم لما لايخفى من سبب هو انضواؤهم تحت سلطان الفرس وشدة تأثرهم فى العموم بحضارة الفرس التى كانت من أعظم حضارات العالم القديم فى ذلك الزمان فكان الكثير منهم كاتبين قارئين ونضرب لهم مثلا عدى بن زيد الذى تناول سيرته أبو الفرج الأصفهانى فقال انه من أهل الحيرة أرسله أبوه الى الكتاب حتى حذق العربية ثم أرسله المرزبان الى كتاب الفارسية فملك ناصية العربية والفارسية جميعا .

وقال الشعر وتعلم لعب الصولجان على الخيل كالعجم ولما مضى المرزبان الى كسرى حدثه عن فصاحته وانه صاحب اللسانين فرحب به كسرى وعينه كاتبا فى ديوانه فكان أول من كتب بالعربية فى هذا الديوان وأرسله الى ملك الروم ورسوله وهو يحمل منه هدية اليه (١) .

وموضع نظرنا فى خبر عدى بن زيد ما يرشد اليه بالموضوع الأتم بنقلنا بدخول حضارة الفرس على عرب الحيرة بحيث تميزوا من أبناء جلدتهم فى ارجاء جزيرتهم فها هوذا الفتى يتلقى العلم فى كتاب عربى واخر فارسى ، وذلك يشهد بقيام كيان للتعليم عندهم وهو اذا طلب العلم فى المكتب فانما يجرى على سنة الفرس فى تعليم بنيهم ودليلنا على ذلك اننا لا نعرف تعليم الصبيان فى الكتب عند أهل الحيره من العرب فى ذلك الزمان كما انه يلعب كما يلعب أبناء فارس بالصولجان . والصولجان فى الفارسية (جوكان) وما كان للعرب ألف يمثل هنا من لعب الفرس . وفى الحيرة شاعت أخبار ملوك الفرس ، وكأنما كان ملوكها من العرب أشبه ما يكونون بملوك فارس فى مظاهر ملكهم .

قيل ان هرمز الرابع أهدى تاجا نفيسا تقوم قيمته بستين ألف درهم الى النعمان الثالث يوم تولى الأمر . ولاختيار تلك الهدية مغزاه ، وكلمة تاج فارسية . ولو قيل ان العمائم تيجان العرب لما تغير مدلول التاج ورمزيته ، كما ان اهداء هرمز تاجا الى النعمان قاطع الدلالة على ايثاره له بما يرفع من قدره ويعرف بمنزلته (٢) .

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى ص ١٠١ ج (القاهرة ١٩٢٨) .

(٢) Rothstein : Die Dynastie der Lahmidem Al-Hıra SS. 128, 129 (Berlin 1899). —

وعندنا أن ملك الفرس انما أتحف نابعه بذلك التاج كيما يرمز الى عظمة آل ساسان الذين بسطوا على عرب الحيرة سلطانهم ، وبالتالى أوجدوا واسع المجال يعلمون فيه العرب أصول مدنيتهم التى بلغت غاية الغايات فى زمانهم ٠

ومما ينهض دلبلا على أن تواريخ الفرس وما يدور على الألسنة من قصص ملوكهم ، مما كان له الشيوع والانتشار بين عرب الحيرة ، ما روى من أن من يدعى النضر ابن الحارب بن كلدة كانت له وفادات على الحيرة فعرف من أهلها أحاديث ملوك الفرس وأقاصيص الأبطال كقصة رستم واسفنديار ، فتلقن عنهم ذلك وحفظه عن ظهر قلب ٠ وكان موغر الصدر على النبى صلى الله عليه وسلم ، فجعل مما يحفظ من قصص وسيلة الى مساجلة النبى ، وكان اذا حدث القوم بنقمة الله على الكافرين ، حدثهم بمحفوظ من أخبار الفرس ، مدعيا أنه أحسن حديثا من النبى (١) ٠

وما صنع النضر بن الحارث كان خطبا له شر مستطير وأثر شىء بدليل أن آية قرآنية نزلت فيه هى قوله تعالى فى سورة لقمان (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين) ٠

ويقول البيضاوى فى تفسيره انه اشترى كتب الأعاجم وكان يحدث بها قريشا (٢) ، وما من حاجة تمس الى دليل يقوم على فساد قلبه وخبث سريرته أخذا من هذا الخبر المتعارف المشهور ٠ الا ان الدليل جلى على ما نريد له تبيانا وهو فشو الأحاديث والأقاصيص عن ملوك الفرس فى الحيرة ٠ ومعلوم ان للفرس فرط ولوع بقصص ملوكهم وأخبار أبطالهم وذكر ملاحمهم وخوارقهم ٠ وذلك يشكل جانبا مرموق الأهمية من أدبهم الفصيح والشعبى على سواء ٠ ويلزم من تلك الحقيقة أن يكون عرب الحيرة على دراية بأدب الفرس تتناقله ألسنتهم فى أحاديثهم وأسمائهم واستيعاب النضر للأدب الفارسى يجعله مثالا لغيره من العرب ، أما قول البيضاوى انه كان يشترى كتب الأعاجم فيعزز ما نذهب اليه، ولا علينا، قولنا ان كتب الفرس تداولتها أيدى العرب ٠ وما من ريب فى ان الأدب عنصر له الجليل من خطره فى تشكيل الحضارات ٠

ويستفاد من قول المسعودى فى تاريخه ان الفرس كانت لهم فى الجاهلية وفادات ــ اجتماعية على العرب ٠ وذلك انهم كانوا يقصدون بيت الله الحرام حجاجا يطوفون به تعظيما له ولجدهم ابراهيم عليه السلام ٠ فكان آخر من حج

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٠ ص ٣٢١ ط (القاهرة ١٩٣٦) ٠

(٢) البيضاوى : تفسير البيضاوى ص ٥٤٢ (القاهرة ١٩٤٧)

منهم ساسان ابن بابك جد أردشيره واذا طاف بالبيت زمزم ، وانما سميت بئر زمزم باسمها لزمزمته عليها هو وغيره • وقد توالت هذه الزمزمة عليها وفى ذلك يقول القائل :

زمزمت الفرس على زمزم   وذاك من سالفها الزمزم

وحج الفرس بيت الله فى خالى الزمان كان حقيقة لها الثبات عند الفرس فى العصور التوالى تملؤهم فخرا وعجبا • ولقد عدوه مفخرة ومحمدة ، وما ذاك فى نظريات الا لأن فيها الاشارة الى أنهم كانوا على ملة ابراهيم عليه السلام وها هو ذا شاعر فارسى مسلم يقول :

وما زلنا نحج البيت قدما   ونلقى بالأباطح آمنينا
وساسان بن بابك سار حتى   أتى البيت العتيق يطوف دينا

واذا مر بالبال ان التعارف للتآلف بين الناس من أهم وأقوى أسباب الحج ما ترتب على حج الفرس بيت الله وجوبا أن يختلطوا بالعرب اختلاطا لابد يقضى الى ظاهره التأثير والتأثر • وذاك ما يزداد ويثبت فى دوام على مر الأيام • وهو ما يتقبله العقل ولا يملك له نفيا وردا • وان خلت يدنا من مصداق نورده ومثال نقيمه مقام القلة التى هى دليل على الكثرة •

وكان الفرس تهدى الى الكعبة أموالا وجواهر • وأهدى ساسان عز الدين من ذهب وجواهر وسيوفا وذهبا كثيرا فقذف ذلك فى بئر زمزم (١) •

ولا نعلم صفة هذين التمثالين من الذهب • الا أننا نقطع بأن مشاهدة العرب لهما تعد اطلاعا على مثال للفن عند الفرس المحتم أن يكون هذان التمثالان والأسياف من حيث الفنية فى الاوج لان الهدية على مقدار من يهديها ومن تهدى اليه فالمفترض عقلا أن يكون العرب قد عرفوا من هدية ساسان شيئا عن الفن الفارسى التشكيلى ، أما تأثرهم به وتقليدهم له ، فلا نجد له من الواقع سندا •

ولكن حج الفرس بيت الله وما عرفنا من خبر التحفة المهداه اليه من ساسان ابن برمك تذكرنا بما لا يسعنا نسيانه ولا تناسيه فيما يدور حديثنا عليه ، ففى كتاب فارسى أن البرامكة فى حاضرتهم بلخ كانوا للأصنام عابدين فى أول أمرهم : وفى يوم جاء رجل برمك ووصف له الكعبة على التفصيل ، وملك عليه الوصف اعجابه ، وأخبره بما تصنع قريش والعرب لصيانة الكعبة وعلى أى نحو يعظمونها وينزلونها من نفوسهم منزلة الحرم • فشاق برمك أن يكون لقومه بيت

(١) المسعودى : مروج الذهب ص ١٥٠ جي (القاهرة ١٣٤٦) •

على صفة بيت الله . وما صبر أن أمر بأن يبنى له ما يقرب كل القرب فى شبهه من الكعبة (١) .

وانما نورد هذا لكونه راجح الدلالة على حقيقتين . ذكر المسعودى أولاهما وهى ان الفرس كانوا يحجون البيت والثانية ما اجتهدنا فيه برأينا ذاهبين الى ان جمع الفرس والعرب حول البيت قمين بان يكون السبيل نأثر العرب بشىء من حضارة الفرس . واذا كان الرجل الذى وصف الكعبة لبرمك من حجيج الفرس فالأرجحية لرأينا والأخير ان يكون الحق فى الطرف الآخر ما دام التبادل محتملا بين الطرفين .

ومما يقال توكيدا لكل ما قيل متيقنا كان أو مظنونا — ان العرب درجوا على النظر الى مظاهر النعمة والتمدن عند الفرس معجبين به الاعجاب كله راغبين فى ان يكون لهم مثله ، مما يرجح حسن استعدادهم للأخذ عن الفرس . ونضرب لذلك مثلا ماذكر من ان عبد الله بن جدعان وهو من سادات قريش فى الجاهلية وفد على كسرى وعنده أكل الغالود . وما كان له عهد بالحكم وسأل عن أى شىء هو فقيل له انه لب البر بلبك مع العمل . وطلب غلاما يصنعه له وعاد به الى مكة . وعند وصوله أمر بمد الموائد بعد ان صنع هذا الغلام هذا اللون من الحلوى . وطلب الى مناد أن ينادى قائلا : من أراد أن يأكل الغالود فليحضر . وحضر الناس ليأكلوا .

وبينهم أمية بن أبى الصلت الذى بلغ من اعجابه بما أكل أن ينظم فيه شعرا :

ومالى لأحيبه وعندى	مواهب يطلعن من النجاد
الى وانه للناس نهى	ولا يعتل بالكلم الصوادى (٢)

واذا ما ذكرنا ان العرب أخذوا عن الفرس فرادى — فمن الحتم ان يزيد أخذهم عنهم وهم جماعات وهنا تجدر بنا الاشارة الى ما يقول البلاذرى من ان أرض البحرين كانت من مملكة فارس ، وكان بها خلق كثير من العرب من عبد القيس وبكر بن وائل وتميم (٣) .

ويقول الجاحظ ان أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس فى قديم الدهر

---

(١) Schefer : Chrestomathie Persane, p. 3, V2. (Paris 1885).

(٢) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى ص ٣٢٩ حـ ٨ (القاهرة ١٩٣٥) .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٨٩ (القاهرة ١٩٣٢) .

اخذوا عنهم بعض الفاظهم ولذلك يسمون البطيخ الخربز والسميط الرودف ، وكذلك أهل الكوفة يسمون المسحاة بال وان علق ذلك لغة أهل البصرة اذ نزلوا بأدنى بلاد فارس لكان ذلك أشبه (١) ٠

فهذان المؤلفان يلمحان الى ما نريد به تصريحا ٠ من ضرورة تأثر عرب الجاهلية بحضارة الفرس ، وان وجدنا الأمثلة : تارة وعدمناها تارات ٠ وأدركنا ضمنا ما قد تغنى فيه اشارة عن العبارة ٠

٠ أما فى صدر الاسلام فأول ما يذكر فى أخذ العرب عن حضارة الفرس تلك الصلة الوثقى التى انعقدت بين النبى صلى الله عليه وسلم وسلمان الفارسى ٠ يقول الكاتب التركى معلم ناجى ان سليمان من كبار الأصحاب الكرام وخواص الخدام ٠ يروى عن النبى قوله ان الله حبب اليه أربعة عليا وأبا ذر والمقداد وسلمان (٢) ٠

وعن عائشــة رضى الله عنها قالت : كان لسلمان مجلس من رســول الله ينفرد بالليل حتى كان يغلبنا على رسول الله ٠ كما روى عن ابى هريرة انه قال كان سلمان صاحب الكتابين يعنى الانجيل والفرقان (٣) ٠

ولقد أتاح له التفقه فى الدين انه كان على النصرانية قبل الاسلام اضافة الى المجوسية التى اتخذها دينا واجتهد فيها ، فتحصل له من المعرفة بالدين مالم يتحصل لغيره ٠

وقال الامام الكاظم رضى الله عنه : اذا كان يوم القيامة ينادى مناد : أين حواريى محمــد الذين لم ينقضوا العهــد ومضوا عليه فيقوم سلمان والمقدم وابو ذر (٤) ٠

وفى هذا وضوح الدلالة على ما لسلمان الفارسى من علو القدر عند الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ٠ وما شهد له من سعة الاحاطة بأصول الدين وفروعه ، لقد دان بمجوسية الفارسية التى وجد عليها أباءه ثم اعتنق المسيحية وقد انتشرت المسيحية فى بلاد الفرس على مذهب البناطرة خصوصا ٠ وصادفت الفرس قبولا ٠ وطلب للبناطرة المقام فى فارس حيث لا وجود للنزاع المذهبى

---

(١) الجاحظ : البيان والتبين ص ١١ جـ (القاهرة ١٩٣٢) ٠

(٢) معلم ناجى : أسامى ، ص ١٧ (استانبول ١٣٠٨) ٠

(٣) ابن عبد البر : الاستيعاب ، ص ٥٧ ط ١ (القاهرة ١٩٥٣) ٠

(٤) الحائرى : أبوذر الغفارى ٠ ص ١٨ (النجف ١٩٦٨) ٠

والجدال الديني . فازدهرت المسيحيه ومال كبير من رجال الدوله الفارسية الى اعتناقها (١) .

وبذلك يكون سلمان قد جمع بين الديانتين اللتين تشكل منهما المعتقد الديني عند الفرس قبل الاسلام وكانتا العنصر الديني للحضارة في فارس . وقد رق قلب سلمان للاسلام في العام الأول للهجرة ـ فيتأتى له أن يكون الحجة الثبت في علمه بدقائق مسائل الدين . ويبنى على هذا أن يكون قد أفاد بعلمه وتجربته من سأله من رفاقه العرب عما استغلق عليه فهمه من خصائص الأديان .

ولشخصية سلمان جانبان هما أشبه شيء بكفتي ميزان ونعني بهما الجانب الديني والجانب العلمي . فيقال انه كان يعرف الاسم الأعظم وهو الاسم الجامع لجميع الأسماء . وهو اسم الذات الالهية من حيث هي هي (٢) .

وكان سلمان حجة في الرواية عن الرغبة في معرفة الأمور كنه معرفتها ونقول في ذلك على سبيل المثال ان أحد المؤرخين اعتمد على قول سلمان ان نوحا عليه السلام صنع سفينته في اربعين عاما من الساج (٣) وكافينا هذا القدر من الاشارة الى انه كان على ثقافة خاصـــة تعددت جوانبها وقد نفع بها العرب الذين لم يكن لهم واسع اطلاع عليها .

اما اشهر ما يعرف عن سلمان فهو اشارته على النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق والخندق في الفارســـية (كنده) بمعنى المحفور ، وما كان للعرب دراية من قبل بحفر الخنادق كالفرس الذين تمرسوا بفنون الحرب وأصول القتال في تاريخ طويل .

وفي رأى أن سلمان الفارسي كان عند النبي صلى الله عليه وسلم من يمثل حضارة في القدم عريقة وله تلك الحيثية التي أعان بها النبي فما تخونه . وهو الذي عرف بحرب الخنادق فكانت أول فكرة فنيه تلقاها الاسلام في أول أمره عن فارس ، الا ان سلمان عند المسلمين ـ حتى من لا يعرفون منهم عن فارس الا النزر اليسير ـ رائد العرب على معرفة أصول الفن (٤) .

وهذا الراى في سلمان يعرفنا به على الحقيقة بيد اننا لا نرى وجها لقول صاحب هذا الراى ان سلمان بذل العون للنبي صلى الله عليه وسلم ولم يتخونه

---

(١) Gabriel : Die Erforschung Persiens SS 25, 27 (Wiev 1957).

(٢) الجرجاني : التعريفات ص ١٩ (القاهرة ١٩٣٨) .

(٣) أبو الفضائل الحموي : التاريخ المنصوري ص ٤٧ (موسكو ١٩٦٠) .

(٤) — Massignon : L'Ame de L'otron. p. 87 (Paris 1951).

لان نوقع نخونه حد بعيد لاننا لا نعرف ولا نكاد نعرف صحابيا اكثر اختصاصاته منه ولا شخصية اسلامية تردد ذكرها في شعر العرب والفرس والترك ممدوحة بكل جميل كشخصية سلمان الفارسي الذي ان ذكر اسمه وقع في الخاطر وما وشج بين العرب والفرس من صلات لم تزدد من بعد الا وثاقة واستحكاما وفتح الله على أهل الايمان فارس فكان هذا الفتح فاتحة بعصر جديد من عصور الحضارة لا قبل له ولا بعد · ويقول في ذلك المستشرق الروسي اينوسترنسيف ان فتح العرب الخاطف لبلاد الفرس هو الهزيمة الماحقة لدول الساسانية ولكن ما كان لحضارة الفرس أن تتقوض دعائمها وتمحى أمام باطش من سلاح العرب وهزيمة الفرس في الظاهر ليس الا وقد وجب على العرب ان يحافظوا على حضارة الفرس وهم وان تمزق ملكهم ودالت دولتهم الا ان رجال الدين ظلوا على احتفاظهم بعظيم نفوذهم وسيطروا تمام السيطرة على أهل البلاد كما تحتم البقاء للتقاليد الفارسية المتوارثة منهم (١) ·

وعندنا ان هذا الحكم صحيح جله لا كله · وقد دخل أهل المجوسية في دين الله أفواجا ، وان فرت قلة ضئيلة منهم بعقيدتهم الى أطراف نائية في البلاد أو ازعجت عن وطنها وزايلته الى بلاد الهند وسيطرة رجال الدين من المجوس على اتباعهم في العقيدة لا يعني شيئا يتعلق بالمسلمين اما استمساك المجوس بتقاليدهم فمتوقع من أمرهم وان حسن التحفظ والتمييز بين ما يختص منها بالدين وما يتصل بغير الدين من شتى أمور الحياة ·

ومما وقع في تلك الآونة أن الهرمزان حاكم الأهواز أسرته العرب وساقته الى الخليفة عمر وفي لقائه وحواره معه قال له ان الله كان مع العرب فنصرهم وخلى عمر سبيله فأسلم وبقية الخبر انه قال لعمر ان الفرس يحسبون أوقاتهم بما يسمى عندهم (ماه روز) وبه يعرفون الشهور والأعوام (٢) ·

قيل وتلقى الخليفة هذه المعلومة من الهرمزان بالاعجاب وعقد نيته على ان يجعل للعرب مثل ما للفرس وترتب على ذلك وضعه التاريخي الهجري وقد نوه بذلك شاعر فارسي معاصر يسمى نوبخت فقال ما ترجمته (ماه روز من الرسوم القديمة رسم كان يعرف في ايران بهذا الاسم واليوم حقيق بصاحب الدين · ان يتبع ذلك من رسوم المالكين حتى يعلم صاحب المذهب شعبان الجاري من

---

(١) — Inostronsiev : So sanidye Etridi, Str. 4. (Sonktpelerlrirg 1909).

(٢) السخاوي الاعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٨١ (دمشق ١٣٤٩) ·

شعبان الذى ذهب ولما سمع عمر منه هذا العجب الى من فى مجلسه الراى طلب وتقبلوا هذا الرأى واستحسنوه والزمان بأول الهجرة حسبوه) (١) ٠

وبذلك لا يخفى ان العرب أخذوا عن الفرس لازمة من لوازم المدنيه كانت لفارس وما كانت لهم ولما كان الدين الحنيف هو الأصل للحضارة الاسلامية التى انشعبت عنه كل فروعها فى بلاد الفرس بخاصة واعتنق المجوس الدين الحق واجتمعوا مع العرب على عقيدة التوحيد فقدر الظهور لعصر جديد تآلف الفرس فيه والعرب وتكاتفوا على اقامة صرح للحضارة له الخلود على الدهر لم يكن من نافلة القول اشارتنا الى ان الاسلام الهرمزان وقع موقع الاعجاب من شاعر بة شاعر ألمانى من أهل القرن الماضى يسمى بلاتن فنظم فيه شعرا وساجله بالشاعر الفارسى المعاصر يورد أود فنظم فى ذلك المعنى عشرين بيتا أما محتوى ما قيل من شعر فانه اسلام الهرمزان عن رضا وطواعية ورغبة لا رهبة (٢) ٠

وذلك دال على كثير لأنه يرشد الى ان الدين كان عمدة السبب فى تعاون الفرس مع العرب ويبين ان الحضارة الاسلامية وان تألفت من شتى المقومات الا أنها قامت على عدم التمييز بين عربى وأعجمى الا بالتقوى ٠ وما ميز الاسلام بين لون ولا لسان وجملة القول ان اسلام الهرمزان بتلك الكيفية موضح لنا الباعث الأقوى الذى أفضى الى نشأة حضارة اسلامية كان الأخذ فيها بين الطرفين متبادلا على نحو لا ريب فيه ٠

وأخذ العرب فى صدر الاسلام عن الفرس مالم يكن لهم به من عهد فلقد ضرب عمر بن الخطاب الدراهم على نقش الكسروية وهى الدراهم الفارسية والدراهم فى العربية معرب (درم) فى لسان الفرس وفى ذلك كل الدلالة على ان العرب انما عرفوا الدراهم عن الفرس وهنا يستبين لنا الفارق بين هؤلاء وهؤلاء من حيث وضعهم الحضارى لان المتعامل بالنقد متقدم خطوة فى البادى من حالة عمن يتعامل بتبادل السلع غير ان عمر فى أخذه الدراهم عن فارس تناولها بشىء من تبديل لانه زاد فى بعضها (الحمد لله) واضاف الى بعضها الآخر (لا اله الا الله) كما كان المتوقع منه ان يضرب اسمه على غيرها ولكنها

---

(١) يكى رسم ديرينه باشد هنوز ـ ناقش درايران بررد ماه روز

كنون نيزازان رسم كيخسروى	خدا وند دين راسزد بيروى
كم اين ماه شعبان زشعبان بيش	اردن بس نداند خدا وندكيش
عمر جون شنيداين شكفتى ازوى	درين باره سدزا بخمن جاره جوى
بسنديد ازوانجمن ابن شكفت	زمان راز اغار هجرت كرفت

(٢) حسين كاظم ايرانشهر : تجليات روح ايراني ص ٣١ (نهران ١٣٤٣) ٠

ظلت تحمل صورة ملك الفرس فنقشت عليها صورته ولنا ان نلمح فى ذلك انها احتفظت بطابعين متغايرين اولهما الطابع الفارسى الدال على انها دخيلة على العرب مستعارة من الفرس والثانى الطابع الاسلامى المحض الذى فيه الابانة عن عقيدة أهل الايمان ويمنع نقش الصور منع كراهة · وفى مثل هذا لقاء بين مظهرين من مظاهر حضارة العرب والفرس فحضارة العرب مستمدة من الدين أصلا أما الفرس فتجلت لديهم فى أكثر من ظاهرة غير الدين ومنها الفن الذى يعبرون فيه عن كل ما يعبر عنه ومن ذلك نقش الصور لملوكهم الذين ينزلونهم منزلة التقديس على انهم انما يحكمون بالحق الالهى المقدس ·

ويقول المقريزى ان تلك الدراهم منقوشة بالفارسية وبقوله لا نتبين حقيقة ما كتب عليها فى يقين ونتساءل عن امكان نقش ما أشرنا اليه من عباراتها العربيه بلغة الفرس ثم يذكر انها ظلت على ذلك الى زمن الحجاج (١) ·

واذا ذكر الفن بدر الى الفهم انه لم يكن بينه وبين العرب آصرة وما كان للفن فى حياة العرب من مجال لان حياة الحل والترحال لا تتيح لمن يحياها أن يلبث مدة مديدة يشغل نفسه فيها بابداع أثر فنى فضلا عن أن العرب فى صدر الاسلام شغلوا بدينهم وتدبر قرآنهم ومعلوم ان الاسلام ناه فى عموم عن الاشتغال بالفن وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : (أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون) ولهذا قوى من أسباب تبريره وتؤيده فى أول العهد بالاسلام على الخصوص ولكن للفن مفهوما أوسع وأعم تندرج تحته فروع وفروع تخرج بمفهومه من الخصوص الى العموم ونضرب لذلك فن العمارة الذى لا نعرف ان العرب الذين نخصهم بالذكر فى معين من عصرهم قد خلفوا فيه أثرا له الدلالة على شىء مما نقصد اليه فى كلامنا فلم يبق الا حتمية ان يكون (الفن فى جملته وافد على العرب مأخوذ من غيرهم وهم الفرس ·

وأول ما يذكر فى ذلك ان عبد الله بن الزبير فى عام ٦٥ للهجرة حين أراد تجديد بناء الكعبة استخدم عمالا بنائين من الفرس فانجزوا ما وكل اليهم انجازه (٢) ·

وفى ذلك واضح الدلالة على انه لم يوجد فى العرب من له القدرة على أن يفى بالحاجة ولم يغب عنه ان الفرس أهل لذلك · ولا غرو ففن البناء وما يتصل به أصيل عندهم يشكل الجانب العظيم من حضارتهم فأحسن العرب صنعا

---

(١) المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٥٢ (حمص ١٩٥٢) ·

(٢) Creswell . A Short Account of early Muslem. Architecture, p. 15. (London 1958).

بالاستعارة ممن لهم قدرة وخبرة ، ومن مستطرف ما يقال ان هؤلاء البنائين الفرس كانوا يغنون وهم يبنون وتعلم العرب الغناء منهم وبذلك يكونون قد أدخلوا على العرب من حضارتهم فنين فى وقت معا .

ونمضى مع الزمان الى عصر بنى العباسى فنستهل بقول ابن خلدون ان العرب استخدموا الفرس وأخذوا عنهم البضائع والمبانى ودعتهم اليها أحوال الدعة والترف (١) .

ومصداق ذلك ان الخليفة المنصور حين صح منه العزم على بناء بغداد استعان فى تخطيطها واقامة قصره فيها بمعمارى فارسى هو أبو سهل النوبختى وتفسح المجال للخطيب البغدادى فى وصف قصر المنصور بقوله ان فى صدره ايوانا وفى صدر الايوان وسقفه فيه وعليه مجلس مثله فوقه قبة خضراء وعلى رأس القبة تمثال فارسى على فرسه وكانت هذه القبة تاج بغداد ومآثره من مآثر بنى العباس عظيمة (٢) .

وهذا مجمل وصف القصر وندرك منه على التحقيق انه نموذج لقصور ملوك الفرس فايوان كلمة فارسية وتمثال الفارس ربما لم تقع عليه من قبل عين عربية أما تشبيه القبة بتاج لبغداد فتخييل لكسرى أثقل رأسه تاجه المرصع بنفيس الجواهر فكان قصر المنصور صورة صادقة للدلالة على ما دخل على العرب من فنون الفرس ومن قصور العباسيين يسمى الاخيضر ويحيط بفنائه الأوسط نجويفات تنتهى فى أعلاها بحنايا معقودة ومزخرفة ذات أشكال مختلفة تعرف فى الفارسية بهزار باف بمعنى الف نسج وهى صناعة أخذها المسلمون عن الفرس واجمل غرف هذا القصر مغطاة باقبية تفصلها عدة عقود ــ وهى طريقة ساسانية نقلها المسلمون منذ عهد الأمويين ووجدت فى أحد قصورهم ببادية الشام (٣) .

والفن الفارسى فن زخرفى فى أساسه وقد برز الفنان الفارسى فى رسم تلك الزخارف الهندسية المعروفة فى الغرب بالأرابسك وأضحى هذا الاسم اصطلاحا فنيا له الأهمية وقد عبر الفنان الفارسى عن عبقريته الفنية فى حسن استخدام لما بين يديه من مادة يشكل منها رائعة من روائع الفن الزخرفى وفى رأى ان السبب الأول فى نشأة تلك الزخارف هو ان العرب أدخلوا على ايران

---

(١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٣٠١ (القاهرة ١٩٣٠) .
(٢) الخطيب القزوينى : تاريخ بغداد ، ص ٧٣ جـ ١ (القاهرة ١٩٣١) .
(٣) د. كمال الدين سامح : العمارة فى صدر الاسلام ص ٦٦ (القاهرة ١٦٤) .

وما تاخمها من بلاد ميلا الى الحساب . وبعد ان كان الفرس يرسمون الصور الآدمية كفوا عن رسمها ردحا من الزمن حتى لا يقعوا فى الاثم الا انهم ولدوا الزخارف من الخط العربى فاتقنوا ذلك أيما اتقان (١) .

ونحن نورد هذا بلا تأييد ولا تفنيد وما يلفتنا اليه هو أن الفضل فى الزخارف الهندسية منسوب الى الفرس وعليه يجدر بالذكر ان تلك الزخارف تشكل الجانب الأهم الأعظم من الفن الاسلامى وتميزه بخاص من طابعه .

وأقدم الرسامون المسلمون على رسم صور للأشخاص بعد احجامهم عن ذلك طويل زمان وكان هذا التصوير رغبة منهم فى تزيين الكتب ومما يلحظ أن — العنصر الفارسى كان شديد الوضوح فى تصورهم ومن أشهر الأمثلة لذلك فى بغداد مخطوطة من مقامات الحريرى ويقول أحد الدارسين ان ما فى تلك المخطوطة من صور يشهد للمصور بأصالة ملكته الفنية (٢) .

وتزيين الكتب بالصور فن قائم بذاته من الفنون الاسلامية يوليه كبير من العلماء فضلا عن عنايتهم وبخصونه بعمق مستفيض من دراستهم وهم دائمو الاشارة الى انه من الفنون التى طبعها الفرس بطابعهم .

وتزيين الكتب بالصور يفضى بنا بالحتم الى ذكر تزيين كؤوس الشراب بها وقد درج كثير من شعراء العرب على وصف تلك التصاوير وليس أشهر من قول أبى نواس :

قرارتها كسرى وفى جنباتها مها تدريها بالقسى الفوارس
فللخمر مازرت عليه جيوبهم وللماء ما دارت عليه القلانس

ومن أهل الأدب من يبلغ اعجابهم بهذا من قول أبى القول بانه أحسن ما قال وعندنا انه كان دقيقا فى وصفه لتلك الصور فى قاعها وجنباتها بل انه جعل لها صورة منطوقة تطابق صورتها المرئية وفى هذا الكلام دلالة على ان تلك الكأس تحوى صورة لكسرى ومشهدا من مشاهد الصيد اما من يصيدون المها فمن الفرس وعلى رؤوسهم القلانس وقد أورد أحمد تيمور عدة أمثلة (١) .

ولكن النظر فى تلك الأمثلة يتيح لنا ان نطلق حكما خاصا وعاما فالأشعار التى قيلت فى وصف فارس من صور فى أقداح الشراب صريح النص على ان

---

(١) Benjamin : Persia and the Persians, p. 222, (London 1883).

(٢) — Bingon : La Miniotura Persiana, Iran pp. 27, 28 (Roma Mc MLX).

(٣) أحمد تيمور : التصوير عند العرب ص ٢٢ (القاهرة ١٩٤٢) "

تلك الصور لكسرى مما يستخلص منه ان صناعتها صناعة عجمية ويؤيد ذلك ان ذكر صورة كسرى مشار اليها فى دوام كما ان تلك الأشعار منسوبة الى شعراء من أمصار متباعدة وفى عصور تأخر بعضها كثيرا عن عصر أبى نواس . لو اننا قلنا ان نسبه فى الفرس وبيئته البغدادية فارسية وعليه فالمستخلص من هذا وجوب ان يكون وصف كأس الشراب فنا من فنون الشعر العربى وان لم يلتفت اليه وفيه الايماء الى أنه رسم صورة ملك الفرس فى كأس الشراب وهو فن قائم بنفسه . واذا شئنا القول على التفصيل والايضاح قلنا باقتران فن التصوير بفن القول قلنا ان نحكم فى شمول بان الفرس منسوب اليهم هذا الفن وله جانبان لكل منهما لا نسيان له فى تعلقه بما أمد الفرس به حضارة الاسلام من مقومات حضارتهم فى سالف الدهر ولا خير أن نقول ولو ظننا ان تزين الكأس بصورة كسرى قد يكون منبعثا من تاريخ الفرس الأسطورى . فقد قيل ان الملك جمشيد من ملوك الفرس الأوائل الذين يمتزج تاريخهم بالاساطير . كانت له كأس رسم فيها صورة الأقاليم السبعة وقد تردد لتلك الكأس ذكر فى الشعر الفارسى الصوفى ورمز بها المتصوف الى خاص من احكامهم وتعاليمهم ليس هنا مقام ذكره .

وان ذكر دخول الفرس بفن التصوير على العرب لباحثنا على ما يشبه التأرجح بين عصر الأمويين وعصر العباسيين فقد كان فى قصر للخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك صورة على الجص تسمى صورة أعداء الاسلام وهى تمثل ثلاثة رجال يبسطون أيديهم وخلفهم ثلاثة آخرون خلفهم رائعون فترتيب الأشخاص فى صفوف مستمد من تقاليد بنى ساسان لاننا نجد مثل ذلك فى مشاهد فى النقوش الفارسية القديمة وبسط الأيدى أمارة على الولاء والخضوع والاستسلام. وتلك الصورة فى قصر الوليد قريبة الشبه من النقوش الساسانية فى موضوعها والاسلوب المعبر فيها .

وفى قصر الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك صورة لصيد الغزلان — وربما مثلت تلك الصورة قصة الأمير الساسانى بهرام جوا مع صاحبته وهى التى تردد لها الذكر فى القصص الفارسى (١) .

وفى عصر العباسيين نشير الى تزيين الرشيد قاعة له بصور فارسية ساسانية (٢) .

---

(١) د. حسين مجيب المصرى : صلات بين العرب والفرس والترك ص ٢٥٩ (القاهرة ١٩٧٠) .

(٢) د. حسن الباشا : التصوير الاسلامى ص ٥٠ و ٥٩ و ٦٠ (القاهرة ١٩٥٩) .

ويؤخذ من ذلك ان الفن الفارسى وفد على العرب بما لا يحتمل من شك ولا تأويل ٠

ومما جرت عادة الفنان الفارسى فى رسمه على الخزف ٠ صورة الفيل وفى أقدامه حبيبات بيض ومن الباحثين من يقول ان تلك الحبيبات البيض فى حافة الطبق فى مدينة سامرا والخزف الطولونى (١) ٠

وكأن هذا الاسلوب الزخرفى الفارسى لم يقتصر بتأثيره على صناعة الخزف فى سامرا ان قيل انها قريبة من بلاد الفرس بل تعداه الى مصر الطولونية ٠ مما يتأيد به اتساع مجال تأثير هذا الفن الفارسى وفن رسم الصور مذكرنا بفن نسج الثياب ٠ فقد استلزمت حياة الترف والبذخ التى كانت لفارس على عهد الساسانيين ان يهتم الفرس بما يلبسون وأول ما يقال فى هذا كثرة الألفاظ العربية المصرية عن الفارسية الخاصة بالنسيج والثياب مثال ذلك لفظ ابريسم وهو فى الفارسية (أبريشم) واستبرق وهو (استبره) وديباج وهو (ديبا) ومن أسماء الملابس المصرية السروال وهو فى الفارسية (شلوار) والقرطق وهو (كرته) وما الى ذلك من الفاظ لا تقع تحت حصر وقد زينت الثياب بزخارف هندسية ورسوم نباتية ويدل على أخذ العرب عن الفرس ان كلمة طراز العربية معرب (تراز) فارسية بمعنى علم الثواب وموضع نسج الثياب الفاخرة ٠ وقد اشتقت فى العربية من تلك الكلمة كلمات وكان لفن نسج الثياب على المعلوم طريقة الفرس فى بلاد الاسلام فهذا هو ذا الرحالة الفارسى ناصر خسرو يزور مصر فى القرن الخامس الهجرى يذكر ان القصب الملون ينسج فى مدينة تنيس والأبيض منه خاصة ينسج فى مدينة دمياط كما أشار الى صفوف من ثياب النساء (٢) ٠

وهو وان لم يعين لتلك الثياب أسماء الا ان الأخذ عن الفرس فى صنعها وزخرفتها لا يحتاج الى تعيين وكاف ان مكان نسجها فارسى الاسم وان كثيرا من أهل التجارة والصناعة من الفرس توافدوا على مصر منذ القرن الأول الهجرى وعند علماء الآثار الاسلامية ان الفن فى عصر الفاطميين كان شديد التأثر بالفن الفارسى كالرسوم على الزخارف النباتية والهندسية على الخشب والمعادن والخزف (٣) ٠

---

(١) عبد الرؤوف يوسف : طبق عين والخزف الطولونى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ص ١٨ جـ ١ (القاهرة ١٩٥٨) ٠

(٢) د٠ ناصر خسرو : سفرنامة ص ٥١ (برلين ١٣٤٠) ٠

(٣) د٠ ذكى حسن كنوز الفاطميين ص ١٠٥ ـ ١٠٧ (القاهرة ـ ١٩٣١) ٠

وفى ذكر كل تلك الفنـــون ما نتيقن منه ان الفنـــون برمتها انما تلقاها العرب عن فارس · واذا آثرنا الدقة فى الحكم بحيث يكون جازما لا يحتمل نقضا عدنا الى صناعة نسج الحرير التى ألمح ناصر خسرو اليها فى حديثه عن مصر وازدهار تلك الصناعة كيما يتسرب الاحتمال الى القطع بان تلك الصناعة فارسية حتى ولو أظهر النساج المصرى غاية المهارة فيها على أن مصر اشتهرت بالقباطى مثلا وهو منسوب الى قبط مصر غير اننا قد نجد تأييدا لما أسلفنا من قول وفن واقع التاريخ ·

فللفرس منذ عهد الساسانيين شهرة بصناعة الحرير وقد ازدهرت تلك الصناعة بعد الفتح العربى وكانت وسوسة من مراكز تلك الصناعة وجدير بالذكر ان الفرس المسلمين حافظوا على تقاليد اسلامهم فى تلك الصناعة ولم يغيروا من الزخارف القديمة كما ان العرب لم يضيفوا الى هذا القديم جديدا وفى عهد المأمون بعثت الولايات الفارسية التى كانت فى حوزة العباسيين كثيرا من منســــوجات الحرير على انها من قبيل الجزية التى تؤديها للدولة وبعث ابن ماهان والى خراسان الى الرشيد من هذا الحرير على انه مفوض التقديم بتلك المثـــابة (١) ·

ولعل فى هذا ما يقصر فن نسج الحرير على أبناء فارس ويكاد ينفيه عن العرب مما يوضح الى أى حد بعيد كان أثر الفرس فى ذلك الفن بعينه وليس يسعنا ان نبعد عن خيالنا أهل السعة من المسلمين وهـــم (يرفلون فى حلل الحرير المبرقشة المزركشة عارضين بذلك مظهرا بهيجا بهيا لما قبسوه من الحضارة الفارسية ·

وفى عصر العباسيين خاصة ازدهر فن الطرب واشتهر المغنون ومعظمهم من الفرس · وقد شد رحاله الى فارس ليتعلم فن الغناء · ومن المغنين من غنى الفارسية فى أيام الرشيد وهو سلمك واستحسن لحنا من ألحان ابن محرز فغنى فيه بالفارسية (٢) ·

وكانت الأغانى الفارسية معروفة فى المدينة بدليل ما قيل من ان مغنيا اسمه سائب أول من صنع العود فى المدينة وغنى بالفارسية · ومن العرب من ذهب الى ان كلمة بربط بمعنى العود كلمة فارسية بمعنى صدر البط ونحن وان كنا لا نميل الى هذا التفسير · الا أننا نتخذه شاهدا على ان العرب أخذوا فن الغناء عن الفرس ·

---

(١) د· سعاد ماهر . مشهد الامام على فى النجف ص ٢٢٠ و ٢٢١ (القاهره ١٩٦٨) ·
(٢) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى ص ٣٧٩ جـ ١ (القاهرة ١٩٢٥) ·

ومن الدليل على ان اقتباس العرب الغناء عن الفرس امر متعالم مشهور . أن النويرى عقد فصلا يستغرق قريبا من مائة صفحة على أخبار المغنين الذين نقلوا الغناء عن الفارسية .

ونجد بعيد الأثر للفرس في الغناء اذا ذكرنا شاهدا لغويا وهو (خنكر) فقد قيل ان ابراهيم الموصلى مثال لخريجه في الغناء اذا احتكرت فتحتكر لمثل هؤلاء) يريد البرامكة وقد يكون الكلمة مولدة او من كلام العوام او من ابتكار ابراهيم الموصلي الا ان لها صريحا من دلالتها على أثر الفرس في الغناء لان كلمة (خنياكَر) في الفارسية بمعنى المغنى .

وفى العصر العباسى تجلت الحضارة الفارسية في المظهر الأوضح فقد أقام الفرس تلك الدولة بمسعى من أبى مسلم الخراسانى الذى يعد بطلا شعبيا وله الفضل في احياء عادات ورسوم الأكاسرة في قصر الخلفاء وظلت في الاسلام قرونا بعد قرون وتراءى أبو مسلم للمأمون ملكا من ملوك الأرض كأردشير والاسكندر وان كان المأمون مندفعا الى مثل تلك المبالغة بنزعته الى الفرس لأنه فارسى الأم ولولا أبو مسلم لما كان لدولة العباسيين من قيام ولا لمسلم عند الفرس منزلة البطل الذى رفع عن الفرس ضير العرب وأنصفهم وأقام لهم دولة شبه فارسية لها تأثير من مقومات دول الفرس وصفاتها .

ومما يذكر عنه مؤيدا لشدة حرصه الى ايحاء القومية الفارسية وبعث حضارة فارس التى كان الفتح العربى معول هدم في نظر الفرس لهدم دعائمها ان امرأة من خراسان خفق قلبها له كما تخفق قلوب النساء للأبطال في فرط اعجاب بهم وطاف خبرها بسمعه فاستدعاها وقال لها انه يعمل ويجهد من أجل وطنه فلا حاجة له بالنساء (١) .

ويستخلص من ذلك ان أبا مسلم كان مشبوب الحماسة وطيد العزيمة في نزعته العارمة الى بعث دولة الفرس بما كان لها من مجد وسؤدد قبل أن تدول على أيدى العرب وما كان مثل هذا الشعور ولا ذلك مما تموج به نفسه وحده دون سواه من أبناء بلدته الذين رأوا في احياء عاداتهم والمتوارث من تقاليدهم أهم مظهر لاحياء كرويتهم ومدنيتهم .

وكان للخلافة مظهر الملكية الفارسية وتجلى ذلك في قصورهم والتقاليد المرعية عندهم مثال ذلك انهم في بلاطهم كانوا يفرضون ما يفرض الأكاسرة على

---

(١) ميرثى : آلينة بهلوان نما ص ٩٣ (تهران ١٣٤٩

رعيتهم فى المنول بين أيديهم يجعلونهم يقبلون الأرض امامهم بدلا أما عظماء الناس ووجوههم فجرت العادة بأن يقبلوا يد الخليفة أو قدمه أو ذيل ثوبه (١) ٠

ويحضرنا النبى صلوات الله وسلامه عليه جذب يده ممن أراد لها تقبيلا وقال له ان هذا مما يفعله الأعاجم ويتأكد بذلك ان خلفاء بنى العباس أحيطوا بكل ما كان كسرى يحيط به نفسه من مظاهر عظمة ملكه فى تكبر وتجبر وخيلاء لم تكن من قبل للخليفة فى محيطه العربى الاسلامى وهو خليفة رسول الله ٠

ومما يتصل بسبب مما يزيد الأمر توكيدا منصب الوزارة الذى طبع نظام الحكم فى الدولة العباسية بطابع لم يكن له من قبل ٠ وحقيق بنا أن نقول ان اللغويين العرب لم يصيبوا عين الصواب فى اشتقاق كلمة وزير من الوزارة فقالوا انه سمى الوزير لحمله الوزر أى الحمل عن الملك فى حكمه ٠ وهذا تظنن يقوله الاستدلال والصحيح ان الوزير كلمة فارسية هى Vichiro واشتقاقها من المصدر بمعنى البت فى الأمر بذلك يترجح ان الوزارة منصب كان معلوما عند الفرس قبل الاسلام وقبسه منهم خلفاء العباسيين ٠

يقول الطبرى فى تاريخه ان زيادا كان يسمى وزير معاوية (٢) وهذا قوله مؤيد لما نذهب اليه لان لقب الوزير فى عهد معاوية لم يكن له رسمية فى الدولة ولعل الاسم كان معروفا قبل عهد العباسيين على نحو ما عرف كثير من الألفاظ الفارسية عند العرب منذ الجاهلية ٠

ومما تزداد به الوزارة أصالة فى فارسيتها ان خلفاء بنى العباس كانوا يصطنعون وزراءهم من الفرس وذلك منذ بدايتهم ومنهم الخليفة السفاح الذى وزر له أبو سلمة الخلال الذى كان على الصلة الوثقى مع أبى مسلم الخراسانى مقيم الدولة وكان لأبى سلمة ميل الى آل على بن أبى طالب كرم الله وجهه يريد أن تكون الخلافة لأحد من ذريته وقتله السفاح بهذا من اتجاهه السياسى (٣) ٠

وان كانت تلك نزعته فانها نزعة فارسية ما ازدادت من بعد الا قوة عند الفرس على الأخص ٠ وبعد مقتل أبى سلمة كانت الوزارة لخالد بن برمك جد البرامكة الذى ظل فى منصبه وزيرا من بعد للمنصور وعلى ذكر البرامكة الذين

---

(١) — Arnold : The caliphate : p. 29 (Oxford 1924).

(٢) — Nicholson : A Literary History of the Arabs, p. 256. (Cambridge 1930).

(٣) خوندمير : دستور الوزراء ص ٢٦ (طهران ١٣١٧) ٠

دامت لهم الوزارة طويلا من بعد نقول ان البرامكة كانت لهم فى الوزارة كتب قديمة يلزمون أبناءهم بمضاهاتها وتمحيص مضمونها وهم فتية يطلبون العلم(١) ·

وفى هذا كل الدليل على أن العرب انما عرفوا الوزارة عن الفرس وأمست من بعد مقوما له الملحوظ من عظيم خطره لدى الشعوب الاسلامية ·

ولما عايش العرب الفرس جرى مجرى الواقع ما يترتب من حتمية أن يستعير كل من الطرفين ألفاظا من الطرف المقابل وقد انسرب الى العربية ما لا يقع تحت حصر من ألفاظ فارسية عربها العرب وطوعوها لأحكام لغة الضاد وجلها أسماء لأدوات وألوان من المطعوم والمشروب ومواد ونباتات وعقاقير ونوعية المستعار من لغة الفرس مما يشهد على ان العرب انما تلقوا ما لم يكن لهم · كما انه يشير الى انه خاص بقوم لهم مزدهر من حضارتهم وأسلوب مخالف من حياتهم غير ان العرب ما استعاروا من الفرس الا ليفى بحاجتهم فى تطبيقه على عصر جديد لهم تأثروا فيه بالفرس فالعرب عنوا بحقيقة لا ريب فيها هى ان العرب أمسوا فى طور جديد من أطوار تاريخهم وطابعه اللغوى صادق الدلالة عليه ولا نسيان لان هذا المعار من لغة فارس زود العربية بكثرة من الألفاظ كان اندراجها فيها ثراء لمتنها وعنصرا لا سبيل الى فصله عنها والعجب ان كثيرا من المعرب دخل على لغة الفرس من بعد كأنما نسيت فارسيته ونضرب لذلك مثلا الخندق · فالفرس لا يذكرونه فى أصله الفارسى واذا أخذ العرب عن الفرس الكهرباء بمعنى جاذب القش لا يستردها الفرس منهم بل يستخدمون البرق فى لغة العرب والفرس قد يعرفون ألفاظا عربية دخلت لغتهم عن معانيها فنشاط عندهم معنى سرور وحصار بمعنى حصن ومثل هذا لا شك تطور للغتين على سواء وارتقاء بهما وتوسع لهما فى المعنى والمبنى ·

ومن علماء العرب القدامى من عرض لذكر المعرب الا انه عجز عن رده الى أصله على الصواب ومنهم من اكتفى بقوله وهو ما أظنه غير عربى · كما فى كلمة ورد التى جرت عليها أحكام العربية وكان مفرده ورده والكلمة فى الفارسية Vart ومن الدليل على أصالتها فى آريتها انها فى الأزمنية Wroden ومنهم من اجتهد بالرأى فى تفسير بعض الألفاظ تمام وما ورد كأبى العلاء المعرى فى كتابه « عبث الوليد » مفرض لكلمة جلنار وهى فى الفارسية گلنار ومعناها الحرفى زهر الرمان الا انه جاء بتخريجات تبعد بالكلمة غاية البعد عن معناها (٢) ·

---

(١) نظام الملك : سياست نامة : ص ١٥١ (باريس ١٨٩١) ·

(٢) أبو العلاء المعرى : عبث الوليد ص ٨١ (دمشق ١٩٣٦) ·

ونتيجه لتلك المقدمه أخرجت كتب وانعقدت فصول وظهرت بحوث أقامت جانبا من عدة جوانب لعلم اللغة عند العرب ٠

وفي عهد العباسيين بخاصة ظهرت نزعه قومية عند الفرس هي الشعوبيه والآخذون بها من الفرس الذين أظهروا شديد تعصبهم لأهل فارس بما لها من عظيم مجدها وبعد صيتها بمدينتها في القديم وسلكوا السبل للتعبير عن كراهيتهم للعرب وتعصبهم عليهم والغض من قدرهم ٠ لانهم قوم ينحطون عن الفرس فما كان من الخضرة مثل أو حتى بعض ما كان للفرس في كثير ولا قليل وجدها الفرس فرصة حانت لهم ليستردوا ما سلبهم العرب من حقهم بعد أن تلوا عرشهم الكروى وأذهبوا ريحهم وأصبح لهم السلطان في الأرض بعدهم وكانت الشعوبية بكل ما وسعت من مآربها حركة تمس الحاجة فيها الى من يتولى التعبير عنها داعيا اليها مرغبا فيها ورافضا لها مرغبا عنها وأدى الأمر الى وقوف بلغاء وعلماء من الفرس والعرب في صفين متقابلين هما في واقع الحال متجادلان متخاصمان يبرز كل منهما ما في حقيبته من قواطع البراهين لتكون له الحجة والبينة فاقتضاه هذا الموقف أن يحاول البلاغة ما وسعه أن يحاولها ويقيم بالنقل والعقل كل دليل جدلي ويقيني ومن شأن ذاك أن يكون بابا قائما بذاته من أبواب العلم والأدب ٠ وما كان له أن يوجد لولا أن أوجده الفرس بنزعتهم القومية ، وحقيق به أن يشغل الدارسين بما تضمنه من حقائق ودقائق ٠

وترددت الأصداء الشعوبية في الشعر وتجاوزته الى مؤلفات أخرجت في هذا الغرض ، وألف الفرس في مثالب العرب ومناقب العجم ٠ وممن ألفوا في ذلك الباب أبو عبيدة الفارسى النسب وله كتاب فضائل الفرس ٠ وبالذكر حقيق أن بعض علماء العرب عرفوا عنه اشتهاره بمذمة العرب والافتراء عليهم ، فتحفظ وهو يروي انه ، كالميدانى صاحب مجمع الأمثال ٠ فلما أورد المثل الذى يقول (أعذر من قيس بن عاصم) بادر الى التعقيب قائلا ان أبا عبيدة زعم انه من أعذر العرب (١) ٠

ويتحصل من هذا المثال أن الفرس بشعوبيتهم وفروا من الأسباب ما بعث علماء العرب على تمحيص ما أرادوا من روايات ٠ وذلك معين على تعود التلقى فى قدرة على التمييز بين الصحيح والفاسد ، وبعضهم من تقبل القضايا على علاتها مسلمات لا مجال فيها لنقد ولا أخذ ولا ورد ، حتى لو نسبت الى مثل أبى عبيدة وهو من العلم فى المكان المرموق ٠

---

(١) الميدانى : مجمع الأمثال ص ١١ جـ ١ (القاهرة) ٠

وانبرى من علماء العرب من رد على الشعوبية ، وها هو دا الجاحظ فى كتابه البخلاء لشعوبى يسمى الهدير بن عدى له كتاب المثالب الكبير ، وكتاب المثالب الصغير ٠

وجملة القول أن الفرس بشعوبيتهم تسببوا فى نشأة حركة علمية أدبية لها خاص من سماتها وصفاتها ، ويتفرع عن الشعوبية اتجاه أدبى يعد تطورا للشعر العربى ٠ وله من أسبابه ونتائجه ما يقتضى منا أن نقف عنده وقفه وننظر فيه نظرة ٠

ولأبى نواس شعر أقحم فيه كثيرا من الألفاظ الفارسية ، وكأنما توخى مثل هذا الاقحام على عمد منساقا برغبة عارمة فى التصريح بتعصبه لأسلافه فى فارس والاشارة الى لغتهم التى تعد من أهم مظاهر قوميتهم وفرق بينه وبين الأعشى الذى وردت الفارسية عفوا وعرضا فى بعض أشعاره تأثرا منه بما مر بسمعه ووقع تحت بصره فى وفادته على بلاد الفرس ، وما كانت له اليهم نزعة ٠ كما أن لأبى نواس أبياتا يصف فيها كأس المدام وصفا يتم عما يسكن فى نفسه ويريد له الاظهار فى استقامة أو التواء ٠ **يقول أبو نواس ضمن تلك الطائفة من الأبيات :**

على تماثيل بنى بابك محتقر بينها خندق
فالنعت ذا لا نعت دارخلت يهيم فى أطلالها أحمق

فذكره لتماثيل كسرى معهود لديه ولدى سواه وليس فيه من جديد ، الا أن قوله ان بينها خندق ، فيه الالماح الى ما كان من اشارة سلمان الفارسى بحفر الخندق فى غزوة نصر الله فيها أهل الايمان على أهل الشرك والشاعر يريد ليعلن فى زهو وخيلاء ان عظيما من عظماء قومه علم العرب من قبل ما لم يكن له بهم علم ٠ ففى قوله تعريض بالعرب الذين يريد الزراية بهم ، والتذكير بفضل رجل من فارس عليهم ٠ أما فى البيت الثانى فيصرح بعدم احياء ذكرى مليكه فى الزمان الخالى وأساورته الصناديد بعث على الحقيقة ، وما أراد الا بعث دولتهم وحضارتهم ٠ ثم يقول فى غير مواربة انه لا يقابل وقوف شعراء العرب بأطلال الأحبة ومناجاة ما اندرس من رسمها ، ويتجاوز هذا ليحمق شاعرهم فى الذى يقول مملوك المعار ورغبته فى التشنيع بالعرب جلى فى معاريض كلامه ٠

وأبو نواس هو من خرج على مألوف شعراء العربية من وقوفهم بالديار وبكائهم فى الدمن فى مطلع قصيدهم ، وداموا على هذا لا ينفكون عنه وبدأ أشعاره بوصف الخمر ومجلسها والمنادم عليها ، ولف شعراء العباسيين لفه ولمعظمهم

فى الفرس نسب . فكان ذلك من صنيعهم تحولا فى مبنى القصيدة العربية ونمطا مستحدثا دخل به الفرس على الشعر العربى .

وهنا يقع فى الخاطر ما ذهب اليه أحد الباحثين من أن هذا النمط من الشعر العربى الذى قيل فى وصف الخمر وما يتصل بها ، انما استمد نشأته من التقاء حضارة الفرس بحضـــارة العرب . ودليله على ذلك أن هـــذا مماثل لأشعار ، كان شعراء الفرس يرتلونها فى قصور ملوكهم ، وقال ان شعراء الفرس بعد الاسلام شاءوا احياء ذكرى أسلافهم فى قصور الخلفاء (١) .

وذلك حكم نتلقاه متحفظين ، لأن شعر الفرس قبل الاسلام ضاع كله أو كاد . وليس بين أيدينا من أمثلته شىء ، وليس يكفى أن يكون هذا الباحث قد اطلع على مثال للشعر الفارسى القديم رأى فيه شبه ملمح بشعر أبى نواس ليصدر حكمه فى تعميم .

ولكن ذلك الباحث يرى أن ما يعرف بالغزل فى شـــعر الفرس والترك والهند مأخوذ من ذلك الشعر النواسى ، فيلزم من رأيه أن يكون ذلك النمط الشعرى عرف عند الشعوب الاسلامية عن شعراء الفرس الناطقين بالعربية الذين ورثوه عن أسلافهم . فلم يبق الا التى لابد منها ، وهى أن جميع الشعوبية تأثرت فى فن من أروع فنون شعرها بالفرس فقطع النظر عن أرجحية أن يكونوا الفرس فى فارس القديمة . وللايضاح نقول ان الغزل عند غير العرب منظومة لا يقل عدد أبياتها عن خمسة أبيات ولا يربو على ثمانية عشر بيتا . والشاعر يذكر اسمه الشعرى المستعار فى البيت الأخير . وهذا النمط من أحب أنماط الشعر عند الفرس والترك والهند ، وهو يتضمن النسيب والتشبيب ووصف الشراب ومجالسة ومفاتن من تدير الكأس على نشواها أو تغنى بصوت بلبلى هو أجمل وقعا من وقع ألحان معزفها ، كما قد يتعرض شـــاعر الغزل لوصف الطبيعـــة فيما يثير شاعريته واعجابه بفن جمالها ، وغالبا ما يتضمن الغزل الواحد كل ذلك من بدايته الى نهايته .

وطاب لشعراء الصوفية أن ينظموا فى هذا النمط ، ونعنى شعراء الفرس والترك والهند الذين تتشكل من أشعارهم جمهرة أشعار الأدب الاسلامى وطوعوا الغزل للرمزية الصوفية على نحو يشوق ويروق ، مما جعل للشعر الصوفى رونقا على حدة . وأكسبه منزلة خاصة فى الأدب الاسلامى لم يبلغها شعر سواه . فبالاضافة الى ما وضح من أحكام التصوف وقيمه ، غمر من يقرأه بنشوة حالة

---

(١) Arberry Fifty Poems of Hafiz. p. 22 (Cambridge 1947).

وشاعرية رقراقه وهو يهيم به بين الخيال والواقع · وفسر الحقيقة بالمجاز على نحو يستخف الطرف به كل ذواقة له بصر بروعة البيان وموقع البلاغة فى رقاق القلوب · وبهذا الغزل الصوفى طبقت شهرة شعر الفرس الآفاق · ولقد ملك على الشاعر الألمانى جوته اعجابه · فعمد الى استلهامه والضرب على قالبه فى مجموعة شعرية له بعنوان الديوان الشرقى للمؤلف الغربى ·

وما دمنا فى ذكر التصوف ، فلا يفوتنا النص على تضارب الأقوال فيما اذا كان لدى المسلمين أصيلا أو دخيلا · وكافينا أن نشير الى رأى مجمله ان التصوف مصدره فارس القديمة · ولقد وجد فيها قبل الاسلام ، وعرف الفرس ان كل شىء فى هذا الوجود الى الله مرجعه ، وليس للعالم وجود خارجى ، ولا وجود ولا بقاء الا لله ، وكل ما سوى الله لا شىء (١) ·

وهذا ابهام به حاجة الى ايضاح ، وقد ينضح لنا بعض الشىء من ذهاب عالم ايرانى معاصر الى أن أديان الفرس القديمة فيها من التجريد ما يشبه ما فى التصوف · ونحن لا نأخذ بهذا ونراه تحكما لا وجه له ولو قلنا بالتشابه ولو جدلا ، فلا يعنى ذلك ضرورة بأن المسلمين عرفوا التصـوف عن دين الفرس القديم · وهذا عالم ايرانى آخر يذهب الى ان الملل والنحل تعددت الى أبعد مدى فى بلاد الفرس بعـد الفتح العربى وتنازعت وتناحرت فهـاجت الحروب بين أصحابها · غير ان حكماء من الفرس رأوا ان هذا الوضع لن يسوق الا الى سوء المغبة ولن يحقن الدماء ولا يجتمع المؤمنون على تواد وتراحم وصفاء ، ما لم يكونوا جميعا على مذهب واحد يعتقدون بموجبه ان الله هو هذا الوجود وليس بكائن سواه من وجـود وهو نور السماوات والأرض · ومن ذلك المعتقـد انبعث التصوف · ودعى الناس الى كلمة واحدة ومذهب واحد · وبذلك كان التآلف والاتحاد بين أهل الفرق بعد أن طال بهم تخاصمهم وتنازعهم (٢) ·

وهذا رأى لا نرتضيه ، ففيه ما فيه من تعسف وافتئات على الواقع ــ وليس من سند يؤيده فاختلاف المذاهب حتى الصوفية منها أمر لا سبيل الى الحد منه ولا الخروج عنه · كما ان المؤلف يقول ان ظهور الفرق فى فارس بعد الفتح العربى انما كان تحديا للعرب وتألبا على حكمهم · ومثل هذا من قوله ناقض لقضيته لانه صارفها عن الدين الى السياسة ·

فالوجه ان نقول ان التصوف مستمد نشـأته من الدين القويم والكتاب المبين ، وما كان الصوفية الأوائل من الفرس بل من العرب · الا ان الفرس أظهروا من بعد شديد الميل اليه ، ولهم فيه مذهب تجريدى مباين لمذهب معظم

---

(١) روشندل : مقدمة ككشن راز ص ١٣ و ١٤ (تهران ١٣٥١) ·

(٢) Dozy. Essai sun L'Histore de L'Islam p. 317 (Paris 1879).

المتصوفين من العرب . كما أن التصوف استغرف آكبر وأهم جانب من أدب الفرس ، فألفوا فيه وصنفوا ونظموا الكتب بنزعة تعليمية نظموا الأشعار الجياد التي يتألف فيها خير ما فاضت به شاعريتهم وألف قولهم فى التصوف أدبا قصصيا منظوما له يطوعون فيه القصص لأحكام مذهبهم ومبادئه . ولكلامهم ظاهر غير مقصود وباطن هو المقصود ، وعمدوا فيه الى الرمز والايماء والتمثيل والتخييل ـ على نحو خاص بهم فلما شق فيه غيرهم غبارهم . وعمد شعراء الشعوب الاسلامية باستثناء العرب الى تقليدهم فكان القصصى الصوفى المنظوم بفضل الفرس من أهم فنون الآداب الاسلامية . واتخذ منصوفة الفرس الشعر وسيلتهم الى التعبير عن أنفسهم وتفسير مذهبهم ، فكان متصوفة الفرس علماء وشعراء .

ورسم الفرس شعرهم الصوفى الذى نهج نهجهم فيه شعراء التصوف من الترك والهند بما فيه بسمة خاصة ، فمن فرق الصوفية فرقة تعرف بالقلندرية . كان أصحابها ميالين الى اعلان انهم أهل باطن لا أهل ظاهر فهم لا يبالون برأى غيرهم فيهم وحسبهم أن يكون ما بينهم وبين الله عامرا ، فعمــدوا الى تشــويه صورهم بحلق لحاهم وشواربهم وحواجبهم ، مبالغة فى اظهار رأيهم وتهكمهم بمن يلومونهم على مسلكهم . وكان لهذا أصداؤه فى الشعر الفارسى الصوفى . فعمد شاعر من أهل القرن السادس الهجرى يسمى سنائى الى ايراد ألفاظ فى شعره اذا فهمت على ظاهر معناها تأذت بها نفوس المؤمنين . وما كان مقصده الا بمعنى رمزيا خفيا . مثال ذلك تسميته شيخ الصوفية بشيخ المجوس والمريد بابن المجوسى وخانقاه الصوفية بألحانه وله كثير مما يجرى هذا المجرى (١) .

ومثل ذاك الصنيع يفرغ على الشعر الصوفى لونا خاصا به ، هو الذكر بصدره المستقى منه ونعنى به دين الفرس قبل الفتح العربى .

كما درج شعراء الفارسية على ذكر الزاهد ويعنون به من ليس على مذهبهم، والخمير ويريدون به الصوفى . وهم بهذا يعمدون الى الابانة عن صحة مذهبهم وأفضليته على كل مذهب سواه . وعلمهم علم لدين ليس باكتساب ولا اجتلاب لانهم عشقوا الذات الالهية وخصهم الله بمحبته فألقى المعرفة فى قلوبهم نورا والهاما ، **وما كذلك شأن غيرهم وفى ذلك يقول شاعر فارسى :**

(امض أيها الزاهد لطيتك وكف عن مثملى الكأس من ملامتك

---

(١) د. معين فرديسنا وتأثير آن در ادبيات بارسى ص، ٥٠٧ (تهران ١٣٢٦) .

ففى تلك التحفة ما كان شيء لنا يوم ان عرفنا فى يوم (ألست ربنا) (١) ·

والمراد بالتحفة وهى تسمية الشاعر للخمر المعرفة التى مصدرها القلب لا العقل · أما يوم (ألست) ، فاشارة الى ما جاء فى سورة الأعراف (ألست بربكم قالوا بلى) والمراد من ذلك البيت ان الانسان أحب ربه منذ ان عرفه فأتحفه بالمعرفة التى يرمز اليها بالخمر مفسرا للحقيقة بالمجاز ·

وذكر هذا فى الشعر الفارسى دائم متصل لا يكاد ينفصل · وكذا الأمر فى شعر الترك والهند نقلا عن الفرس · اما تلك الخمر الصوفية الرمزية ، فانها تعد المعرفة التى تنبثق من النسق الالهى انبثاق النور من النمى · وفى تعريفها المعجمى الصوفى انها العشق الالهى · ويقول بعض التصوفية فى مزمة ولم يتزهبوا بالتصوف ان بعضهم فى مدرسة الوسوسة ازهقوا الروح فى طلب العلم وطرحوا فى أعناقهم وهق التقليد ، الا انهم فى الحانة خمر العرفان ، ولا يجلسون عند قدم شيخ المجوس ليهذبوا من خلفهم (٢) ·

وهذا مدلول الخمر فى الشعر الصوفى الذى أخذه شعراء التصوف فى الشعوب الاسلامية عن الفرس ومما يتصل وثيق اتصال بالتصوف ، تلك المؤسسة او ذلك المبنى المعروف بالخانقاه ، وفيه سكنى الصوفية ومجال لما يقومون فيه من تعبد واعتزال للتأمل ·

وأول من اتخذ الخانقاه فى فارس شيخ من شيوخ الصوفية وشاعر من شعراء الرباعيات هو أبو سعيد بن أبى الخير من أهل القرن الرابع الهجرى · وفى تلك الخانقاة كان يجلس المريدون ليسمعوا منه ويأخذوا عنه مذهبه فى التصوف · ثم كثر بناء الخوانق فى طول البلاد وعرضها · وشوهدت كثرتها فى عهد المغول حتى قيل ان كل مدينة كان فيها خانقاه أو أكثر وانتقل اتخاذ الصوفية للخوانق الى الهند وتركيا · فحفلت بها نواحيها · ويذكر الرحالة ابن بطوطة فى القرن الثامن الهجرى انه شاهدها فى فارس ، وما تعرض لذكر مدينة زارها فى شمال ولا جنوب الا تعرض لوصف الخانقاه فيها · وقد طرأ بعض تطور على بعضها فعرفت بالزوايا والربط ، غير انها جميعا خوانق فى أصلها الفارسي ·

وتنافس المتنافسون من الملوك والعظماء والأثرياء فى تشييدها · كما

---

(١) بروای زاهد وبردرد کشان خرده مگیر که ‏‏‏ نداد ناجزاین تحفه بما روز الست

(٢) د· سجادى فرهنك اصطلاحات عرفانى ص ٨٦ (تهران ١٣٥٤) ·

حبسوا الحبوس عليهــا مما جعل لها كيانا قائما · وحقيقة الأمــر انها نقلت التصوف الى مرحلة على جانب عظيم من الأهمية فى تاريخه · فبعد ان كان نزعة روحية خاصة بطائفة من الطوائف ، أصبح مذهبا يكتسب الرسمية من مؤسسات تقــام له واقامتها برهان على اجلالها وعد بناؤها قربة من أكرم القربات ، كما اكتسبت مظهرا لحرمة الدين · ولا غرو فقد كان صفوة القوم يزورونها تبركا ورغبة فى الاستماع من شيوخها الى ما فيه الهداية ونفع الدنيا والآخرة · ولحق بها التطور على مر الزمن فأصبحت لها نظم مرعية ورسوم معلومة · كان يرأسها شيخ وله خادم أو خدام يتولون ادارتها وتنظيم العلاقات بينها وبين من يزورونها · وبها مساكن للمساكين أو من يطلبون التصوف · والشيخ يلقى دروسه عليهم ويعظهم ويرشدهم وفيها يقام الذكر الجماعى . وقد يشاركون الزائرون فى هذا كله (١) ·

ويمكن القول ان تلك الخوانق كانت الى كونها مؤسسات صوفية معاهد علمية تربوية تخرج كثيرا من أهل الدين والعلم أصحاب التآليف والتصانيف وكان انتشارها فى بلاد الاسلام انتشارا يقيم التصوف وأحكام الدين وأصول العلم ، كما أن تصميمها المعمــارى موضع دراســات ودراســات لعلماء الآثار الاسلامية الذين يهتمون بتبيين الأثر الفنى الفارسى فى بنائها ·

وعرفت مصر الخانقاه فى عصر صلاح الدين الذى حول دارعين من الأعيان الى خانقاه · وحقيق بالذكر أن سلاطين المماليك أظهروا الشغف ببنائها مما جعل كثرتها من خصائص عصرهم ومن أهم آثارهم · ويمكن القول ان طرازها المعمارى يعد وصلة بين مصر وفارس فى فن العمارة ·

ومما عرفه العرب من مظاهر حضارة فارس عيد النيروز وهو فى الفارسية (نوروز) بمعنى اليوم الجديد · والنيروز عيد قديم من أعياد الفرس يقول المؤرخون ان ملكا من ملوكهم فى العصر الأســطورى ابتــدع لهم هذا العيد ، وهو رأس السنة الشمسية عندهم حين تنتقل الشمس من برج الحوت الى برج الحمل · كما يعد عيد الربيع لأنه موافق لأوله ·

وكانت فارس تحيى عيــدها مرحبة بقدومه ترحيبا فيه كل مظهر للبهجة والتعظيم والاحتفاء والاحتفال به للملوك والسوقة على ســواء · فما كان يحل حتى يجلس الملك للنظر فى انصاف من تأذى بالظلم ، وقضاء حاجة من لم تقض

---

(١) د· ذبيح الله صفا : تاريخ أدبيات درايران ص ١٧٨ قسمت أول ; تهران ١٣٤١) ·

لهم حاجة ، كما كان العيد وما يقتضيه من أسباب الفرح والمرح يرقق من قلبه فيصدر عفوه عن السجناء · وجرت العادة بأن يكون رئيس الكهنة أول الداخلين عليه فى ذلك اليوم السعيد وفى يده كأس مفعمة بالخمر ودراهم ودنانير · ومنهم من كان يدخل عليه ومعه سيف وعود أخضر من الشعير ويدعو له بنعمة تدوم وبقاء يطول · ويشبه استقامة الأمور له باستقامة السيف ويأمل ان يطيح هذا السيف رؤوس عداه · ومن معتادهم أن ينثروا اثنى عشر نوعا من الحبوب فى فناء القصر ، واذا نبتت حصدوا ما زرعوا على مستطاب الأنغام · وفى كل هذا رمزية واضح مدلولها ·

وقد عرف العرب عيد النيروز عن الفرس منذ قديم الزمان كما عرفوا عيدا آخر هو عيد المهرجان ، وذلك فى جاهليتهم بدليل قوله صلى الله عليه وسلم (قدمت المدينة ولأهل المدينة يومان يلعبون فيهما فى الجاهليه وان الله آبد لكم خيرا منهما يوم الفطر ويـوم النحر) والمراد باليـومين يـوم النيروز ويـوم المهرجان (١) ·

أما فى الاسلام فأول من رسم النيروز والمهرجان الحجاج بن يوسف ، ثم رفع ذلك عمر بن عبد العزيز · وفى عهد بنى العباسى أهدى الى المأمون أحمد ابن يوسف الكاتب سفط ذهب فيه قطعة عود هندى وكتب معه : هذا يوم جرت فبه العادة باتحاف العبيد السادة (٢) ·

ويستدل من ذلك على أن العرب كانت تتشبه بالعجم فى احتفالها بهذا العيد الذى يعد عند العجم عريقا فى تاريخ خضارتهم الطويل · **وهذا شاعر عربى يقول :**

كيف ابتهاجك بالنيروز ياسكنى وكـل ما فيه يحكينى وأحكيـه
فناره كلهيب النـار فى كبدى وتـارة كتـوالى عبـرتى فيه
أسلمتنى فيه ياسؤلى الى وصب فكيف يهدى الى من أنت تهديه

والاشارة فى هذا الشعر الى ما جرت العادة به فى هذا العيد من تقديم الهدايا الى الملوك كما كانت النار ترفع ليلة النيروز ويرش الماء فى صبيحته · وغير شك أن ذلك يدل على أن العرب كانوا مقلدين للفرس فى النيروز تقليدا كليا فما كاد يفوتهم عمل شىء مما كان الفرس فى عيدهم يعملون ·

---

(١) محيى الدين العطار : بلوغ الأدب فى مآثر العرب ص ٧٤ و ٧٥ (لبنان ١٣١٩) ·
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى · ص ٤١٠ جـ ١ (القاهرة ١٩١٣) ·

وكان لتأصل عـادة الاحتفال بهـذا العيد فى العرب هام من الأثر ٠ ولتوضيح ذلك يقول ان تقديم الرعيـة الهدية الى الملوك كان سـنة متبعة عن الفرس وان تطورت من بعد فكان تقديم الخراج اليهم يجرى مجراها وقد يكون بديلا عنها ٠ وأصبح أداء الخراج فى يوم النيروز بعد حصاد القمح والشعير ، فكانت السنة المالية شمسية هى السنة الفارسية ٠ وفى عام ٢٨٢هـ تقدم ذلك التاريخ سبعين يوما ، وبهذا تضرر الزراع لأنهم وجدوا أنفسهم فى ضرورة أداء خراجهم قبل حصاد زرعهم ٠ ولكن الخليفة المعتضد فى هذا العام أجل استحقاق الخراج ستين يوما (١) ٠

فالعرب فى استحقاق دولتهم لأداء الخراج لا يجعلون التوقيت وفق سنتهم القمرية ، بل يستمسكون بالمتوارث من نظم الفرس وتقاليدهم فى العمل بنظام السنة الشمسية ، وان أدى هذا بدولتهم الى ما لا يستحب من اخلال بتدبير هام من أمورها ٠ وما ذاك الا فرط تشدد فى رعاية تقاليد الفرس ومزيد عناية بلغت الغاية بنيروزهم ، وان الخاطر ليذهب بنا الى مصر فى عهد الفاطميين ، وهم الذين جعلوا بلاطهم أشبه ما يكون ببلاط الملوك فى فارس ، وما ذاك الا لأنهم أخذوا بكثير وكثير من عادات الفرس ورسومهم ٠ فقلدوهم فى اشتراك الخلفاء فى حفلات كان ملوك الفرس يشاركون فيها رجال حاشيتهم وعظماء دولتهم وذلك فى أيام معلومات وما زالت صلة الفاطميين بالفرس وطيدة منذ ظهور المذهب الشيعى (٢) ٠

والدولة الفاطمية دولة شيعية وما كان لها من قبل سابقة فى المجد الأثيل، الا أنها تبـوأت فى مصر مكـانة مرموقة جعلتهـا من أهم وأعظم دول العـالم الاسلامى (٣) ٠

وكان الخليفة الفاطمى يتشبه بكسرى ونورد لذلك مثالا فنذكر انه اذا انعقد مجلسه جلس خلف ستار ، ثم يرفع الستار ويرتل جماعة من المقرئين القرآن (٤) ٠

ويقـول المسعودى ان ملوك الفرس كانوا فى مجالسهم يجلسـون خلف

---

(١) Levy The Social Structure of Islam, p. 312 (Cambridge 57).

(٢) د٠ عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ص ٤١ (القاهرة ١٩٥٥) ٠

(٣) Inostransiew Tarjestvenny Viyezd Falemistskil Khabform Str. 12 (Peler. 1403.).

(٤) د٠ حسن ابراهيم : الفاطميون فى مصر ص ٢٦٩ (القاهرة ١٩٣١) ٠

ستار ، وللستار أحد أبناء الملوك موكل يرفعه ويسمى (خرم باشى) بمعنى كن مبتهجا • وقبل رفع الستار يقول (راع ماتقول فأنت فى حضرة الملك) (١) •

وفى كتاب التاج للجاحظ ان ملوك الأعاجم من لدن أردشير الى يزدجرد كانت تحتجب عن الندماء بستار وبينه وبين أول الطبقات عشرون ذراعا (٢) •

ونعود الى عيد النيروز لنقول ان الفاطميين فى مصر كانوا يحتفلون به رسميا اقتداء بالفرس المحتفلين احتفالا قوميا • وحسبنا أن ننظر فى ديوان أحد شعراء هذا العصر وهو الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمى ، لنجده كثير التوارد فيه ، وبه يزف البشريات الى الخليفة المتربع على العرش • كأن يقول :

فان طاب نوروز وعيـد فانما   بنورك أضحىذا وذا وهو طيب

وجاء فى ديوان أنه قال فى أول يوم ركب فيه الخليفة المعز لدين الله الى بستان كافور وكان يوم النوروز (٣) •

لو كان للنوروز لمـا أتى   فم ولفظ معرب أو لسان
ناداك أنت العيد يا عيد من   عيـد والنوروز والمهرجان

ومما يكتشف للفهم من تلك الأبيات أنه جمع عيد النيروز والمهرجان وربما عيد الفطر فى نسق • وقرن بين العيدين الفارسيين على نحو يرشد الى أن اهتمامه بهما فوق اهتمامه بعيد الفطر أو عيد الأضحى ، وذلك مذكرنا بالفرس فيما جرى به العرف لديهم •

ومن أعياد الفرس التى احتفل الفواطم فى مصر بها عيد السذق واسمه فى الفارسية (سده) وهو عيد فارسى قومى ينسبه الفرس الى ملكهم الأول كما ينسبون النيروز الى جمشيد ملكهم الرابع • وليعرفنا به تبريزى فى قاموسه بقوله (برهان قاطع) فهو القائل ما مجمله أن سده هو اليوم العاشر من شهر بهمن من شهور السنة الفارسية الشمسية • وكان الفرس يحتفلون بهذا اليوم متخذينه عيدا لهم • والعادة أن يشعلوا كثيرا من النيران ويصيد ملوكهم وحوشا وطيرا ويربطون الى أرجلها أعشابا يضرمون النار فيها ، ثم يطلعونها ، وبذلك تضطرم النيران فى البرارى والجبال • ويقال ان الملك كيومرث كان له من الولد مائة • فلما بلغوا مبلغ الرجال ، أمر بابقاء النيران ليلة ذلك اليوم وأمر بالاحتفال على تلك الكيفية (٤) •

---

(١) Christensen L'«Emfire des Sassanides p. 97 (Cobenhagen 1907.
(٢) الجاحظ : التاج ، ص ٢٨ • القاهرة (١٩١٤) •
(٣) تميم بن المعز / ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى • ص ٤٢٥ (القاهرة ١٩٥٧)
(٤) برهان : برهان قاطع ص ٦٣١ (تهران ١٣٣٦) •

واحتفل المصريون في العصر الفاطمي بهذا العيد الفارسي القديم . ونعلم أن المصابيح كانت توقد في الحوانيت ، وكان من عمل مصباحا نال عليه درهما ، كما كان ماء الورد والحلوى توزع على رجال الدولة (١) . ومما لا يعزب عن البال ، أن الاحتفال بالأعياد من أخص مظاهر القومية في شعب من الشعوب . ولعل فيما أوردنا من أصل النيروز والسذق متعلقا بتاريخ ملوك الفرس القدامى الذين يمتزج في أخبارهم واقع التاريخ بخيال الأسطورة ، وما يكفي في التقريب الى الفهم أن العيد صورة تعبيرية للقومية . أما اذا حرص العرب الفاطميون على الاحتفال بأعياد الفرس ، فلن يكونوا الا المتأثرين الى المدى الأبعد بحضارة فارس في جوهرها ومظهرها .

ولقد تعرف العرب للفرس وكان لديهم الخبر اليقين عنهم في تواريخهم ومأثوراتهم وتقاليدهم وكل ما يتصل بذلك من أسباب حضارتهم بفضل ما ترجم من كتبهم . وها هو ذا ابن النديم في كتابه الفهرست يعقد فصلا بعنوان النقلة من الفارسي الى العربي ، وذكر كثيرا من الأسماء وان لم يعين عناوين الكتب المترجمة ومضمونها ، الا أن المعلوم أنها في موضوعات شتى أخصها أخبار ملوك الفرس وسيرهم ، ومثل تلك الكتب لا شك تحيط القارىء العربي بما لم يكن يعلم عن الفرس في العصور الزواهي من عصور حضارتهم . ونجد لهذا واضح الأثر في تآليف العرب . فالطبري والمسعودي مثلا في تاريخهما يؤرخان للفرس ويذكران طرفا من أخبارهم ، وابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار يروى عنهم الكثير وكذلك ابن نباتة في كتابه سرح العيون وابن عبد ربه في عقده الفريد . ولو قلنا ان الطبري والمسعودي مؤرخان متوقع منهما التأريخ للأمم فذكر الفرس لديهما ضرورة منهجية ، رأينا أن غيرهما من أصحاب كتب الأدب يوردون لملوك الفرس أخبارا يروون عن حكمائهم حكما وعن بلغائهم أقوالا مما يبعث على قولنا ان ما أورد أهل الأدب من حكم الفرس وأحكام ملوكهم فيه الدليل على تأثرهم بالجانب الأدبي من حضارتهم ، وقد مزجوا قدرا من تراث فارس بمثله من تراث العرب . وحيث كانت حضارة العرب أدبا وروعة بيان ، فقد تبين لنا صلة التأثير والتأثر بين الحضارتين . ولن يقدم المؤلفون في التاريخ والأدب على الاهتمام بذكر الفرس ما لم تكن معالم الحضارة الفارسية معلومة عندهم على نطاق واسع . فأفادوا من علمهم بما في مد مؤلفاتهم بغزير من مادة وخاص من علم ومستطرف من خبر . ومن الكتب الفارسية عظيمة الأهمية في العصر الساساني كتاب يسمى (آئين نامه) بمعنى كتاب الرسوم والعادات . وقد ترجمه ابن المقفع الى لسان العرب . وهو يتضمن آداب وعادات ملوك فارس

(١) متز (ترجمة أبي ريده : الحضارة الاسلامية ص ٢٨٣ جـ ١ (القاهرة ١٩٥٧) .

وما روى عنهم من أخبار ، كما دار الكلام فيه على أحوال الشعب فى ظل حكمهم. واستمد من هذا الكتاب كثير من مؤرخى وكتاب الاسلام وجعلوه عمدتهم فى تعرفهم الى حضارة الفرس ونقلوا منه الى مؤلفاتهم واقتطفوا نصوصا منه أوردوها فى كلامهم (١) .

ونسوق مثالا لما جاء فى كتاب عيون الأخبار (وفى الآيين أن من اجادة الرمى بالنشاب فى حال المتعلم امساك المتعلم القوس بيده اليمنى وقوة عضده الأيمن . واجادته نصب القوس بعد أن يطأطىء من سينها) (٢) .

ففى هذا النص من ذاك الكتاب تقعيد لقواعد الرماة ، وبيان لأصول من الحرب على نحو يعلم منه أن الفرس بلغوا فيه مبلغا يمكن معه التأليف فيه وتطبيق العلم بالعمل ، وذلك مصدره معلوم من أساسيات فن عرفه قوم أهل حضارة جدير بغيرهم أن يقتبسوا منهم ويتلقنوا عنهم ما ليس لهم مثله . أما أن يؤلف الجاحظ كتاب التاج ، فنستنبط من ذلك أكثر من حقيقة على صلة بما نحن فيه . فالجاحظ لابد ملم بتاريخ ملوك الفرس والرسوم المرعية فى مجالسهم ، وما كان يدور من كلام بينهم وبين الماثلين فى حضرتهم . وهذا جانب من ثقافته المستقاة من حضارة الفرس . ولابد أن يكون قد نال من ذلك النصيب الأوفى الذى تأتى له به أن يخرج كتابه . وهو فى الكتاب يبين ما ينبغى مراعاته فى آداب السلوك مع الملوك ، كما فى كيفية الدخول عليهم ومحادثتهم ومواكلتهم ومنادمتهم وما يتصل من ذلك بسبب . ولنا أن نقول عما ورد من كتابه أن الحضارة فيما أسلفنا فى صدر كلامنا عنها عارضين التعريفات لها على أنها السلوك المهذب الذى يشهد لصاحبه بأنه رقيق الحاشية لين الطبع ذو خلق حميد عن تعلم وتفهم وتذوق . أما الحقيقة الثالثة التى نعنى بذكرها، فهى ملاحظتنا أن الجاحظ يقرن بين ما يذكره عن ملوك الفرس ملتمسا له ما يضاهيه أو يشابهه عند العرب . ونورد لذلك مثلا قوله فى غض البصر فى حضرةالملك ، فيقول ان من حق الملك ألا يرفع أحد صوته بحضرته ، لأن من تعظيم الملك وتبجيله خفض الصوت . وسرعان ما يلتفت الى العرب ليقول ان الله تعالى أدب بهذا أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم . فقال عز من قائل « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى » ثم يذكر ما كان من سفهاء بنى تميم وقد وفدوا على النبى ورفعوا صوتهم بقولهم يا محمد أخرج

---

(١) عبد العظيم قريب : مقدمة كتاب كلية ودمنة ، ترجمة نصر الله منشى ص (طهران ١٢٢٨) .

(٢) ابن قتيبة : عيون الاخبار ص ١٣٣ ج ٢ (القاهرة ١٩٢٥) .

الينا نكلمك . فتأذى عليه الصلاه والسلام بسوء أدبهم وأنزل الله قوله « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » .

وما قال هذا الا توكيدا لما سبق أن أورده من ضرورة غض الصوت فى حضرة الملوك . ثم أيده بقوله ان ملوك الأعاجم كانت تقول ان حرمة مجلس الملك اذا غاب كحرمته اذا حضر (١) .

أما ملحظنا فهو ان الجاحظ فى تأثره بما عرف من أحوال الفرس ، قرنه بما عرفه عن العرب وبذلك أخبر العرب بما لم يكونوا يعلمون . اما انه جمع بين الحضارتين ، فأمر ليس فيه قولان .

وعلى عهد العثمانيين ظهرت فى مصر طوائف من الدراويش ، وكانوا يطوفون بالقاهرة مترنمين بالأزجال والموشحات ومنهم من كان يعزف على العود والربابة ، أما ما يتغنون به فأشعار صوفية شعبية ومدائح نبوية ومواعظ وحكم .

وتزايد عديدهم على مر الأيام ، ويلحظ أن الأعاجم منهم كانوا أكثرهم (٢) .

ونقف مما ذكرنا عن هؤلاء الدراويش على حقيقتين ، أما أولاهما فهى أنهم يغنون ويعزفون وهم يتجولون وهذا ما سبق أن عرفنا عن شعراء الفرس فى القديم ، والثانية أنهم من المتصوفة ، والتصوف . أعلق بالفرس أصلا منه بغيرهم . كما أن القول بأن جمهرتهم من الأعاجم ، يفيد أنهم من الفرس الذين وفدوا على مصر وأذاعوا فيها التصوف الشعبى . فكأنهم بجنسيتهم ونزعتهم دخلوا على مصر الاسلامية بظاهرة فارسية هى دينية فنية .

اما انتقال حضارة الفرس الى الترك . قلنا أن فى صورة جلية منذ قيام دولة سلاجقة الروم فى الأناضول . وما ذاك الا أن هؤلاء السلاجقة أخذوا بحضارة الفرس فى مظهر عظيم الأهمية من مظاهرها وهى اللغة الفارسية وما تعبر به من ثقافة الاسلام فى أفانينها . ولما أقام الأتراك العثمانيون دولتهم فى الأناضول فى القرن الثالث عشر للميلاد ، أقاموها على أطلال دولة سلاجقة الروم التى آل اليهم ارثها فى ملكها وثقافتها ، فتحصل لديهم تراث الفرس الاسلامى فى آخر مراحله . ومن الأمارات على هذا أن الأتراك العثمانيين جعلوا الفارسية لغة دولتهم الرسمية الى عهد السلطان مراد الأول الذى تملك

---

(١) الجاحظ : التاج ص ٦٨ و ٦٩ (القاهرة ١٩١٤) .

(٢) د. توفيق الطويل : التصوف فى مصر ابان العهد العثمانى ص ٩٢ (القاهره ١٩٤٠)

عام ١٣٥٩ م . فبين العثمانيين والفرس صلة لا شك فيها منذ ان كانوا شعبة من أنواع الترك نسمى (أوغور) أزعجت عن ديارها فى وسط آسيا وتعلقت بأذيال الفرار من غزوات المغول . واتجهت غربا الى أن طابت لها أرض الأناضول مستقرا ، ثم قضى أن يمكن لها فى الأرض فأزالت دولة السلاجقة ودولة الروم . وأصبح لها السلطان .

ومما تأكدت به صلة العثمانيين بالفرس الى أبعد مدى ، أن استوطن الأناضول من يسمى جلال الدين الرومى أكبر وأشهر شيوخ التصوف من الفرس . وفيها تصدر لنشر طريقته الصوفية المعروفة بالمولوية وصادفت طريقته هوى فى نفوس الأتراك فتحلقوا حوله يتلقون عنه . وفى تلك الحقبة من الزمن ماجت البلاد بالفتن وأظلها قتام عابس من غارات المغيرين وهياج الحروب بين المتنازعين من الأخوة وذوى القربى . فما أمن الناس على مال ولا نفس فشاه وجه الدنيا فى العيون ، وانصرف المؤمنون عنها الى التى هى خير وأبقى . ومن ثم ظهر الميل الى التصوف ورفض الدنيا وحسن استعدادهم للتلقى عن مشايخ الصوفية المعتزلين فى تكاياهم وزواياهم ، وكان كثير منهم فرسا فى نسبهم .

ووجود جلال الدين الرومى الفارسى بين الترك من حيث كونه أعظم شيوخ التصوف بين الترك ، يلفت الى حتمية أن يكون ذا أثرفيهم ، وما كان له علو قدر ونباهة ذكر فى الشرق وحسب . فهذا عالم من علماء الغرب يقول انه لو كان فى الغرب أبعد صيتا مما هو عليه ، لتبوأ مكانته الى جانب مشاهير الغرب من أمثال شكسبير وجوته (١) .

ومعلوم أن مشاهير العباقرة لهم ما لهم من أثرهم فى توجيه الفكر وتشكيل المثل والقيم . ولذلك تزاحم المريدون على جلال الدين الرومى يدارسونه العلم ويأخذون عنه المذهب الصوفى . غير أنه وجد الجمع الغفير من مريديه من سواء الناس وعوامهم الذين لم يقلبوا فى كتاب نظرا ولا حصلوا من العلم طرفا . فضلا عن جهلهم لغته الفارسية وهى لغة الثقافة والأدب العالى عند الخواص . فرأى أن يهبط الى مستواهم ويكلمهم بلسان يفهمونه . كيما يكون علمه أنفع وعلى النطاق الأوسع فتكلف أن ينظم لهم أبياتا من الشعر بتركيتهم التى لا يعرفون سواها . أو لا يحسنون للفارسية فهما فكانت تلك الأبيات التركية الثلاثة التى نظمها وجعل الشطر الثانى من ثالثها بالفارسية باكورة الشعر التركى . ومات جلال الدين الرومى عام ٦٨٣ للهجرة فخلفه فى مشيخة طريقته

(١) Bertels Otcherk Istorii Perridskoy Leterature Str. 60 (Leningrad 1926).

الصوفية ابنه المعروف بسلطان ولد . وقد حمل الأمانة على ما ينبغي ، فأخرج كتابا منظوما بالتركية عنوانه (رباب نامه) بمعنى كتاب الرباب . ورتبه على أبواب تعد فيها أصول الطريقة المولوية ، وهو أول كتاب في الأدب التركي . ويلحظ انه نظمه في بحر الرمل وهو البحر الذي نظم فيه جلال الدين الرومي كتابه المعروف بالمثنوي الذي أورد فيه آيات وأحاديث أولها تأويلا صوفيا . وضمنه قصصا لها مغزى صوفي رمزي . وكان المقصد من نظم سلطان ولد بالتركية نشر الطريقة وتفسير أحكامها باللغة التي يفهمها الترك كافة . أي أن مقصده من نظم كتابه عين مقصد أبيه من نظم أبيات له بالتركية . غير أن نشأة الشعر التركي بفضل جلال الدين وولده . ما كانت لتقف حائلا دون انتشار الفارسية بين الترك فأخلى أهل العلم والأدب دراستهم لها واطلاعهم على آدابها ضرورة ثقافية لا غنى لهم عنها الى جانب العربية لغة القرآن الكريم والشرع الحكيم . ودخل ما لا حصر له من الألفاظ الفارسية على التركية خصوصا لغة العلماء والبلغاء حتى اللغة الجارية على ألسنة العوام دخلتها الفارسية وأصبحت تشكل جانبا من متنها . وان لذلك ليبدو في شعر الترك الشعبي والجانب الأهم الأعظم منه صوفي ، ففيه من الألفاظ والعبارات الفارسية ما قد لا يفقه معناه حتى متأدبو الترك في يومنا هـذا . مما يجعل تأثر الترك في لغتهم وثقافتهم مظهرا هو أوضح ما يكون لتأثرهم بالحضارة الفارسية الاسلامية في أخص سماتها .

ولا نعرف طريقة صوفية فارسية كان لها من الذيوع والشيوع ما كان للطريقة المولوية ، على كثرة الطرق التي عرفها الترك وكان شيوخها ممن قدموا على بلاد الترك من فارس . وكان أتباعها من الخواص والعوام جميعا .

وما تمذهب هذه القوم بمذهب جلال الدين الصوفي وكفى . بل أصبح لشيوخه صفة رسمية في الدولة على انهم يمثلون مؤسسة الفارسي صاحب المنزلة التي لا تدانيها منزلة ضمن تقاليد سلاطين آل عثمان التي توارثوها كابرا عن كابر ، والخبر في ذلك ان السلاطين الى آخر عهدهم جرى العرف عندهم أن يقصد السلطان فيهم يوم تربعه على العرش الى مسجد أبي أيوب الأنصاري باستانبول وهو ذلك الصحابي الذي مات تحت أسوارها عام ٥٠ للهجرة فابتنى له محمد الفاتح مسجدا . وفي هذا المسجد كان يشد وسط السلطان بسيف السلطان عثمان الأول شيخ منحدر من سلالة جلال الدين الرومي (١) .

واختيار هذا الشيخ وله ذلك النسب مما يقوم به الدليل على اعتزاز

---

(١) د. رضا توفيق : تورك تاريخى ١٥٠١ اوجنجى جلد (استانبول ١٩٢٤) .

الدولة العثمانية بشيخ التصوف الذى نشر مذهبه فى أرجاء البلاد وكان صاحب الفضل فى نشأة الشعر التركى ٠

واذا دار الكلام على أثر هذا الصوفى على التصوف الشعبى ، قلنـا أن أتباعه من جماهير الشعب يعرفون بالدراويش المولويه نسبة اليه لانه كان يسمى كذلك مولويا ٠ ويسميهم الأوربيون الدراويش الدوارين لانهم كانوا يستعينون بما يعرف بالسماع لأثارة نشوة الوجد فى نفوسهم ٠ والسماع يتألف من الرقص والانشاد والعزف على آلات الطرب ٠ وكان الرقص أهم شعائر دراويش المولوية وهنا نخص رقصهم بالذكر لأنه يميزهم من غيرهم بطابع لتصوفهم الشعبى ٠ فكانوا يجتمعون فيما يعرف بسماع خانه أى بيت السماع ٠ وهو بهو وسيع يجلس فى صدر جماعة من العارفين ويدخل الدراويش وبعد ان يسلموا على شيخهم يأخذون فى رقصهم برفع أذرعهم وقد اتجهت راحاتهم اليمنى الى أعلى واليسرى الى أسفل ، ثم يدورون على أطراف أصابعهم دوران الرحى فيما ينفخ فى النـاى ويقرع الطبل ٠ ويصلون على النبى صلى الله عليه وسلم واضعـين أيديهم على صدورهم ٠

وفى الرقص يقول جلال الدين الرومى من شعر فارسى له هذه ترجمته (حدينك عن البحر وموجه المزيد ٠ الا انك شيئين متباينين لا تقصد ٠ لان البحر بارتفاع وانخفاض ، انما يخلق الأمواج ويصبح المواج ٠ والموج اذا وقع الى البحر رجع وكذا حال بنى الانسان فهم أمواج الواحد الديان ، كلهم بعد موته فى ربه فان) (١) ٠

وفى هذا من قول الشاعر الصوفى رمزية نمس الحاجة فيها الى ايضاح ٠ فقد اتخذ من هذا الرمز شعارا لمذهبه الصوفى الذى يدعو اليه ، وأساسه القول بوحدة الوجود ، فليس فى هذا الكون بما وسع سوى كائن واحد هو الله تعالى ، وكل ما فى الوجود من خلقه جزء منه غير متجزىء ٠ كما يرمى الى افناء الذات الانسانية فى الالهية ٠ فعمد بهذا الشعر الى التشبيه والتخيل ٠

وبالتعقيب على ذلك نخلص الى حقيقة لا ريب فيها ٠ وهى ان جلال الدين الرومى شيخ التصوف الفارسى نشر فى الترك مذهبه الذى يمكن ان نسميه التصوف العجمى الأخذ بفكرة وحدة الوجود والفناء فى الذات الالهية ، وهو المعبر عن الروح الفارسية فى ميلها الى دقة التجريد والرمز والايماء ٠ وانه ليذكرنا بسلفه أبى سعيد ابن أبى الخير الذى كان على نفس المذهب ، وأقام أول خانقاه عقد فيها مجالس السماع ، فكان جلال الدين فى تركيا ، آخذ بما كان

(١) Monroe : Turkey and the turks. P. 28. (London MDCC VIII).

معمولا به فى فارس ، وعرف الترك بأهم تيار روحى عند الفرس . بل ولا سبيل الى نكران فضله فى نشأة الشعر التركى الذى انبثق من التصوف العجمى أصلا ولقد سيطر هذا التصوف على شعر الترك قريبا من ستة قرون .

وعلى ذلك الشعر التركى نقول انه تأثر فى أعماقه وأبعاده بشعر الفرس . وكان هذا التأثر فى مبناه ومعناه فى وقت معا . أما المبنى فقد تسرب اليه ما لا يكاد يحصى من الألفاظ الفارسية وعمد شعراء الترك الى ذلك لتحسين عباراتهم من جهة ، ولانهم عدموا فى تركينهم ما يفى بحاجتهم فى التعبير البليغ وذلك ما أفضى الى امتزاج التركية بالفارسية تمام امتزاج ، بل ان الرجحان فى التركية كان للفارسية ، وياطالما وقعنا على بيت من الشعر أو عبارة لكاتب لم نجد فيها من لغة الترك الا الفعل أو الرابطة ، أما باقى الكلام فبالفارسية . وفى هذا يقول بعضهم ان من بلغاء الترك من أسرفوا فى افعام كلامهم بالفارسية وما تحمله من العربية ، حتى أصبحت لغتهم مستبهمة على الفهم ، لا يفقهها الا قوم من الخواص يطظمون وينثرون لأنفسهم وحدهم دون غيرهم فما كان كلامهم فارسيا ولا تركيا (١) .

وهذا الحكم وان لم يخل من شطط محمول على ولوع بلغاء الترك بالفارسية ورغبتهم فى التباهى بسعة علمهم بها حتى شكلوا الجانب الأعظم الأرجح فى كل كلام يحاولون فيه البلاغة ويقصدون فيه الى الفنية . هذا أثر الفرس فى مبنى كلام الترك . أما معناه ، فالأمر فيه لا يكاد يختلف الا فيما ندر.

وأول ما نذكره متعلقا بذلك قول المستشرق النمسوى هامر فى مقدمة كتاب له أخرجه منذ ما يقرب من مائة وخمسين عاما ، انه أسماه تاريخ فن الشعر العثمانى . وعلل قوله فن الشعر بأن الترك لم يكن لهم خاص من شعرهم وانما استعاروه من الفرس ، فنظم الشعر عندهم صناعة فنية وما هو بوحى وسجية . وفى رأى آخر فى مقدمة كتاب له فى تاريخ الأدب الفارسى ظهر منذ ثمانين عاما ، ان شعر الترك وأدبهم قبل خمسين سنة ترجمة صحيحة دقيقة عن الفارسية ، حتى صدفوا عن تلك التراكيب الجامدة القديمة فى منتصف القرن الماضى فأسسوا أدبا جديدا . ولكن هذا الأدب الفارسى كان قد استحوذ عليهم الى حد جعله عندهم مثالا يحتذى . واستساغ الترك ما ألف الفرس فألفوا ما هو تركى فى لغته فارسى فى مضمونه (٢) .

---

(١) Menzel Die Turkesche Literature SS 289, 290 (Die Orientalisher Literaturen (Berlin 1925).

(٢) Horn Geschichte der persischer Litterature 26 Lefzig 1901).

ومما يذكر ان السلطان محمد الفاتح كان مشغوفا بأدب الفرس ، فأجرى وظيفة على شاعر من شعراء الفارسية ، وطلب الى الشاعر الفارسى جامى أن يقوم عليه • ومحمد الفاتح شاعر مجيد صاحب ديوان الا ان فرط شغفه بشعر الفرس حببهم اليه ، فوفد الكثير منهم على استانبول (١) وبوأ بعضهم المناصب فى الدولة حتى آثرهم على الترك ، مما أثار فى نفوس الترك الاستياء من هؤلاء الغرباء الدخلاء • وعبر عن ذلك شاعر تركى فقال : « أليس فى المعدن قيمة للجوهر • أللدر سعر فى البحر لولا أن جاء الى بلاد الترك العجم • أنى كان لهم هذا المقام الأكرم • كل عجمى الى بلاد الترك جاء ، كان بالوزارة أو الولاية معقود الرجاء (٢) •

هكذا يعرض بالعجم هذا الشاعر التركى المسمى (لألى) فيعبر ضمنا بلسان قومه الذين اشتد عليهم أن يفد الفرس على استانبول كيما تقبل الدنيا عليهم وتنصرف عن غيرهم من أهل البلاد وهم أحق وأولى ، وان كان المتسبب فى ذلك الوضع المنفور منه سلطانهم محمد الفاتح • الا أن ميله الى الفرس وأدبهم هيأ للفرس أن يكون لهم ظاهر الأثر فى الأدب التركى على نحو لم يكن لهم به عهد • ذلك أن المداحين من الشعراء عرفوا ما يهوى اليه فؤاد ممدوحهم الفاتح • فتحببوا اليه بالضرب على الوتر الذى يروق له أن يطرب لأنغامه • ونلحظ تلك الظاهرة فى شعر أحمد باشا وزير محمد الفاتح وكان فى عداد المجيدين من الشعراء ، وله قصيدة تسمى قصيدة القصر ينحو فيها نحو شعراء الفرس المداحين ويلتزم الدقة فى تقليدهم وكأن هذا الصنع يزلفه الى مولاه ويجعله فى مرضاته • لقد بالغ فى المدح ما استطاع الى المبالغة سبيلا ، وتوخى أن يورد فى مدحه ما يعرض الفرس من صور بيانية ، واستجمع فى خاطره ما عرف عن الفرس ، ولما عرض لوصف شعاع الشمس منبعثا من كوة القصر شبهه بتلك السلسلة الذهبية التى كانت لكسرى • وكان له سلسلة تتدلى من نافذته وقد ثبت فى طرفها ناقوس • فاذا شاء متظلم أن يطلع الملك العادل على ظلامته ،جذب طرف السلسلة فتحرك الناقوس ودق ، وتنبه الملك الى النظر فى أمر من يطلب رفع الظلم عنه • كما ان الشاعر عمد الى اقحام الألفاظ الفارسية فى كلامه الى الحد الذى جعله فارسيا محضا لولا وقوعنا على ما يحكمه من أصول النحو التركى حكما ضعيفا قد لا يلوح للنظرة العجلى •

---

(١) لطيفى : تذكرة لطيفى ص ٢٨٩ (درسعادت ١٣١٤) •

(٢) كوهرة قيمت أولميه كانده ديريهاسين بولا مى عمانده
رومه كله لمو غى عجم اولدى بوعز لتيلة جون اكرم
عجمك هربرى كه رومه كلر ياوزارات ياسنجاق اومه كلر

وتزايد الميل الى احتذاء شعراء الفرس على الأيام ، وانكب علماء وبلغاء الترك يطلعون الاطلاع الواسع على تراث الفرس الأدبى فتشكلت منه أداتهم وكان أساسا ركينا لما يحصلون من علم · ومن الدلائل على أن التراث الأدبى الفارسى كان نصب أعينهم ومناط اهتمامهم أن كثيرا من شعراء نظموا بالفارسية وشعرهم بين دفتى ديوان صغير أو كبير · وها هو ذا السلطان سليم الأول وهو شاعر له الرقيق الأنيق ينظم ديوانا من الشعر الفارسى ولا نكاد نعرف له فى التركية شعرا ، واذا حمل ذلك منه على أنه التعصب لأدب الفرس ، قلنا انه قاطع البرهان على اعجابه بشعر العجم وطول مداومته على النظر فيه ، الى الحد الذى تأتى له معه أن يشغل به عن الشعر التركى ، وينظم شعرا فارسيا فى تقديرنا أنه لا يقل جودة وروعة عن شعر المجيدين من الفرس · ولقد حذا حذوهم حتى أشبههم اضافة الى قوله فى أغراض لم يطرقوها ، وحديثه عن نفسه وما تحدثوا عن أنفسهم الا فى أقل الأحايين · وفى نظرنا ان ذلك منه رافعهم عنهم درجة أو درجات ·

وعلى ذكر شاعر الفارسية السلطان سليم الأول وما كان فى عصره وعصر سلفه من ولوع شعراء الترك وتأثرهم بشعر الفرس ، يذكر ولده السلطان سليمان القانونى الذى تملك فى منتصف القرن السادس عشر وكان عصره أزهى عصور الحضارة الاسلامية فى المملكة العثمانية وهو شاعر صاحب ديوان من الشعر التركى ·

وقيل ان مائتى شاعر فى عهد هذا السلطان أظهروا من عبقريتهم عجبا عجابا الى جانب خمسين عالما شهد لهم بنفاسة ما أخرجوا من تآليف (١) ·

وفى رأى ان شعر العصور المتقدمة على هذا العصر كان بدائى الحالة يجرى على نسق واحد أما شعر هذا العصر فانه الشعر الحق اذ بلغ الجودة ورفعة الطبقة (٢) ·

وفى رأى آخر ان الشعر التركى قبل عصر سليمان القانونى أشبه شيء بكلام صغير مستقيم تارة ولا يستقيم تارات · أما فى عهد هذا السلطان فبدأ الترك يقفون على قدم المساواة مع شعراء الفرس المجيدين (٣) ·

ونحن نلحظ أهم سمات الأدب فى هذا العصر بعد أن عرفنا ما قيل عنه فى شمول · أما أخص ما يميزه تعليق شعراء الترك بشعراء الفرس أمثلة

---

(١) Van Gaver Turquie P. 154 (Paris MDCCXI)

(٢) فائق رشاد : تاريخ ادبيات عثمانيه ص ٢٦٦ (استانبول) ·

(٣) Cibb : A History of Ottoman Poetry P. 1 (London 1904).

يحتذونها ويستلهمونها . وكان تأثرهم بالفارسية وشعرائها فى عصرهم هذا أبعد وأعمق من تأثرهم من قبل . وما ذاك فى حسبانا آلا مسايرة منهم لازدهار الحضارة الاسلامية بكل مظاهرها فى عصرهم هذا ، ومن حيث كان الأدب تعبيرا عن معانى الحياة وتصويرا لروح العصر ، رغب الشعراء فى التفخيم والتعظيم . وعبروا عما يحيط بهم من بهاء ورواء فطوعوا الشعر خصوصا ليكون الناطق الصادق عما يبدو لهم ويدور حولهم . وما وجدوا خيرا من أدب الفرس مددا لهم ومعينا على ما يقتضيه وصفهم فى المجتمع التركى الاسلامى من حتمية أن يتفننوا بمجد دولتهم ، ويصنعوا ما يقع تحت حسهم ويدور فى خاطرهم ، وبذلك كانوا بحق من أقاموا لفن القول كيانا هو الركن من أركان الحضارة .

وأقبل الترك على النظم فى الأغراض التى كان فيها الفرس ينظمون وأحكموا تقليدهم والتزامهم عمود شعرهم . وأصبح ذلك دأبا لهم ومن تقاليدهم التى لم ينفكوا عنها .

وان لطيفى الذى أخرج كتابه (تذكرة الشعراء) وترجم فيها لشعراء الترك يقول فى مقدمة كتابه ان أدعياء الأدب والمتشاعرين أصبحوا كثرة كاثرة فكل من كان له علم بالفارسية واطلاع على كتاب أو كتابين من كتب الأدب الفارسى وأصبح فى قدرته أن ينظم أبياتا معدودات يحذو فيها حذو شاعر فارسى ظن انه شاعر مجيد رفيع الطبقة . ونحن نأنس بقول هذا المؤلف لنستنبط منه رواج شوق الأدب فى ذياك العهد من جهة ، وحرص أهل الأدب فى تفاوت طبقاتهم وحيثياتهم على أن يجعلوا أدبهم قائما على التركى قائما على أساس من الأدب الفارسى ، أو صورة له فى لغة الترك .

والترك فى ذلك يشبهون العرب فى كثير من عصور أدبهم ، فقد أخذوا من الجاهليين فى أغراضهم وأنماط شعرهم وأوزانه والوقوف بالديار والبكاء فى الدمن وما الى ذلك مما حملوا أمانته .

وأخذ الترك عن الفرس نزعتهم الصوفية فى تعبيرهم وتخييلهم وهم ينظمون القصص معارضين به شعراء الفرس كنظمهم قصة ليلى والمجنون ويوسف وزليخا ، وضمنوها رمزا صوفيا . وتنافسوا فى هذا الفن حتى من لم نعرف من سيرتهم انهم كانوا من التصوف فى كثير أو قليل .

ويقف بنا على تلك الحقيقة شاعر يسمى يحيى بك توفى عام ١٥٨٢ م وهو القائل فى منظومة له عنوانها (يوسف وزليخا) (هذا المؤلف المستطرف

لى ودرر معانيه من بنات أفكارى وأكثرها خاص بى ، تلك القصة لا ينبغى أن تترجم أنا لا أضع حلوى المونى لى فى فم) (١) .

فيحيى بك يريد ليقول ان الشعراء لم يغادروا متردما وقد تداولوا نظم تلك القصة ، الا ان نظمهم لها أشبه شىء بترجمتها ، وهو ينزهها عن الترجمة أى عن التقليد فيها للشعراء المتقدمين من الفرس . كما يبرىء نفسه من أن يكون مثلهم مقلدا ويعبر عن ذلك بكتابة مستملحة هى ان نفسه تقف عن أن يأكل ما يصنع من حلوى توزع على الفقراء صدقة عند اقامة المآتم . فهو بذلك يكون محدثنا عن نفسه وعن غيره من الشعراء فى آن .

وعرف الترك فنا أو تاريخا أو طريقة للتأريخ مقتبسة عن الفرس ، وهى نظم منظومة للسلطان فيها التأريخ للدولة العثمانية عموما أو عصر من العصور خصوصا ، مع التغنى بمدح السلطان والتعريف بما له من مجد . وهذا مأخوذ عن عادة ملوك الفرس فى أمرهم بنظم الأشعار فى تواريخهم . كما كان من السلطان محمود الغزنوى الذى أمر الفردوسى بنظم الشاهنامة فى تاريخ ملوك فارس . وكان الشعراء يعاونهم الرسامون والخطاطون فى اخراج كتاب منظوم للسلطان فى التأريخ (٢) .

ومما سبق القول فيه والاشارة اليه ولو فى عموم ، يستبين لنا بالجلاء الأتم كيف أورث الفرس الترك الكثير والكثير من معالم الحضارة ونخص بالذكر الأدب فى شموله واللغة فى تمازجها وتداخلها والتيارات الروحية التى أعقبت ما أعقبت من فنـــون القول فتضمنت ركنين من أركان الحضـــارة هما الدينى والفنى .

ومن تتمة القول فى هذا المقام أن نعرض لانتقال فن الغناء والطرب عن الفرس الى الترك ، ففى التاريخ ان أحد سلاطين آل عثمان وهو مراد الرابع فاتح بغداد فى عام ١٠٤٧ هـ أمر بقتل عشرة آلاف من أسرى الفـــرس ، وبلغ من غلظة قلبه أن يطيب نفسا بمشاهدة من يقتلون وما يشفع لهم الشافعون الا أنه لم يشفعهم ، حتى قدم عليه موسيقى فارسى اسمه شاه قولى فغناه أغنية يسأله فيها الصفح عنهم . قيل فطرب السلطان كما لم يطرب من قبل ، ورق قلبه من قسوة وفظاظة وصفح بعد أن قيل ما الى صفحه من سبيل ، كما تبدل

---

(١) بوتاليف لطيف ودر معنـــــا — خيال خاصم أولدى أكثريـــا
يقشمز ترجمـة بوداستانـــــه — أولى حلواسى آلـــــدم دهانه

(٢) Babinger Die Geschichtochrieber der Osmanen S88 Lepzig 1972).

من تكبره وتجبره برحمة وفاضت عينه من الدمع · وأعجب بهذا الموسيقى الفارسى كل الاعجاب · فأنفذه مع أربعة من رفاقه واهل صناعته الى استانبول · وفيها تتلمذ الترك على هؤلاء فى فنهم وعرفوا عنهم ما لم يكن لهم به علم (١) ·

ويستدل من مثل ذاك الخبر على أصالة فن الغناء عند الفرس مما يؤيد ما أشرنا اليه من قبل أن العرب أخذوه عنهم ، وهنا نعلم أن الترك كان شأنهم شأن العرب ، بل ونجد أن أسماء الألحان عند الترك فارسية وكذلك أسماء المصطلحات الموسيقية ، وهى التى نألفها الى اليوم فى لغتنا العربية بعد أن انتقلت الى العرب · كما أن اقتران انشاد الشعر بالعزف كان معروفا عند الشعراء المنشدين فى فارس منذ قديم كما سلف القول فى الاشارة اليه ·

ومن أسماء المعازف التى عرفها الترك عن الفرس بأسمائها الناى والكمان والطبل ، وهى تشهد للمستعار منه بفضله على المستعير ·

أما فن العمارة عند الترك فواضح فيه تأثرهم بالفرس · ولنذكر فن عمارة المساجد ، وعلى ذكر المساجد نذكر ان مدينة استانبول أشهر المدن الاسلامية بكثرة مساجدها ، بدليل أن المؤلف الفارسى بهاء الدين العاملى من أهل القرن السابع عشر الميلادى ، أحصى مساجدها فكان شيئا كثيرا ·

ونخص بالذكر عند الترك المسجد المغطى تغطية تامة ولا وجود فيه لفناء الوسط وسقفه مقبى ، وزخرفته غير متجانسة · فهذا الطراز من المساجد متأثر بالفن الفارسى فى استخدام الآجر المصقول ومربعات الفسيفساء المحلاة بالزخارف والمفروشة فى الجدار (٢) ·

ولما اكتشف علماء الآثار قصر ملك الفرس دارا ووجدوا جدرانه مزدانة بالآجر المصقول أيقنوا ان فن تزيين الجدران على هذا النحو منسوب الى الفرس (٣) ·

ويأتى الترتيب على ذكر ما يسانده الواقع التاريخى من أن معماريا فارسيا استدعى من مدينة تبريز الى القاهرة ليزين مسجدا أقامه قوصون من أمراء دولة المماليك البحرية ، فزينه بالقيشانى على هيئة قطع من الزجاج كل قطعة من لون ، وتلك القطع متراصفة محيطة برسوم وشكول · وتلك طريقة فى

---

(١) Toderini : Letterature Turchesca p. 222 V.I. (Parigi 1789).

(٢) Ottiv : Terre des Empereurs et des Sultans P. 211 (Milan 1962).

(٣) Arseven : Les Arts Decoratifes Tures, p. 144 (Istanbul).

التزيين عرفت فى فارس ، ومنها كان انتقالها الى الأناضول منـذ القرن الثالث عشر (١) ٠

ومعلوم ان القيشانى نسبة الى مدينة قاشان الفارسية مما يشهد للقيشانى بصحة نسبه ، ومما يستلفت النظر فى المبانى الخاصة بدولة المماليك البحرية زخارف نباتية تتشكل من وحدات زهرية ، وقد لحق بها التطور فى القـرن الخامس عشر ٠ ومن أمثلة تلك الزخارف ما يشاهد فى قاعة مدرسة خوشقدم : وهى زخارف فارسية ٠

كما تلقى فن العمارة فى عهد الطولونيين عن الفرس فن صناعة الآجـر والكثير من أصول فن الزخرفة (٢) ٠

وفى القرن الثـامن عشر ظهر من يدعى أشرف الأفغـانى وكان صنديدا مغوارا ، ولما وجـد الدولة الفارسية فى سيىء من حالها وضعيف من شأنها حدثته النفس بأن يصبح الملك له ، واستفحل أمره وكثر جمعه وقويت شكيمته حتى غلب على مدينة أصفهان ٠ الا أن السلطان العثمانى أنفذ اليه جيشا تحت امرة من يسمى أحمد باشا ٠ وانجلى القتال عن كسرة أشرف بحيث تيقن أنه لا طاقة له لقتال الترك وتعاهد أشرف وأحمد باشا على وضع أوزار الحرب ٠ الا أن قائد الترك طلب الدخول تحت شرط ، وهو ارسال ألفين من الفارسيات مشهود لهن بالحذق فى فنون الحياكة بأنواعها حتى تأخذ فتيات الترك عنهن أصول الفن ٠

وارتضى أشرف ذلك من أحمـد باشا ، فما سمع بصُناع من أصفهان الا أمرها أن ترحل مع الراحلات الى استانبول ٠ وهنا ازدانت القصور بما نسجن من طنافس ، وصنعن لحظيات السلاطين ما لا عهد لهن به من فاخر الثياب ٠ ونقش بديع النقوش على الأوانى ، وما شاهد الترك من قبل مثلها ، كما تعلموا منهن فن النساجة والتطريز والرسم ٠

وهذا من خبر الفتيات الفارسيات بلغت الى أن الترك كانوا على علم بأن الفرس أهل فن وصناعة وتحينوا الفرصة للافادة من فنونهم بعامة ، مما يستدل به على أنهم كانوا على أهبة التلقى عنهم ٠ ومما عُرف الترك من فنون الفرس

---

(١) Wiet : Les Mosques du Caire p. 299 (Paris 1933).

(٢) Ibid : pp. 304-306.

نقش صورة الأسد وهو يفترس الثور ، وطالما شوهدت تلك الصورة التقليدية على القيشاني والمنسوجات والبسط (١) ٠

أما في الخطاطة أي فن تحسين الخط الفارسي المعروف بتستعليق بمعنى نسخ التعليق ٠ فاختراع هذا الخط منسوب الى من يسمى مير علي التبريزي ، ونسبته تدل على فارسيته ٠ وقد أظهر الخطاطون من الأتراك ميلا الى هذا النوع من الخطوط وأعجبوا به اعجابا دفعهم الى استخدامه في كتابة دواوين الشعر ٠ واذا ذكرت دواوين الشعر بدر الى الفهم أنهم اثروا بهذا الخط ما يحسن الاهتمام به والرعاية له واختصاصه بما لا يختص به سواه ٠ وذلك اعتزاز بما يؤثرونه على غيره بميلهم واعجابهم ٠ وذلك منهم مذكرنا بتزيين دواوين الشعر بالتصاوير والتزايين على أن الشعر عريق في الفن ، فمن حق الفن أن يعرضه في صورة فنية ٠

كما انهم كتبوا بهذا الخط الفارسي أحكام المحاكم وذلك من الدليل على أنهم نظروا الى هذا الخط نظرة اجلال واكبار ٠٠ وكان تعبيرهم عن رأيهم فيه باستخدامه في أخص ما تجدر العناية به والاكبار والاعظام له ٠

ومما يقيم الدليل على منزلة هذا الخط عند الترك ما يقال من أن من يسمى كرم الله رأى جده فيما يرى النائم وهو يريه أوزة ، ولذلك جعل الخط على هيئتها ٠ ولكن بما أن اختراع هذا الخط كان في القرن الرابع عشر الميلادي فنسبة اختراعه الى هذا التركي من غير المحتمل (٢) ٠

أما نحن فنقول في يقين ان هذا الخط فارسي ، الا اننا نفيد مما قيل عنه ولو على غير الصواب ، لندرك ان تلك الرؤيا التي رآها جد مخترعة وتراءى له النبي صلى الله عليه وسلم من الدليل على اقترانه بقدسية وحرفة فكأن هذا الخط الفارسي له عند الترك أو بعضهم منزلة يا لها من منزلة ٠

أما صناعة البسط ، فأول ما يقع في الخاطر متصلا بها ، أن الفرس برزوا فيها بروزا وليس لهم من يضاهيهم فيها ٠ ولقد أخذ الترك عنهم مما جعلهم يشتهرون بتلك الصناعة ولكن بفضل الفرس عليهم ٠ فقد ذكر الرحالة (ماركو بولو) الذي اجتاز مدينة قونيه في الأناضول ٠ وكان ذلك في القرن الثالث عشر الميلادي ، أن في تلك المدينة أجود ما في العالم من بسط وأيده في قوله من بعد الرحالة العربي ابن بطوطة ٠ وتعقيبنا على هذين القولين المتساندين

---

(١) د٠ بهنام : نكاهي بكذشته ها ص ٣ و ٥ هنرومروم شمارة جهل ويكم وجهل ردوم اسفند وفروردين سال ١٣٤٥ (تهران) ٠

(٢) محمد مصطفى : سجاجيد الصلاة التركية ص ١٠ و ١٣ (القاهرة ١٩٥٣) ٠

أنهما يؤيدان حقيقتين متكاملتين ، أولاهما أن الأتراك بلغوا الغــاية فى اتقان صناعة البسط ، والأخرى أن هذا الاتقان يترتب على أخذهم تلك الصناعة عن الفرس الذين عرفوا بها منذ الزمان الأطول · ونذكر ما قيل من أن العرب يوم القادسية أصابوا بساط كسرى وثقل عليهم أن يحملوه · وكان الفرس يعدونه للشتاء اذا ذهبت الرياحين · فاذا أرادوا الشرب شربوا وهم جلوس عليه وكأنهم من رسومه وتهاويله فى بستان أنق (١) ·

ففى مثل هذا صريح الدلالة على مهارة الفرس فى صناعتهم مما يترتب عليه مهارة من يأخذون عنهم · أما فن التصوير ونعنى به رسم الصور الصغيرة التى اشتهر الفرس بها من قديم ، فمما تعلمه الترك من الفنانين الفرس · ويرى العلماء ان هذا الفن عنـــد الترك لا يعدو أن يكون لونا محليا لما عنـــد الفرس · وفى أزهى عصور الحضارة التركية عصر السلطان سليمان القانونى ، قيل عن أشهر مصور تركى يسمى عليا انه تتلمذ لمصور فارسى يسمى محمد بيك كما قيل عن تركى آخـر انه اكتسب خبـرته ومهارته من فارسى علمه ودربه (٢) ·

فكأن تأصيل هذا الفن عند الترك مرده الى الفرس ، مما يكاد يتبدد به الشك فى أن فارس كانت مصدرا للفن عند الترك يصدرون فى كل ما توفروا على انجازه من عمل فنى ·

واذا انساق بنا الكلام الى الهند ذكرنا أن بينها وبين فارس أسبابا متصلة وواشجة نسب منـــذ أزمنة يطمسها القـــدم ، وكيما نتبين ذلك على التقريب والتحقيق عرفنا أنه بعد فتوح الاسلام لفارس ، كره بعض الفرس أن يدينوا للعرب اعتزازا بأنفسهم وأنفة من أن يدينوا لقوم هم فى رأيهـم أهل جاهلية يرعون الابل ويأكلون الضباب ، كما عز عليهم أن يرتدوا عن مجوسيتهم التى وجدوا عليها آباءهم ، فما وجدوا مندوحة من الفرار بدينهم وقوميتهم من أرضهم الى أرض الهند المتاخمة لهم ، وما اشتد عليهم أن تكون هجرتهم الى قوم من سلالتهم الآرية وكأنما ارتحلوا من قاصية الشمال الى قاصية الجنوب فى بلادهم ، فاليها شدوا رحالهم زرافات زرافات وطابت لهم مستقرا ومقاما · وما زالت الى اليوم لهم جالية عظيمة فى بمباى خصوصا ، ويعرفون فيها بالبارسيين الباقين على مجوسيتهم · وأول عهد الهند بالفرس المسلمين كان فى عهد الدولة السامانية التى كان لها الحكم فى فارس فى القرن الثالث الهجرى · ودخل جند

---

(١) ابن الجوزى : سيرة عمر بن الخطاب ص ٨٢ (القاهرة) ·

(٢) Dwens Turkish Ministres pp. 12, 16 (London 1936).

الفرس فى أحكام الاسلام وقيمه على الهند ، وانتشر دين الفرس الاسلامي وشاعت لغتهم الفارسية على نطاق جعل يتسع على مر الأيام (١) .

وفى أوائل القرن الخامس الهجرى فتح السلطان محمود الغزنوى الهند ، وانساحت جيوش الفرس فى البلاد واشتدت خلطتهم بأهلها ، فأدى ذلك الى المتعارف المألوف من تأثر لغة أهل البلاد المفتوحة بلغة الفاتحين . وزادت الخلطة بين الفرس والهند وبالتالى بين لغة القومية الى الحد الذى نشأت فيه لغة جديدة تتشكل من لغة هؤلاء وهؤلاء . ولما كان الرجحان للفارسية ، نسبت اللغة الجديدة الوليدة الى جيش الفرس أو معسكرهم فسميت (أوردو) بمعنى جيش أو معسكر . وأصبحت لغة على جانب عظيم من الأهمية بين اللغات الاسلامية التى عبرت عن حضارة الاسلام فى مظهرها الفارسى على الخصوص ، وهذا ما سوف تمس الحاجة فيه الى بسط الكلام من بعد .

وظلت الهند على وثيق صلة بالفرس وحضارتهم الاسلامية الى أن كان الحكم فى فارس للدولة الصفوية وذلك فى القرن السادس عشر الميلادى ، وأقرت المذهب الشيعى مذهبا رسميا وحظرت على الفرس أن يتمذهبوا بمذهب سواه ، وما حدثت أحدا نفسه بالتباعد عن التشيع الى غيره الا عد من المارقين الفاسقين ليؤخذ بما يؤخذوا به من شديد العقاب .

وكان التصوف هو الطابع المميز للشعر الفارسى ، فما ملك الشعراء أن ينصرفوا عن اصطلاحاته وعباراته وصوره الرمزية فى شعرهم ، وهذا ما ساء علماء الشيعة فى ذلك العهد فأوعزوا الى الملوك أن يقضوا قضاء مبرما على شعراء التصوف خصوصا ان منهم من كان على المذهب السنى ومنهم من كان مذهبه الصوفى مخالفا أو معاندا لأصول المذهب الشيعى (٢) .

وأفضى الأمر بالملك الفارسى الشيعى فى ذلك الزمان الى أن يكون صليبا فى مكافحة الشعراء الذين يقولون فى مختلف فنون الشعر ، فما ارتضى منهم الا القول فى رثاء أئمة الشيعة والنظم فى التعريف بأصول مذهب التشيع وما يتصل من ذلك بسبب . فرأى الشعراء أو معظمهم انهم فى قيود وحدود لا يملكون منها انطلاقا ، وأن ألسنتهم التى جعل الملوك فيها عقدة لا تحل ، لم تعد طوع ما فطروا عليه من سجية . فما وجدوا الا أمرا واحدا ما له من ثان ليكونوا على التحيز ، ألا وهو الارتحال عن بلادهم الى بلاد الهند . الذى ازدهر فيها أدب الفرس ولغتهم ، وحذقها أهل الهند الحذق كله ، وعدوها لغة التراث

---

(١) على أكبر خراسانى : روابط ادبى ايران وهند . ص ٢٢ (طهران ١٣١٦) .

(٢) على رازى : تاريخ ايران ، ص ٦٠٢ (طهران ١٣١٧) .

الاسلامى التى لا يسع عالمهم أو متعلمهم وأديبهم ولا متأدبهم الا أن ينال الحظ الأوفى من العلم بها والاحاطة بآدابها · وكان ملوك الهند يبصرون الشعر الفارسى ويبذلون العطاء لما ديحهم بلغة الفرس ·

ونحن لا نعدم لذلك عديدا من أمثلة فى فترة طويلة ممتدة من الزمن ولعل اقرب مثال وأدلة على ما نريد تبينه فيه ، أن أحد حكام الهند فى القرن الثامن الهجرى ، أرسل الى حافظ الشيرازى أشعر شعراء الفرس ، يطلب قدومه عليه وزوده بنفقة سفرته ، وركب البحر الذى هاج به وماج ، فآثر الشاعر العافية وانثنى عن نية ركوب البحر الى الهند ، وبقى فى مدينته شيراز (١) ·

ونعود الى شعراء الفرس الذين أزعجوا عن ديارهم وارتحلوا الى الهند بأشعارهم الفارسية التى تؤلف عنصرا عظيم الأهمية من الجانب الأدبى العلمى الدينى للحضارة الاسلامية · ولتفسير ذلك نقول ان شعراء الفرس ألفوا أن يضمنوا شعرهم كل ما فى جعبتهم من العلوم الاسلامية واصطلاحات التصوف والآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكل علم حصلوه كعلم الفلك وعلم الطب ، لأن مفهوم الشاعر عند الفرس مختلف عن مفهومه عند العرب · فكان الشاعر الفارسى شاعرا ناثرا عالما بأصول الدين وأحكام التصوف والتفسير والتأويل والتأريخ وعلم الكيمياء والرياضة والحساب وكل ما يمكن الاحاطة به من أفانين المعرفة التى وجد المسلمون اليها فى ظل الاسلام · ولا يتيسر فهم لما يقولون من شعر تزاحمت فيه المصطلحات والأشارات الا لمن كان راسخ القدم فى العلوم الاسلامية ، ويلزم من ذلك أن يكون نظمهم للشعر تعبيرا عن مقومات حضارة الاسلام ، وقراءته فى حقيقة الحال قراءة لصفحة فى كتاب تلك الحضارة ، ويتسنى لمن ينظر فيها حق النظر أن يستوعبها فى الأهم من مقوماتها والأوضح من معالمها · ومن هؤلاء الشعراء الفرس من كانوا علماء لهم المؤلفات والمصنفات فانتقالهم عن بلادهم الى الهند يعد ولا ريب انتقالا بحضارة الاسلام · ولا نسيان لأنهم بعد أن استوطنوا أرضا هى دار غربة ، جدير بهم أن يعيشوا فى الجو النفسى الذى يعيش فيه الغريب ، فيندفع الى اثبات جدارته وعظيم قدرته لمن قد لا يحسنون به ظنا ·

وذلك باعث نفسى خفى جد قوى يبعثه على ان يبذل الوسع ، كما أن شعوره بالرضا وسكينة النفس مما يشرح صدره للعمل فى اتصال ودوام ، رجاء أن يبلغ غاية الغايات ·

---

(١) د· حسين مجيب المصرى : من أدب الفرس والترك · ص ٣٧ (القاهرة ١٩٥٠) ·

ونأنس فى هذا المقام بقول شاعر فارسى ممن رحلوا الى الهند (ليس فى ايران أسباب لتحصـــيل الكمال ، لا ولا لون لحناء ما لم نشـــد بها الى الهند الرحال) (١) ٠

ويقول أحد المؤلفين فى تأصيل حضارة الفرس فى الهند ان السلطان محمود الغزنوى بعد فتحه اقليم البنجاب وضمه الى ملكه أى أن الدولة الغزنوية سرعان ما أصبح هذا الاقليم أرضا اسلامية يقطنها خلق كثير من الفرس والترك وأصبحت مدينة لاهور لهؤلاء حاضرة العلم والأدب ٠ وكانت لغة اولئك المهاجرين المستقرين فى تلك المنطقة هى اللغة الفارسية التى لم يشب صفاءها ونقاءها شائبة من لغة الهند ٠ وسكنوا عدة مدن أخرى فتألف منهم مجتمع خاص متميز بلغته وثقافته ٠ وقد مهدت هذه الطائفة بشعرائها وبلغائها لظهور شعراء الهند من بعد الذين نظموا بالفارسية على نحو خاص يعرف بالطريقة أو الأســـلوب الهندى ٠ ولما أفضى الملك بعد محمود الغزنوى لمن خلفه ورث عنه ولعه بالأدب والفن ، وأحاط نفسه فى بلاطه بجمع من العلماء والشعراء ، واجتذبهم اليه من أفغانستان والبنجاب وخراسان وما وراء النهر (٢) ٠

ومن علماء الغرب من رأى موصول الصلة بين مدينة لاهور فى بلاد الهند ومدينة غزنة فى بلاد فارس فقال ان لاهور تعد غزنة الصغرى (٣) ٠

والمستفاد بالحتم من ذلك أن الفرس جعلوا من تلك المنطقة المتراحبة الأرجاء من شمال الهند اقليما فارســـيا لا يختلف عن بلادهم الا بموقعه الجغرافى ، فهو فارس فى لسانها وأدبها ودينها وملكها الذى يقيم فى حاضرة ملكة الصغرى أو الأخرى ليجمع العلماء والبلغاء على رسوم بلاطه ، ويشـــكل منهم مجتمعا اســـلاميا لا تفرقة فيه بين الأجناس يترابط بالدين فى وحدة لا انفصـــام بين عراها ، وقد استوفى من حضارة الاسلام كل أركانها وهى الدين والعلم والفن ٠ وتلاتلوه من خلفوه فاكملوا ما بدأ وارتفعوا بالبنيان الذى أرسى له الأساس ٠

ولعل شـــعراء الترك وعلماءهم الذين مضـــوا من بعد الى الهند ايقنـــوا قبل رحيلهم انهم لن يعيشوا فيها عيش غرباء فى دينهم أو لسانهم أو أى مظهر من ماهر حياتهم التى انقضت منها أعوام فى فارس الدين والعلم والأدب فضلا

---

(١) نيست درايران زين سامان تحصيل كمال
تانيا بد سدى هندوستان حنا رنكين نشد

(٢) Iqbal Husam : The Early Persian Poets of India p. 1,2 pp. 1,2. (Patna 1939).

(٣) Bausani Storia alla Leuerature dec Pakstan 65 (Milans 1958).

عن تبدلهم من ملوكهم الذين يسيرون فيهم سيرة الذئب فى الحمل ، بملوك رحما كرماء يطربون منهم لكل ما يتقلبون فيه من فنون القريض •

ولما استكملت اللغة الأوردية قائما من كيانها وازدهرت آدابها ، كانت الفارسية وآدابها قواما لثقافة بلغائها وكانت فصاحتهم فى الفارسية كمثلها فى الأوردية • وشكلت الفارسية معظم ألفاظها ، حتى لقد انبرى بعض الباحثين لاحصاء الألفاظ الفارسية فى الأدب الأوردى فبلغت نسبتها تسعين فى المائة عند بعض الشعراء ، وهم بذلك يؤكدون أثر التراث اللغوى الفارسى فى لغتهم القومية • كما انهم نظموا فى أغراض الشعر الفارسى أنماطا وأوزانا هى التى عرفوها عن شعراء الفرس • ومن العلماء من يقول ان الفضل معزو الى الفرس فى نشأة هذا الأدب ، ولغة هذا الأدب هى لغة أربعمائة مليون من سكان شبه القارة الهندية وجنوب وشرق أفريقية ومنطقة الخليج وجنوب برما والملايو •

ومن عجب أن بلاد الهند بما وسعت من جبال وأنهار لا تذكر فى الشعر المنظوم بالأوردية ، وانما تذكر جبال فارس وأنهارها وفى الهند أسماء وأسماء لملوك وملوك ، الا أن شعراء الأوردية لا يكادون يذكرونهم فى أشعارهم ، بل يلهجون بذكر أسماء ملوك الفرس القدامى مقرونة بما كان لهم من حول وطول وصولة وعزة جانب • وما اهتم هؤلاء الشعراء بوصف بساتين الهند وبلابلها وأزاهيرها ورياحينها ، ولا شغفوا بذكر قصص عشاق الهند ، ولا تغزلوا فى عيون فواتن لغادات كشمير ولا تطربهم بشعر البنغاليات ينفح منه الأريج كأنه نسمات ليلة الوصل فى الروضة المعطار ، بل ذكروا قصص عشاق الفرس ، وتغزلوا على نحو ما تغزل حافظ الشيرازى الذى افتتن بمحاسن حسان فارس فيما طواه الدهر من أيام غريد وليال بيض •

ولا نكاد نجد أسماء لأزهار الهند وأطيارها فيما قال شعراء الأوردية على كثرة ما لهم من زهر ذى بهاء وطير عذب بالغناء ، وتردد فى قولهم ذكر ما أنبتت أرض فارس من زهر وما رفرف فى جوها من طير •

وفى الأوردية من الأمثال الفارسية شىء كثير ، ومن الألفاظ الفارسية الأصيلة ما أمسى منسيا فى لغة الفرس مهجورا لا يجرى على الألسنة والأقلام الا أنه ظل محفوظا مذكورا فى الأوردية وما زال الخطباء فى يومنا هذا يضمنون خطبهم أشعارا بالفارسية ذهابا منه الى تحسين عبارتهم من جانب واكسابها الحجية من جانب آخر وعلم العلماء والبلغاء الفارسية يعلى من قدرهم فى محافل العلم والأدب على حد سواء •

وهاهو ذا شاعر معاصر من شعراء الأوردية يسمى « جوشن مسيح آبادى »

يقول ما نصه (اني جد فخور بأن كل ما فاضت به قريحتي من شعر نسيج سداه ولحمته في طراز أقيم على ضفة نهر ركنابادا بالقرب من روضة مصلا وأني مقيم على عهد ايران ما كان لي روح في جسدي . وكل من أراد أن يكون أديبا في الأوردية حتم عليه الطواف بكعبة الأدب الفارسي والا خاب مسعاه ولم يحقق ما تمناه) (١) .

واذا تغلغل بنا نظرنا فيما تقدم أدركنا بما لا يرقى اليه من شك أن الأوردية وآدابها صورة واضحة الملامح لحضارة الفرس الاسلامية ، وقد انتقلت بحذافيرها من أرض الى أرض ولو قلنا أن اللغة والأدب من مشخصات القوميات والمدنيات ما وسعنا نسيان أن الشأن فيما نشير اليه يحمل أكبر دليل على تضمن تلك الآداب طابع الأدب الفارسي الاسلامي وهو احتواء اصطلاحات التصوف وآيات الذكر الحكيم وكل ما يتصل بذلك من بعيد أو قريب . وعليه ، يمكن الحكم بأن أدب الهند كان صنوا لأدب الفرس في اسلاميته المعبرة عن حضارة المسلمين التي بلغت غاية الغايات في تكاملها وترابطها وحدة لا تقبل التجزئة ولا التفرقة لأنها الجامعة بكل المعنى .

ونزيد الأمر توضيحا فنقول ان شعراء الهند لم يوردوا في شعرهم وصفا ولا ذكرا لأنهارهم مثلا ولا لأزهارهم فكأنهم قطعوا نظرهم قطعا عما يدور من حولهم ويقع تحت حسهم ليشغلوا عنه بما يلوح في خيالهم بعد أن ملأ عليهم رحاب عقولهم وقلوبهم وهم في ذلك متأثرون بما تلقنوه وطاهوه فأصبح عندهم ملكة أو سليقة وطبعا فيهم لا يملكون تكلفا لسواه .

ولعل ما قاله الشاعر المعاصر يجمع في عبارات معدودات فحوى ما حاولنا له شرحا وتفصيلا . وان كنا لا نفكر أننا ما توقعنا منه مثل هذا الرأي في يومه الحاضر ، وان جاز لنا توقعه من غيره في زمان تقدم . بيد أن تأييده وتوكيده لتلك الوصلة بين الآداب الأوردية والآداب الفارسية مما يستفاد منه أن أدب شبه القارة الاسلامية في يومنا الحاضر ما زال قائما على الأدب الفارسي في سالف الزمان ، حين كان الأدب الفارسي في أوج كماله واستيعابه أشتات المعرفة في الاسلام ، بدليل قول هذا الشاعر المعاصر أنه استمد شاعريته مما كان على ضفة نهر ركناباد بالقرب من روضة كلكشت . فالاشارة في كلامه الى اسم نهر وروضة في مدينة شيراز كان يطيب للشاعر الفارسي حافظ الشيرازي في القرن الثامن الهجري أن ينظم شعره عندهما .

---

(١) حيدر شهريار : نفوذ فارسي در زبانهاى هند وپاكستان ص ١١٩ ـ ١٢١ سخراني وبحث درزبان فارسي (طهران ١٣٥٤) .

وذكرنا للغة والأدب يفضى بنـا الى ذكر الفن • واذا خطر الفن الفارسى لنا ببال اقترن ضرورة بحكم ينسحب عليه فى عموم وهو أننا لا نعرف بعد فن الاغريق فنا آخر كان أبعد امتدادا وأعمق تأثيرا من الفن الفارسى ولا عهد لنا فى أى عصر بفن لم يتأثر بذلك الفن (١) •

فعلمنا بتلك الحقيقة مستوجب قطعا أن يكون الفرس قد نقلوا الى الهند فنهم فى طليعة من نقلوا اليها من مظاهر حضارتهم الاسلامية ، وعلى نحو باد لأعين المشاهدين قبل أن يتبين للدارسين المحققين •

وما أقرب الى الفهم أن يكون المسجد أول مثال لفن العمارة عند الفرس فى أول عهدهم بفتح الهند واستيطانها • ويحضرنا فى هذا المقام ما قيل من وجود صنم عثر عليه المسلمون وهم يبنون مسجدا فى الهند ، وهو الصنم الذى ذكروا أن السلطان محمود الغزنوى حطمه فى أحد المعابد ، ولذلك تلقب فى الفارسية بلقب (بت شكن) بمعنى محطم الصنم • وذلك صريح فى رمزيته الى دخول الاسلام بحضارته على عبدة الأصنام ، وتذكير بما سوف ترتب النتيجة على مقدمتها •

ومن المأثور أن سلاطين الغزنويين فى لاهور كما كانوا فى غزنة مولعين باقامة القصور وتزيينها بكل ما وسعهم الفن الاسلامى من أنماط الزخرفة ، وما كان السلطان منهم يقتصر على اقامة قصر له وحسب ، بل كان الى جوار قصره قصور وقصور لحاشيته ورجال دولته مما جعل لهم بذلك مدنا ملكية ، ولقد تأنق أهل الفن ما وسعهم أن يتأنقوا فى تزيينهـا بالزخارف التى شاعت وازدهرت على عهد السلاجقة فى فارس ، وهى القائمـة على التزيين بالأزهار والأغصان وأنواع الخطوط • ومن العلماء من يلحظ فى زخرفة تابوت أحد سلاطين الغزنويين فى الهند تأثر صورة الزهرة فى الزخرفة الفارسية بمثلها فى الزخرفة الهندية (٢) •

ونقف عند تلك المعلومة لنتبين ان الفن الاسلامى آثر وتأثر بالفن الهندى ولو فى مثل تلك الجزئية ، مما ينهض دليلا على أن الفن الفارسى تقبل بعض التطور ، وذلك ما يمده بجديد تكتمل به عناصره وتتعدد به سماته •

وبنظرة أخيرة فيما جرى به القلم يتوضح فى الفهم أن حضارة الفرس قبل الاسلام وبعده كانت مددا لحضارة المسلمين فى الأرض ذات الطول والعرض ، فوطدت لها ركين أركانها وشكلت أخص خصائصها ، فمن الحق قولنا ان للفرس الأثر كل الأثر •

---

(١) د• زكى حسن : الفنون الايرانية فى العصر الاسلامى • ص ١١ (القاهرة ١٩٤٦) •

(٢) كونل : ترجمة أحمد عيسى : الفنون الاسلامية ص ٩٦ (القاهرة ١٩٥٤) •

مكان المسلمين
فى التاريخ العام لعلم الجغرافية

د. حسين مؤنس

ما زالت جهود المسلمين فى ميدان الجغرافية بشتى فروعها تدرس فى عالم العرب على أنها جانب ثانوى من تراث الأجيال الاسلامية الماضية ، بل ما زال الكثيرون ينظرون الى ثمرات جهود الجغرافيين المسلمين على أنها لا ترقى الى مستوى ما حققه المسلمون فى ميدان الطب أو الصيدلة مثلا مع أن الجغرافية بفروعها المختلفة تعتبر الى يومنا هذا من أحفل ميادين العلم الاسلامى بالنتائج الباهرة وما زال الكثير من مؤلفاتهم صالحا نافعا مستعملا الى اليوم فى ميدان الجغرافية الحديثة دون أن يقتصر على مطالب الدراسات الاسلامية وحـــدها كاللغة والأدب ٠

ويرجع ذلك الى قلة اهتمام المثقفين العرب والمعنيين بالتراث بهذا الجانب المجيد من أعمال أسلافهم ، واذا أحصينا العلماء الذين اهتموا بدراسة التراث الجغرافى الاسلامى ما بين شرقيين وغربيين للاحظنا أن عدد الغربيين يفوق عدد العرب والمسلمين أضعافا ، واذا نحن قرأنا كتاب المستشرق الروسى اغناطيوس كراتشكوفسكى عن الأدب الجغرافى الاسلامى فى ترجمته العربية الجـديرة بالاعجاب (١) لوجدنا أنه يبدأ الكلام عن كل علم من أعلام الجغرافية العربية وكل كتاب من الكتب التى كتبوها بالكلام على من عنى بالرجل أو بالكتاب من المستشرقين أو من درس هذا أو ذاك أو قام على نشره منهم ، وهنا نشعر أننا مقصرون كل التقصير فى حق أعلام الجغرافية من المسلمين ومؤلفاتهم ٠ فان

---

(١) قام بتلك الترجمة الاستاذ صلاح الدين عثمان هاشم ونشره فى جزءين ضخمين فى القاهرة سنة ١٩٥٧ ضمن سلسلة مطبوعات لجنة التاليف والترجمة والنشر وهو من مختارات الادارة الثقافية للجامعة العربية ٠

جهودنا فى ذلك الميدان لا تكاد تقاس الى جهود الغربيين • ومن هنا فان معلومات المثقف العربى العادى عن الجغرافية الاسلامية لا تبعث على الرضى ولا تقوم بحق بجانب يسير من حق أولئك الأسلاف من العلماء علينا •

ويقف اغناطيوس يوليانوفتش كراتشوفسكى فى آخر سلسلة باهرة من أعلام المستشرقين الذين ندين لهم بالكثير جدا فى ميدان الجغرافية عند المسلمين، فقد سبقه الى التجويد والابداع فى ذلك الميـدان علماء أجلاء مثل دى خويه وجابرييل فيران وم • رينو وجيورج ياكوب وفرديناند فوستنفلد وتادويتش ليفيكى وكونراد ميللر كارلو تاللينو فرانتس فون مجيك وجيـورج روشـكا واليمانى بولوفر وفرانتس فوند روزون وسيزار دوبلر وفلهلم توماشيك وجيوفانى أومان وغيرهم كثيرون ممن درسوا النصوص العربية أو الفارسية أو التركية وحققوها ونشروها أو أقاموا عليها دراسات عظيمة القيمة العلمية قدمت لنـا أساسا متينا للبحث فى تاريخ الجغرافية عند المسلمين • وقد أحسست بمقدار ديننا لأولئك الأعلام أثناء دراستى الطويلة لتاريخ الجغرافية والجغرافيين عند المسلمين (١) •

ولقد دخلنا نحن المسلمين والعرب المحدثين هذا الميدان متأخرين بعض الشيء وان كانت أجيالنا السابقة قد خدمت التراث الجغرافى على قدر ما تيسر لها • فنشرت دار الكتب المصرية موسوعتى نهاية الأرب لشهاب الدين النويرى وصبح الأعشى للقلقشندى وهما تضمان أجزاء جغرافية موسعة عظيمة القيمة ، وأقام أمين الخانجى بنشر معجم البلدان لياقوت الحموى فى القاهرة سـنة ١٩٠٦ ، وتولى مصطفى السقا نشر معجم ما استعجم لأبى عبيد البكرى ، ونشر عبد السلام هارون نص كتاب الأمكنة والبقاع لعدام بن الأصبغ ضمن سلسلة تحقيقاته القيمة للمخطوطات التى سماها نوادر المخطوطات ، وتولى عالم الجزيرة العربية الأستاذ حمد الجاسر نشر نصوص رواد المؤلفين فى جغرافية الجزيرة العربية الى جانب ما تيسر من الأبحاث الجغرافية القيمة فى مجلة العرب هذا الى جهود طيبة وأعمال متفرقة لنفر من أفذاذ الجغرافيين العرب المعاصرين من أمثال سليمان ومحمد محمود الصياد •

وفى أيامنا هذه تلقى الجغرافية الاسلامية عناية كبيرة ومنتظمة من الباحثين المسلمين ، ففى سنة ١٩٧٨ عقد فى مدينة الرياض بفضل جامعة الامام محمد

---

(١) نشر فى مدريد ضمن مطبوعات معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد سنة ١٩٦٧ •

ابن سعود، مؤتمر حافل للجغرافية الإسلامية شارك فى أعماله عدد كبير من الجغرافيين المسلمين ، وألقيت فى ذلك المؤتمر أبحاث علمية ذات قيمة كبيرة ، وتدرس مادة الجغرافية التاريخية الاسلامية فى قسم الجغرافية بجامعة القاهرة وتعتبر مادة أساسية من مواد الدراســة ، ويولى قســم الجغرافية فى جامعة الكويت عناية كبيرة بالتراث الاسلامى الجغرافى بفضل العناية المشكورة التى يلقاها هذا الفرع من تراثنا العلمى من الدكتور عبد الله القيثم الذى أنشأ وحدة خاصة لدراسات الجغرافية الاسلامية فى قسم الجغرافية فى تلك الجامعة ، وتدرج دار المعارف بالقــاهرة معجم البلدان لياقوت الحموى ضمن برنامجها لمواصلة سلسلة ذخائر العرب لسنة ١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، وقد نشرت جامعة الكويت خلال عام ١٩٨٠ كتابا قيما عن : الجغرافية العربية ألفه س٠ م٠ ضياء الدين علوى وقام على تعريبه وتحقيق ما جـاء فيـه عبد الله القيثم وطه محمد جاد ، وهو ملخص جيد لجهود المسلمين فى ميدان الجغرافية وما يتصل بها من علوم ٠ وقد أفدت فائدة كبيرة من هذا الموجز الطيب فى اعداد هذا البحث ٠

وهكذا ، شيئا فشيئا ، وعلى آثار الرواد الأمجاد الذين ذكرنا بعضهم تنشأ فى عالم العرب مدرسة عربية لدراسة الثروة العلمية التى خلفها لنــا الأجداد فى ميدان الجغرافية ، وسنرى فى الموجز التالى أنها ثروة عظيمة القيمة جديرة بكل عناية وتقدير ٠ حقا ان العمل فى ذلك المبدان وتحقيق النصوص وانشاء الأبحاث يتطلب صبرا ومشقة وعلما واسعا باللغات غير العربية ، الا أن الثمرة التى يصل اليها الباحث فى ذلك الميدان تعدل ما ينفق فيه من جهــد وتزيد ، وما زلنا مع الأسف بعيدين عن الوفاء بحق أجدادنا فى ميادين العلوم ، بل نحن فيما يظن لم نصــل بعــد الى اخلاصهم لما توفروا عليه من دراســات وتواليف فى ميادين العلوم البحتة والعلوم الاجتماعية بل فى علوم العربية والفقــه والأدب والفلسفة ، وسنرى مصــاديق ذلك فيما يتصــل بالجغرافية وفيما يلى من صفحات هذا الموجز ٠

جرت عادة الباحثين فى علم الجغرافية عند الباحثين بأن يبدأ بالكلام عن تراث ذلك العلم عند الهنود واليونان والرومان على اعتبار أن هؤلاء هم أساتذة العــرب فى ذلك الميــــدان ٠ وقد ســبق أن قلت فى كتاب تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ان مثل هذا المدخل مقبول على أنه تعريف بما وصل اليه الناس قبل العرب فى ميدان الجغرافية ، لكنه غير مقبول اذا كان المقصود هو القول بأن الهنود والاغريق أساتذة العرب حقا فى ميدان الجغرافية ، لأن الذى أخذه العرب عند الهنود واليونان لا يعتبر أساسا الا لجانب يسير مما ألفه العرب فى الجغرافية ، وهو الجانب الفلكي والرياضى من تلك الجغرافية ، وهذا

الجانب بالذات هو أقل جوانب الجغرافية عند المسلمين قيمة وأحفلها بالخطأ ٠ بل ان تمسك بعض علماء العرب بآراء اليونان فى الجغرافية الفلكية والرياضية قد أضر بأعمالهم وأوقعهم فى أخطاء كانوا يستطيعون تجنبها لو أنهم تحرروا من تلك الآراء ، ثم ان ذلك الجانب هو الذى تلاشى فى وقت مبكر من تاريخ الجغرافية عند المسلمين ليفسح المجال للعلم الجغرافى العربى الأصيل وهو العلم الذى قام على جهود البلدانيين والمسالكيين ٠

وقد قلت هـذا الكلام فى الفصـول الأولى لكتاب تاريـخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، ولم تكن الترجمـة العربية لكتاب الأدب الجغرافى العربى قد ظهرت ، فلما ظهرت واطلعنا عليها رأينا أن مؤلف ذلك السفر الجليل وهو العلامة الروسى اغناطيوس كراتشكوفسكى يتفق معنا فى ذلك ، بل يذهب الى أن ما أخذه العرب من اليونان فى علم الجغرافية أضر بمفهومهم العربى الخالص للجغرافيـة ، وهو يقـول فى ذلك : « والعيب الأساسى للأدب الجغرافى هو خضوعه للنظريات العلميـة الموروثة عن الأوائل بالرغم من أن تجـارب العرب العملية كثيرا ما أدت الى استكمال هذه النظريات وتعـديلها ، بل وحتى الى صرف النظر عنها ٠ أضف الى هذا أن نظرياتهم العلمية لم ترق الى مسـتوى تجاربهم العملية ٠ فهم على غرار اليونان قد ظنوا أن المعمور من الأرض هو ربعها فقط وذلك فى النصف الشمالى منها ، وهو ما عرف باسم «الربع المعمور» كمـا اعتنقوا الرأى القـائل باستحالة الحيـاة فى البلاد الشديدة الحرارة أو القارسة البرودة ٠ واذا كان اعتناق اليونان أو أوروبا الوسيطة لهـذه النظرية الأخيرة له ما يبرره فى عدم المامهم بالبلاد الى الجنوب من خط الاستواء ، فان العرب بفضل رحلاتهم البحرية قد عرفوا جيدا تلك البلاد من افريقية مثـل زنزبار ومدغشقر حيث رأوا رأى العين عددا من المراكز المأهولة ، وبالرغم من هذا فقد ظلت هذه النظرية القديمة عائشة بينهم دون ما أدنى تعديل (١) ٠٠٠٠ الى آخر هذا الكلام الذى يؤيد ما نقوله من أن أخذ العرب بنظريات اليونان لم ينفعهم فى كثير بل أضر بهم وشاب تصورهم العلمى الصحيح ٠

واذا كان تصور اليونان لقسمة الأرض عرضيا الى أقاليم سبعة مسكونة شمالى خط الاستواء مقبول فى جملته معينا الى حد ما على تحديد مواقع البلاد وتصور هيئة المعمور من هذا الكوكب فى تصـور أهل تلك العصـور ، فان خطوط الطول التى أخذوا القول بها عن اليونان لم تنفعهم فى شيء بل شابت تصورهم الصحيح لموقع البلاد لأنهم حاولوا استعمال هذه الخطوط الوهمية

---

(١) كراتشكوفسكي : الأدب العربي الجغرافى ، ١/٢٣ ٠

الخاطئة فى ضبط تحديد المواقع . واقرأ مثلا الكلام الذى يكتبه الحسن بن أحمد ابن يعقوب الهمدانى ــ وهو عبقرية عــربية فى أكثر من ميدان ــ فى كتابه صفة جزيرة العرب تحت عنوان « ما أتى عن بطليموس القلوذى فى طبائع أهل العمران من الأرض على الجملة » : لما كانت الكواكب مشتركة التدبير فى بقاع الأرض خالطة بين الوسط والطرف كان من حق التأليف وانسياق النظام أن نذكر الكل ليعرف ما لجزيرة العرب من الطبائع الخاصية والعامية ، وأن يظهر ما وسمها به الحكماء مما فى أهلها موجود ومعاين ، فأما من الجملة فان العامر من الأرض من ربعيها الشماليين هو عنده على ثلاث خيات متفاوتة ، فالخيــة الأولى ما كان من خط الاستواء تحت مجارى الكواكب الى مساحته منقطع الحبل من رأس السرطان وذلك سمت ما بين مكة والمدينة وما حاذاه شرقا وغربا ، والخيـــة الثانيـــة من هذا العــرض الى ما زاد على الحبـــل ، وذلك حيث يكون العرض ســتة وثلاثين جزءا من المشرق الى المغرب . والخيـــة الثالثة من هذا العرض الى أقصى العمران ومساحته من الفلك مدار نبات حقش(١) فهذا قول عن بطليموس لا يكاد الانسان يفهمه ، فمن الواضح ان الهمدانى لم يفهم معنى الخية ، فهذا لفظ يونانى ، ولهذا لم يجــد له المحقق معنى معقولا فى القاموس ، أو كيف يمكن أن نجد معنى لفظ يونانى فى قاموس عربى ؟

وقد أوجز الدكتور محمد محمود الصياد ما يريد أن يقوله هنا الهمدانى وغيره من جغرافيى العرب الذين كتبوا فى الجغرافيا الفلكية بقوله : « وفى المراحل الأولى لنمو الجغرافية الاقليمية درس علماء المسلمين الأرض على أساس الأقاليم السبعة التى قال بها الاغريق وعرفوها بأنها نطاقات هندسية تمتد من الشرق الى الغرب محددة بدوائر العرض ، وبين الواحدة والأخرى ساعة من أول النهار . وكانت هذه الأقاليم تشمل الجزء من الأرض الذى أطلقوا عليه اسم « الربع المعمور » ، ولكى يضعوا فى الأقاليم معظم الأجزاء المهمة من الربع المعمور لم يبدأ العلماء تقسيمهم من خط الاستواء ، بل بدأوا من خط عرض ١٦درجة شمالا وانتهوا الى خط عرض ٥٠ درجة شمالا ويختلفون فيما بينهم اختلافا يسيرا فى تحديد عروض كل اقليم » (٢) .

والحقيقة أن الاقليم الأول يبدأ من خط الاستواء عندهم أما خط عرض ١٦ درجة وبضع ثوان فهو وسط الاقليم . ويوضـح لنا ذلك ابن خلدون

---

(١) الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمدانى ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن على الأكوع اليمانى ، منشورات دار اليمامة ، الرياض ، المملكه العربية السعودية ١٩٧٤ وقد بحث المحقق عن الخية فى القاموس وقال : « ولعل المراد هنا الطريقة » .

(٢) عن محاضرة لم تطبع الفيت في مؤتمر الجغرافية الاسلامية ص ٤ ، ٥ .

والهمداني ، وكلاهما يعتمد هنا على بطليموس ، فأما ابن خلدون فيقول بعد كلامه على تقسيم الأرض الى سبعة أقاليم : « فالأول منها مار من المغرب الى المشرق مع خط الاستواء يحده من جهة الجنوب ، وليس من وراء ذلك الا القفار والرمال . ويليه من جهة شمالية الاقليم الثانى ثم الثالث كذلك ، ثم الرابع والخامس والسادس والسابع . وهو آخر العمران من جهه الشمال وليس وراء السابع الا الخلاء والقفار الى أن ينتهى الى البحر المحيط ، كالحال فيما وراء الاقليم الأول فى جهة الجنوب الا ان الخلاء فى جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذى بجهة الجنوب » (١) ويرى ابن خلدون ان آخر الاقليم السابع شمالا هو درجة ٦٤° ويقول : « والعمارة فيما بين الأربعة والستين الى التسعين ممتنعة لأن الحر والبرد حينئذ لا يحصلان ممتزجين لبعد الزمان بينهما فلا يحصل التكوين » وأما الهمدانى فيقول ان مدينة سبأ تقع فى منتصف الاقليم السابع ، وعرضها ستة عشر جزءا (درجة) وربعا وخمسا من جزء (٢) ومن هنا نفهم أن عرض الدرجة لابد أن يكون ٣٢ درجة عرضية . وهذا الكلام كله نظرى صرف ، ولا يطابق الحقيقة لأن الكلام فى مثل هذه الموضوعات من العروض والأطوال لا يصح الا اذا كانت أمام الانسان مصورات جغرافية يطبق عليها ما يقول .

وهذا مثل واحد من أمثلة تعرض علماء المسلمين للخطأ عندما أرادوا أن يدخلوا الجغرافية من الباب اليونانى . ولا ينفرد الهمدانى بذلك الخلط ، بل حدث هذا لكل من فعلوا فعله من الجغرافيين العرب الذين اتجهوا هذا الاتجاه ولا نستثنى من ذلك ابن خلدون فان فصوله الجغرافية فى المقدمة تنقسم الى قسمين : الأول الفلكى الرياضى الذى يحاول أن يبدو فيه وكأنه استوعب علم اليونان فى الجغرافية ، والثانى عندما يترك ذلك جانبا ويتكلم عن الأقاليم السبعة وما فى كل منها من البلاد والمواقع موجزا كلام الادريسى ومستخدما تقسيمه المعمور الى مستطيلات ليسهل عليه وصف ما فيها . وذلك الموجز الذى يعرضه ابن خلدون فى مقدمته لوصف المعمور معتمدا على الادريسى وحده ربما كان أنصع دليل فى يدينا عن أن العربى يجيد اذا اعتمد على نفسه ودخل العلم من الباب العربى ويضل طريقه ويغمض كلامه اذا تمسك بعلم اليونان لمجرد اظهار ان علمه يشمل ذلك أيضا .

وأعود الى الهمدانى لأجد عنده دليلا ناصعا على صحة ما أقول ، فان هذا

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٦ .

(٢) الهمدانى ، صفة جزيره العرب ، ص ٢٣ .

العلامة اليمنى الفذ عندما يترك التعلق بحبال الاغريق ويبدأ فى وصف جزيرة العرب كما يعرفها اعتمادا على معلوماته وما أخذه عن سابقيه من الممهدين لمدرسة البلدانيين المسالكيين يتجلى عن عالم حق ودليل لا يخطىء فى مسالك الجزيرة وشعابها ، ونستطيع أن نقرأ نصسه لصفة جزيرة العرب ابتـداء من ص ٥٥ فصاعدا والخريطة بين يديك فستجد أن كلامه صحيح ومعرفته علم حقيقى ، لأن العربى بطبعه رجل ذكى سليم المدارك دقيق الملاحظة يحسن التعرف على الأمور ويحسن التعبير عما يتعرف عليه ٠

لذلك نقول ان الجغرافية العربية الحقيقية هى جغرافية المسالكيين ، وهى أيضا مساهمتهم الحقيقية الباقية سليمة الى يومنا هذا ، بل اننا نرى ان العرب لو ساروا فى دراسة الظواهر الجوية والمناخية على تقليد سابقيهم من التعرف على أحوال الجو وتحديد فصول السنة الملائمة للزراعة نتيجة للخبرة والتجربة بمراقبة أوقات بزوغ نجوم معينة لكان ذلك أجدى عليهم من نقل علم اليونان ، وكان الجاهليون يسمون مطلع النجم الذى يوقتون به بالنوء والجمع أنواء ، وقد تجمعت لهم حصيلة طيبة من هذه الأنواء وصاروا يوقتون بها وعدد الأنواء عند الجاهليين ثمانية وعشرون ذكروها فى عبارات تشبه الأمثال المسجوعة ليسهل حفظها وذكروها فى شعرهم ، وألف فى الأنواء نفر من العرب بعـد الاسلام ، ولو ساروا فى التوسع فى معرفة الظواهر الجوية على هذا الأسلوب العملى الواضح لما غرقوا فى بحر التصورات الأسطورية الاغريقية عن السماء والأفلاك والبروج وحركاتها ٠

وليس معنى ذلك اننـا نرى ان العرب لم يأخذوا عن الهنود واليونان شيئا ذا قيمة فى ميدان الجغرافية ، فهم فى الواقع قد أخذوا وانتفعوا من الهنود واليونان فى البداية ، ولكنهم كان ينبغى أن يتخلصوا مما ثبت لهم بطلانه وقلة جدواه وما غمض عليهم من كلام الاغريق ٠

ومن الأشياء الأساسية التى أخذوها عن الهنود القواعد الحسابية التى لا يستغنى عنها أى مشتغل بالجغرافية ، فأول الأرقام المكتوبة التى عرفوها واستعملوها كانت هندية ، وكذلك بعض مصطلحات الرياضة مثل الجيب ، وهو مفهوم أساسى فى الهندسة والرياضيات بصفة عامة ٠ ولفظ جيب نفسه هندى معرب ، وعن الهنود أيضا أخذوا فكرة تصور خط طول رئيسى تحسب الأطوال على أساسه ٠ وقد قال أوائل الجغرافيين المسلمين بوجود ذلك الخط الأساسى مارا على (سمت مدينة أجين فى ولاية ملوة) وعربوه على العدين وقالوا ان نقطة تقاطع خط الطول الرئيسى هذا مع خط الاستواء تسمى قبة العدين ، وظلوا يتحدثون عن قبة العدين هذه زمانا ثم أسقطوها عندما فضل

الادريسى اتخاذ الخط المار بالجزائر الخالدات (الكناريا) خط طول أساسى ثم تقسيم المعمور بعد ذلك طوليا الى عشرة أجزاء رئيسية لا علاقة لها بخطوط الطول الوهمية ، وقد تابع الادريسى فى ذلك ابن خلدون وعلى بن سعيد والموسوعيون من أهل القرن التاسع الهجرى كالقلقشندى والنويرى • وهنا أصاب العرب لأنهم تخلصوا من علم اليونان فى الوقت المناسب واعتمدوا على أنفسهم •

وأخذ العرب عن الهنود أيضا فكرة الزيج وهو جدول الحساب الفلكى للزمن ، وطوروا الأزياج بعد ذلك وأتقنوها ، فأصبحت على أيديهم جداول علمية لا جداول طولية وخطوط ، وأول من فعل ذلك منهم ابراهيم بن حبيب الفزارى فقام بعمل زيج على أساس التقويم الهجرى • وعلى غراره نسج من بعده فعملوا أزياجا أى تقاويم صحيحة يمكن الاعتماد عليها •

أما ما أخذوه عن اليونان وانتفعوا به حقا فسيجىء ذكره فى تضاعيف هذا البحث ، ولكننا لابد أن نقرر هنا أن العرب عرفوا فى أحيان كثيرة كيف يطوعون ما وجدوه صالحا لهم مما استطاعوا فهمه من مواد الترجمات الركيكة التى كانت بين أيديهم من كتب اليونان وخاصة بطليموس •

ففى ميدان الجغرافية الفلكية والرياضة وهو ما يعرف حاليا بالكوزموغرافية Cosomogrophy أى وصف الكون كانت لدى العرب منذ العصر الجاهلى معلومات جيدة عن النجوم ، فكانوا يعرفون النيرات وهى الكواكب التى يصل ضوءها الى الأرض أو التى ترى من الأرض ويمكن الاستدلال بها على الاتجاهات، فالى جانب الشمس والقمر كانوا يعرفون الزهرة والمشترى وسهيل والشعرى اليمانية ومجموعة الكواكب الصغيرة المعروفة ببنات حقش ، وكانت معرفتهم بأوجه القمر كاملة ، بل كان البعض منهم يعرف أثر القمر فى المد والجزر ، وكان كبار الملاحين فى عمان وحضرموت واليمن يعرفون فى الجاهلية الانقلابين الربيعى والخريفى واتجاهات الرياح فى البحار فى أوقات السنة • وكانت الرياح الموسمية من الحقائق التى يعرفها كل ملاح يمنى وعمانى •

وهذه المعلومات المكتسبة بالتجربة والمشاهدة عن الكون تطورت تطورا بعيد المدى وازدادت اتساعا بعد الاسلام ، ولم يكن هذا الاتساع دائما فى طريق الصواب لأن العرب تمسكوا بما نقلوا من آراء الهنود والاغريق وأقحموه فى مؤلفاتهم الجغرافية دون فهم كبير لهذه النظريات الوهمية • ولكنهم على أى حال تعلموا من اليونان كيف يجمعون معلوماتهم المتفرقة عن الكون فى كل واحد واجتهدوا فى أن يقربوه من الأفهام ، ومن ذلك انهم أخذوا عن اليونان

فكرة الكواكب السبعة السيارة وهى زحل والمشترى والمريخ والشمس والزهرة وعطارد وزحل ، وهكذا خلطوا بين الشمس وتوابعها ، وأدخلوا فى الكواكب السبعة القمر وهو تابع الأرض · وعن اليونان أيضا أخذوا فكرة خاطئة عن الأفلاك فقالوا انها أشبه بالأنابيب الدائرية التى تدور حول الأرض ولكل كوكب فلكه الخاص به · وكلامهم الذى ينقلونه عن بطليموس فى هذا الصدد يصعب تصوره ولكننا نوجزه على قدر طاقتنا فنقول انهم كانوا يتصورون ان الأرض مركز الكون كله ، وهى فيه كالنقطة وتحيط بها تلك الأفلاك أو المجارى الدائرية السماوية وفى كل فلك أو مجرى يدور كوكب واحد وتبدأ الأفلاك بفلك القمر وقطره عندهم أربعون ألف فرسخ ، والفرسخ ٢٤ كيلو مترا ، فالمسافة من الأرض الى القمر على ذلك الحساب ٠٠٠ر٠٦٠ر١ كيلو مترا ، ثم تلى ذلك أفلاك عطارد ثم الزهرة ثم الشمس (وهى عندهم متوسطة الأفلاك السبعة) ثم فلك المريخ ، ثم فلك المشترى ثم فلك زحل ٠٠٠ وفوق فلك زحل يوجد الفلك الثانى وفيه البروج الاثنى عشر « قالوا وسائر الكواكب (الثابتة) فى الفلك الثامن » أما الفلك التاسع فهو الفلك الأعظم يحيط بالأفلاك التى سمينا (١) · وهذا الكلام يمكن تصوره — لا فهمه — بجهد بالغ ، بل ان المسعودى نفسه عندما يذكر أشكال اليابس فى خرائط بطليموس يقول « الا أن أسماءها فى هذا الكتاب باليونانية متعذر ضمها » (٢) وابن خلدون نفسه صاحب القريحة الصافية والفهم البعيد لم يستطع استجلاء حقيقة هذه الأفلاك وربما فهمها ولكنه عندما أراد شرحها استعمل طريقة الفقهاء ، فلم يصل الى شىء كبير ، قال : « وهذه الهيئة (الفلك) صفاته شريفة وليست على ما يفهم فى المشهور انها تعطى صورة السماوات وترتيب الأفلاك والكواكب بالحقيقة أجل انما تعطى ان هذه الصور والهيئات للأفلاك لزمت عن هذه الحركة ، وأنت تعلم انه لا يبعد أن يكون الشىء لازما لمختلفين ، وان خلت الحركة لازمة فهو استدلال باللازم على وجود الملزوم · ولا يعطى الحقيقة بوجه · على انه علم جليل · وهو أحد أركان التعاليم · ومن أحسن التآليف فيه كتاب المجسطى منسوب لبطليموس » (٣) ·

ويقول عن صنع آلات الرصد : « وأما فى الاسلام فلم تقع به عناية الا فى القليل ، وكان فى أيام المأمون شىء منه ، وصنع الآلة المعروفة للرصد المسماة ذات الحلق ، وشرع فى ذلك فلم يتم ، ولما مات ذهب رسمه وأغفل ، واعتمد

(١) المسعودى : مروج الذهب ١/٨٨ — ٨٩ ·
(٢) نفس المصدر ، ١/٨٩ ·
(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٦٠ ·

من بعده على الأرصـاد القديمة ، وليست بدقيقة لاختلاف الحركات بانصال الأحقاب ، وان مطابقة حركة الآلة فى الرصد بحركة الأفلاك والكواكب انما هو بالتقريب ، ولا يعطى التحقيق ، فاذا طال الزمان ظهر تفاوت ذلك القريب » (١) وهنا فيما يتعلق بصنع آلات الرصد نجد كلام ابن خلدون واضحا • وهذا الذى يقوله ابن خلدون هو الذى فعله المسالكيون ، أخذوا من تلك الجغرافية الفلكيـة الرياضية ما يلزم لتصـوير الأرض عامة وشرح تقسيمها الى أقاليم عرضية وتوضيح مهاب الرياح واتجاهاتها والأمطـار ومواسمها وما الى ذلك مما يقدم للقارىء أساسا يستطيع على أساسه أن يفهم جغرافية العالم جملة أو جغرافية أقاليم معينة •

والدى أخذه العرب من الاغريق وأفاد منه الجغرافيون فائدة ايجابية فى ميدان الجغرافية الفلكية الرياضية هو القول بأن صورة الأرض كرة ، وقد اقتنع العرب بهذه الفكرة وأتوا ببراهين جديدة عليها كما نجد عند ابن رسته وقد اختلفوا فى وضع هذه الكرة ، ولكن اجماعهم كان على انها معلقة فى الفضاء لا محمولة على قرن ثور أو قرن خرتيت ، وقالوا ان هذه الكرة معلقة فى الفضاء يحيط بها بحر واسع يسمى البحر المحيط واليابس طاف فوق مياه هذا البحر المحيط « كالمحة فى البيضة » والطافى منها فوق المـاء هو النصف الشمالى واقليمان على الأقل جنوب خط الاستواء وما يلى هذين الاقليمين لا يعرف أحد عنه شيئا ، وهو على أى حال غير مسكون بسبب شدة الحرارة ، وفى كل خرائطهم نجد ان ساحل الصومال يمتد شرقا موازيا لسواحل آسيا الجنوبية حتى بحر الصين ، وهذا دليل على تصورهم غير الواضح لنصف الكرة الجنوبى •

وهذا التصور على ما فيه من خطأ أعان العرب فعلا على تصور صحيح لنصف الكرة الشمالى لأنه كانت لديهم معلومات صحيحة عن جزء كبير منه فأكملوا معارفهم بما وجدوا عند اليونان وكان هؤلاء قد عرفوا معرفة جيـدة المساحة الواقعة من شبه جزيرة ايبيريا الى وسط ايران فانتفع العرب بذلك وأكملوا معلوماتهم عن النصـف الشمالى • وقد انتفع بالتقسيم الى الأقاليم السبعة الادريسى واستعمل الى جانب ذلك فكرة خطوط الطول ورسمها وتمكن بذلك من تقسيم المعمور الى شبه مربعات تيسيرا لوصفه ، اذ لا يمكن وصف المعمور أو رسم خريطة له الا اذا كان هناك تقسيم ما ، هذا التقسيم كان عظيم الفائدة بالنسبة للادريسى فى نزهة المشتاق وعلى بن سعيد فى كتابه الصغير القيم المسمى « بسط الأرض فى طولها والعرض » وفى مثل هذين الكتابين نجد ان الجزء الصحيح الذى انتفع به العرب من علم اليونان هو التقسيم الى سبعة

---

(١) نفس المصدر ، نفس الصفحة •

أقاليم عرضية ، أما خطوط الطول فلم تكن بدات قيمة حقيقية تذكر ، والادريسى نفسه عندما أراد رسم المعمور لم يأخذ بخطوط الطول بل قسم الأرض الى عشرة أجزاء طولية ، يتكون منها ومن حدود الأقاليم شبه مربعات ، أما ذكره لأطوال بعض البلاد فلا علاقة له بالخطوط الوهمية التى تحدد الأجزاء وانما هى أرقام ، وفى كل مربع رسم الادريسى جزءا من المعمور على خريطته ثم وصفه فى نزهة المشتاق ·

وأفاد العرب من فكرة بروج السماء وهى توجد كما قلنا فى الفلك الثامن أى فى الدائرة الثامنة المحيطة بالأرض وكان الذى حدا باليونان الى القول بالبروج الاثنى عشر انهم كانوا يرون فى السماء ، وعلى مساحات شاسعة ، مجرات أو تكوينات نجمية سموها بحسب ما بدا لهم من شكلها فهناك برج أو مجرة تسمى الميزان وآخر يسمى الدلو وثالث يسمى العقرب · أو الثورة وما الى ذلك ، وهذه المجرات أو الأبراج بدت لهم ثابتة بسبب بعدها الشاسع عن الأرض وما دامت الكواكب وأفلاكها متحركة فلا بد ان يكون هناك شىء ثابت يمكن الاعتماد عليه فى الحسابات والقياسات ، فالشمس مثلا فى دورانها حول الأرض (فى زعمهم ، تنتقل أمام أبصارهم من أمام برج الى أمام برج آخر ، فأمكنهم بذلك حساب مسير الشمس فى دورتها ، فقالوا ان الشمس من تاريخ كذا الى تاريخ كذا تكون فى برج الميزان ، ومن تاريخ كذا الى تاريخ كذا تكون فى برج الثور وهكذا · ولم تكن لهذه البروج — ولا يمكن أن تكون لها — أى قيمة علمية أو عملية ، ولكن بقيت لها قيمة ايزوتيرية أو غيبية ، فقد زعم المنجمون ان الذين يولدون والشمس فى البرج الفلانى يتميزون جميعا بخصائص أخلاقية ومعنوية ، ثم زعموا ان حظوظ الناس تتقرر بحسب سير الشمس فى البرج أو انتقالها من برج الى برج ، ومن هنا تخصص أناس فى حسابات الحظوظ وأخذوا يصدرون بيانات دورية عن هذه الحسابات · وهكذا تحول الأمر فى العصر الحديث خاصة الى عملية تجارية ، فالذين يعملون هذه الحسابات وكلها توهم واختراع يبيعونها للصحف والمجلات فتنشرها أسبوعا بعد أسبوع ، وأصبحت هذه التقويمات أبوابا ثابتة فى بعض الدوريات يقرأها الناس بشغف فكل انسان يبحث عن حظه فى أسبوع برجه ·

ولكن القول بالبروج أعان العرب على ملاحظة مواقيت الاعتدالين بشىء من الدقة ، لان مبادرة الاعتدالين وهى موعد الانتقال من الفصلين الباردين (الخريف والشتاء) الى الفصلين الدافىء والحار (الربيع والصيف) حقيقة فلكية مناخية مؤكدة ، ونحن بعد تقدم أدوات الرصد وحساباتها نستطيع تفسير هاتين المبادرتين تفسيرا علميا دقيقا وتحديد تاريخيهما على وجه الدقة ، ولكن اليونان ومن تابعهم من العرب اعتمدوا على فكرة الأبراج الثابتة فى تعليل الاعتدالين

وتحديد موعدهما ، وتنبهوا الى أن ذلك يرجع الى تغير ميل محور الأرض الممتد بين قطبيها الشمالى والجنوبى . وقد حسب الاعريق درجه الميل بثلاثة عشر درجة وخمس وثلاثين ثانية . ثم استطرد اليونان وخاصة هيبارخوس فقالوا ان تزحزح القطب عن موقعه فى الاعتدالين يزداد درجة واحدة كل ٦٦ سنة ، ونقل اخوان الصفاء هذه الفكرة عن الاغريق ، وذهبوا فى حساب تزحزح البرج مذاهب شتى ليس فيها شيء يعتمد على حقيقة ، ولكن المهم عندنا ان العــرب عندما أخذوا فكرة قياس التزحزح عن اليونان حسنوها وحاولوا استخراج شيء نافع منها وتركوا ما لم يستطيعوا الانتفاع به من كلام الاغريق فى مثــل قولهم بأن مقدار الميل أو التزحزح يبلغ ربع الكرة السماوية كل تسعة آلاف سنة ، أى دائرة كاملة كل ٣٦ ألف سنة (١) .

وقد انتفع العرب بفكرة فلك البروج وانتقال الشمس من برج الى برج وربطوا ذلك بخطوط الطول الوهمية فى تحديد المسافات والاتجاهات وخاصه فى تحــديد سمت القبلة وهى مسألة المسلمين فى المكان الأول لأنها تتعلق بتحديد اتجاهات القبلة من أى موضع على الأرض ، وقد وفق الفلكيون العرب فى ذلك توفيقا يدعو الى الاعجاب مع ان نقطة البداية وهى أساس الحساب لم تكن سليمة الا انهم صمموا ذلك باتخاذ خط الطول المار بمكة أساسا ، وفى ذلك يقول البقانى : « اوجد الفرق فى خطوط العرض والطول بين مكة والمكان المعين » ، واذا كان خط طول مكة أكبر من خط طول المكان فان مكة تكون الى الشرق من المكان ، واذا كان خط طول المكان أكبر ، فان مكة تكون الى الغرب منه ، ويقاس الاختلاف فى خط الطول على دائرة الأفق أو بواسطة الســاعة الشمسية (٢) .

وهذه العبارة الأخيرة عن كلام البقانى « أو بواسطة الساعة الشمسية » تكشف لنا عن عدم ثقة البقانى فى الحساباتالتى كانت تقام على أساس علم اليونان لأن الحقيقة أن المسلمين حددوا اتجاه القبلة فى كل مكان على أساس الساعة الشمسية ، وهى الرخامة ، وهى لوحة من الرخام أو الحجر توضع على الأرض ويثبت فى وسطها عمود قائم ، ويراقب اتجاه ظل العمود من أول النهار الى آخره ، وتوضع أرقام الساعات على اتجاهات الظل . ولهذا يسمى هذا الجهاز البسيط بالساعة الشمسية أما بالنسبة لتحديد اتجاه القبلة فذلك مرتبط باتجاه الظل عندما تكون الشمس فوق المكان تماما فى وقت الزوال ،

---

(١) رسائل اخوان الصفا جـ ٢ ص ٩٢ .

(٣) البقانى : كتاب الزيج الصابى ، بتحقيق ناللينو (روما ١٨٩٩) ص ٢٠٦ .

ولما كان ذلك الظل لا ينعدم تماما ساعة الزوال الا فى خط الاستواء ، فاننا اذا حددنا موقع التقاء خط طول مكة بخط الاستواء عرفنا أين نحن بالنسبة الى مكة فى أى موقع على الأرض · وعلى هذا الأساس البسيط — ودون حاجة الى حسابات الاغريق ومن تبعهم — تمكن المسلمون فى أقطار الأرض تحديد اتجاه القبلة بدرجات مختلفة من الدقة · وقد أخطأوا فى بعض الأحيان وأنشأوا مساجد منحرفة اتجاه جدار القبلة بعض الشيء ، وكانوا فى العادة يصممون ذلك بتغيير اتجاه المصلين داخل المسجد وقد حدث هذا فى نواح شتى من عالم الاسلام ·

ونختم هذا المرور السريع بما حققه العرب من الكشوف الفلكة مصلحين بعملهم حسابات الأغريق بالكلام على خطوط العرض وكيف تمكن العرب من ضبطها وقياسها فنقول أنهم لم يكتفوا بتقسيم الأرض الى سبعة أقاليم عرضية، بل قسموا كل اقليم من هذه الأقليم الى خطوط عرض وهمية عرض كل ٥٦ ميلا عربيا فى المتوسط ، وكانوا قد وجدوا بطليموس يقسم الأرض الى خطوط عرض بين كل منها والآخر مسافة ٦٦⅔ ميلا رومانيا ، ومن البدهى ان بطليموس قدر مسافة الدرجة بالاستاد يوم وصور وحدة القياس عند الاغريق فحولها الرومان الى هذا القدر من الأميال الرومانية ، وهى تعدل ٥٦ ميلا عربيا ، لأن الميل العربى أطول الأميال التى عرفناها فهو ١٩٧٣ر٢ متر بحسب تقدير العلامة الايطالى تاللينو فى كتابه البديع عن علم الفلك عند العرب (١) ·

وقد قاس الفلكيون العرب عرض الدرجة فى بريه سنجار أيام الخليفة المأمون وخرجوا من القياس بان عرض الدرجة ٥٦ ميلا عربيا ، وذكر المسعودى ان العرب حققوا ذلك القياس مرة أخرى فقد كانوا يعرفون انه بين مدينتى تدمر والرقة درجة عرضية واحدة وثلث · لان الرقة على عرض ⅓ ٣٥ وعرض تدمر ٣٤ درجة ، وقيست المسافة بينهما فاذا بها ٦٧ ميلا ، وهذا يختلف مع التقدير الأول ، ومرجع الخطأ الى خطأ قياس الأميال بين الرقة وتدمر اذ ان المسافة بينهما بالأميال العربية ⅔ ٥٦ ميل لا ٦٧ ميلا ·

---

(١) كارلو نالينو : علم الفلك وتاريخه عند العرب فى القرون الوسطى ص ٤٢ (طبعة بالعربية فى روما سنة ١٩١١ ، وأعيد طبعه بالاوفست فى بغداد سنة ١٩٦٣ · وهذا الكتاب من أقيم ما كتب فى علم الفلك والجغرافية الفلكية عند العرب) ·

تصور العرب للكرة الأرضية
وما عليها وأهم ما أخذوه عن اليونان فى هذا المجال

واذا أردنا أن نأخذ فكرة سليمة عن وفرة معلومات العرب عن الأرض وما عليها بعد أن وزنوا معلومات الاغريق وزنا جيدا واستبقوا أحسن ما فيها واستبعدوا منها ما لا ينفع ، فعلينا بقراءة الموجز الوافى الذى صنفه ابن خلدون لتقسيم الأرض على أساس ماورد فى كتاب نزهة المشتاق للادريسى ، وابن خلدون الذى لا نزاع فى موهبته التاريخية الفذة يتجلى لنا هنا عن جغرافى حسن الفهم لما قرأ من كتب الجغرافية العربية ، ونعتقد ان معتمده فى ذلك على المسعودى من ناحية وعلى الادريسى من ناحية أخرى • فأما المسعودى فقد أخذ عنه معلومات قيمة عن الأقاليم والأرضين والبحار والشعوب • وأما الادريسى فقد أعطاه الصورة الكاملة للأرض وما عليها •

ومن موجز ابن خلدون هذا تفهم ان دائرة معدل النهار ليست هى خط الاستواء بل دائرة وهمية فى السماء تمر فوقه ، وهو بطبيعة الحال يتصور ان السماء أو قبة الفلك انما هى قبة عظيمة فوق الأرض كلها ــ وهكذا كان المصريون القدماء يتصورون وان كانوا قد اعتقدوا ان الأرض مسطحة ــ وفى هذا يقول ابن خلدون : « ان قطبى الفلك الجنوبى والشمالى اذا كانا على الأفق فهناك دائرة عظيمة تقسم الفلك بنصفين ، هى أعظم الدوائر المارة من المشرق الى المغرب وتسمى دائرة معدل النهار » ثم يقول بعد ذلك : « واذا وقع القطبان على الأفق فى جميع نواحى الأرض كان على سطح الأرض خط واحد يسامت دائرة معدل النهار يمر من المغرب الى المشرق ويسمى خط الاستواء » (١) • ويفهم من هذا

---

(١) المقدمة ، طبعة دار الشعب بالقاهرة ، ص ٤٥ و ٤٦ •

الكلام ان القطبين المرادين عندهم ليسا قطبى الأرض اللذين نعرفهما **الآن ، بل** قطبى الأفق ، والأفق هنا هو الدائرة العظيمة التى يراها الانسان حيثما تلفت ويتوهم أنها تنطبق على الأرض انطباق الغطاء على الطبق ٠

وقد أورد ابن خلدون بعد ذلك بيانا بتقسيم الأرض وبلادها وبحارها وأنهارها وشعوبها ومدنها على الأقاليم السبعة بناء على ما وجده عند الادريسى ، والبيان دقيق غنى بالمادة غير ان أسماء الأعلام فيه تحتاج الى تحقيق ، وقد حققنا غوامضه ولولا ضيق المجال لنشرناه فى هذا الموجز ٠ وقد صنع موجزا له س٠ م٠ ضياء الدين علوى فى كتاب قيم له (١) ، ولكن هذا الموجز مختصر جدا ولا يعطى فكرة كاملة عن سعة علم العرب بالأرض وما عليها ، ولكنه موجز نافع ، وفيه غنبة لطالب الفكرة العامة ٠

وأهم ما أخذه العرب عن اليونان من أدوات الرصد هو الاسطرلاب ، واللفظ نفسه معرب عن اليونانية Astrolabis أى أداة تحقيق النجوم ، وابن خلدون يسميه ذات الحلق ٠ وهو قطعة من المعدن مستديرة رسمت على حافتها الأبراج الاثنى عشر ، وفى وسطها عمود قصير مثبت فيه عمود قصير وعلى العمود تركب حلقات من المعدن تقابل الأفلاك السبعة ٠ وقد رأينا من الاسطرلابات عددا كبيرا وقرأنا الكثير عن طريقة استعماله وحضرنا ندوة لهذا الغرض للعالم الاسبانى خوسيه مياس باييكروسا الذى تخصص فى دراسة العلوم عند العرب ، واجتهد — وجهدنا منه — فى التعرف على طريقة استعمال هذه الآلة فلم نصل الى كثير شىء ٠ ولكن العرب على أى حال كانوا يستعملونها ويخرجون منها بنتائج طيبة ٠

ولكن عرب الأندلس اخترعوا آلة رصد فلكية أيسر وأقرب الى الفهم من الاسطرلاب وهى الصفيحة التى اخترعها ابراهيم الزرقانى الأندلسى وهى جهاز بسيط يعين على قياس ارتفاعات النجوم والأماكن مما يعين فعلا على الانتفاع بالنجوم فى الحسابات الجغرافية ، ويساعد على قياس ارتفاعات الأماكن ، وهى تؤدى نفس وظيفة السكستانت بدقة ملحوظة ٠ وقد انتقلت الصفيحة الى أهل المغرب وسموها اسافيا Asafea ٠

---

(١) س٠ م٠ ضياء الدين علوى : « الجغرافية العربية فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين / الثالث والرابع الهجريين ٠ عربه وحققه الدكتوران عبد الله الغنيم وطه محمد جاد ٠ نشر ضمن السلسله العلمية التى تصدر عن وحدة البحث والترجمة بقسم الجغرافية بجامعة الكويت بالاشتراك مع الجمعية الجغرافية الكويتية سنة ١٩٨٠ ٠ والجدول وارد فى ص ٦٦ ١

واذا كان العرب قد أخذوا تلك المفهومات عن اليونان فقد عرفوا كيف يجودونها ويطوعونها لمطالب علمهم الجغرافى ، وما من شىء له نفع عملى أخذوه عن اليونان الا تحسن على أيديهم وبفضل ملكاتهم ، واذا أردت أن تتبين ذلك بصورة ملموسة فأمامنا جغرافية بطليموس وجغرافية الادريسى . فأما الأولى فجداول جافة بأسماء المواضع وذكر عروضها وأطوالها بصورة حافلة بالخطأ مع بعض المعلومات عن البلاد والمواضع ، ثم انها قليلة بالنسبة الى الشهرة الواسعة التى يتمتع بها بطليموس فى حين ان الادريسى يقدم لنا جغرافية اقليمية بشرية اقتصادية حقيقية ، وأنت اذ تقرأه تشعر انك أمام جغرافى يعرف حق العلم الجغرافى ومطالبه وغاياته ويراعى ذلك فى كل شىء يقوله .

ولا محل لمقارنة خرائط بطليموس بخرائط الادريسى فان الخرائط التى تنسب الى بطليموس ليست هى خرائط أصلا ، وارزموس الذى عثر على نص يونانى لجغرافية بطليموس فى مطلع القرن الخامس عشر الميلادى فى عصر النهضة وقام على ترجمتها الى اللاتينية قرر انه لم يجد الجزءين المتضمنين للخرائط ، وقد صدرت جغرافية بطليموس اللاتينية من عمله وليس معها خرائط ، انما ظهرت الخرائط فى الطبعات المتأخرة وفى ترجمات جغرافية بطليموس الى اللغات الأوربية ، وهى خرائط مصنوعة فى القرن الخامس عشر على أساس خرائط الادريسى وأدلة الموانى المعروفة بالخرائط البورتولانية التى كانت تعمل فى الموانى الايطالية وموانى قطلونية وخاصة برشلونة وهى خرائط دقيقة الى حد بعيد .

وخرائط الادريسى خرائط حقيقية تعطى الناظر اليها فكرة واضحة وصحيحة عن المواضع التى تصورها ونحن نرى خرائط الادريسى اليوم فى صورها التى رسمها النساخون الذين كتبوا نسخ نزهة المشتاق الموجودة بين أيدينا ، والنسّاخ ليس رساما أو صانع خرائط ، ومن ثم فاننا ينبغى ألا نتصور قط ان هذه هى خرائط الادريسى التى رسمها بنفسه ، فاذا ذكرنا ذلك تصورنا ان خرائط الادريسى كانت أدق وأضبط لانها من عمل جغرافى خرائطى موهوب ، وهنا يزداد تقديرنا لعمل الادريسى كله نصا وخرائط ، ويزداد تقديرنا لمدرسة المسالكين المسلمين الذين يعتبر الادريسى القمة التى وصلت اليها أعمالهم .

وليس معنى ذلك اننا نقلل من أهمية أعمال الجغرافيين الفلكيين أو الرياضيين من بين المسلمين الذين تابعوا الهنود واليونان ، فالحق ان أعمالهم ـ سواء أكانت مؤلفات أم جداول فلكية أى أزياج أو آلات رصد وحساب أو

رسوم توضيحية كلها تستحق التقدير وهى ذات قيمة كبيرة ، ولكن قيمتها تنحصر فى انها محاولات من الفكر العربى للوصول الى طريق العلم الصحيح على أساس من علم الاغريق ، ونحن هنا نسبهها من حيث قيمتها كتراث اسلامى انسانى بما كتب الأقدمون – عربا وغير عرب – فى الطب على أساس الطبائع الأربع مثلا ، فهذا كلام طيب ومقبول على انه محاولات واجتهادات انتهت الى قيمة قليلة ، ولكن هذه المحاولات نفسها كان لابد منها للوصول الى طريق الطب الصحيح ، وطريق الطب الصحيح الذى وصل الينا هو طريق أصحاب كتب الأدوية والعشابين والنباتيين ممن كانوا يعرفون طبائع الجسد وأعضائه وما ينفعها وما يضرها من الأدوية والأعشاب بعيدا عن نظريات المتكلمين فى الطب النظرى وتصوراتهم على أساس الطبائع الأربع • فكذلك يقال فى الجغرافية ، فان كل الكلام النظرى الذى قاله الاغريق ونقله عنهم العرب فى الجغرافية الفلكية والرياضية يدخل فى باب تاريخ العلم ، أما الجغرافية العربية الحقيقية فتبدأ عند المسالكيين والبلدانيين وأصحاب الرحلات ، وهنا تلتقى الجغرافية العربية بتيار الجغرافية العلمية الحديثة •

وفى موجز كهذا يكتب لبعض أهل القرن الخامس عشر الهجرى/الحادى والعشرين الميلادى فكرة واضحة عن ثمرة جهود أربعة عشر قرنا مضت من عمر الاسلام والمسلمين فى ميدان الجغرافية لا يتسع المجال للوقوف عند كل المحاولات وتتبع كل الاتجاهات التى لم يؤد معظمها الى شىء ايجابى ولكن لابد فيه من الاشادة بجهود رجال مثل أبى عبد الله بن محمد بن عيسى الماهانى (ت ٢٥٢/٨٦٦) الذى كتب رسائل ذات قيمة كبيرة فى الكسوف والخسوف والاقترانات الفلكية ، والى العباس الفضل التبريزى الذى شرح كتاب اقليدس فى الهندسة ووضع جدولا فلكيا – زيجا – على مذهب السند هند ، ويذكر له ابن النديم رسالة فى تهيئة آلات يتبين بها ابعاد الأشياء • وفى هذا المجال نذكر أبا الحسن ثابت ابن قرة الصابى (٢٢١ – ٢٨٨/٨٣٦ – ٩٠١) الذى ألف رسالة تسمى « كتاب فى آلات الساعات التى تسمى رخامات » ، (والرخامة معروفة فهى صفحة من الرخام المصقول يثبت فى وسطها عمود من المعدن ، وظل هذا العمود يتجلى على الرخامة مبينا ساعات النهار التى تنقش على محيط الرخامة) • وكان ثابت بن قرة رجلا نشطا دائم العمل فى الترجمة عن السريانية واليونانية وفى عمل الشروح والتعليقات على ما يترجم منها وخاصة كتابات بطليموس وجالينوس •

ولا يذكر ثابت بن قرة الا ذكر معه قطا بن لوقا الذى كان يسير فى نفس الاتجاه – وفى آثار اليونان والسريان – ويحاول ان يخدم الاسلام عن طريق

الفلك فيما يتعلق بتحديد اتجاه القبلة ومحاولة فهم القبة السماوية وشرح الأفلاك التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ٠

وفى هذا المجال لابد من ذكر أبى عبد الله محمد بن جابر بن سفيان المشهور بالبتانى الذى وضع زيجا مشهورا ربما كان أحسن الأزياج التى وصلت نصوصها الينا ، وعلى أساس هذا الزيج عرف البتانى كيف يحسب درجات الطول والعرض لعدد كبير من المدن الرئيسية ٠

كبار البلدانيين :

وننتهى الآن الى صلب هذا البحث وهى تواليف المسلمين المسالكيين ٠ ونقطة البداية هنا رجلان من عمال الدولة المشتغلين بأمور الخراج والميرة أى الطرق وهما أبو الفرج قدامة بن جعفر صاحب كتاب الخراج وأحمد بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبى صاحب كتاب البلدان ، وكلا الرجلين كان على علم بالبلاد ومواقعها بحكم ، فكان كل منهما صحيحا مطابقا للواقع وجدير بالذكر ان كلا الرجلين لم يكونا جغرافيين أساسا ، فقد كان قدامة من كتاب الدولة ، وقد ألف موسوعة تضم المعلومات التى يحتاجها كتاب الدواوين فى أعمالهم وقد ضاع معظم أجزاء هذه الموسوعة ، ولم يبق منها الا جزءان ، الأول هو كتاب الخراج الذى يتحدث عن بلاد الدولة العباسية وما تضم من الأرضين ، وهو يصف هذه البلدان وما تنتج وما تصنع وما يتحصل منها من الخراج ، فكتابه « الخراج » على هذا ليس كتابا فى العلم الجغرافى مباشرة ، وانما هو كتاب فى أموال الدولة العباسية أى فى جغرافيتها الاقتصادية ، ولما كان قدامة كاتبا من كتاب الديوان فهو ينقل من دفاتر الدولة وسجلاتها ووثائقها ، ومن ثم فان كلامه دقيق صحيح ، فاذا كان هذا الجزء الباقى من كتاب الخراج وصنعة الكتاب يعتبر كتاب جغرافية فهو بالفعل كتاب جغرافية بالموضوع لا بالقصد ، ولكنه على أى حال قد وضع لنا نموذجا طيبا يحتذى من كتب أخرى ستكتب فى الخراج فيما بعد ، وستكون بطبيعة موضوعها كتبا فى الجغرافية الاقتصادية ٠

وأما كتاب البلدان لليعقوبى فى صميم العلم الجغرافى ومؤلفه أحمد بن واضح اليعقوبى ألف كتابا قيما مختصرا فى تاريخ الاسلام ، بدأه بالجاهلية أى ما قبل الاسلام ، وواصل أحداثه الى قرب وفاته سنة ٢٧٨/٨٩١ ثم أراد ان يستكمل معرفته ببلاد الاسلام فطاف بها وشاهد أحوالها بنفسه ، ثم كتب كتاب البلدان هذا ، وهو صغير الحجم عظيم القيمة ، فان معلوماته قائمة على معاينة شخصية ومشاهدة مباشرة ، غير ان حجمه الصغير لم يسمح لصاحبه بأن

يودعه كل ما كنا نتمنى ان يودعه فيه من التفاصيل ، وان كان هذا الكتاب الصغير يرقى فيما يتصل بما كتبه عن الغرب الى مستوى الوثائق ، فقد زار اليعقوبى الغرب فى أيام الأغالبه ووصف عمران أفريقية فى ظلال الاسلام قبل الغزوة الهلالية ، ومن المعروف ان تلك الغزوة غيرت تماما الصورة البشرية والايكولوجية (البيئية) للمغرب بسبب ما أحدثته من تغيير فى البنية السكانية للمغرب كله ، وما كان لغارتهم من الأثر فى القضاء على بعض مناطق الزراعات والعمران وقد أدى ذلك كله الى خراب أقاليم زراعية واسعة واحتراق مناطق غابات ضخمة مما جعل بلاد المغرب الى حين طويل بعدها أقرب من الصحرء القاحلة ، وهذه الصورة للمغرب أى صورته بعد الغارة الهلالية هى التى نجدها عند الأدريسى وابن خلدون ، والمقارنة بين صورة المغرب عند اليعقوبى وصورته عند الأدريسى وابن خلدون تعين مرحلتين مختلفتين من مراحل التطور الحضارى للمغرب ٠

وهذان الكتابان يعتبران تمهيدا ومدخلا لسلسلة عظيمة من الكتب الجغرافية تعتبر بحق صلب العلم الجغرافى عند العرب والمسلمين وأقيم ماساهموا به فى تاريخ ذلك العلم ونقصد بذلك كتب البلدان أو المسالك والممالك ، وهى كتب فى الجغرافية الأقليمية تقدم لنا ثروة عظيمة من المعلومات الجغرافية من كل صنف ، فقد جمع مؤلفو هذه الكتب قدرا عظيما من المعلومات الجغرافية ما بين فلكية ورياضية وطبيعية واقليمية ، لانهم كانوا رجالا ذوى اطلاع واسع على تراث الماضين فى كل ميدان وفن ويرجع ذلك الى اشتغال بعضهم بشئون الدولة المالية والادارية وقيام معظمهم برحلات واسعة دفعهم اليها التطلع النبيل الى المعرفة الى جانب ما يحرص عليه كل مسلم من الرحلة الى الحجاز لاداء فريضة الحج ، ومن حسن الحظ انهم كانوا ذوى ولع بالكتابة واثبات معلوماتهم فى كتب تحمل اسم البلدان أو المسالك والممالك أو مسالك الممالك أو أسماء أخرى مثل صورة الأرض أو أحسن التقاسيم ولكن البلدان والمسالك والممالك هى جوهرها ٠

وأول من وصلت الينا مؤلفاته من رجال هذه المدرسة هو أبو القاسم عبد الله بن خرداذبه الذى كان عامل البريد والشرطة فى بلاد الجبال فيما بين سنتى ٢٣٠ و ٢٣٤ / ٨٤٤ و ٨٤٨ ، وقد تجمعت له أثناء العمل فى هذه الوظيفة ثروة طيبة من المعلومات الجغرافية الصحيحة عن مملكة الاسلام أو دولة الاسلام وكثير من البلاد خارجها ٠ وهنا نلاحظ لأول مرة الفرق الواضح بين معلومات اليونان عن الأرض وما عليها ومعلومات العرب ، فان اليونان لم يعرفوا معرفة وثيقة الا بلادهم وبعض نواحى حوض البحر المتوسط ، بل ان معلوماتهم عما يلى مقدونيا شمالا وغربا من بلاد أوروبا قليلة ٠ وما عرفوه عن افريقية كان

مجرد أقاويل ، فهم لايعرفون منها الا مصر ، أما ما يقع غربها فكان عندهم لا يتعدى سيرينايكا وترمبولتيانيا وقد أطلقوا عليها جملة اسم ليبيا . أما حوض النيل فلم يعرفوا عنه الا ما يسمونه بالنوبه والنوبيين ، ولهذا فاننا نشك الشك كله في خريطة وادى النيل المنسوبة الى بطليموس . أما معلوماتهم عن آسيا فأقوال جمعوها من أفواه بعض الرحالة وخاصة كوزماس انديكو بلويستس ، فقارن هذا بما تيسر من المعلومات الواسعة الفنية للعرب وضمنها البلدانيون والمسالكيون فى كتبهم،وكانت دولتهم تمتد من غانة الى فرغانة كما يقول المسعودى ، ومن هنا فانهم كانوا يتكلمون عن بلاد يعرفونها حق المعرفة ، فقد كان تجارهم يجوسون بقية بلاد آسيا وشواطىء أفريقيا الشرقية . ومن أشهر أولئك التجار الذين نقلوا الى العرب صورا واضحة وحقيقية عما يلى بلادهم شرقا من بلاد آسيا رجل يسمى سليمان التاجر ، وقد ورد ذكره فى مجموعة من الرسائل عن بعض نواحى آسيا وطرقها أطلق عليها فى مجموعها اسم سلسلة التواريخ ، وقد عنى بنشر ما عثرنا عليه من تلك الرسائل عالم فرنسى يسمى لانجل Langles ثم اهتم بدراستها الأب رينودو L'Abbe Renaudat

وتحدث رينو فى مقدمته الضافية لترجمته لجغرافية أبى الفدا ، وهذه المقدمة فى ذاتها تقع فى جزء كبير كامل وهى فى حقيقتها ناريخ لعلم الجغرافية عند العرب ، تبين ان الاسم الحقيقى لأكبر هذه الرسائل هو « أخبار السند والهند » وقد أيد ذلك جان سوفاجيه فى مقدمة ترجمة فرنسية عملها لذلك الكتاب القيم نشرها فى باريس سنة ١٩٤٠ (١) ، وسميت سلسلة التواريخ . وهذه الرسائل التى تسمى أحيانا تقارير تدل دلالة واضحة على ان ملاحى العرب عرفوا معرفة تامة الطريق البحرى من البصرة الى السواحل الجنوبية للصين . وقد قسموا المسافة ــ بحسب ما تقرأ عند سليمان التاجر والمسعودى ــ الى بحار عددها سبعة ، ومن الواضح ان رقم ٧ أصبح له معنى خاص عند الجغرافيين والفلكيين العرب ، وربما كان سبب ذلك أن القرآن الكريم يتحدث عن السماوات السبع ، فالبحار الكبرى فى الكرة الأرضية سبع وبحار آسيا سبع وأنها الدنيا الكبار سبع والأقاليم سبع .. وهكذا .

وهنا لابد أن نفرق بين البحار السبعة الكبرى وبحار آسيا السبعة التى يتحدث عنها سليمان التاجر ، فالبحار السبعة الكبرى توصف بأنها خلجان متفرعة من البحر المحيط باليابس فى نصف الكرة الشمالى ، وهى أشبه بالأذرع الممتدة منه داخل اليابس . والمفروض عندهم ان هذا البحر المحيط

---

(١) Langles, Relations des Voyages,

ثم اعاد نشر نصها وصممه وعمل عليه دراسة دقيقة الأب رينودو Reinaud,

الكبير الذى يدور حول اليابس يشمل المحيط الأطلسى المسمى بحر الظلمات والمحيط الهادى المعروف عندهم بالبحر المحيط فحسب ، وهذه البحار التى تمتد من البحر المحيط كالاذرع داخل اليابس هى البحر الرومى (المتوسط) والبحر الصينى والهندي والحبشى ، وهذا البحر الشاسع يضم عندهم بحر العرب (الحبشى) وبحر الهند (الهندى) والصين (بحار الصين) ثم بحر القلزم (الأحمر) ثم بحر جرجان (بحيرة خوارزم أو بحر آرال) ويدخل فيه بحر طبرستان (أو بحر طبرستان) وهو بحر قزوين ثم بحر بنطش الذى يحرف فى الغالب الى بنطش ويراد به البحر الأسود ٠

ويصف المسعودى واين خلدون هذه البحار وصفا دقيقا يدل على تصور صحيح لشكل الأرض وما فيها من البحار ، ومن الواضح عندما تقرأ كلام ابن خلدون عن البحار فى المقدمة فى الفصل الذى عنوانه « فى قسط العمران من الأرض والاشارة الى بعض ما فيه من الأشجار (١) والأنهار والأقاليم » يتبين ان هذا الرجل ــ مثله فى ذلك مثل معظم الجغرافيين العرب ــ كان يتكلم وأمامه رسم للأرض ، وسنرى فى فقرة تالية ان الخرائط أو المصورات كانت أساس الوصف الجغرافى الاقليمى للأرض عند معظم اولئك الجغرافيين الكبار ٠

وأما بحار آسيا السبعة ، أى التى ذكرها سليمان التاجر فى سلسلة التواريخ المنسوبة اليه والتى كتبها أبو زيد السيرافى ، فهى فى الحقيقة ليست بحارا وانما مناطق بحرية ، وقد وصفها مع شواطئها فى كتابه وهذا الوصف يعطينا فكرة واضحة عن مدى معرفة المسلمين بآسيا وبلادها وموانيها من الخليج العربى الى بحار الصين (٢) ٠

وهذه البحار أو المناطق البحرية هى :

١ ــ بحر فارس ويراد به منطقة الخليج العربى وعمان والجزء الشرقى من بحر العرب ٠

٢ ــ بحر لارفى أولاربى ، وواضح ان ذلك اللفظ تحريف للبحر العربى (لاربى) وربما كان الملاحون ينطقون الاسم على هذه الصورة والمراد به الجانب الغربى من بحر العرب بما فى ذلك مدخل البحر الأحمر وسواحل افريقية الشرقية ٠

---

(١) كذا فى الأصول المطبوعة ولا معنى له ، وصحتة البحار ٠

(٢) أنظر كتاب الجغرافية العربية فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين / الثالث والرابع الهجريين تاليف س٠ م ضياء الدين علوى ، تعريب د٠ عبد الله يوسف الغنيم ود٠ طه محمد جاد ٠ الكويت ١٤٠١ / ١٩٨٠ ٠

٣ ــ بحر هركند ، ويراد به المحيط الهندى بما فى ذلك خليج بنغالة ، وقد كان لفظ بحر هركند يطلق على خليج بنغالة بما فى ذلك جزائر اندمان وفيكوبار وجزيرة سرنديب (سيلان) ، وتمتد هذه المنطقة عندهم حتى تصل الى جزيرة سومطرة وكانوا يسمونها الرامنى أو الرامى ، وبهذه المناسبة يذكر الكتاب المنسوب الى سليمان التـــاجر انه يوجد فى نفس الاتجاه جزر كثيرة وفسيحة لا يعرف امتدادها على وجه الدقة ويبلغ امتدادها ثمانمائة أو تسعمائة فرسخ • وكلام سليمان التاجر عن الجزائر المعروفة اليوم باسم أندونيسيا يدل على معرفة صحيحة ، فهو يقول ان بها بعض مناجم الذهب وتنمو فيها أشجار يستخرج منها الكافور وتكثر الأفيال فيها وكذلك التوابل والعطور • ويصف سليمان التاجر هنا سواحل الهند الشرقية (كروماندل) وهو يسميه كمرون أو كمروب وربما كانت هذه تحريفات لكروماندل ويجوز كذلك أن يكون هذا الاسم الحديث تحريفا للاسم القديم الذى ذكره سليمان التاجر •

٤ ــ والبحر الرابع ويراد به بقية البحار المحيطة بجزائر الهند الشرقية وخصوصا منطقة شبه جزيرة ملقا وما يليها من البحار والجزر شرقا ، ويسمى هذا البحر بحر سلاهط أو سلاهيت •

٥ ــ والبحر الخامس واسمه كتدنج ويراد به على الأغلب بحار شرقى شبه جزيرة الملايو وخليج سيام •

٦ ــ والبحر السادس يختلط بالبحر الخامس ويطلق عليه اسم الصنف ، ومن المعروف ان بلاد الصنف هى الجزء الشرقى من شبه جزيرة الهند الصينية أو الفيتنام • والغالب فى ظننا ان لفظ الصنف هنا هى لفظ الصين محرفا •

٧ ــ والبحر السابع يسمى بحر صنخى أو صنجى ويراد به بحر الصين الجنوبى ويظن ان العرب كانوا يدخلون هذا البحر من مضـــايق بين ساحل الصين وبعض الجزر القريبة منه ولذلك يقولون ان الدخول لذلك البحر يكون من مضايق تسمى بوابات الصين •

وجدير بالذكر ان المسعودى ذكر معظم هذه المعلومات عن تلك البحار وأكمل نقصها وزاد عليها • والمسعودى نفسه (أبو الحسن على) يعطينا فى كتبه فكرة واضحة جدا عن ادراك المسلمين لأهمية العلوم الجغرافية وضرورة الاحاطة بها لكى يعرف الانسان نفسه والأرض التى نعيش عليها والكون الذى تقع فيه هذه الأرض ، فهذا الرجل لم يكن جغرافيا متخصصا أو مؤرخا متفرغا لعلم التاريخ ، وانما كان مفكرا موسوعيا ورجلا ذكيا متفتح الذهن ذا شوق عظيم للمعرفة وفى كتابيه الكبيرين مروج الذهب والتنبيه والاشراف أورد حشدا

هائلا من المعلومات والآراء والأفكار من كل صنف · والجانب الأكبر من هذه المعلومات جغرافى وتاريخى كأن هذا المفكر العربى الكبير كان يعرف تماما ان الجغرافية هى وضع الانسان فى المكان والتاريخ هو وضعه فى الزمان ، وهذا يفسر لنا كذلك ان عـددا عظيما من مؤرخى العرب كانوا جغرافيين فى نفس الوقت ·

كبار البلدانيين وأطلس الاسلام :

وما دمنا قد ذكرنا المسعودى فلنذكر هنا جماعة البلدانيين الكبار الذين أرسوا أسس هذا المذهب من مذاهب الكتابة فى الجغرافية ونريد به مذهب الوصف الجغرافى للبلاد وذكر حدودها وأنهارها ومدنها وقواعدها وصناعات أهلها وخصائصهم وغير ذلك مما يدخل فى نطـاق الجغرافية البلدانية الذى يستكمله أولئك الجغرافيون بذكر الطرق من بلد الى بلد ومسافة كل طريق فيسمون لهذا مسالكيين الى جانب انهم بلدانيون ، وهم على ذلك شيوخ الجغرافية الاقليمية ، وكتاباتهم كما قلنا هى الجزء الصلب المحتفظ بقيمته العلمية ·

من تراث العرب فى ميدان الجغرافية :

لقد ذكرنا هنا ابن خرداذبة واليعقوبى والمسعودى ، ولكننا ينبغى أن نبدأ من البداية فنقول ان أقدم من كتب كتابا فى الجغرافية على طريقة البلدانيين المسالكيين هو أبو بكر بن محمد بن اسحاق بن الفقيه المعروف بالهمدانى الذى ألف فى سنة ٢٩١/٩٠٢ كتابا فى البلدان ضاع أصله ولم يبق الا مختصره الذى عمله جعفر بن على الشيرازى المتوفى سنة ٤١٣/٩٠٢ واحتفظ لنا أبو الفرج قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠/٩٢٢ بقطع منه ، وقد ذكرنا قدامة وما بقى لنا من كتاب الخراج وصنعة الكتاب من تأليفه ·

وهذا الجزء الباقى من كتاب أبى بكر بن محمد بن اسحاق الهمدانى كان أساسا بنى عليه عالم عربى آخر هو أبو على أحمـــد بن محمـــد بن اسحاق ابن رسته ، فقد وضع كتابا عظيم القيمة سماه الأعلاق النفسية فى وصف مملكة الاسلام ولم يبق لنا الا جزءه السابع الذى يتضمن أوصاف بعض الطرق الكبرى فى بلاد الاسلام ·

وعلى أساس ما كتبه قدامة وابن رسته كتب ثلاثة من علماء العرب كتبا فى الجغرافية الاقليمية أو الوصفية نهجوا فيه نهجا جديدا يجعلهم بحق جديرين بان يوصفوا بانهم أصحاب مدرسة قائمة بذاتها ·

وهذا النهج يقوم أساسا على رسم خريطة للعالم ، وخاصة العالم الاسلامى بحسب تصورهم ، ثم تأليف كتاب فى تفصيل ما أثبتوه على هذه الخريطة ، وقد بقى لنا بعض الخرائط التى رسموها ـ أو نسخها التى عملها النساخون ـ وهى فى الحقيقة خرائط توضيحية لا خرائط بالمعنى الحديث لهذا المصطلح ، ولكن رسم الخريطة ـ أيا كانت هيأتها ـ ثم كتابة الكتاب شرحا لها مذهب جدير بالتقدير ، لأنه يجعل الجغرافية علما حقيقيا لا مجرد تصورات وفروض ، ومن هنا فان الخرائط التى عملها أولئك الأفذاذ تكون فى مجموعها ما يسمى بأطلس الاسلام .

وأول من كتب كتابا على هذا المذهب هو أبو زيد أحمد بن سهل البلخى وكتابه يسمى بالأشكال أو صور الأقاليم ، ولم نعثر على نص هذا الكتاب أو خرائطه ، ولكن مؤلفا جغرافيا آخر هو أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الاصطخرى نقل معظم نص هذا الكتاب نقلا حرفيا وضمنه كتابه المسمى بالمسالك والممالك، وقد وصل الينا نص الكتاب وهو فى كل فقرة منه يقول : قال البلخى مما أوجد مشكلة فى تاريخ العلم الجغرافى عند المسلمين تسمى مشكلة البلخى والاصطخرى وقد كتب دى خويه فى ذلك الموضوع مقالا ذهب فيه الى انه لا مكان للاصطخرى فى تاريخ الجغرافية الاسلامية ، ولكننا نقول ان كتاب المسالك والممالك من تأليفه ليس نقلا خالصا لكتاب البلخى ، ففيه اضافات وان كانت قليلة ، ومن ثم فان للاصطخرى مكانة ، وان كان قد نقل كتاب البلخى .

وثالث كبار المسالكيين هو ابن حوقل . أبو القاسم محمد النصيبى ، وكان رحالة أولع بالسير فى مناكب الأرض ورؤية البلاد والعباد وتسجيل ملاحظاته ، وقد كان هناك رأى ينسب الى المستشرق راينهارت دوزى يقول ان ابن حوقل كان جاسوسا للفاطميين فى الأندلس ، ولكن قراءة تدقيق لا تؤيد هذا الرأى فان النص يتضمن ملاحظات كثيرة فيها نقد شديد للفاطميين ، فهو يقول فى مواضع كثيرة عند ذكر بعض الأماكن فى افريقية « وقد خرب ذلك كله العبيديون » وتسمية الفاطميين بالعبيديين لم نجدها الا عند خصومهم ، هذا بالاضافة الى ما فى مثل هذه العبارة من نقد شديد لهم ، والذى يهمنا هنا أن كتاب ابن حوقل « صورة الأرض » وخاصة فى طبعته الثانية الكاملة للنص التى تولاها المستشرق كراموز حافل بالمادة الجغرافية العظيمة القيمة وخاصة عن المغرب والأندلس وصقلية ، وهو يهتم اهتماما خاصا بالنواحى الاقتصادية ، مثله فى ذلك مثل معظم المسالكيين ، فهم يهتمون بالمحصولات والمياه ، وموارد الرزق والصنائع وما يرتفع من الضرائب والجبايات ، ويتميز باهتمام كبير

بالشئون السياسية فيتحدث عن حكومة البلد ونظامها ويبدى رأيه فيها وما الى ذلك ٠

ومن خصائص أولئك البلدانيين انهم فى فواتح كتبهم يذكرون منهجهم وطريقتهم فى عرض صورة الأرض كما ترتسم فى أذهانهم وهذا يدل على انهم كانوا مؤلفين أصحاب مناهج يضعونها ثم يكتبون على ضوئها ، وفى العادة يكون أساس الكلام رسما أو خريطة للأرض يرسمونها ثم يقسمونها الى قطع أو « خرائط » وكل خريطة خاصة ببلد من البلاد ، وفى ذلك يقول ابن حوقل : « ثم أفردت لكل اقليم من بلاد الاسلام صورة على حدة بينت فيها شكل الاقليم وما يقع فيه من المدن وسائر ما يحتاج الى علمه مما أتى على ذكره فى موضعه ان شاء الله تعالى » ٠

وبينما يتطابق البلخى والاصطخرى نجد ابن حوقل يختلف عنهما اختلافا بينا رغم تشابه تقسيم البلاد عند الاصطخرى وابن حوقل ، ولكن الاصطخرى يبدأ بوصف ايران أو ايرانشهر معتبرا اياها مركز الأرض ، أما ابن حوقل فيبدأ بجزيرة العرب لأنها مهد الاسلام وفيها مكة والمدينة ٠

وتصل هذه الطريقة ذروتها عند المقدسى ، شمس الدين بن البناء البشارى ، وهو وان لم يكن مسالكيا تماما الا أن اهتماماته تتشابه مع اهتماماتهم وان امتاز عن غيره بتطلع الى أحوال الناس وأساليب حياتهم وأعمالهم وموارد أرزاقهم وما الى ذلك ، وقد تحدثنا عن المقدسى قبل ذلك فنكتفى فى الكلام عنه على هذا القدر فى ذلك الموجز ٠

ولكن القيمة العليا للجغرافية العربية على طريقة البلدانيين والمسالكيين نجدها عند الادريسى (٤٩٢ ـ ١١٩٥/٥٦٠ ـ ١١٦٤) صاحب خريطة الأرض المسطوحة التى رسمها على كرة من الفضة ، ثم سطحها وقسمها الى مستطيلات سبق أن تحدثنا عنها ثم وصف تلك المستطيلات واحدا واحدا فى كتابه الأشهر «نزهة المشتاق» ، وقد تحدثنا عن الرجل وكتابه ومكانه فى هذا البحث بما فيه الكفاية ٠

الرحالون وأدب الرحلات :

وقبل أن نترك الكلام على أعلام الجغرافيين لابد من اشارة الى الرحالة وأدب الرحلات فى التراث العربى أدب متسع المجال متعدد الجوانب ، وهو يكون جانبا عظيم القيمة من جوانب الجغرافية الاسلامية ، فان الرحالة يصف ما يزور من البلاد وما يرى فيه ومن يلقى من أهله ٠ وغريب ان فن كتابة الرحلات كتابة ذات قيمة علمية بدأ فى الأندلس ، مثله فى ذلك مثل الكثير من فنون الفكر

والأدب والعلم العربية فى الأندلس . ويرجع الفضل فى ذلك الى العالم الفقيه المعروف أبى بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العربى المعافرى (٤٦٨ ـ ٥٤٢/١٠٧٦ ـ ١١٤٨) وأصله من اشبيليه ، وقد شهد فى مطلع شبابه أواخر أيام بنى عباد هناك ثم عاصر دخول المرابطين الأندلس وجهادهم المجيدة فيه ، ورحل مع أبيه وهو فى السادسة عشرة الى المشرق للحج والدراسة ونفسه تفيض بالاعجاب بالمرابطين ، فندب نفسه مع أبيه للدعوة لهم وكتب خطابات تأييد لهم وجهها للخليفة العباسى المستظهر الذى طالما دعا الغزالى الى التمسك بطاعته ، وهو ـ أى الغزالى ـ معاصر للمستظهر ولأبى بكر بن العربى، وقد لقى جهده هذا قبولا من رجال الخليفة ، فزودوه برسائل تأييد للمرابطين وقد عثرنا على نصوص هذه المكاتبات فى مجموع صنفه أبو بكر بن العربى ، وجعل عنوانه « شواهد الحيلة والأعيان فى مشاهد الاسلام والبنيان » أما نص رحلته نفسه فلم نعثر عليه الى اليوم ، وعنوانه « ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة » ، وقد احتفظ لنا المقرى بنقول منه فى نفح الطيب وكذلك أورد ابن العربى نفسه نقول أخرى فى كتاب له فى تفسير القرآن وعنوانه « قانون التأويل فى تفسير القرآن » وقد نقل احسان عباس فقرات طويلة من رحلة ابن العربى وجدها فى نسخة من نسخ كتاب قانون التأويل ونشرها وأدار عليها بحثا قيما .

ومن تلك النقول نستبين اننا أمام وصف رحلة دقيق . فابن العربى رحالة الى جانب علمه الواسع بالفقه ، والفقرات الباقية لنا من وصف رحلته تدل على دقة ملاحظة واهتمام بالتفاصيل ، خاصة وقد صادف فى رحلته ظروفا غير عادية مثل غرق المركب الذى كان يستقله مع أبيه وغيره من الغار من ميناء المهدية الى ميناء الاسكندرية ، وقد نجا ابن العربى وأبوه ووصف لنا نجاته ووصوله مع أبيه الى ساحل طرابلس فى حالة يرثى لها ، وقد لقيا من عربها اكراما ومودة ، وقد بقيت لنا من رحلة ابن العربى فقرات تصف مقامه ودراسته فى القدس فى أوراق من قانون التأويل ، وأخرى تصف لقاءه للامام الغزالى وسماعه منه ، وربما كان وصف هذه الرحلة الشيقة هو الذى حفز ابن جبير على تقييد رحلته فيما بعد .

حقا لقد سبق ابن العربى فى فن وصف الرحلة نفر من المشارقة نخص بالذكر منهم أحمد بن فضلان وهو فقيه من الفقهاء الذين كانوا يعملون فى خدمة الخلافة العباسية ، وحدث أن تلقى الخليفة رسالة من بلغار الفولجا ، وكانوا

---

(١) احسان عباس : رحلة ابن العربى الى الشرق كما صورها قانون التأويل مجلة الأبحاث سنه ٢١ ، الاجزاء ٢ ـ ٣ ـ ٤ ديسمبر ١٩٦٨ ـ الجامعة الامريكية ـ بيروت .

اذ ذاك مسلمين وقد طلبوا فى رسالتهم عون الخلافة على الخزر الوثنيين الذين يعتدون على بلادهم من الجنوب ، فأرسل الخليفة اليهم بعثه برياسة مولى من مواليه يسمى سوسن الرسى ، وكان فى البعثة الفقيه أحمد بن فضلان ليقوم بما طلبه البلغار من تفقيه فى شئون الدين ، وقد خرجت البعثة من بغداد فى صفر ٣٠٩/يونيو ٩٢١ ووصلت بلاد البلغار ومرت فى طريقها بهمدان والرى ونيسابور ومرو ونجارى ٠

وقد وصف لنا ابن فضلان رحلته بتفصيل مشكور وخاصة فيما يتعلق ببلاد البلغار الذين كانوا يسكنون شمالى مقدونية ويمتدون الى شمال البحر الأسود ٠ وقد اهتم الأوربيون والروس خاصة برحلة ابن بطلان ودرسوها دراسة متقنة وترجموها الى لغاتهم على اعتبار انها من الوثائق النادرة التى تعرف الروس ببلادهم قبل قيام دولتهم ٠ وجدير بالذكر ان المسلمين قدموا للروس وأهل أوروبا الغربية مادة طيبة جدا عن أحوال بلادهم فى القرون التاسع والعاشر والحادى عشر ، فنفس هذه البلاد سيصفها ابراهيم بن يعقوب الطرطوسى الأندلسى ، وهو يهودى أندلسى من أهل طرطوشة ، وربما يكون قد أسلم وتسمى ابراهيم بن أحمد ودخل فى خدمة الخليفة العلامة الحكم الثانى ابن عبد الرحمن التاجر الملقب بالمستنصر ، فهو على هذا من أهل النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى ، وكان هذا الرجل تاجرا وربما كانت أهم تجاراته الرقيق الأبيض الذى كان التجار يجلبونه من ألمانيا ومن شرقى أوروبا ، وكان الألمان أو الجرمان فى تلك العصور يخطفون أولاد الصقالبة والروس منهم خاصة ويبيعونهم فى غرب أوروبا وفى بلاد المسلمين ، وقد قدم ابراهيم بن يعقوب بيانا عن رحلته الى الخليفة الحكم المستنصر أودعت مكتبته ، وعنها نقل لنا ابن عذارى المراكشى صفحات طيبة واحتفظ لنا البكرى فى كتابه المسالك والممالك بصفحات أخرى عظيمة القيمة منها تعتبر من أقدم وأدق ما لدينا عن وسط أوروبا وشرقها خلال القرن العاشر ، فقد زار ابراهيم بن يعقوب الطرطوسى بلاط الملك أوتو امبراطور الدولة اليتوتونية ووصف بلاده وما فيها وصفا ممتعا ، وكذلك زار شرقى أوروبا وأتانا عنها بأنباء ذات قيمة علمية كبيرة اهتم بها علماء الألمان والروس عناية كبيرة ٠ وقد أجمع الباحثون المحدثون على صدق ابراهيم بن يعقوب فيما قال عن نفسه ، وأيدوا ما قاله من انه لقى الامبراطور أوتو سنة ٩٧٢ ميلادية وهى تقع فى سنتى ٣٦٢ و ٣٦٣ الهجريتين ، ومع ان النقول التى أخذت من نص ابراهيم بن يعقوب قد تحرفت تحريفا شديدا الا أن المحققين والدارسين ــ ما بين عرب وغير عرب ــ استطاعوا أن يقوموا تلك النقول ويخرجوا منها بمعلومات قيمة جدا أتى بها ذلك الرحالة الأندلسى وخدم بها تاريخ البلاد الأوربية النصرانية من ناحية ، وخدم بها العلم العربى من ناحية

أخرى ، فها هم علماء العرب أساتذة يأخذ عنهم أهل الغرب العلم حتى بشئون بلادهم ٠

وتتم هذه الصورة عن دين أهل الغرب للرحالين العرب ــ الى جانب دينهم للجغرافيين وخاصة الادريسي ــ عندما نذكر الرحالة الطلقة العجيب أبا حامد الغرناطي وهو محمد بن سليمان بن ربيع القيسي الغرناطي الذى ولد فى غرناطة سنة ٤٧٣/١٠٨٠ ــ ١٠٨١ ودرس هناك دراساته الأولى ثم غادر الأندلس سنة ٥٠٠/١١٠٦ ــ ١١٠٧ وانطلق فى رحلة طويلة حافلة بالأحداث والغرائب ــ فجمع ثم دخل بغداد حيث يدخل فى خدمة وزير عباسي يسمى أبا المظفر يحيى ابن هبيرة ، فاستطرفه هذا الوزير وجعله من أهل مجلسه ، وكان أبو حامد مولعا بالسفر ، وبتأييد من ذلك الوزير قام أبو حامد برحلات طويلة فى بلاد ايران ثم خوارزم ثم مضى شمالى بحر قزوين واستقر فى بلدة تسمى سكسين عند مصب الفولجا فى بحر قزوين حيث أقام طويلا وترك هذه البلاد وعاد اليها لأنها أصبحت وكأنها وطن له ، فقد تزوج فيها وأنجب . وحدثنا أطراف الأحاديث عن ثلوج تلك البلاد وزحافاتها وأهلها وطعامهم ولباسهم ، وضمن معلوماته كتابان من طرف المكتبة العربية الجغرافية هما « المعرب عن بعض عجائب المغرب » وتحفة الكبار فى أسعار البحار « وهما ليسا وصفا منهجيا دقيقا لرحلاته وانما هى جماع معلومات جمعها أثناء رحلاته الطويلة ، وقد أدخل فى معلوماته المعقول وغير المعقول ، العلمى والأسطورى ، ولكنه على الجملة صادق فى كلامه ، وحتى فى الحالات التى يبالغ فيها نجد انه يفعل ذلك من قبيل التشويق والاقناع لا بدافع الكذب أو الجهل ، وقد شابت هذه الطرائف العجيبة كتبه وهبطت بقيمتها جملة ، ولكنها على أى حال لا تحرمه من موضع ظاهر فى التطور العام لتاريخ الجغرافية عند المسلمين ٠ وقد توفى أبو حامد فى دمشق سنة ٥٦٥/١١٦٩ ــ ١١٧٠ فى الثانية والتسعين من عمره ٠

ولا مفر عن الكلام على رحالة المسلمين من الكلام عن أبى الحسين محمد ابن جبير الكنانى صاحب رحلة ابن جبير المشهورة التى أصبحت من سنوات طويلة من كلاسيكيات أوصاف الرحلات فى الأدب العالمى ، لأن ابن جبير رحالة بحق قام بثلاث رحلات من بلده وهى غرناطة الأندلس الى بلاد المشرق ، ودون ملاحظاته بغاية الدقة فى رحلته المعروفة ، وهى صورة صادقة لما رأى حافلة بالمعلومات الصادقة والملاحظات القيمة ، وقد وصل بها ابن جبير الى القمة الثانية من قمم أدب الرحلات فى تاريخ العلم العربى ٠ وقد ولد ابن جبير فى بلنسية أوشاطبة فى ١٠ ربيع الأول سنة ٥٤٠ / ٣١ أغسطس ١٩٤٥ ٠ وبدأ

رحلاته ٨ شــوال ٥٧٧ / ٣ فبراير ١١٨٣ وتوفى بالاسكندرية فى شعبان ٦١٦ أو ١٢١٩/٦١٧ ـ ١٢٢٠ وهو معاصر لصلاح الدين الأيوبى ٠

أما أعلى قمم أدب الرحلات فى العصور الوسطى عند العرب وغيرهم فنجدها عند ابن بطوطة ، وهو أبو عبد الله محمد اللواتى الطنجى (١٧ رجب ٧٠٣/ ٢٤ فبراير ١٠٣٤ ـ ١٣٦٨/٧٥٧ ـ ١٣٦٩) الذى قضى خمسا وعشرين سنة من عمره فى رحلات متصلة فى عالم الاسلام كله ، ووهب نفسه للرحلة وطلب معرفة البلاد والعباد لذاتها وسجل لنا فى نهاية رحلاته وبعد أن عاد الى وطنه المغرب الأقصى واستقر فى مدينة فاس مشاهداته وذكرياته فى وصف رحلة ممتع حافل بالفائدة عظيم القيمة من كل ناحية ، فهذه الرحلة التى تعتبر من درر أدب الرحــلات فى تاريخ الفكــر البشرى هى كتــاب جغــرافية وتاريخ وتاريخ طبيعى وعلم أجناس وزراعة وصناعة وأدب ودين وما شئت من معلومات، فهذا رجل طلقه حفظ لنا كل ما رأى ثم رواه بعد ذلك ٠

المعــاجم الجغرافية :

ولا يكتمل هذا البحث عن التراث الجغرافى للأجيال الماضية من المسلمين دون وقفة قصيرة عند المعاجم التى أجاد المسلمون عملها وتركوا لنا صورا شتى منها ، فهناك المعاجم الجغرافية الأبجدية والمعاجم الجغرافية الموضوعية . فمن الطراز الأول المعجم الجغرافى الذى وضعه أبو عبيد عبد العزيز البكرى الأندلسى الذى ألفه فى التعريف بالاعلام الجغرافية الواردة فى السيرة النبوية والشعر الجاهلى وشعر صــدر الاســلام ، وقد سماه « معجم ما استعجم » أى قاموس ما غمض أمره من أســماء المواضع والبقــاع وهو معجم عظيم الفائدة وضعه البكرى على حروف المعجم بترتيب أهل الأندلس والمغرب ، وقد كان ترتيبهم لحروف الهجاء يختلف بعض الشيء عن ترتيبها فى بقية بلاد الاسلام ، وقد قدم أبو عبيد لهذا المعجم بدراسة مفصلة جديرة بالتقدير لجغرافية الجزيرة العربية، وقد اعتمد فى كتابة هذه المقدمة على الأصول العربية القديمة التى سجلها نفر من الجغرافيين العرب الذين كتبوا رسائل قيمــة فى جغرافية بعض نواحى الجزيرة العربية من أمثال ابن اسحاق ابراهيم الحربى صاحب كتاب المناسك وأبى على هارون بن زكريا الهجرى صاحب كتاب التعليقات والنوادر وأبى عبد الله ابن بشر السكونى وعرام بن الأصبغ السلمى وهم أوثق من كتب عن جغرافية الجزيرة العربية كما كانت فى العصر الجاهلى وصدر الاسلام ٠ وبفضل هذه المراجع القيمة وما يضاف اليها من كتب الأدب والسيرة والتاريخ التى اعتمد عليها البكرى تمكن من أن يضع معجما جغرافيا فريدا فى بابه ، لأن لم يقتصر

فيه على الأماكن التي يتوارد ذكرها في نصوص العصر الجاهلي وعصر الاسلام بل استطرد فذكر أسماء أماكن خارج الجزيرة العربية ورد ذكرها في كتب الفتوح والتاريخ ٠

وقد طبع هذا المعجم القيم أول الأمر بمعرفة المستشرق فستنفلد ثم أعاد تحقيقه ونشره مرتبا على حروف المعجم بحسب الترتيب المشرقي الأستاذ مصطفى السقا في طبعة دقيقة نشرت في القاهرة في ثلاثة أجزاء سنة ١٩٤٨ ٠

ويلي عمل البكري معجم ياقوت الحموي الملقب بالرومي أيضا (٥٧٥ ـ ٦٢٦/١١٧٩ ـ ١٢٢٩) وهو دون شك من أفذاذ أمة الاسلام ومصابيح العلم الوهاجة في تاريخها ، فهذا رجل وهب نفسه للعلم وسار في طلبه وتدوينه على منهج علمي دقيق يضاهي أدق مناهج العلم التي يسير عليها العلماء اليوم ، وندع جانبا معجم الأدباء من تأليفه ونركز هنا على معجم البلدان ، وهو ديوان الجغرافية العربية الأكبر ، واذا كان الشريف الادريسي يمثل لنا قمة الابتكار العلمي الاسلامي في ميدان الجغرافية ، فان ياقوت الحموي يمثل قمة الجمع والتدوين والترتيب والمنهجية والاستيفاء ٠ فقد صنع هذا الرجل معجمه العظيم الذي جمع فيه معظم أسماء المواضع الجغرافية في عالم الاسلام في عصره وخارجه ورتبها وبوبها وجعلها ميسرة لكل طالب علم ٠

والمعجم يبدأ بمقدمات في علم الجغرافي وفروعه وميادينه ، من الكلام عن الكون والكواكب ثم الأرض وهيأتها واستدارتها وأقاليمها ومناخها وزروعها وبحارها وكل ما يتصل بذلك العلم الجليل ، وهذه المقدمات وحدها كتاب كامل في الجغرافية على مذهب أهل العصور الوسطى ، وبالفعل قام أحد الباحثين المحدثين ودرس تلك الفصول التمهيدية ونشرها مع ترجمة انجليزية فأخرج للناس بذلك كتابا جديدا عن الجغرافية عند المسلمين ٠

ونحن ـ كما قلنا ـ مدينون في نشر هذا المعجم لأول مرة لفرديناند فستنفلد وهو من أجلاء المستشرقين الألمان ، وقد عرف كيف يحقق هذا السفر الحافل ويصدره في خمس مجلدات أضاف اليها مجلدا سادسا بالفهارس ومع ان هذه الطبعة في حاجة الى اعادة نظر الآن الا ان الباحث العربي لا يسعه الا أن يعترف بالدين الكبير لفستنفلد على ما تجشم من مصاعب في نشر هذا الكتاب الضخم ٠ وقد طبعه أمين الخانجي بعد ذلك طبعة لا بأس بها في القاهرة سنة ١٩٠٦ ثم طبعوه في بيروت طبعة تجارية لا جهد فيها لكنها سدت فراغا على أي حال ٠

وثالث المعاجم التى نتكلم عنها فى هذه العجالة هو الروض المعطار فى خبر الأقطار لأبى عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميرى وحفيد له حمل نفس الاسم والكنية فأما الجد فيظن انه مات قبيل سنة ١٣٧٤/٧٧٦ وقد ذكره ابن الخطيب فى الاحاطة وأما الحفيد فقد توفى سنة ١٤٦١/٨٦٦ ـ ١٤٦٢ ، ولم يكن الجد أو الحفيد جغرافيين ، ولكن الجد كان ذا الى ذلك العلم ، وقد قرأ الادريسى وأعجب به وان كان ينكر ذلك ، ولا ندرى ما الذى حفزه على أن يؤلف معجما جغرافيا ، لأنه هو نفسه لم يكن ينطوى على تقدير كبير للعلم الجغرافى ، ولكنه على أى حال وضع ذلك المعجم ، وأحسن تأليفه الى حد بعيد وان كان قد أسرف فى النقل عن الاخرين ودون أن يشير الى ذلك ٠

ومعجم الروض المعطار يشمل عالم الاسلام كله ومواده الأندلسيات غنية بالمادة الجغرافية والتاريخية وخاصة عن العصور المتأخرة من تاريخ الأندلس ، وسواء فى الجغرافية أو التاريخ فهو يأتينا بين الحين والحين بمعلومات طيبة لم نكن نعرفها ٠ وهو بالنسبة للأندلس والمغرب مرجع لا يستغنى عنه باحث ، ومعلوماته عن المغرب أقل قيمة ولكن بعضها عظيم القدر مثل مواده عن فاس ومراكش ٠ ومواده عن المشرق جيدة تدل على جهد كبير فى الجمع والتقييد ٠ ومهما كان الأمر فهذا معجم طيب جدا يدل على تأصل فن عمل المعاجم الجغرافية فى عالم الاسلام ، وقد توفر على دراسته نفر من أعاظم المستشرقين من أمثال جود فروا ديموجين وجاستون فييت وليفى بروفنسال وامبرتو ريستانو ، ونشر ليفى بروفنسال مواده الأندلسية وبعض مواده عن صقلية ، ونشر ريزتيانو مواده عن صقلية ثم جاء احسان عباس فنشره نشرة كاملة بذل فيها جهدا مشكورا وجعل هذا الأصل العظيم القيمة تحت تصرف أهل العلم كافة ، وتلك خدمة لابد أن نذكرها له وان كان قد سها فيما نرى عن أن يذكر فى مقدمة كتابه الدراســـة الضافية التى أدرناها على الحميرى فى كتابنا « تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس » ٠ وهو سهو يصعب على التصور ، ولكننا أهل علم ، وأهل العلم أصحاب خير ، ولا حساب ـ فيما يقولون ـ بين الخيرين ٠

★ ★ ★

والآن وقد استعرضنا تاريخ هذا العلم الشريف وما مر به من تطورات عند المسلمين وما كان لهم فيه من كشوف ، وما ظهر فى تاريخه عندهم من أعلام وما تناولوه من فروع ذلك العلم ، فلنلق نظرة على حصيلة هذا كله أى على المعلومات الجغرافية التى تجمعت عند المسلمين عن الكون وما فيه والأرض وبلادها وعبادها لنرى ان الجغرافيين المسلمين قد قاموا برسالتهم فى ذلك الميدان على وجه محمود جدا ٠

فكرة عن معلومات الجغرافيين المسلمين عن الكون والأرض وما فيها ومن عليها :

كانت معلومات المسلمين عن أوروبا تفوق فى مجموعها معلومات الأوروبيين عن بلادهم فى تلك العصور ، ولدينا عن العالم الأوروبى خمسة نصوص على الأقل تؤيد ذلك : الأول هو الترجمة العربية التى عملها قاسم بن أصبغ البيانى بالاشتراك مع قاضى النصارى فى الأندلس حفص بن البر أو الوليد بن خيزران الذى كان يعرف بابن مغيث ، وهذا النص العربى الموجود الآن يعطى فكرة سليمة عن بلاد أوروبا بتسميات بحارها وأنهارها وجبالها فى العصور الوسطى ، والوصف هنا جغرافى خالص لا يتناول أى تقسيم سياسى ، وهو يصف أوروبا من شبه جزيرة ايبيريا الى سواحل البحر الأسود (١) والنص الثانى قطع قصيرة ولكنها عظيمة القيمة من القسم الخاص بأوروبا من كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البيرى (٢) ، وهو وصف لا بأس به وان كان قطعا متناثرة فهو يعطى وصفا دقيقا لبعض نواحى أوروبا لم يكن العرب يعرفون عنها شيئا . ومن سوء حظ ان المعلومات التى يوردها هذا النص قليلة فى مجموعها .

والمصدر الثالث تقرير عن رحلة الى أواسط أوروبا قام بها أندلسى يهودى أو يهودى أسلم يسمى ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى ويسمى أيضا ابراهيم ابن يقوب أو ابراهيم بن يوسف وقد ذكرناه وقلنا ان البكرى أورد قطعة كبيرة منه فيما عثرنا عليه من مسالكه .

والمصدر الرابع هى الأجزاء الخاصة ببلاد أوروبا من نزهة المشتاق للادريسى ، وهى أحسن ما لدينا عن جغرافية أوروبا على الاطلاق الى آخر العصور الوسطى ، فقد وصف الادريسى كل بلد من بلاد أوروبا وصفا دقيقا الى حد بعيد ، وقد نشر الأجزاء الخاصة بأوربا من نزهة المشتاق أساتذة أوربيون وحققوها وقرروا ان الادريسى جغرافى أصيل عمل على أساس علمى سليم فى الدراسة والوصف والمعرفة بكل ما يتصل بالنواحى التى يصفها من معلومات تدخل فى باب الجغرافية البشرية الاقليمية بمعناها الحديث . وقد نشر النص الكامل لنزهة المشتاق بتحقيق نفر من العلماء الأوربيين وغير الأوربيين ، ونستطيع اليوم بناء على ذلك التحقيق المتقن أن نقدر الادريسى قدره الصحيح .

---

(١) أنظر كتاب : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، مدريد ١٩٦٧ ، ص ٢٦ وما بعدها .

(٢) تحدثنا عنه فى كتابنا الأنف الذكر ص ١٣٢ وما يليها وجمع هذه القطع ونشرها الدكتور عبد الرحمن الحجى فى كتاب نشره بعنوان « جغرافية أوروبا عند البكرى » .

وعن افريقيـة عرف العـرب مصر وبقية الشـمال الافريقى معرفة تامة ووصفوهما أدق وصف ، وكانت معلوماتهم عن الصحراء الكبرى وطرقها وناسها وما يليها جنوبا وبـلاد افريقية المدارية وجزء كبير من افريقيـة الاستوائيـة الغربية والوسطى وكان المسلمون يسمونها بلد السودان ، وقد وصف لنا أجزاء مختلفة من هذه البلاد البكرى والادريسى وابن بطوطة ، وقد كان هناك كتاب خاص يصف هذه النواحى ألفه جغرافى يسمى محمد بن فاطمة ، ومن أسف ان هذا الكتاب لم يوجد الى الآن وان كنا نجد فقرات طويلة منه عنـد الجغرافيين الذين ذكرناهم والأصول العربية الكبرى التى تعتمد عليها فى معرفة المغرب والصحراء وافريقية المدارية والاستوائية وهى مؤلفات البكرى والادريسى وابن خلدون وابن سعيد والحسن بن الوزان المعروف عند الغربيين باسم ليون الافريقى وقد كتب هذا الرجل وصفه للمغرب والصحراء باللاتينية ثم ترجم الى معظم اللغات الأوروبية ، والآن ظهرت له ترجمة عربية جيدة ٠

وقد أعطينا فيما سبق فكرة واضحة عن معرفة الجغرافيين المسلمين لآسيا كلها وخاصة البلاد الاسلامية منها ، فلا شك أن معلوماتهم كانت كاملة عن جزيرة العرب وبلاد الشام وآسيا الصغرى والعراق وايران وأفغانستان جميعا ومعظم شبه القارة الهندية وبلاد ما وراء النهر ٠ أما ما يلى ذلك شمالا وشرقا فكان معروفا عندهم معرفة طيبة جدا ، فبالاضافة الى معلوماتهم الغزيرة عن بلاد الترك والتركمان والتستر والمغول والخزر والقومان ، فقد كانت معارفهم عن بلاد الصين طيبة وخاصة فيما يتعلق بجنوب الصـين وسواحلها وبحارها وكذلك بقربها المعروف بسنكيانج ، فهذه كانت بلادا اسلامية ولا زال معظمها اسلاميا ، ومعلوماتهم عن جزائر جنوب آسيا وجنوبها الشرقى كانت طيبة جدا ، وقد عرفوا كوريا دون شك وسموها بلاد السيلا أو الشيلا أما اليابان فلا ندرى كيف غاب أمرها عنهم ، ولكن ذلك ربما رجع الى ان بلاد اليابان كانت مغلقة ومجهولة بالتالى لكل العالم خارجها ٠

اذن فقد خلف لنا الجغرافيون العرب والمسلمون صورة صادقة للأرض وما عليها ومن عليها صحيحة ومتكاملة الى حد بعيد ، وقد تعاون على تجميع هذه المعلومات الجغرافيون والرحالة والتجار وصاغها علماء فى الجغرافية يعرفون حدود العلم الجغرافى ومطالبه وان الانسان ليملكه الاعجاب بالفكر العربى الذى عـرف كيف يلم بالأرض ومن عليهـا من كوريا (بلاد السيلا) الى الجـزر البريطانية (بلاد الانقليشيين) ومن بحر شمال آرال (بحيرة خوارزم) وبحر قزوين وما يليه غـربا من بلاد أوروبا حتى المحيط الأطلسى وهى بلاد الترك والصقالبة والفرنجة شمالا الى بلد السودان وهو افريقية المدارية والاستوائية

وبحار جنوبى آسيا وجنوبها الشرقى . كل ذلك عرفوه ورسموه ووصفوه جملة وتفصيلا ، وعلمهم هذا حقيقى يقوم على تجربة ومعاينة ودقة ، ثم ان معلوماتهم عن تكوين الأرض وتركيبها الجيولوجى كانت لا تقل عن علمهم بسطح الأرض وللبيرونى ملاحظات فى غاية العمق عن ان بلادا مثل جزيرة العرب كانت فى يوم من الأيام بحارا ، وقد تحقق عن ذلك بنفسه عندما رأى فى أرض الحجاز أصدافا وحفريات حيوانات بحرية ، وتحـدث المسعودى عن عوامل النحت والتعرية وفعل الأمطار والرياح وحاول نفر من الجغرافيين العرب التعرف على طبيعة باطن الأرض الملتهب مستدلين على ذلك بجبال النار وما يخرج منها من حمم والحمات ومياها حارة . وتكلم المسعودى عن الشـلالات أو الجنـادل والكهوف فى الجبال وعلى شواطىء البحار وتكلموا عن ذلك كلاما علميا دقيقا .

وقام بعض رحالة المغرب منفرقين بجهود جغرافية كشفية لا تتم اليوم الا بجهود الجماعات العلمية التى ترصد لذلك المال الطائل ، بل غامر بعض العـرب بمحاولات لعبور الأطلسى رغم مخاطـره وخبر الفتية المغررين معروف ومحاولة خسخاس المغربى مذكورة فى أكثر من مرجع .

بل بلغ من اتساع علم علماء المسلمين بالأرض وما عليها ومتابعتهم لما يجرى حول بلادهم من أحداث لم يكن لأهل السياسة بها اهتمام ان ابن خلدون أثبت فى مقدمته ما يدل على انه كان على علم بمحاولات البرتغاليين السير فى البحر بمحاذاة سواحل افريقية . وفى هذا يقول : « وفيه رأى فى بحر الظلمات من جهة غربية الجزائر الخالدات التى منها بدأ بطليموس بأخذ أطوال البلاد . وليست فى بسيط الاقليم (يريد الأول) وانما هى فى البحر المحيط جزر متكثرة ، أكبرها وأشهرها ثلاث (١) ويقال انها معمورة » .

وقد بلغنا ان سفائن الأفرنج مرت بها فى أواسط هذه المائة (٢) وقاتلوهم ففتحوا منهم وسبوا ، وباعوا بعض أسرارهم بسواحل المغرب الأقصى ، وصاروا الى خدمة السلطان ، فلما تعلموا اللسان العربى أخبروا عن حال جزائرهم ، وانهم يحتفرون أرضهم للزراعة بالقرون وان الحديد مفقود بأرضهم ، وعيشهم من الشعير وماشيتهم المعز وقتالهم بالحجارة ، يرمونها الى خلف ، وعبادتهم

---

(١) المراد هنا جزر الكناريا س ، والمعروف اليوم ان جزرها الكبيرة سبع .

(٢) المراد المائة الثامنة الهجرية / الرابعة عشرة الميلادية لأن ابن خلدون توفى فى ٢٥ رمضان ٨٠٨ / ١٩ مارس ١٤٠٦ ، فى القاهرة . وكان قد فرغ من تاريخه ومقدمته قبل ذلك بسنوات .

السجود للشمس اذا طلعت ، ولا يعرفون دنيـا ولم تبلغهم دعوة » (المقدمة ص ٤٩) .

تلك هي حصيلة جهد علماء المسلمين في دراسة الأرض وما عليها وتعريف مواطنيهم بالدنيا وأهلهـا . ونعتقد ان الجغرافيين العـرب والمسلمين قاموا بواجبهم نحو العلم فى ذاته ونحو أمتهم الاسلامية ، فقد اجتهدوا ودرسوا وجابوا الآفاق ودرسوا تجـارب الماضين وما كتبوه وأخـذوا منه ما ينفعهم وتركوا ما لا ينفعهم ووضعوا فى ميدان العلم الجغرافى أساسا متينا للجغرافية البشرية بكل فروعها ، فبماذا نطالبهم بأكثر من ذلك ؟ انهـا حصيلة جليلة وشهادة دقيقة للعلم عند العرب والمسلمين جميعا ، وما نظن أن أهل العلم عند المسلمين فى ميدان من الميادين قد بلغوا التوفيق قدر ما بلغ الجغرافيون والمؤرخون . شهد لهم بذلك رجال ذوو قدر عظيم فى موازين العلم من أمثال كارلو ناللينو وجورج سارتون واغناطيوس كراتشكوفسكى . ويكفى أن نذكر هنا ان عالما ايطاليا جليلا هو ليفى دلافيدا فى آخر دراسة له عن الادريسى تأسف على ان جغرافيته دخلت فى تراث المسلمين ولم تدخل فى تراث الايطاليين لأن الادريسى وحده شرف لأى حضارة من حضارات الأرض ، فما بالك وهو عندنا ــ فى ميدان الجغرافية ــ واحد من عشرات .

الفنون الزخرفية

الدكتورة سعاد ماهر

ماهية الفن الاسلامى

لقـد عرف الفلاسفة الفن بأنه التعبير المادى لفكرة دينية فى الانسـان أو بواسطة الانسان وان الدين والفن توأمان منذ البداية ، فهو يولد فى معظم الحالات فى خدمة الدين فتماثيل الآلهة وصورها وأماكن العبادة ومستلزماتها كانت أهم مظاهر الفن منذ البداية ٠

فاذا رجعنا الى عصر ما قبل التاريخ وجدنا أن الانسان البدائى عنـدما استقر به المقام فى الكهوف قام الى جدرانها يزخرفها والى آلات صغيرة يزينها ويجملها على اننا لا نعرف على وجه التحديد السبب الذى دعاه الى الاشـتغال بالفنون الجميلة هل هى الغريزة التى أوحت اليه بمجالات الطبيعة أم هى الرغبة فى جلب النفع واتقاء الشر وأيا كان السبب فان الشىء الذى لا شك فيه هو أن الانسان الأول اعتقد بقوى عظيمة تؤثر فى كيانه دون أن يراها لذلك لجأ الى الفن يستعين به على تحقيق بغيته فنحت التماثيل وأقام الأنصاب ورسم الصور٠

ولم يقتصر الفن على خدمة الانسان البدائى فى ديانته الساذجة بل خدمه كذلك فى عصر الحضـارات عندما تقدمت عقائده الدينية فقد اعتقد المصريون القدماء بعودة الروح ومن ثم نحتوا التماثيل التى ستحل فيها الروح وزينوا المقابر ونقشوها وأثثوها بكل ما يحتاج اليه الانسان فى حياته الآخرة ٠

واذا كان اليونان قد برعوا فى فن النحت والتصوير الى درجة لم يصل اليها شعب من شعوب الحضارات القديمة فانما الباعث على ذلك بل والفضل فيه يرجع الى ديانتهم فقد ابتدعوا لأنفسهم آلهة نزلت الى مستوى البشر فمنها الصالح ومنها الطالح وتخيلوا هذه الآلهة على صورة الانسان والحيوان والأجرام السماوية وبذلوا جهدهم فى نحت تماثيل لها كانت أروع ما أخرجته يد البشر

كذلك كان الفن فى خدمة باقى ديانات شعوب الشرق القديم ومن سومريين وبابليين وآشوريين فقد استخدمت هى الأخرى فن النحت البارز فى نقش صور آلهتهم التى تخيلوها على صورة الانسان والحيوان على السواء ·

وجاء الدين اليهودى أول الاديان السماوية والشعوب على هذه الحالة من الوثنية وعبادة الأصنام فعمل جاهدا على الحيلولة بينهم وبين الفن حتى يبعدهم عن عبادة الأوثان فقد ورد فى التوراة فى الاصحاح العشرين من سفر الخروج « لا يكن لك آلهة أخرى أمامى لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما فى السماء من فوق ومما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض · ولا تسجدن لهن ولا تعبدهن لانى أنا الرب الهك اله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى » ·

ثم ظهر الدين المسيحى واعتنقه كثير من بنى اسرائيل كما انتشر فى الدولة الرومانية وكما حرمت اليهودية عبادة الأوثان بعبارة أخرى قضت على الفنون التشكيلية قضاء مبرما كذلك فعل الدين المسيحى ولكن فى شىء من الرفق والهوادة فهو لم ينه عن نقش الصور وصنع التماثيل وانما دعا الى الزهد والتقشف وهما والفن الجميل على طرفى نقيض فقد ورد فى الانجيل (فى الاصحاح السادس من انجيل متى) لا يقدر أحد ان يخدم سيدين لانه اما ان يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم ويحتقر الآخر لا يقدرون أن يخدموا الله والمال ·

لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس ·

على أن المذهب الكاثوليكى المسيحى اعتمد اعتمادا كليا على الفن فى توضيح تعاليمه وتصوير الحوادث الدينية وتاريخ المسيحية وسيرة أبطالها ·

فاما الدين الاسلامى فقد كان له موقف حيال الفنون التطبيقية يختلف عن موقف الدينين السابقين فهو لم يستعمله فى طقوسه الدينية كما هو الحال بالنسبة للمسيحية كما انه ينكرها كما فعل الدين اليهودى ·

أما عن كراهية التصوير عند المسلمين فأساسها أحاديث تنسب الى الرسول صلى الله عليه وسلم والقصد منها البعد عن الوثنية وعبادة الأصنام وذلك فضلا عن كراهية الرق فى ذلك العصر الذى ساد فيه الزهد والتقشف والجهاد فى سبيل الله ·

أما القول بان الاسلام حرم التصوير فليس له أساس من الصحة اذ لم يعرض القرآن الكريم للتصوير بشىء وقد كان لهذه الكراهية أثرها فى الفن

الاسلامى الذى ابتعد عن نحت التماثيل المنفصلة أو المنفردة (Free standing statues) وكذلك اللوحات الفنية المستقلة (Free paintings) وانما أتقن أنواعا أخرى من الزخرفة قوامهـا العناصر الهندسـية والنباتية بعد ان جردها عن أصولهـا التطبيعبة وأسرف فى استعمالها حتى أطلق عليها الأوربيون اسم (أرابيك) (Arabesques) على أننا لا ندعى أنه كان للعرب قبل الاسلام حظ وافر فى مزاولة الفنون التشكيلية اللهم الا فى أطراف شبه الجزيرة العربية فى بلاد اليمن والأجزاء المتاخمة للدولة الساسانية من المناذرة والمجاورين من الدولة البيزنطية من الغساسنة ٠

وعلى ذلك فاننا نستطيع القول بأن الفن الاسلامى أخذ قوامه الروحى من وسط شبه الجزيرة العربية أما قوامه المادى فقد تم صوغه فى أماكن أخرى كانت للفن فيها قوة وحياة ٠

أقسام الفنون الجميلة :

لقد رأينا قبل أن نتناول بالبحث والدراسة موضوع « الفنون الزخرفية الاسلامية » ان نذكر كلمة موجزة عن أقسام الفنون العامة حتى نستطيع تحديد موقع الفن الاسلامى بين غيره من الفنون فقد كان للفن الاسلامى طبيعة خاصة انفرد بها عن الفنون السابقة عليه واللاحقة له ٠

ومن المعروف ان الفنون الجميلة تنقسم الى قسمين كبيرين الأول منها هو الذى يطلق عليه الفنون الزمنية أو فنون الحركة ٠ (Arts Dynamiques) وهى الفنون التى لا يتذوقها الانسان الا بحاسة السمع ومن ثم فهى تحتاج الى الزمن حتى يتم تأثيرها كالموسيقى والشعر والغناء والخطابة وما يليها أما فنون الحركة كالرقص وما شابه فبرغم انه يدرك بالنظر الا انه يحتاج كذلك لزمن لاتمام الخطوات على الايقاعات الموسيقية ٠

أما القسم الثانى فهو الفنون التشكيلية Arts plastiques وهى التى يحقق بها الفنان أشكال المرئيات التى يقع عليها بصره ويتمتع بها الآخرون عن طريق الرؤيا كالعمائر والتماثيل والصور والزخارف وقد يمتد الاعجاب بها فيلمسها بيده وهكذا تشترك حاسة اللمس مع حاسة النظر فى تذوق الفنون التشكيلية ٠

واذا كانت الفنون الجميلة الاسلامية تحتوى على القسمين الكبيرين السالف الاشـارة اليهما شأنها فى ذلك شـأن الفنـون الأخرى الا ان القسم التشكيلى من الفن الاسلامى قد اختصر على فروع معينة بخلاف غيره من الفنون ٠

اذ بينما نجد الفنون التشكيلية فى الفنون القديمة والحديثة على سواء تنقسم الى الفروع الأربعة الآتية :

١ ـ العمارة L'Architecture-Architecture

٢ ـ النحت La Sculpture - Sculpture

٣ ـ التصوير La Painture-Painting

٤ ـ الفنون الزخرفيه Les arts Décoratifs-Decorative Arts

وقد تسمى الفنون الزخرفية بأسماء أخرى متعددة منها :

الفنون التطبيقية Les Arts plas appliques-applied Arts.

الفنون الفرعية Les arts mineurs — Minor Arts.

الفنون الصناعية Les arts industriels — Industriels.

نقـول اذا كانت الفنـــون التشكيلية الاسلامية جميعها تنقسم الى الفروع الأربعة السابقة فان الفن التشكيلى الاسلامى يقتصر على فرعين منهما فقط وهما :

١ ـ العمارة

٢ ـ الفنون الزخرفية أما فن النحت والتصوير فلا وجود لهما فى الفن الاسلامى اللهم الا فى فن الحفر الغائر والبارز على المعادن والمواد الصلبة كالخشب والعاج والعظم والأحجار والرخام والبلور الصخرى وما اليها ومن ثم فهو يدخل ضمن الفنون الزخرفية أما نحت التماثيل المنفرده · فلا وجود لها فى الفن الاسلامى على الاطلاق · (Free — Standing Statue)

كما أن فن التصوير وهو الذى يعرف باسم المتمتمات والذى لم يظهر فى الفن الاسلامى الا قرابة القرن السادس للهجرة فلم يكن فنا قائما بذاته فليس هناك لوحات مستقلة وانما كان يدخل فى مضمار فن زخرفى آخر يعرف باسم فن الكتاب ·

ذلك ان الصـــورة انما وجـــدت لتوضيح معنى الكتاب وليس لها شخصية منفصلة كما ان المصـــور كان مركزه ثانويا فهو يتبع ويدور فى فلك الخطاط والمذهب وكذا صانع جلدة الكتب ·

وهكذا نرى ان الفن الزخرفى بالنسبة للفن الاسلامى قد استوعب بين جنباته فضلا عما هو موجود من تفريعات فى الفن الزخرفى بالنسبة للفنـــون الاخرى فن النحت وفن التصوير ومن ثم فاطلاق اسم فن تطبيقى أو فن فرعى أو صناعي عليه يتنافى تماما مع طبيعة الفن الاسلامى على ان علماء الآثار ومؤرخى الفنون لم يجدوا غضاضة فى ان يفصلوا فروعا متجانسة من الفن الزخرفى الاسلامى • وهو فن تجويد الخط والتذهيب والمنمنمات والتجليد وأطلقوا عليه اسم فن الكتاب •

وحدة الفن الاسلامى

لقد بدأت الحضارة الاسلامية بمعناها الصحيح فى النصف الثانى من القرن الأول من الهجرة بعد أن جمعت الى قوة العقيدة والايمان العلوم والفنون التى نقلتها من الأمم التى خضعت لها وصبغتها بالروح الاسلامية الحقة . واستمرت الحضارة الاسلامية قوية فتية قرابة أربعة قرون ثم أفسحت المجال بعد ذلك للتمدين الاسلامى يفسر ويحيى علومها ويستجدى تراثها حتى الآن .

ولما كانت الفنون الجميلة تكون الجانب المادى من الحضارة الاسلامية ، لذلك فقد أصبح من الضرورى لمن يريد دراسة أو معرفة الحضارة الاسلامية الالمام بتلك الفنون . والفنون الاسلامية تنقسم الى قسمين رئيسيين ، العمارة وهى تقوم أساسا على العلوم الرياضية والجولوجية وعلم البيئة ومستلزماتها ومنتجاتها وما الى ذلك من علوم . أما القسم الثانى فهو الفنون الزخرفية وهى تدخل فى صميم علم الكيمياء والطبيعة وذلك فى صناعة المعادن والزجاج والنسيج والخزف وما اليه ، كما يدخل فى علم الفلك آلات الاسطرلاب والساعة الدقاقة والبوصلة والمربع والمقنطر وما الى ذلك من آلات الرصد والمراصد . كما تتصل صناعة السلاح والمفرقعات بعلم الفلزات وغيرها من العلوم العقلانية .

على أن الذى يدعو الى الاعجاب حقا ، هو كيف أتيح للحاكم العربى أن يوحد بين فنون مجموعة من الشعوب المتباينة المتنافرة التى اعتنقت الاسلام ، وأن يخرج منها فنا متجانسا له قوامه ومميزاته الخاصة . فمن المعروف ان الفن الاسلامى قام على أسس فنون الفرس والروم والصين والقبط والبربر ، ولكن ليس معنى هذا ان الفاتح العربى كان خلوا من الفنون الجميلة ، فقد كان له قصب السبق فى مضمار الشعر والأدب والخطابة والفروسية وما اليها . انما الذى نعنيه هنا هو الفنون التشكيلية ، ذلك ان طبيعة وسط شبه الجزيرة

الصحراوى وانتقال البدو من مكان الى آخر سعيا وراء الكلأ والمرعى ، لم يكن ليساعد فى ذلك الوقت على قيام فنون تشكيلية بالمعنى الذى نفهمه اليـوم ، اللهم الا فى أطراف شبه الجزيرة ، المناذرة المجاورين للساسان فى الشمال الشرقى والغساسنة المتاخمين للروم فى الشمال الغـربى واليمن فى الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة ٠

على أن الفاتح العربى لم يقبل تلك الفنون على علاتها ، فقد عمل بعد أن جمع عناصره من جميع أنحاء العالم الاسلامى على استبعاد ما كرهه الدين أو ما يتفق ومزاجه الخاص ، ثم صهر العناصر المنتقاة فى بوتقة واحدة ثم أضاف اليها من عنده الكتابة والخط العربى وأخرج فنا متجانسا ٠ وقد استغرقت هذه العملية من جمع واستبعاد ومزج واضافة ثلاثة قرون تقريبا ، أصبح للفن الاسلامى بعدها مميزاته الخاصة التى تكاد لا تخطئه العين ٠

على أن هذه الوحدة لم تكن وحدة عفوية كما لم يأت بمحض الصدفة بل أدت اليها عدة عوامل بعضها سياسى والآخر اقتصادى وثالث دينى ٠ أما العامل السياسى فهو نظام الالتزام وهو النظام الذى عرفه العالم القديم باسم الليتورجيا Leituryia وقوامه فى الاسلام التزام أقاليم العالم الاسلامى بتقديم أحسن ما تنتجه تلك الأقاليم من صناعات وخبرات والصناع والفنيين ومواد الصناعة الى الحكومة المركزية للقيام بما تريده من الأعمال الفنية الجليلة ٠ وهكذا تجمعت منتجات العالم الاسلامى فى دمشق فى العصر الأموى وفى بغداد فى العصر العباسى وصهرت هذه الفنون وأخرجت منها فنـا جديدا له مقوماته الخاصة ، ثم عادت الدولة ووزعت هذا الفن الجديد على جميع الولايات الخاضعة لها ٠

ومن الأسباب السياسية الهامة التى أدت الى وحدة الفن نظـام الطراز والطراز مأخوذة من الكلمة الفارسية (ترازيدن) بمعنى طرز أو زخرف ، ثم أصبحت تعنى فى العربية الكتابة على الورق والنسيج ثم اتسع مدلولها وأصبحت تعنى مصانع النسيج بل والمشرف عليها الذى عرفها باسم صاحب الطراز ٠ ويحدثنا البيهقى فى كتابه المحاسن والمساوىء عن قصة الطراز فيقول ، ان مصر كانت تصدر البردى الى الروم وقد كتب عليه عبارة التثليث المسيحية (الأب الابن الروح القدس) ، فلما علم بذلك الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، استاء أن ترسل دولة اسلامية ورقا عليه عبارات مسيحية ، وأمر أن تستبدل تلك العبارة « الله يعلم ان لا اله الا هو » ٠ فلما ورد البردى على امبراطور الروم خلوا من عبارة التثليث وعليه عبارة التوحيد ، غضب غضبا شديدا ، وأرسل الى الخليفة أن يرفع العبارة الاسلامية والا صك لهم فى نقودهم ما يكرهون فى

نبيهم • فلما عرف بذلك عبد الملك بن مروان ، أمر بأن تصك الدولة الاسلامية نقودها ، كما أصدر قرارا بأن تكون الكتابة على الطراز (أى الورق والنسيج) باللغة العربية ولمن خالف ذلك تكون عقوبته شديدة • (وقد تطور نظام الطراز على النسيج بحيث أصبح شارة من شارات الملك ، فقد كان شريط الكتابة يبدأ بالبسملة ثم الدعاء للخليفة وذكر اسمه واسم صاحب الطراز ومصنع الطراز والمدينة التى يوجد بها ثم السنة التى نسج بها النسيج ، وهذا نص طراز صنع بمدينة شطا بمصر :

« بسم الله الرحمن الرحيم بركة من الله لعبد الله أمير المؤمنين المعتمد على الله مما أمر بعمله على يدى مولى شفيع بطراز الخاصة بمدينة سطا سنة ثلاث وسبعين ومائتين » ••

أما العامل الاقتصادى فهو انتقال التجارة من أقصى الشرق فى الصين عبر وسط آسيا بالهند وايران والعراق حتى تنتهى فى مصر والشام ومنهما تنتقل الى شمال افريقيا والأندلس برا وبحرا • ولما كانت كل هذه الأقاليم خاضعة للدولة الاسلامية ، الأموية ثم العباسية ، فقد كان الاتجار بينها سهلا ميسورا • وعن طريق التجـارة وتبادل السلع تتقـارب الأذواق ويحدث كثير من النقل والاقتباس مما يؤدى فى النهاية الى الوحدة • كذلك كان العـامل الدينى من الأسباب القوية والمباشرة فى التأليف والوحدة ، ونعنى به فريضة الحج • ففى هذا المؤتمر الاسلامى حيث تجتمع جميع الشعوب الاسلامية على اختلاف مشاربها وأذواقها يؤدون مناسك الحج بالطواف والسعى والوقوف بعرفة وقضاء ثلاثة أيام بمنى تتآلف القلوب وتتقارب المشارب والأذواق ومن هنا تحدث الوحدة الروحية التى هى غاية ما يصبو اليه الفن الاسلامى الرفيع •

أولا ــ النسيج الاسلامى

لقد كان للدولة الاسلامية منذ نشأتها سـياسة خاصه ازاء الدول التى استولت عليها أو خضعت لها وذلك من الناحية الادارية والفنية ، فقد تركت لها مطلق الحرية فى أن تظل هذه النواحى على ما كانت عليه قبل الفتح الاسلامى، وذلك جريا على سياسة التسامح التى سار عليها العرب فى معاملة الشعوب المغلوبة من جهة ، وجهل الفاتح بالنظم الادارية وعدم المامه بالفنون التطبيقية من جهة أخرى • على أن هذه الحال لم تستمر طويلا فقد تبدلت حياة البداوة والتقشف فى عهد الخلفاء الراشدين الى حيـاة البذخ والترف فى عهد الدولة الأموية ، وقد ظهر أثر هذا التحول فى الفن عامة وفن النسيج بصفة خاصة •

فقد ظهرت على النسيج كتابات عربية ترجع الى عصر الخليفة الوليد ابن عبد الملك ، فقد عثر على قطعة نسيج صنعت سنة ثمان وثمانين للهجرة كما هو منسوج عليها · وان كان هذا التاريخ قد أثار خلافا بين العلماء لكنى لم أجد فيما أبداه القائلون بعدم صحته ما ينهض دليلا معقولا بل على العكس ، وجدت تفاصيلها الفنية كالزخرفة وأسلوب الكتابة يؤيدان صحته · وفى الواقع ان هذه النقطة لتعد أكبر دليل على صحة ذلك النص التاريخى الذى أورده البيهقى ·

وعلى ذلك فمن المحتمل أن تكون أقدم كتابة طراز على النسيج وصلت الينا هى من عهد الوليد بن عبد الملك من عهد مروان الثانى آخر خلفاء الدولة الأموية ·

كذلك كثر استعمال مادة الحرير فى صناعة المنسوجات ، وقد كانت هذه الخامة نادرة الاستعمال ، وكان استعمالها فى العصر الاسلامى يخضع لقيود كثيرة بعضها دينى ، والبعض الآخر اقتصادى ولذلك كان يكتفى فى كثير من الحالات بكتابة شريط الطراز فقط بمادة الحرير على نسيج ساده ·

أما أسلوب الخط فى هذه الكتابات فقد بدأ فى أول العهد الاسلامى بخط كوفى لين ذى استدارة بسيطة ثم انتشر بعد ذلك الخط الصلب ذو الزوايا ·

وقد بلغ نسيج الكتان درجة عظيمة من الدقة والاتقان فى العصر الاسلامى، كما هو وارد فى مؤلفات العرب وغيرهم وكما هو ثابت من القطع التى وصلت الينا ·

النسيج الاسلامى فى مصر

لقد كانت الصناعات فى عصور ما قبل التاريخ تقوم على عدة حرف أو صناعات بدائيه محدودة العدد ، دعت اليها الحاجة الى تحقيق بعض الأغراض الوقائية والمعيشية كالدفاع عن النفس والعشيرة واجابة مطالب الحياة الملحة ، ولم تكن هذه الصناعات مبنية على نظريات علمية تطبيقية بل كانت تقليدا للطبيعة أو تحويرا لها ، ثم أخذت تتطور وتتهذب تبعا لنمو الذوق الفنى ، وعلى هذا يمكن القول بأن الصناعات سبقت الفن ثم امتزجت به عندما ارتقى الانسان فى معيشته بعض الشىء وأخذ يتطلع الى الكماليات ومن هنا نشأ الفن التطبيقى الذى يعتبر صناعة مهذبة يلعب الذوق الفنى فيها دورا كبيرا ·

ولما كانت مصر باجماع الباحثين أقدم موطن للحضارة وصناعاتها أقدم

الصناعات ، فقد تكون صناعة الغزل والنسج من بين تلك الصناعات التى لازمت الحضارة فى مصر منذ بدايتها . وانه لمن العبث أن نحاول رسم صورة صادقة لهذه الصناعة فى عصور ما قبل التاريخ ، اذ تعوزنا المصادر التاريخية والآثار المادية التى توضح الوسائل أو الطرق التى كانت متبعة وقتئذ فى غزل الخيوط ونسج الاقمشة ، كما أعوزننا بالنسبة لغزل الخيوط التى عثر عليها الأستاذ يونكر (١) فى مقابر مرمدة ، ببنى سلامة الواقعة على حافة الدلتا الغربية ، وكذلك تعوزنا وسائل نسج الأقمشة التى عثر عليها فى الفيوم والتى يرجع عهدها الى العصر الحجرى الحديث . وعلى كل فان العثور على مثل هذه الخيوط والأقمشة يدل على بوادر قيام هذه الصناعة وانها بدأت تظهر فى نهاية هذا العصر ، ثم أخذت تنمو وتتقدم الى أن وصلت الى درجة لا يستهان بها فى العهد الفرعونى .

ومن الثابت ان المصريين القدماء كانوا يستعملون النباتات ذات الألياف الخشنة فى صنع المنسوجات وفى حاجاتهم اليومية ، وأهمها الكتان وألياف النخيل والحلفا التى كانت تستعمل فى عمل الحبال منذ أقدم العهود (٢) . أما الألياف الحيوانية فلم تكن ذات أهمية كبيرة فى صنع الأقمشة ، ويرجع السبب فى ذلك الى عدم صلاحية صوف الأغنام التى كانت موجودة وقتئذ لعملية الغزل(٣) ولاعتقادهم بعدم طهارة هذا الصوف . أما فى عصر البطالمة فقد كان الصوف يلى الكتان فى الأهمية (٤) فى صناعة النسيج واستمر الحال على ذلك حتى أوائل العصر الاسلامى .

وقد ضرب المصريون بسهم وافر فى صناعة الكتان وبلغوا فيها درجة عظيمة من الروعة والكمال يعز الوصول اليها حتى فى الوقت الحاضر ، رغم التقدم الكبير الذى أدخله التطور الآلى اذ بلغت بعض المنسوجات المصرية القديمة الملفوف فيها الموميات وخاصة القطعة التى وجدت بمقبرة تحتمس الثالث (٥) ، والموجودة بالمتحف المصرى بلغت من الدقة ما جعلها تحاكى أدق أنواع الموسلين الهندى (والكريب جورجيت) .

---

(١) الاستاذ سليم حسن — مصر القديمة — ج ٢ ص ٨٥ .
Caton Phampson : The Neoletic Industry of the Fayum Desert.

(٢) سليم حسن : ج ١ ص ٨١ .

(٣) سليم حسن ج ٢ ص ١١٧ .
Braulik : Alt Aegyptische Gewebe p. 86 :
G.H. Johl, Alt Aegyptisch Webstul. p. 2.

(٤) البطالمة ج ٢ ص ٥٤٤ .

(٥) بالمتحف المصرى حجرة نمره ١٢ حزنه (ج) تحتمس الثالث

ولم تقف شهرة مصر بمنسوجاتها عند العصر الفرعونى بل امتدت الى العصر البطلمى ، فقد تكلم مؤرخو اليونان عن نسيج الكتان المصرى من حيث دقة صنعه وخصوا منه بالذكر نوعا دقيقا جدا قالوا عنه نسيج (الييبوس) (١)٠ ويعتقد الأستاذ لوربيه أن هذا يقابل فى اللغة المصرية القديمة كلمة (تبسوت)(٢) أى ملكى للدلالة على أنه أفخر نوع من نسيج الكتان ، وفى العصر الرومانى أنشأ الأباطرة مصانع الجنيسيم (٣) ، أى مصانع النسيج الملكى ، بمدينة الاسكندرية عاصمة القطر المصرى فى ذلك الوقت ، لكى تمون الامبراطور وبلاطه بما تحتاج اليه من الأقمشة الكتانية التى اشتهرت بها مصر ٠

أما فى العصر القبطى فقد انتشرت مصانع النسيج فى جميع أجزاء القطر ، وذاع صيت مصر السفلى بمنسوجاتها الكتانية والعليا بمنسوجاتها الصوفية ، كما طوقت شهرة منسوجاتها التى عرفت باسم القبطى الآفاق على التحرر الوارد فى المراجع التاريخية ٠

يتبين مما تقدم مقدار ما بلغته مصر فى صناعة المنسوجات من شهرة امتدت منذ نشأة الحضارات واستمرت فى جميع عصورها التاريخية حتى مجىء العرب٠ وقد كان الفتح العربى عاملا جديدا على ازدهار صناعة المنسوجات اذ عملوا على تنميتها وتشجيعها وتلك كانت سنة العرب فى جميع البلاد التى فتحوها ٠

أما فى العصر الاسلامى فقد كانت منسوجات مصر موضع التقدير ومضرب الأمثال فى الدقة والروعة والجمال وقد عرف العرب لها ذلك فعملوا على الاستفادة من هذا التراث الفنى وتشجيعه حتى ازدهرت صناعة النسيج فى العالم الاسلامى عامة ومصر خاصة ، وبلغت من الكمال والاتقان درجة قلما نجدها ممثلة فى أى ناحية أخرى من نواحى النشاط الفنى عند المسلمين ٠ ومن التقاليد الاسلامية التى كان لها أكبر الأثر فى ازدهار فن النسيج كسوة الكعبة التى يقدسها العرب قبل الاسلام وبعده ، كذلك كان لنظام منح الخلع ، وهو تقليد عرفه معظم شعوب العالم المتمدين القديم ، فعرفه المصريون القدماء كما عرفه الايرانيون ، وهناك ناحية لها أهميتها ينبغى ألا نغفلها ألا وهى حب العرب للباس واقتنائهم الفاخر منه ، فكان ذلك عاملا من عوامل المنافسة فى الابتكار والاتقـان ٠

---

(١) البطالمة ج ٢ ص ٥٤٧ ٠
Braulik : Alt Aegyptische Gewebe. p. 88.

(٢) سليم حسن ـ مصر القديمة ـ ج ٢ ص ٨٦ ٠

(٣) Kendrick : Early Medieval woven fabrics. p. 29.

وقد دفع اهتمام المسلمين بالمنسوجات الى العناية بالمصانع التى تصنع بها ، وهى دور الطراز فأخضعوها للرقابة الحكومية ٠

الطـراز

كان لفظ الطراز يعنى فى أول أمره الكتابة الزخرفية التى توجـد على الأقمشة ٠ وهو لفظ أعجمى مأخوذ من كلمة « طرازيدن » ومعناها التطريز ، واذن فالمعنى الأصلى لكلمـة الطراز هو التطريز ثم اتسع مدلولها فأصبحت تستعمل للكتابة على الورق والنسيج وزخارف قطع النسيج السادة المطرزة والتى ترجع الى الفترة التى نحن بصددها تكاد تكون كلها مقتصرة على سريط رفيع من الكتابة ومن المرجح أن يكون الغرض منه هو اثبات التاريخ ومصنع الطراز الذى نسجت فيه هذه القطع وليس لمجرد الزخرفة ، وقد كانت هذه الكتابة تقتضيها عادة الخلع التى كانت متبعة فى الخلافة الاسلامية ٠

وقد اختلف المؤرخون القدماء منهم والمحدثون فى تعيين الموطن الأصلى الذى نشأت فيه مصانع الطراز وانقسموا الى فريقين : الفريق الأول وعلى رأسه ابن خلدون يقول بأن مصانع الطراز فارسية الأصل ، لأنه كان من عادة ملوك ايران قبل الاسلام أن يزينوا ملابسهم بصور الملوك وبأشكال معينة تمييزا لها من غيرها ، وهـذا الرأى كما يقول سرجنت ، مبنى على الافتراض والتخمين لخلوه من الدليل ، اذ لم يورد ابن خلدون أى نص يدعم به رأيه ٠

ويميـل سيرجنت الى ارجاع أول ظهور الطراز على المـلابس فى العصر الاسلامى الى عصر هشام بن عبد الملك ٠ فقد عرف عنه حبه للاصلاح فقد شيد كثيرا من المبانى وأصلح الأرض كما كان مولعا بالملبس ٠

وتقول نانسى بريتون ونحن نؤيدها فى ذلك ان اقدم قطعة نسيج اسلامية معروفة الى الآن هى تلك القطعـة التى ترجع الى عهـد الخليفة الأموى الوليد ابن عبد الملك من (٨٦ ــ ٩٦ هـ = ٧٠٥ ــ ٧١٥ م) ، وهو الذى نقلت فى عهده الدواوين من القبطية الى العربية ٠ وقطعة النسيج هذه مؤرخة (٨٨هـ) (٧٠٥م) لوحة (٤٢) ٠ وبها زخارف منسوجة بطريقة القباطى ٠٠

القبــاطى

القباطى هو النسيج المعروف ب (التبستری) وقد سماه الدكتور عبد العزيز مرزوق (١) « الزخرفة المنسوجة » وهذه التسمية لا تساعد على تعيين هذا النوع بالذات من بين المنسوجات الزخرفية ، ذلك ان الرخارف القائمة بالمنسوجات عدا المطرزة ، والمطبوعة (٢) والمرسومة (٣) كلها منسوجة ، وان تباينت واختلفت بعضها عن بعض من حيث المظهر وطريقة الأداء ٠ والا فبماذا تسمى الزخرفة الموجودة بأقمشة الدمشقى (٤) والديباج (٥) مثلا ؟ أليست الزخرفة الموجودة بهذه الاقمشة أيضا زخرفة منسوجة ؟ أما نسيج القباطى فيمتاز بأن زخارفه تتكون من لحمات غير ممتدة فى عرض المنسوج وغير متقطعة ٠

واذا تتبعنا نشأة هذا النوع من الزخارف النسجية يتبين لنا أنه وجد فى مصر منذ العصر الفرعونى واستمر خلال عصررها التاريخية دون انقطاع وفى تطور مستمر الى العصر القبطى والاسلامى وعلى ذلك يمكننا القول بأن نسيج القباطى مصرى النشأة والفكرة والوسيلة ٠

ونحن اذ نقف أمام هذا العدد الكبير من أنواع المنسوجات المصرية القديمة، وبخاصة نسيج القباطى ، سواء الفرعونية منها أو القبطية أو الاسلامية ، نتساءل هل كانت لها مسميات تميزها بعضها عن البعض ، كما نتساءل عن السر فى استعمال اسم أجنبى Tapestry لها وهى فرعونية قبطية اسلامية الأصل ٠

فاذا لجأنا الى كتب التاريخ واللغة للبحث عن أسماء عربية للمنسوجات المصرية ومميزاتها والأغراض التى استعملت فيها ، وجدنا بها مسميات لها منسوبة الى المراكز التى اشتهرت بنسجها ، كالشطوى نسبة الى مدينة شطا والتنيسى نسبة الى مدينة تنيس والدبيقى نسبة الى دبيق والطرز الصعيدية(١) نسبة الى الصعيد ٠ وفى تفسيرها نقول بأنها أقمشة مصنوعة من الكتان أو الصوف أو الحرير أو خليط منها كالحنيفى وهو ثوب غليظ من الكتان والشرب وهو ثوب رقيق من الكتان والقسى (٢) وهي قماش من الكتان المخطط بابرسيم، والسندسى وهو ضرب رقيق من الديباج وغير ذلك كالمعلم (٣) والمخطط والمهلل والمطير ، والمخيل والمطوس ، أى ما كانت نقوشه أو زخارفه فيها رسم الأهلة والطيور والخيل والطواويس (٤) ٠

ويصف ابن عبد ربه فى العقد الفريد (١) القباطى فيقول ، اذا دنا وقت موسم الحج كانت تكسى الكعبة بالقباطى ، وهو ديباج أبيض خراسانى (٢) ٠

« واذا حل يوم النحر كسى البيت بالديباج الأحمر الخراسانى وفيه دارات مكتوب فيها حمدا لله وتسبيحه وتكبيره وتعظيمه » ٠

من الوصف المتقدم نتبين ان كسوة الكعبة المعروفة بالقباطى كانت منسوجة من الكتان المبيض وبها زخارف كتابية على شكل دوائر ، ولما كانت الطريقة الفنية المتبعة فى الزخرفة المنسوجة فى العصر القبطى والتى برع فيها القبط واشتهروا بها هى طريقة اللحمات غير الممتدة واذن فلابد أن تكون القباطى قد زخرفت بهذه الطريقة ٠

واذا لوحظ ان نسيج القباطى قد امتاز عن المنسوجات الأخرى التى عاصرته بشرف الاهداء الى الرسول صلى الله عليه وسلم فى العصر القبطى ، ثم بشرف استعماله كسوة للكعبة فى العصر الاسلامى وقبله ، كان لنا أن نعتقد أنه من تلك المنسوجات الممتازة ، اذ ليس من المعقول أن تقدم هدية لرسول الله صلى الله عليه وسلم من المقوقس عظيم القبط وقتئذ وليس لها من القيمة الفنية والقدر العالى ما يناسب مقام المهدى اليه والمهدى ٠

مما تقدم يتضح لنا أن استعمال لفظ قباطى لم يكن يعنى اسم طائفة بعينها ، ولكنه يعنى طريقة فنية تطبيقية اشتهر بانتاجها القبط من قبل دخول الاسلام وبرعوا فيها فأصبح اسمهم يطلق عليها سواء أكان صانعا قبطيا أم مسلما ، وظل هذا الاسم مستعملا طوال الفترة التى سادت فيها هذه الطريقة الفنية فى زخرفة المنسوجات الى آخر العصر الفاطمى ٠ ولما ظهرت طرق فنية أخرى غير هذه الطريقة اختفى لفظ قباطى ، وبدأنا نسمع فى اللغات الأوروبية فى العصور الوسطى كلمات أخرى للدلالة على أنواع من الأقمشة مثل الدمشقى نسبة الى دمشق وموسلين نسبة الى الموصل (٢) ٠

وهذه الكلمات لا تعنى هى الأخرى وطنا أو جنسا لذاته انما تعنى طريقة فنية اشتهرت بصنعها مدينتا دمشق والموصل فأصبحت تعرف باسميهما ٠

كما أننا نجد : جا أطلق عليه اسم شخص اشتهر بصنعه وهو الجوبلان (٣) ، فقد كانت زخارف الجوبلان منسوجة بطريقة القباطى وهى التى استعملها الأقباط من قبل ٠ حقا انه لم يكن مخترعا لها ولكنه أحياها بعد أن طغت عليها الطرق الآلية وكادت تندثر ، فحق له ان يطلق اسمه على هذه الطريقة . كذلك نجد قماشا (بالأبيسون) (١) نسبة الى مدينة أوبيسون بفرنسا زخارفه منسوجة بطريقة القباطى أيضا ٠

نخلص مما تقدم ان كلمة القباطى ما هى الا الاسم العربى الصحيح للمنسوجات المزخرفة ذات اللحمات غير الممتدة ، وهى الترجمة المختصرة لكلمة Tapestry ٠

النسيج الفاطمى

من المعروف ان خلفاء الدولة الفاطميه قد أولوا النسيج الكثير من اهتمامهم حيث كانت وظيفة « الطراز » لا يتولاها الا كبار الموظفين المقربين من الخليفة ٠ ولعل خير شاهد على ما وصلت اليه المنسوجات من تطور وازدهار فى العصر الفاطمى ، ما ذكره الرحالة ناصر خسرو عند زيارته لمصر فى القرن الخامس الهجرى (سنة ١٠٤٠ م) ، فقد أعجب بمنسوجات الوجه البحرى الكتانية وخاصة منتجات شطا وتنيس وخص بالذكر منها نوعا من النسيج الذى تصنع منه ملابس النساء كان يعرف باسم القصب ٠ فقال « ان مثل هذا القصب الجميل لا يصنع فى أى مكان آخر وانه سمع أن أمير مقاطعة فارس فى ايران أرسل عشرين ألف دينار الى تنيس ليشترى بها ثوبا من النسيج الملكى ، ولكن وكلاءه أقاموا بمصر سنين عديدة دون أن يحصلوا على مطلبهم » ٠ وكذلك اشتهرت مراكز النسيج بشمال الدلتا بصناعة نوع من القماش يسمى البوقلمون ، يتغير لونه باختلاف ساعات النهار ٠

أما من حيث الطرق الصناعية والتطبيقية التى صنعت بها منسوجات العصر الفاطمى ، فلم تخرج عما كان سائدا فى مصر من قبل ونعنى بها طريقة القباطى وطريقة اللحمة الزائدة وطريقة الزردخان وكذا المنسوجات المطرزة ٠ كذلك استمرت المواد الخام المستعملة قبل العصر الفاطمى هى المستعملة فى المنسوجات الفاطمية وهى الكتان والصوف والحرير ٠ الا أن ترتيب هذه المواد الخام قد تغير من حيث الأهمية فقد أصبح الحرير يلعب الدور الأول والرئيسى بالنسبة للنسيج فى آخر العصر الفاطمى ، اذ لم يقتصر على خيوط اللحمة الملونة بل استعمل كذلك فى خيوط السدى وأصبحت القطعة كلها منسوجة من الحرير وخاصة فى أواخر العصر الفاطمى فى القرن السادس الهجرى ٠

أما من حيث الأسلوب الزخرفى فقد حدث تطور كبير فيها ، فقد أخذت الأشرطة الزخرفية والأشرطة الكتابية المصاحبة تزداد شيئا فشيئا حتى أصبحت تملأ النسيج كله ٠ وقد قسم علماء الآثار زخارف النسيج الفاطمى تبعا لتعدد الأشرطة الى أربعة أقسام تمثل العصور الرئيسية فى حكم الدولة الفاطمية وبرغم اننا لم نجد تاريخها على قطع قليلة جدا من القطع التى اتفق العلماء على تقسيمها

سعا لعصور خلفاء بعينهم ، الا أنني لا أجد بأسا من الأخذ به حيث انه يمثل نطورا مستمرا يبدأ منذ بداية الدولة الفاطمية ويصل الى نهاية التطور فى آخرها . كما ان ذلك يتفق مع وفرة وجودة مادة الحرير فى القرن السادس الهجرى ، هذا فضلا عن نطور الخط الذى أصبح قريبا من الخط النسخ ذى الاستدارة الذى وجد مصاحبا للأشرطة الزخرفية فى القطع التى نسبت الى القرن السادس الهجرى ٠

النسيج الاسلامى فى صقلية

لقد اتفق علماء الآثار على ضم المنسوجات المصنوعة فى صقلية الى النسيج الفاطمى ، وذلك لخضوع جزيرة صقلية للفواطم مدة قرنين من الزمان ٠ وقد ظلت صناعة النسيج مزدهرة حتى بعد انفضاء الحكم الفاطمى من الجزيرة ، وذلك خلال حكم النورمانديين الذين اعتمدوا اعتمادا كبيرا على النساج العرب الذين مارسوا نفس النظم الادارية والفنية والتطبيقية التى كانوا يمارسونها أثناء الحكم الاسلامى للجزيرة ٠ وقد أشار بن جبير عند زيارته للجزيرة الى فتى من فتيان الطراز ممن يطرزون بالخيوط المعدنية وخاصة الذهب فى المصانع الملكية ٠

على اننا اذا درسنا نسيج صقلية من الناحية الصناعية ، نجد انها تختلف اختلافا بينا فبينما نجد الطريقة التطبيقية التى اتبعت فى النسيج الفاطمى هى طريقة القباطى Tapestry فى معظم الأحيان نجد ان الطرق التى أتبعت فى نسيج صقلية هى طريقة المنسوجات المركبة ، وخاصة نسيج الديباج ٠

أما من الناحية الزخرفية ٠ فهو يختلف كذلك مع زخارف النسيج الفاطمى الذى يمتاز بحصر زخارفه فى أشرطة عرضية تعدد فى الثوب أو تملأ الثوب كله ٠

أما زخارف نسيج صقلية فيحتوى على موضوعات زخرفية ذات صلة وثيقة بالزخارف البيزنطية المعاصرة ، ولا غرو فى ذلك فقد كانت قبل خضوعها للحكام المسلمين فى القرن الثالث الهجرى ، تتبع الطراز الرومانى ٠ هذا فضلا عن مجىء نساجين يونانيين من الذين أسرهم روجر الثانى فى احدى الغارات البحرية فى بحر الأرخبيل سنة ٥٤١ هـ (سنة ١١٤٧ م) والحقهم بمصانع النسيج فى القصر الملكى ، ولكن يجب ألا ننسى ان جميع المنسوجات المصنوعة فى صقلية مهما اختلفت طرقها التطبيقية وكذا العناصر الزخرفية عن النسيج الفاطمى ، الا أنها احتوت على عبارات كتابية بالخط الكوفى بأسلوب الخط الفاطمى الذى انتشر فى القرن الخامس الهجرى ٠

النسيج فى العصر الأيوبى والمملوكى

لقد اجتاحت الفنون الاسلامية عامة وفن النسيج بصفة خاصة ثورة فنية وسياسية واقتصادية عارمة قضت على كثير من الطرز الفنية والتطبيقية بل والمواد الخام التى كانت سائدة من قبل • فاذا ناقشنا الأسباب السياسية التى أدت الى تغير جوهرى فى فن النسيج ، نجد أنه بسقوط الدولة الفاطمية فى مصر والعباسية فى بغداد ، قضى تماما على شريط الطراز الذى كان يحتم على النساج والمزخرف أن يضمنه للثوب ، اذ أنه شارة من شارات الخلافة • ولما كان شريط الطراز يحتوى على كتابة عربية لا يمكن ان تكتب الا فى وضع مستعرض ، استتبع ذلك ان تكون الزخارف المصاحبة لشريط الطراز كذلك فى وضع مستعرض والا أصبح المنظر نشازا •

فلما اختفى شريط الطراز وجد النساج والمزخرف نفسه حرا طليقا يستطيع ان يرسم عناصره الزخرفية فى أى وضع يشاء ، ولم يعد مضطرا لوضعها فى أشرطة عريضة • واذا أضفنا الى ذلك الغزو المغولى والطرز المتعددة التى وفدت مع الأيوبيين الأكراد الأصل والمماليك ذى الأصول والجنسيات المتعددة من شرق آسيا ووسطها ومن روسيا وأوروبا ، كل ذلك أثرى العناصر الزخرفية والموضوعات التصورية ، كما أثر تأثيرا كبيرا على الأسلوب الفنى ، الذى أصبح يميل الى القرب من الطبيعة وابتعد عن الأسلوب التجريدى التقليدى الذى نشأ بنشأة سمراء •

أما من الناحية التطبيقية ، فقد ظهرت طرق صناعية جديدة نافست طريقة القباطى التى ظلت سائدة فى مصر منذ العصر الفرعونى وحتى نهاية العصر الفاطمى فى القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى ، وهى طريقة المنسوجات المركبة • الديباج والدمقس • أما عن تاريخ وطريقة صناعة وتطبيق هذه الطرق فقد فصلناها فى النسيج الايرانى ، كما سيجىء فى الباب الثانى •

كذلك صاحبت الطرق الصناعية تغييرا فى المواد الخام ، فالمنسوجات المركبة يلائمها خيوط الحرير الرفيعة خاصة بعد أن أصبحت تجارة الشرق الأقصى تنتهى فى مصر وبذلك كثر الوارد من الحرير ورخص ثمنه • كما ورد على مصر المنسوجات القطنية من الهند ومن اليمن وخاصة سحولى التى استخدمت فى العصر المملوكى للتطريز بالخيوط الحريرية والمعدنية • كما استخدم النسيج القطنى فى المنسوجات المصبوغة والمطبوخة التى كثر انتشارها فى العصر المملوكى •

النسيج الاسلامى فى ايران

لقد تقدم فن النسيج فى ايران تقدما محسوسا منذ مجىء الدولة الساسانية ، وقد شهد بذلك امبراطور الصين (Hawn Tsang) عندما رحل الى الحدود الشرقية للدولة الساسانية فى القرن السابع الميلادى ، فقد استرعى انتباهه براعة نساجى الفرس ، ليس فقط فى صناعة الحرير المزركش بخيوط من الذهب والفضة وهو النسيج الذى عرف باسم الديباج ، بل فى صناعة المنسوجات الصوفية أيضا ٠

كذلك تحدثنا المراجع التاريخية انه عندما هجم امبراطور الروم هرقل على فارس سنة ٦٢٧ م واستولى على قصر (Dastajard) عثر على كميات كبيرة من الحرير الخام والحرير المنسوج ، كما وجد عددا كبيرا من السجاد المصنوع من الحرير ، أما ملابس الملوك والأمراء فكانت منسوجة من الحرير ومطرزة بخيوط من الذهب والفضة ومرصعة بالأحجار الكريمة على اختلاف أنواعها وألوانها كما كانت أعلام الملوك غاية فى الدقة والجمال ٠

وقد كتب المؤرخ أحمد بن عزام الكوفى فى أوائل القرن العاشر الميلادى ٠ يصف مقتل الملك يزد جرد آخر ملوك الدولة الساسانية ، وأشار الى ملابسه ، فقال انها كانت من الصوف ومشغولة بخيوط الذهب والفضة ٠

وكذلك ذكر مؤرخو العرب فى القرن العاشر الميلادى ان مدينة سوس وشاهبور وبسنا كانت مراكز لصناعة النسيج فى العصر الساسانى ، كما قالوا ان هذه الصناعات نشأت هناك بعد أن نقل اليها عدد من نساجى انطاكية ، ولكن ليس معنى هذا ان الحرير فى فارس بدأت فقط عند مجىء الصناع الأجانب ، فان ايران استفادت حقا من فتوحاتها وجلب أمهر الصناع اليها ، لا لتنشىء صناعة جديدة بل لتطوير صناعتها المحلية بادخال عناصر وأساليب جديدة ٠

ويحتمل أن تكون صناعة الحرير نشأت فى ايران فى عهد Gilan أما الطريقة التى اتبعت فى نسج الحرير فهى الطريقة التى تعزم اليوم باسم النسيج المبطن من اللحمة Doublefaced fabrics وزخارفه تشبه الزخارف المنقوشة على الحجر فى طاق بستان ، وكذلك الزخارف المحفورة على المعادن ، وهى تتكون من خامات ودوائر تحصر بينها زخارف نباتية محورة وحيوانات وطيور ، وفى بعض الأحيان نجد الزخارف محصورة فى أطباق نجمية أو فى أشرطة عرضية ٠

وقد تدهور فن النسيج فى ايران فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ، فقد كان لسقوط الدولة العباسية واستيلاء المغول على البلاد أثر سيء على صناعة النسيج ، اذ قضى على كثير من مراكز النسيج ، ففى منطقة خوزستان فقدت مدينة سوس أهميتها الى الابد وان كانت وعلى الرغم مما فعله المغول من تخريب وتدمير للبلاد ولمراكز الصناعة والحرف فى ايران فانه مما لا شك فيه انهم اضافوا الى الفن الشيء الكثير ، وخاصة الى فن التصوير وفن النسيج من الناحيتين الزخرفية والتطبيقية ، أما بالنسبة للزخارف فاننا نرى ذلك واضحا فى صور المخطوطات ليس فقط فى ملابس الأشخاص بل فى الستور والفرش كذلك .

وفى العصر التيمورى انتقل المركز السياسى والحضارى الى شرق ايران ، الى سمرقند وهرات بصفة خاصة . ولما كانت سمرقند وخراسان مركزين هامين لصناعة النسيج فى العصر المغولى ، فقد أصبحتا فى العصر التيمورى أهم مراكز صناعة النسيج على الاطلاق . فقد ذكر لنا الرحالة الا (vincezia D'Alexandria) الذى زار ايران فى القرن الخامس عشر ، انها كانت تنتج أنواعا متعددة من المنسوجات الحريرية منها الدمقس والمخمل الذى يعتبر حديثا جديدا فى صناعة المنسوجات الايرانية . أما مصانع سمرقند الملكية فكانت تنتج نوعا من الحرير عرف باسم زيتونى Zaytuni) ونوع آخر عرف باسم كمكاس (Kimkhas) ونسيج الكريب والتفتاة وترسنالز . Tercenal)

واستمرت صناعة النسيج فى العصر الصفوى تشغل المرتبة الأولى بين الحرف والصناعات الأخرى . فقد كان النسيج الى جانب استعماله فى اللباس وفى الاهداء كخلع قد استعمل كذلك فى العصر الصفوى ككسوة للحوائط والجدران . كما اتخذ كستور تفصل بين الحجرات ، وفى هذه الحالة تقوم مقام الأبواب .

أما عن مراكز الصناعة فى العصر الصفوى فقد انتقلت من الشرق الى الوسط فانتقل أولا الى تبريز ثم الى قزوين ثم الى اصفهان التى أصبحت المركز الأول للحضارة فى العصر الصفوى .

ومما يسترعى الانتباه فى منسوجات العصر الصفوى ظهور أسماء رسامى النسيج وخاصة فى عصر الشاه عباس الأول والثانى ، مما يدل على مبلغ ماوصل اليه هؤلاء الرسامون من الأهمية لمكانتهم الفنية فى ذلك العصر ، ومن هؤلاء المصورن وأشهرهم غياث الدين على النقشبند ، ومعنى كلمة (نقشبند) نساج لأقمشة ذات الزخارف الآدامية . نشأ فى مدينة يزد وبلغ من الشهرة والأهمية

حتى أصبح من فنانى الشاه عباس ، وكان جده الخطاط المشهور كمال الدين · وقد ذاع صيته كمصور للمنسوجات المزخرفة (نقشبند) خارج حدود بلده فان السلطان أكبر امبراطور الهند تقبل هدية دبلوماسية من الشاه عباس مكونة من (٣٠٠) قطعة من النسيج منها (٥٠) من صناعة غياث الدين · كما ان ملوك الهند والترك كانوا يخطبون ود غياث الدين لكى يحصلوا على بعض انتاجه · وقد ظهر غياث الدين فى أواخر القرن السادس عشر وربما امتد الى أوائل القرن السابع عشر ·

النسيج الاسلامى فى تركيا

يعتبر النسيج التركى امتدادا للنسيج الاسلامى فى آسيا الصغرى وفى البلاد التى خضعت للدولة العثمانية فى بلاد الشام ومصر وشمال أفريقية فى القرن السادس عشر للميلاد . وعلى ذلك نستطيع القول بأن منسوجات الطراز العثمانى كانت كلها من المنسوجات المركبة كالديباج والدمقس والمنسوجات الوبرية كالقطيفة والمحمل (لوحة ٠٠٠) ·

أما عن زخارف منسوجات الطراز العثمانى فهى تشبه زخارف التركى المعاصرة وكذا السجاد التركى · وقوامها فى معظم الأحيان الرسوم النباتية القريبة من الطبيعة ومن عنصر الزهرة المركبة (compound flower) والورقة المركبة التى نعرف باسم · (Saz)

وقد انتشر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر نوع من النسيج التركى المصنوع من الحرير بطريقة الديباج أو الدمقس تقتصر زخارفه على أشرطة كتابية أفقية متعرجة ، كانت تصنع لكسوة الكعبة أو ستور للقبور والأضرحة · وتشمل الكتابات على آيات قرآنية وعلى الدعاء للرسول صلوات الله عليه وأسماء الخلفاء الراشدين مثل « الله ربى ولا سواه محمد حبيب الله » (لوحة ٠٠٠) ·

كما انتشر فى العصر العثمانى المنسوجات المطرزة بكثرة ، وكانت زخارفها تشبه الى حد كبير العناصر الزخرفية والموضوعات التصويرية التى وجدت فى منسوجات الديباج والقطيفة · أما عن طريقة التطريز والغرز المستعملة فقد تناولناه فى شىء من التفصيل فى النسيج الايرانى ·

النسيج الاسلامى فى الهند

لقد كانت للهند شهرة واسعة فى صناعة المنسوجات منذ أقدم العصور ، ومن ثم فقد كان طبيعيا أن تزدهر هذه الصناعة فى العصر الاسلامى · فقد ذاعت شهرة الهند فى المنسوجات القطنية الدقيقة ، التى شجعها أباطرة المغول فى العصر الاسلامى فى الهند وفرضوا عليها رقابة حكومية على نحو ما عرف فى سائر بلاد العالم الاسلامى كما اشتهرت المنسوجات القطنية المطبوعة والمصبوغة بالهند وكذا المنسوجات القطنية ·

وكان الديباج الهندى غنيا بما يحتويه من خيوط معدنية من الذهب والفضة وبما رصع من الأحجار الكريمة والشبه كريمة · وكانت لاهور وبنارس وأحمد آباد وأورنجباد من أشهر مراكز صناعة الديباج بالهند ·

أما عن زخارف المنسوجات الهندية فقوامها الرسوم النباتية القريبة من الطبيعة الى حد كبير · ونعتبر شيلان الكشمير ذات الزخارف المنسوجة والمطرزة أحسن مثل لزخارف المنسوجات الهندية فى القرن (١٨ م) ·

النسيج الاسلامى فى الأندلس وشمال أفريقيا

لقد انتشرت فى الاندلس صناعة المنسوجات منذ دخلها العرب وبلغت درجة كبيرة من التقدم والازدهار فى خلافة الأمويين فى المغرب ، فقد عثر على قطعة من الحرير منسوجة بطريقة القباطى وبها شريط طراز مما يقطع بوجود نظام مصانع الطراز بالأندلس · وقد أشار الى ذلك الأدريسى ، أنه كان يوجد فى عصر المرابطين ثمانمائة طراز ، يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والاصبهانى والجرجانى ، وكذا الستور المكللة بالذهب والأحجار الكريمة والثياب المعينة والخمر (جمع خمار) العتابى والمعاجر وصنوف المنسوجات الحريرية المزركشة · وتحتوى القطعة الى جانب شريط الطراز على شريط زخرفى قوام زخرفته جامات تضم رسوم آدمية وحيوانية ونباتية ·

وقد رسمت هذه الزخارف بأسلوب يشبه الى حد كبير الأسلوب القبطى المتطور الذى وجد فى مصر فى القرن الثالث الهجرى فى صعيد مصر وخاصة أسلوب قيس والبهنسا · أما شريط الطراز فان خطه يشبه أسلوب الخط الكوفى الفاطمى فى نهاية القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجرى ونص شريط

الطراز كما يلى : « بسم الله الرحمن الرحيم بركة من الله واليمن والدوام للخليفة الامام عبد الله هشـــام المؤيد بالله أمير المؤمنين » · وقـــد حكم الخليفة هشـــام الأندلس بين عامى (٣٦٦ هـ ٣٩٠ هـ) (٩٧٦ / ١٠٠٩ م) · وقد أدى التشابه الكبير بين هذه القطعة وبين النسيج المصرى فى القرن الرابع للهجرة وخاصة الطراز القبطى ، بالكثير من علماء الآثار الى القول بأن هذه القطعة وأمثالها صنعت بمصر ، ولكن الذى نرجحه فى هذا الأمر هو أن مصانع الطراز بالأندلس قد استقدمت نساجين من مصر للعمل بها ·

وفى القرنين الســادس والســابع للهجرة انتجت الأندلس أنــواعا من المنسوجات الحريرية المركبة من الديباج والدمقس تشبه من ناحية الأسلوب الزخرفى منسوجات صقلية المعاصرة وكذا النسيج البيزنطى مع احتوائها على كتابات عربية مكونة من عبارات دعائية مثل « البقاء لله » ·

وفى القرن الثامن والتاسع للهجرة ، أخرجت مصانع الأندلس نوعا من المنسوجات تشبه زخارفها رسوم الزخارف الموجودة بقصر الحمراء ، ومن ثم فقد نسبوه الى طراز هذا القصر · وقوام زخارف هذا النسيج أطباق نجمية تشبه تلك الموجودة فى الخشب ، وكذا أشرطة متداخلة وجدائل وأشكال هندسية متعددة · وقـــد احتوى هذا النســـيج على أشرطة من الكتـــابة بالخط الكوفى ذى الحروف المتشابكة والخط النسخى المغربى ·

ثانيا ـ الخزف الاسلامى

لعل أكثر ما وصل الينا من التحف الاسلامية هو الأوانى الخزفية ، فقد كان انتاجها عظيما فى العالم الاسلامى . وقد امتاز الخزف الاسلامى بتنوع انتاجه وأشكاله وطرق صناعته وزخرفته . كذلك برع صناع الخزف فى طلائه بالدهانات المتعددة مما يدل على مهارتهم فى معرفة خواص الألوان وتركيبها الكيمائى ودرجات الحرارة التى تتناسب . وكيمائية كل لون . وكانت الأساليب الفنية فى صناعة الخزف تنتشر بسرعة عظيمة فى سنى أنحاء العالم الاسلامى ، فقد عثر فى حفائر مصر وايران والعراق والشام وشمال أفريقيا والاندلس على كثير من الأنواع المشتركة حتى انه أصبح من العسير فى كثير من الأحيان تميز انتاج اقليم عن آخر اللهم الا للمتخصصين .

على أننا نستطيع تقسيم الخزف اعتمادا على التركيب الكيمائى الى قسمين رئيسيين هما :

الخزف والفخار :

الفخار : نوع من الخزف يؤخذ من طينة البيئة المحلية ونشكل منه الأوانى دون اضافة مواد أخرى اليه أو حذف شوائب حفارة بصناعة التخزيف منه ولعل الأسماء الأوربية له ، تحدد وصفه أكثر من العربية فهو يعرف بالانجليزية (earth-ware) وبالفرنسية (terre-cuite) وقد عثر فى ايران على مجموعة كبيرة من الأوانى الفخارية الكبيرة التى ترجع الى القرون الثلاثة الأولى للهجرة والتى تعتبر امتدادا لصناعة الفخار فى العصر الساسانى . وكانت هذه الأوانى تستعمل لحفظ الحبوب والسوائل . ولما كان الفخار يصنع من عجينة تؤخذ من طينة المنطقة دون اضافة أو حذف ، فهو اذن يصنع من طينة طبيعية .

طريقة الصناعة :

كانت معظم الأوانى الخزف السالف الاشارة اليها ذات شكل بصلى (balbus) أو على شكل الكمثرى ومن ثم فانه يحتاج الى حامل يوضع عليه . وكانت القطع التى ترجع الى العصر الاسلامى معظمها غير مطلى . وكانت تزخرف بطريقةالقالب التى تتم قبل جفاف العجينة bescuit تماما ثم تحرق بعد ذلك فى الفرن ، وفيما يلى بيان بأنواع الزخارف المستعملة فى الخزف غير المطلى .

١ ـ طريقة الاضافة : moulding وتتم هذه الطريقة باضافة شريط رفيع جدا من عجينة الفخار على بدن الآنية قبل تمام جفافها ، فى أشكال زخرفية؛ هندسية أو نباتية أو حيوانية ثم تحرق فى الفرن ليتم تثبيتها ·

٢ ـ طريقة الحز : **Inciside** وهى عبارة عن حز الزخرفة المطلوبة فى بدن الآنية بآلة رفيعة حادة فتحدث شـــقوقا ثم تحرق الآنية فتثبت تلك الحزوز ·

٣ ـ طريقة البربوتين : **barbotine** وهى اضافة شريط رفيع مثل المضاف ، الا انه يثبت على بدن الآنية بواسطة الابهامين فيبرد طرفى الشريط على شكل انصاف دوائر صغيرة مما يكسبه شكلا زخرفيا جميلا ·

٤ ـ رأس المسمار : **(rivet's hear)** وهو اضـــافة نقط صغيرة جـــدا من عجينة الفخار فتثبت وتبرد وكأنها زهرة بارزة ثم تحرق بعد ذلك ·

الخزف : **(Pottery)** يصنع من عجينة تؤخذ من طينة البيئة المحلية ثم يستبعد منها الشوائب والمواد الضارة بصناعة التخزيف ثم يضاف اليها مواد أخرى مثل السيلكا (الرمل) والكاولين الأبيض اللون ، وهذه المواد تزيد فى صلابة الخزف وتكسبه اللون الأبيض الجميل · ومن ثم نستطيع القول بأن الفخار يصنع من طينة طبيعية أما الخزف فيصنع من طينة صناعية · وقد تعـددت أنواع الخزف تبعـا لأسلوبها الصناعى والزخرفى هذا بالاضافة الى تركيبها الكيمائى الى أنواع عدة فيما يلى بيانها ·

١ ـ الخزف المرسوم تحت الطلاء **underglaze-Pottery** : عثر على معظم القطع التى وصلت الينا من هذا النوع من الخزف والتى ترجع الى القرون الثلاثة الأولى للهجرة فى ايران وخاصة فى سوس وساوه والرى وقم ونيسابور· وكانت طريقة زخرفتها تتم بعد تشكيل الآنية وبعد جفافها ، فتطلى بطبقة من الطلاء الفاتح اللون ، الزبدى أو الأزرق الفاتح أو الأخضر النافض ويعرف هذا الطلاء باسم (البطانة **Slip**) · وبعد أن تجف طبقة البطانة ترسم عليها الزخارف المطلوبة ، التى كانت تتكون فى القرن الأول والثانى للهجرة من زخارف نباتيـــة قريبة جدا من الطبيعة وذات لون واحد وعادة ما تكون مكررة ثلاث مرات قد يتوسطها دائرة أو بقعة كبيرة ، كانت لها دلالة دينية عنـد الفرس القدماء · أما فى نهاية القرن الثانى وأوائل القرن الثالث للهجرة ، فقد بدأ يدب التحوير فى الزخارف النباتية كما بدأت تظهر الكتابات العربية كعنصر زخرفى هام · ٥كانت معظم هذه الكتابات عبارة عن جمل دعائية تناسب المقام

مثل (كل هنيئا واشرب مريئا) أو (عمل صالح) أو (بركه من الله) أو (بركة كاملة) . وقد امتازت هذه الأواني باحتواء معظمها على شريط يحيط بدائرة الصحن مكون من أنصاف مراوح نخيلية **(Split palmettre)** صغيرة أو قطاعات من الدائرة ، أما باقي الصحن فيكاد يكون خاليا الا من العنصر الكتابى أو الزهرة أو العنصر النباتى .

وبعد رسم الزخارف على طبقة البطانة تطلى الآنية بطبقة شفافة لا لون لها مما تكسب الآنية بريقا يزيد فى جمالها كما يحافظ فى نفس الوقت على الرسوم من الزوال من أثر الاستعمال والغسل والماء . ومن هذه الطبقة الشفافة التى عرفت باسم الطلاء والتى جاءت الرسوم تحته أخذ هذا النوع من الخزف اسمه .

وقد كثر استعمال هذا النوع من الخزف فى باقى أجزاء العالم الاسلامى وخاصة فى القرن السادس للهجرة ، فقد بدأ استعماله فى مصر فى آخر العصر الفاطمى كما استعمل فى العصر الأيوبى والمملوكى فى مصر والشام . الا أن ايران ظلت هى صاحبة السيادة فى هذا النوع من الخزف ، حتى ان بعض أقاليمها (سلطنباد) صارت لها شهرة كبيرة فى صناعته وأصبحت مراكز التخزيف الأخرى تقلده ومنها مصر فى العصر المملوكى فقد كانت تنتج نوعا من الخزف المرسوم تحت الطلاء يعرف باسم (تقليد سلطنباد **So-called Sultanabad**) وقد ظل هذا النوع من الخزف يصنع فى ايران حتى آخر العصر الصفوى فى القرن الثانى عشر للهجرة .

على ان الخزف المرسوم تحت الطلاء الذى انتشر فى العالم الاسلامى منذ القرن السادس الهجرى لم تكن زخارف قاصرة على لون واحد كما هو الحال بالنسبة لخزف القرون الثلاثة الأول ، بل تعددت ألوانه . كما ان زخارفه دبت فيها الحياة وتأثرت الى حد ما بالأسلوب الصينى الذى جاء مع الغزو المغولى . كما تعدد عناصره الزخرفية فظهرت الرسوم الحيوانية والطيور والآدمية على قلة .

٢ ــ خزف ذو بريق معدنى (Luster Pottery) : ولعل من أهم أنواع الخزف الاسلامى الذى انفرد به الفن الاسلامى دون غيره من فنون العالم القديم والحديث ، هو البريق المعدنى . فقد استطاع الخزاف المسلم استعمال أكاسيد معدنية مذابة فى محاليل معينة تكسب الخزف بعد طلائه بها وحرقها بريقا معدنيا يختلف لونه بين الأصفر الذهبى والأحمر النحاسى والأصفر الضارب

الى الخضرة ، واختصت مدينة سامراء باللون الارجوانى واللون البنفسجى . ولم يظهر هذا الطلاء المعدنى على الخزف الاسلامى الا فى القرن الثالث واستمر فى ايران والأندلس الى القرن الثانى عشر للهجره .

وقد أقبل المسلمون فى جميع أنحاء العالم الاسلامى على الخزف ذى البريق المعدنى اقبالا شديدا مما جعل مؤرخو الفنون يفسرون سر هذا الانتشار ، بأنه أغنى المسلمين عن الأوانى الذهبية والفضية التى كان الفقهاء فى الاسلام يكرهون استعمالها لما يدل عليه من ترف واسراف . كذلك اختلف علماء الآثار فى تحديد الموطن الأول لصناعة هذا النوع من الخزف، ذلك انهم عثروا عليه فى حفائر ايران والعراق ومصر وتونس وقلعة بنى حماد ومدينة الزهراء بالأندلس . فنسبه الفرنسيون الى ايران ونسبه الألمان الى العراق ونسبه الانجليز الى مصر وأدلى كل منهم بحججه واسانيده المنطقية المقبولة الأمريكية فى منطقة الفسطاط ١٩٦٩ وعثرت على آنية زجاجية كاملة مرسوم عليها بمادة البريق المعدنى وثابتة التاريخ فقد ورد عليها اسم والى مصر من قبل الدولة العباسية سنة ١٥٥ هـ ، وهى بذلك أقدم قطعة على بريق معدنى ظهرت حتى الان . اما عن زخارف البريق المعدنى فقد كانت فى القرن الثالث الهجرى تكاد تكون قاصرة على زخارف نباتية محورة بأسلوب سامراء وغير متقنة قد ملئت بتشهيرات هندسية وبنقط مطموسة وفروع نباتية ملتوية منتظمة فى معظم الأحيان ، مما يدل ان أهم الخزاف الأول هو ملء الفراغ بهذه المادة التى تعطى بريق المعدن والذى هو سعيد باستخدامها . وفى نهاية القرن الثالث الهجرى وأوائل القرن الرابع بدأت الرسوم الآدمية والحيوانية فى الخزف ذى البريق المعدنى صناعة ايران ، الا ان الرسوم الأدمية كانت مرسومة بأسلوب تجريدى تعبيرى بحت لمجرد الرمز ، بينما كانت الرسوم الحيوانية قريبة الى الطبيعة الى حد كبير ومعبرة عن الحركة . والسبب فى ذلك ان الفنان الفارسى كان ما يزال يحتفظ ببعض التقاليد التى كان على الفنان اتباعها فى العصر الفارسى ، وهو التعبير عن الشخوص الآدمية لمجرد الرمز ، لانه يرمز فى ذلك الى الملك أو الشاه ، ولما كان الملك فى الديانة الزاردشتية ظل الاله على الأرض فان التطلع الى وجهه يعتبر جريمة يستحق من يقترفها الاعدام ، وعلى ذلك فان مجرد الرمز يكفى . أما بالنسبة للرسوم الحيوانية فقد كان للفنان مطلق الحرية فى أن يؤديها كما يريد . وكان باقى الآنية وحول الرسوم الحيوانية والآدمية فقد كان يملأ بنقط منتظمة تغطى الاناء كله ، وكثيرا ما يكتب بين هذه النقط بعض الجمل الدعائية باللغة العربية .

قد ظهرت الرسوم الآدمية والحيوانية فى نهاية القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجرى فى الخزف ذى البريق المعدنى فى مصر وغيرها من أنحاء العالم

الاسلامى ، أى بعد ايران بقرن من الزمان تقريبا ذلك ان الدولة الفاطمية فى مصر ، وهى الشيعية المذهب رأت من الحكمة أن تعتمد على أهل مصر من الأقباط أسلم من اعتمادها على المصريين السنيين · ومن ثم فقد عمل أقباط مصر على احياء الفن القبطى الذى كان سـائدا قبل الاسـلام ما دامت أمور الدولة كائنـة فى أيديهم من وزارة وامارة وغير ذلك ·

الا أن الرسوم الآدمية والحيوانية فى البريق المعدنى الفاطمى كانت تختلف اختلافا بينا عن تلك التى رسمت فى خزف ايران ، فالرسوم الفاطمية كانت السمة فيها قريبة من الرسوم القبطية ذات ملامح حوض البحر المتوسط ذات العيـون اللوزية والحواجب الغليظة المقرونة والأنف الدقيق وما الى ذلك من ملامح · أما الجلسة والملابس فتكاد تكون مشابهة فى كليهما فقد كانت مصر متأثرة فيها بالزى العباسى · كذلك امتاز الخزف الفاطمى ببعض عناصر محلية كرسم القسس والرهبان وبعض الشارات المسيحية مثل الصليب ذى العروة الذى يشبه علامة (عنخ) · كذلك كثر استعمال بعض شارات لها دلالات فارسية قديمة كأن تحيط بالانسـان أو الحيوان عصـابة طائرة ، دلالة على أن هذه الشخصية أو ذلك الحيوان يخص الملك كأنهـا اشـارة ملكيـة · كمـا كثر استعمال ورقة نباتية ذات خمسة فصوص يتوسطها عروة · وكثيرا ما نجد رسوم الحيوان أو الطائر وقد تدلى من فمه ورقة نباتية كناية عن الفأل الحسن ·

وفى نهـاية العصر الفاطمى فى القرن السادس الهجرى اختفى الخزف ذو البريق المعدنى من مصر ولم يظهر بعد ذلك ، ويرجع علماء الآثار السبب فى ذلك الى اعتبارات عـدة ، أولها طريق مدينة الفسطاط خشـية استيلاء الصليبيين عليها ، وقد كانت الفسطاط مكان تجمع مصانع التخزيف فى مصر · ثانيا ضعف الدولة اقتصاديا مما أدى الى ضعف القوة الشرائية لهذا النوع من الخزف الغالى الثمن الذى وصل ثمن القطعة الواحدة منه بضعة دنانير · ولو أضفنا الى ما تقدم ، هجرة كثير من صناع المعادن المكففة من ايران والعراق خوفا من الغزو المغولى ومنافسة الأوانى المعدنية المكففة بالفضة والذهب والتى لا يعلو ثمنها كثيرا عن الخزف المعدنى لعرفنا السبب ·

أما فى ايران فقد استمر الخزف ذو البريق المعدنى فى تطور دون انقطاع حتى نهاية العصر الصفوى فى القرن الثانى عشر للهجرة · كذلك تطورت زخارفه فى القرن السادس الهجرى بحيث أصبحت تشبه مدرسة التصوير السلجوقى وفى القرن السابع والثامن والتاسع التصوير المغولى والتيمورى · أما فى العصر الصفوى فقد اقتصرت رسوم البريق المعدنى على الرسوم النباتية القريبة من الطبيعة الى حد كبير والمتأثرة بالأسلوب الصينى ، والتى تشبه الرسوم الموجودة على النسيج والسجاد الصفوى ·

كذلك ظلت مصانع التخزيف فى شمال افريقيا والأندلس تنتج الخزف ذا البريق المعدنى حتى بعد زوال الدولة الاسلامية فى الأندلس (سنة ٨٩٧ هـ ـ ١٤٩٢ م) وذلك على يد المدجنين (Mudigar) وهم المسلمون الذين دخلوا فى خدمة الدولة المسيحية بعد زوال دولة بنى الأحمر . وقد اقتصرت رسوم الخزف فى الأندلس على الرسوم النباتية القريبة من الطبيعه . كما استعمل اللون الأزرق مع مادة البريق . كذلك كثر استعمال الزخارف الهندسية البحتة وزخارف تشبه حروف الكتابة العربية محصورة فى أشرطة عرضية ولكنها غير مقروءة . وكثيرا ما نجد فى وسط الآنية شارة الأسرة الحاكمة المسيحية .

ومن الأشكال التى أقبل الخزافون على زخرفتها بمادة البريق آنية للزهور على شكل جسم بصلى ورقبة ممتدة على شكل هرم ناقص مقلوب وهى التى عرفت باسم زهرية (الحمراء) نسبة الى قصر الحمراء الذى بناه بنو نصر أو (بنو الأحمر) فى مدينة غرناطة بين عامى ٨٩٧/٦٢٨ هـ (١٢٣٢ ـ ١٤٩٢) .

٣ ـ **الخزف الجبرى** : ومن أعظم أنواع الخزف الايرانى فى الفجر الاسلامى الخزف الذى عرف فى سوق العاديات باسم الخزف (الجبرى) نسبة الى طائفة من عبدة الشمس وجدت فى شمال شرق ايران عرفت بالجبرية . وبرغم وجود هذا النوع من الخزف منذ القرن الأول للهجرة ، الا ان معظم ما عثر عليه حتى الآن يرجع الى القرنين الرابع والخامس فقط . ويكاد يكون هذا النوع من الخزف قاصرا على ايران .

أما طريقة صناعته فكانت فريدة فى نوعها ، لان الخزاف يعمد بعد أن يطلى الآنية بطبقة من البطانة (Slip) ذات اللون الفاتح ، يبدأ فى حز الرسوم المطلوبة حزا عميقا فى طبقة البطانة ، أما المساحات الخالية من الزخارف فانه يكشط طبقة البطانة من سطحها حتى يصل الى طبقة عجينة الاناء الوردية اللون ، الأمر الذى يبدو معه وكان قد استعمل لونين الفاتح والأحمر . ثم تطلى الآنية بعد ذلك بطبقة من الطلاء الزجاجى الشفاف . وهناك طريقة ثانية أكثر تطورا من الأولى يرجعها علماء الآثار الى القرن الخامس الهجرى ، وهى التى يلجأ الخزاف فيها الى حز المساحات الخالية من الزخارف بدلا من كشطها فى الطريقة الأولى . والحزوز فى هذه الطريقة تكون على شكل خطوط وفروع حلزونية تملأ الفراغ كله .

أما عن زخارف الخزف الجبرى ، فهى أسلوب متميز عن غيره من أنواع الخزف الاسلامى فقد رسمت الزخارف الحيوانية بأسلوب تعبيرى رمزى بحت ، ولكن الفنان حرص فى نفس الوقت أن يظهر مميزات الحيوان التى ينفرد بها

بحجب نسهل نسمينه رغم اختلال نسبه التشريحية الى أقصى حد . كما نجح الفنان فى اظهار الحركة التى يؤديها رغم بعد رسمه عن الطبيعة . أما الرسوم البيانية فقد رسمها الفنان قريبة الى الطبيعة الى حد كبير .

٤ ــ **الخزف الميناثى** : ومن أنواع الخزف الذى انفردت به ايران دون غيرها من باقى أقاليم العالم الاسلامى ، الخزف الميناثى الذى ينسب الى مدينة الرى فى النصف الثانى من القرن السادس والقرن السابع الهجرى . فقد عثر على (سلطانيه) فى أطلال مدينة الرى من الخزف الميناثى مؤرخة من سنة ٦٤٠ هـ محفوظة الآن فى متحف فكتوريا وألبرت بلندن وقد عرف هذا الخزف باسم (ميناثى) وهى كلمة فارسية معناها تعدد الألوان ، ذلك ان الخزاف عنى عناية خاصة باظهار الألوان الكثيرة والمتضاربة فى هذا الخزف ومن ثم فقد لجأ الى استعمال مادة قصديرية معتمة فى طلاء بطانة الاناء وذلك حتى تظهر الألوان الأخرى بوضوح أما عن زخارف الميناثى فهى مأخوذة من المناظر التصويرية الموجودة فى مدرسة التصوير السلجوقية المعاصرة ، والتى تبدو فيها سحن الأشخاص ورسومهم ذات مسحة عربية واضحة .

٥ ــ **الخزف اللقبى** : ويعتبر خزف اللقبى من الخزف الذى اختصت به ايران كذلك دون غيرها من أقاليم العالم الاسلامى . وقد انتشر هذا النوع من الخزف فى القرن السابع الهجرى فى العصر السلجوقى . وقد عرف الخزف بهذا الاسم لان الخزاف حرص على أن يسجل لقبه على ظهر الآنية فعرف فى أسواق التجارة بهذا الاسم . ويمتاز خزف اللقبى بأنه من الخزف المحزوز تحت الدهان ، الا انه انفرد بأن هذه الزخارف المحزوزة طليت بطلاءات متعددة الألوان. أما زخارف هذا النوع من الخزف فتمتاز بكثرة استعمال الرسوم الحيوانية القريبة من الطبيعة الى حد كبير وبحجم كبير يملأ الاناء كله كما انها تعبر عن حركة قوية ، الا أن مسحة واضحة من العظمة والكبرياء تبدو عليها .

٦ ــ **الخزف المحزوز** : انتشر فى القرن السادس للهجرة نوع من الخزف الجيد ذى اللون الواحد ، الذى يكون غالبا الأزرق أو الكحلى أو اللون الترجوازى. وقد حزت زخارف هذا الخزف فى بدن الآنية قبل طلائها باللون الأزرق بدرجاته أو الترجوازى بدرجاته . وقد انتشر هذا النوع من الخزف فى جميع أنحاء العالم الاسلامى وخاصة ايران والعراق ومصر . وقد اختلف الأسلوب الزخرفى فى اقليم من تلك الأقاليم ، فبينما يكثر رسم الحيوانات على خزف ايران نجده يكاد يكون قاصرا على الرسوم النباتية فى مصر فى العصر الفاطمى والأيوبى والمملوكى .

٧ ـ **الخزف المحفور حفرا بارزا والتماثيل الخزفية** : وقد أنتجت ايران فى القرن السابع الهجرى أنواعا من الخزف حفرت زخارفها حفرا بارزا فى عجينة الاناء قبل طلائها بحيث أصبحت تلك الرسوم بارزة مجسمة ثم طليت الآنية بعد ذلك بلون واحد غالبا ما يكون أزرق أو ترجوازى · كما صنعت ايران تماثيل خزفية ولكنها لا تدخل فى باب النحت حيث انها أصبحت فى قوالب · كما أن تلك التماثيل لم تكن هى المقصودة فى ذاتها ، انما صنعت لوظيفة اما الاناء لوضع الزهور أو شمعدان أو ابريق للماء · أو كأس للشراب وما الى ذلك من الأغراض· أما عن فن النحت فليس له وجود فى الفن الأسلامى اللهم الا اذا كان الغرض منها أداء وظيفة الى جانب الناحية الجمالية · وقد كانت معظم تلك التماثيل تمثل الحيوانات والطيور بأسلوب مصير وقريب من الطبيعة الى حد كبير · كما وجدت بعض تماثيل رسوم سيدات ترضعن أطفالهن ، ولهذا فقد قال عنها علماء الغرب انها ترمز الى السيدة مريم ترضع يسوع المسيح عليهما السلام ، وان كنت لا أتفق معهم ذلك لأن ايران لم تكن مسيحية فى يوم من الأيام ، بل كانت تتبع مذهب مانى والزاردشتية قبل الاسلام ·

٨ ـ **الخزف المخرم** : ولعل أجود أنواع الخزف الاسلامى من حيث المادة الخام ومن حيث الأسلوب التطبيقى الصناعى ، هو الخزف المخرم · أما من حيث المادة الخام فانه يحتوى على كمية كبيرة من السليكا (الرمل) وكذا قدرا لا بأس به من مادة الكولين البيضاء ولذلك فان عجينة جيدة جدا مكنت الخزاف أن يحز فيها رسوما ثم يخرمها الى أن تنكسر أو تتشقق · وكان الخزاف يطلى الأوانى بطبقة البطانة ذات اللون الأبيض أو الأزرق ثم يحز فوقها الرسوم المخرومة وبعد ذلك يطلى الاناء كله بالطبقة الزجاجية الشفافة فتملأ الثقوب والخروم التى صنعها الخزاف فتبدو وكأنها نوافذ زجاجية · ومما يحق ملاحظته فى هذا النوع من الخزف أن سمك الآنية رفيع جدا لا يتعدى ثلاثة ملليمترات كما ان زخارفه قليلة · وقد وجد هذا الخزف فى ايران فقط فى القرن السابع الهجرى ·

٩ ـ **بلاطات القاشانى الفسيفساء الخزفية** : لقد عرفت البلاطات الخزفية باسم قاشانى نسبة الى مدينة قاشان التى أكثرت من استعمالها فى تكسية العمائر وزخرفتها بهذه البلاطات من الداخل والخارج فعرف بها · وبلاطات القاشانى ليست قاصرة على اقليم معين أو نوع خاص من أنواع الخزف ولكنها شملت معظم الطرق الصناعية والأساليب الفنية السابق الاشارة اليها · فهناك مجموعة من بلاطات القاشانى ذى البريق المعدنى يبلغ عددها (١٣٩) التى تحيط باطار حول محراب مسجد القيروان ترجع الى القرن الثالث للهجرة ·

وقد ظلت صناعة القاشانى مستعملة فى العالم الاسلامى وخاصة ايران حتى القرن الثانى عشر للهجرة ، فقد كسيت جدران قصر (جهل ستون) الذى يرجع الى العصر الصفوى ببلاطات تمثل منظرا تصويريا يمثل مدرسة التصوير الصفوية ، وهذه البلاطات محفوظة فى متحف المتروبوليتان بنيويورك .

أما الفسيفساء الخزفية فتكاد تكون قاصرة على زخرفة المحاريب دون غيرها من العمائر ولذلك فان زخارفها كانت قاصرة على رسوم النباتات والزخارف الهندسية والأشرطة الكتابية ومعظمها آيات قرآنية .

١٠ ـ الخزف الأندلسى : كانت الأندلس صاحبة السبق فى صناعة الخزف فى غربى العالم الاسلامى ، فقد عثر فى مدينة الزهراء على مقربة من قرطبة وفى قصر الحمراء بغرناطة على قطع من الخزف تثبت ان صناعة الخزف فى الأندلس كانت على علاقة وثيقة بالمنتجات الخزفية فيما بين القرن الثالث حتى الثامن الهجرى وخاصة فى الخزف ذى البريق المعدنى الذى سبق الاشارة اليه . ومن المراكز التى ذاعت شهرتها فى صناعة التخزيف فى الأندلس قرية منيشة Manises من أعمال بلنسية وفالقة قرب الساحل الشرقى .

وقد ازدهرت فى الأندلس مراكز أخرى منذ القرن السابع وحتى التاسع بعد الهجرة واستمرت حتى بعد زوال الدولة الاسلامية تنتج أنواعا من الخزف المرسوم تحت الطلاء المتعدد الألوان ، الا أن زخارفه كانت ذات طابع مسيحى وشعبى واضح ومن أهم هذه المراكز قرية باترنا من أعمال بلنسية ، ولعل السبب فى ذلك ان بلنسية قد سقطت فى يد المسيحيين منذ سنة ٦٣٢ هـ ولكن الفنون والصناعات التطبيقية التى تحتاج الى مهارة فنية وكفاءة فى علم الكيمياء ظلت فى يد المسلمين الذين عرفوا باسم المدجنين . (Mudigar)

١١ ـ الخزف العثمانى : لقد انفرد الخزف العثمانى بأسلوب صناعى لم يسبق اليه وهو طريقة الرسم فوق الطلاء ، ذلك ان كل ما عرف عن الخزف الاسلامى كانت جميع رسومه المتعددة الألوان أو ذات اللون الواحد يأتى الطلاء الزجاجى الشفاف فوقها ومن ثم فقد عرفت باسم الخزف المرسوم تحت الطلاء . أما الخزف العثمانى فقد انفرد برسم اللون الطماطمى فوق الطلاء وذلك لظاهرة كيميائية اختص به اللون الطماطمى ، الذى يعرف باسم (Ormenian bole) وهو مادة طبيعية تؤخذ من على ضفاف المجارى المائية من هضبة الأناضول . ومن خواص هذه المادة انها تعطى بريقا اذا حرقت فى النار كما انها تنفض أى مادة زجاجية توضع فوقها ومن ثم فقد كان على الخزاف أن يرسمها بعد طلاء الآنية كلها بالطبقة الزجاجية الشفافة . ومن أهم مراكز التخزيف فى تركيا مدينة بروسه عاصمة الدولة فى الجزء الأكبر من القرن الثامن الهجرى .

وقد لعبت بلاطات القاشانى فى العصر العثمانى دورا سياسيا هاما ، اذ كانت تصـــدر بصناعاتها الفرمانات السلطانية مبينا فيها العــدد والشــكل والزخارف ، وذلك ان معظم العمــائر الدينية والمــدنية كانت تكسى ببــلاطات القاشانى . ولذلك كانت صناعة الخزف رائجة لدرجة كبيرة فى العصر العثمانى، وكانت من أهم مراكزها فى القرنين العاشر والحادى عشر للهجرة مدينة ازينك (Iznik) التى أخرجت فى النصف الثانى من القرن العاشر والحادى عشر تحفا خزفية لا تدانيها تحف أخرى فى تاريخ الخزف العثمانى . وقد امتاز الخزف العثمانى بزخارفه التى تكاد تكون قاصرة على أنواع معينة من الزهور مثل القرنفل والسوسن المصمم والورد والخزامى وشجر السرد والورقة المركبة التى تعرف باسم Saz ، وكثيرا ما يحيط بهذه الباقة من الزهور دوائر متداخلة تشبه قواقع البحر . أما الرسوم الحيوانية فهى قليلة جدا اذا ما قيست بالزخارف النباتية .

وقد نسب علماء الآثار خطأ مجموعة كبيرة من صناعة ازنيك الى جزيرة رودس ، والسبب فى هذا انه قد عثر بمتحف مدينة (لندس) برودس على مجموعة كبيرة من خزف ازنيك وهــذه المجموعة أخذت الى متحف (كلونى) بباريس ، فنسبت الى المكان الذى أخذت منه . كما قال البعض ان معظم القطع الخزفية يحتوى على زخارف تشبه القواقع وقشر السمك ، وهى من مستلزمات الجزر ، كما وجد على بعض منها رسوم مراكب ، وهى أيضا من مستلزمات الجزر .

وعندما ضعفت تركيا فى القرن الثانى عشر للهجرة اختفت مراكز التخزيف الحكومية مثل أزنيك وبروسه وظهرت مراكز أخرى شعبية مثل كوتاهية قرب الساحل ، التى كانت تنتج أوانى صغيرة من أكواب وأباريق وكؤوس وصحون وفناجين ومزهريات وزمزميات . وقوام زخارف تلك الأوانى الرسوم النباتية والحيوانية والآدمية . وكان الصناع فى كوتاهية معظمهم من الأرمن الذين هاجروا من أرمينيا الى الساحل الغربى لآسيا الصغرى . كما ظهرت على ساحل الدردنيل بعض مراكز التخزيف الشعبى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للهجرة مثل مدينة مرفت وشنكال وجنك قلعة ومعظم انتاجها شعبى ومتأثر الى حد ما بالزخارف والرسوم والموضوعات الأوربية .

١٢ ــ خزف كوبجى : ينسب هذا النوع من الخزف الى قرية كوبجى فى اقليم داغستان ببلاد القوقاز . ولما كانت هذه المنطقة تقع بين الصــفويين فى الجنوب والشرق وبين العثمانيين فى الغرب ، لذلك فان خزف كوبجى جمع بين مميزات الأسلوبين الصفوى والعثمانى فى كثير من الأحيان ، كذلك تأثر خزف

كوبجي بالأسلوب الصينى الى حد كبير · أما بالنسبة للتأثير العثمانى فنجده واضحا فى استعمال اللون الطماطمى المأخوذ من هضبة الأناضول والذى يرسم فوق الطلاء الزجاجى الشفاف · كذلك نجد بعض القطع قوام زخارفها عبارة عن زهور ونباتات عثمانية وان اختلفت من حيث المنظر التصويرى · أما التأثير الصفوى فيرى واحدا فى أن الرسوم الآدمية والحيوانية مرسومة بأسلوب مدرسة التصوير الصفوى · أما التأثير الصينى فيبدو واضحا فى رسوم السحاب الصينى (تشى) وكذلك رسم التنين والعمائر الصينية · وعلى الجملة فان الخزف المنسوب الى كوبجى يمثل صناعة اقليمية جمعت بين ثلاثة أساليب فنية وزخرفية فى آن واحد ·

ثالثا ـ المعادن الاسلامية

من المعروف ان ايران فى عصر الدولة الساسانية كان لها قصب السبق فى صناعة المعادن على اختلاف أنواعها الذهب والفضة والحديد والبرونز . ولعل بعض السبب فى ذلك هو كثرة المناجم التى يستخرج منها تلك المعادن وخاصة معدن الفضة ، ومن المعروف ان العرب عندما فتحوا الأمصار قد انتهجوا سياسة حكيمة ازاء أهل تلك البلاد ، فتركوا لها حرية ممارسة عاداتهم وتقاليدهم وصناعاتهم ومنتجاتهم التى كانوا يقومون بصناعتها من قبل ، مما أدى الى تطور وازدهار تلك الصناعات والفنون التى قام على أساسها الفن الاسلامى فيما بعد .

واذا كان هذا هو وضع الفنون والصناعات جميعا فان الحال بالنسبة لصناعة التحف المعدنية يختلف اختلافا بينا ، ذلك ان صناعة المعادن ظلت على ما كانت عليه فى العصر الساسانى قرابة أربعة قرون فى العصر الاسلامى ، ولذلك فان علماء الآثار لم يجدوا بدا فى أن يطلقوا عليه اسم ساسانى متأخر أى (Post-Sassanian) .

ومن ثم فقد أصبح من الضرورى لدراسة التحف المعدنية فى العصر الاسلامى ، أن تدرس صناعة المعادن الساسانية دراسة فاحصة من ناحية المادة الخام وكذا الأسلوب الصناعى والأسلوب الزخرفى حتى نستطيع أن نعرف مدى التطور التى وصلت اليه هذه الصناعة فى العصر الاسلامى .

أما عن المواد الخام فان معدن الفضة كان يلعب الدور الرئيسى فى العصر الساسانى ثم يليه معدن البرنز ثم الذهب ، كذلك وجدت بعد المصنوعات الحديدية وخاصة فى قطع الأثاث مثل الكراسى والأرائك والمناضد وغيرها من الأدوات التى تحتاج الى قوة احتمال وقوة ضغط .

أولا : وكانت طرق زخرفة التحف المعدنية تتم على مراحل متعددة ، تبدأ بصناعة القوالب الخشبية وتحفر عليها حفرا بارزا الرسوم والزخارف المطلوبة ، ثم تصنع من المعدن رقائق تشكل بحسب شكل الآنية سواء أكانت مستديرة أو مربعة أو مستطيلة ثم توضع على القالب الخشبى ويضغط عليها ضغطا هينا باليد اذا كان المعدن لينا مثل الفضة او الذهب وتعرف هذه الطريقة باسم (embossing) . أما اذا كان المعدن جافا بعض الشىء مثل البرنز فانه يحتاج الى عملية ضغط شديد (high-embossing) وفى بعض الأحيان يحتاج الى الطرق بالمطرقة (hammering) .

ثانيا : بعد نزع الصفائح المعدنية من القوالب الخشبية تحز التفاصيل الدقيقة حزا خفيفا ، (incised) كما توضح حوافت الرسوم البارزة بطريقة الحز أيضا .

ثالثا : تملأ الشقوق الناتجة من عملية الحزف بمادة النيلو (Niello) السوداء ثم تحرق فى درجة حرارة بسيطة وذلك لتثبيت هذه المادة فى الشقوق.

رابعا : وأخيرا تشكل الآنية سواء أكانت كروية الشكل أو مقعرة أو غير ذلك من الأشكال وفى كثير من الأحيان تصنع الآنية من عدة خطع فمثلا تصنع الأباريق من ثلاث أو أربع أو خمس قطع ، اذ تصنع الرقبة من قطعة والبدن من قطعة ثانية والقاعدة من قطعة ثالثة واليد من قطعة رابعة وفى بعض الأحيان الصنبور من قطعة خامسة .

أما من حيث الأسلوب الزخرفى فان أشكال الأوانى المعدنية التى صنعت فى العصر الساسانى قد كانت تتكون من أباريق وكؤوس وأطباق وصوان كما كانت تحتوى على عدد كبير من التماثيل الحيوانية التى كانت تستعمل لوظيفة كأن تكون شماعد أو مباخر أو أباريق أو كؤوس توضع بها السوائل والشراب .

وكل تلك الأوانى زخرفت برسوم أدمية وحيوانية ونباتية بارزة ومحزوزة وقد ترصع فى بعض الأحيان بالأحجار الكريمة أو شبه الكريمة .

وقد امتاز الأسلوب التى نقشت به تلك الزخارف بان الآدمية منها تجريدية تعبيرية الى حد كبير وذلك التزاما للفكرة الدينية الزاردشمية التى كانت سائدة فى العصر الساسانى والتى تقول بأن الملك هو ظل الله على الأرض ومن ثم فان التطلع الى وجهه جريمة عقوبتها الاعدام ، ومن ثم فان الفنان كان مقيدا بقواعد وتقاليد لا يستطيع الفكاك منها ومن ثم فهو يجرد ويرمز الى الأشخاص . أما الرسوم الحيوانية فانه كان يؤديها طبيعية الى حد كبير وان كانت تعلوها فى كثير من الأحيان مسحة واضحة من العظمة والكبرياء ، كذلك كان يرسم العناصر النباتية ممثلة للطبيعة ، الا انه كان يكررها ويضعها فى تقابل وتماثل تام مما يفقدها حيويتها ويجعلها مجرد موضوع زخرفى . كما كان الفنان الساسانى يستعمل شارات معينة كان لها معان خاصة مثل العصابة الطائرة وهى شارة ملكية ، كما كان يرسم الطائر وقد تدلت من منقاره ورقة نباتية كناية عن الفأل الحسن .

كذلك أكثر الفنان الساساني من استعمال رسوم الحيوانات الخرافية ، كأن يكون الرأس آدميا والجسم لحيوان مفترس والأرجل لكبش وهو الذى يعرف الفرس القدماء باسم (الشاروبيم) وهو يقابل (ابو الهول) عند المصريين القدماء · أو ان يكون الرأس لطائر والجسم لحيوان مفترس ويعرف باسم (Siminury) أو رأس كلب على جسم حيوان مفترس ويعرف · (Gritpin)

وفى أوائل العصر الاسلامى استمرت التحف المعدنية تصنع بنفس الأسلوب السابق من حيث المادة الخام وطريقة الصناعة وكذا العناصر الزخرفية ، أما الأسلوب الزخرفى فقد يعتريه ضعف واضح فى مراعاة النسب التشريحية وبعد عن الطبيعة وجمود فى الحركة ، أخذ يزداد شيئا حتى اذا ما كان القرن الرابع أصبح مجرد رسوم تجريدية محورة · كذلك بدأت تظهر الكتابات العربية المحصورة فى أشرطة عرضية ·

المعادن فى العصر السلجوقى : وفى أوائل القرن الخامس الهجرى اختفى التأثير الساسانى من المعادن وظهرت عليه مسحة اسلامية واضحة قوامها الزخارف الكتابية التى أخذت تحتل مركز الصدارة وتلاشت الرسوم الحيوانية والآدمية المرسومة بالأسلوب الساسانى وحلت محلها العناصر النباتية المحصورة فى أشرطة عرضية موازية لشريط الكتابة · ولعل من أحسن الأمثلة لذلك صينية من الفضة صنعت للسلطان ألب أرسلان السلجوقى وقوام زخرفتها شريط من الكتابة نصه « السلطان عضد الدين تقديمها للحضرة الأجل السلطان المعظم ألب أرسلان آدام الله ملكه أمرت به ملكة الزمان قلبه آهل العصمة ·· صنعه حسن القاشانى فى تسع وخمسين وأربعمائة ويحيط بهذا الشريط من أعلى ومن أسفل حيوانات وطيور متقابلة ومتدابرة على أرضية نباتية مورقة (وهى محفوظة فى متحف الفنون الجميلة بمدينة بوسطن) ·

أما التحف البرونزية فقد كثر استعمال المرايا البرونزية التى تشبه المرايا الصينية وقد نقشت عليها كتابات بارزة تحيط بها وكذا رسوم نباتية وهندسية وفى بعض الأحيان رسوم حيوانية أو منظر للأبراج السماوية والدائرة الفلكية ومناظر صيد · ولعل من أحسن الامثلة لتلك المرايا المرآة المؤرخة سنة ٥٤٨ هـ وعليها شريط كتابة نصه بسم الله الرحمن الرحيم عملت هذه المرآة المباركة فى طالع سعيد مبارك وهى ان شاء الله تنفع للوقة وللمطلقة وسائر الأوجاع والآلام تبرأ باذن الله تعالى فى شهور سنة ثمان وأربعين وخمسمائة الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا · عمل فى

مرور الشمس ببرج الحمل سبعة معادن». وهناك مرآة أخرى مؤرخة سنة٦٧٥هـ وعليها رسـوم الدائرة الفلكية والأبراج ورسـوم حيوانات متتابعة وكتابات سحرية ، كما تضم آيات قرآنية وتنتهى بالعبارة التالية « هذه الأسماء منقوشة فى طالع سعيد منقوشة فى سنة خمس وسبعين وستمائه » (محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة) .

وفى القرن السادس الهجرى ازدهرت صناعة المعادن فى ايران فظهرت طرق صناعية جديدة هى طريقة التكفيت أو التطبيق ، وقوام هذه الطريقة هو حفر الرسوم المطلوبة على سطح المعدن ثم ملء الشقوق الناتجة باسلاك معدنية أغلى من معدن الآنية ومختلف عنه فى اللون . فتكفت الأوانى الذهبية بالفضة والفضة بالذهب والبرنزية بالفضة والنحاس الأصفر او الأحمر وهكذا . ومن أهم مراكز صناعة المعادن المكفتة فى ايران : هراة ونيسابور وسيستان ، ومن هذه المراكز انتشر فن التكفيت الى بلاد الجزيرة وخاصة الموصل ، التى ذاع صيتها فى العصور الوسطى وأصبحت ينسب اليها خطأ معظم المعادن المكفتة فى ايران والعراق .

ومن أعظم القطع المكفتة فى ايران فى العصر السلجوقى اناء من البرنز عليه زخارف مكفتة قوامها أشرطة كتابية بالخط الكوفى الصلب ذو الزوايا والنسخ اللين ذو الاستدارة ومما يجدر ملاحظته ان هامات الحروف وسيقانها تنتهى برؤوس أدمية وحيوانية . وهذه الظاهرة تكاد تكون قاصرة على اقاليم خراسان فى العصر السلجوقى . ونص الكتابة « بتاريخ شهر المحرم سنة تسع وخمس مائة فرمودن ابن خدمت ، (فارسية ترجمتها العربية — أمر بعمل هذا) عبد الرحمن الرشيدى ضرب محمد بن عبد الواحد عمل حاجب مسعود بن احمد النقاش بهراة . لصاحبه خواجه أجل ركن الدين فخر التجار أمين المسلمين زين الحاج والحرمين رشيد الدين عزيزى بن ابو الحسين الزنجانى دام عزه » (محفوظة بمتحف الهرميتاج بمدينة لينينجراد بروسيا) .

كما توجد مجموعة كبيرة من الشـماعد البرنزية المكفتة وقوام الزخرفة أشرطة كتابية وأخرى تحتوى على زخارف هندسـية وحيوانية بارزة ، ويعلو الجسم الاسطوانى للشمعدان مجموعة من التماثيل الصغيرة على شكل الطيور . وهذه الظاهرة تنفرد بها التحف المصنوعة فى ايران فى العصر السلجوقى .

التحف المعدنية فى الجزيرة : راجت صناعة المعادن فى الجزيرة لوفرة مناجم النحاس الأحمر والأصفر والبرونز بها . وكانت أعظم مراكز الانتاج

بها مدينة الموصل بالعصر السلجوقي وصناعة المعادن المكفتة بالفضة والذهب ·
ولم تكن أساليب صناعة المعـــادن المكفتـة المستعملة فى الموصل تختلف عن الأساليب الايرانية اللهم الا فى بعض تفاصيل دقيقة فقد كان صناع المعادن فى الجزيرة يكفتون بالفضـة ولا يستعملون النحـاس الأحمر ، كمـا كانوا يستعملون الذهب وان كان قليلا · كما كانت الرسوم والزخارف بجميع أنواعها ترسم على أرضية من خطوط منكسرة ومتداخل بعضها فى بعض على شكل حرف C · ومن الرسوم التى كثر ظهورها عن تحف الجزيرة فى العصر السلجوقى رسم الهلال بين ذراعى الرسوم الآدمية ، وقد وجدت مثل هذه العناصر على العملة التى ضربها بنو زنكى بالموصل التى يبدو انها كانت شارة بعض أمراء بنى زنكى ·

المعادن فى العصر المغولى والصفوى : وبرغم ما اشتهر به حكام المغول من بطش وعنف وغلظة ، الا انهم كانوا رعاة للفنون · فقد ظلت صناعة المعادن فى عهدهم زاهرة كما كانت فى عهد السلاجقة ، وان كانت قد تأثرت الى حد كبير بمدارس التصوير المعاصرة فقد أصبحت الرسوم المنقوشة أو المكفتة تحوى مناظر تصويرية ، بعد ما كانت معظمها فى العصر السلجوقى عناصر زخرفية مكررة ·

ومن أجمل القطع المغولية شمعدان من النحاس من صناعة ايران سـنة ٧٦١ هـ ، وهو مكفت بالفضة والذهب وقوام زخرفته جامات ودوائر متماسة كلها مملوءة بزخارف نباتية قريبة من الطبيعة الى حد كبير · ويحيط بالشمعدان شريط من الكتابة نصه « عمل العبد الأضعف محمد بن رفيع الدين شيرازى فى تاريخ جمادى الأولى سنة احدى ستين وسبعمائة » (محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة) · ومن القطع التى تمثل رسومها مناظر المدرسة المغولية فى التصوير ، طشت من النحاس المكفت بالفضة وقوام زخرفته أشرطة من مناطق تضم رسوما آدمية فى مناظر شراب وصيد وطرب · وهو من صناعة ايران فى القرن الثامن الهجرى ، ومحفوظ فى متحف الميترد يولتيان بنيويورك ·

ومن أهم المنتجات المعدنية فى العصر المغولى الأسلحة وان كان ما وصلنا منها حتى الآن قليلا · وأقدم ما نعرفه منها مجموعة من الدروع موزعة على متاحف أوربا وأخرى من الخوذات · وكلها تحتوى على أشرطة كتابية بالخط الكوفى المورق والخط النسخى ورسوم حيوانية ونباتية وخاصة رسم العنقاء والطيور المتقابلة التى يكثر وجودها على منسوجات الديباج فى القرن الثامن الهجرى ·

وتمتاز المنتجات المعدنية فى العصر الصفوى فى القرن العاشر الهجرى بأناقة أشكالها والاقبال على استعمال النحاس الأصفر اللامع الذى يكاد يقارب لون الذهب ، والنحاس الأحمر المبيض بالقصدير تقليدا للون الفضة ٠ كما أقبل الصفويون على استعمال مادة الحديد الصلب فى صناعة التحف ٠ ومن مميزات الكتابة على المعادن فى العصرالصفوى استعمال اللغة الفارسية بدلا من العربية ، سواء أكان شعرا أم نصوصا تاريخية كما أكثروا من استعمال الشارات والعبارات الشيعية وخاصة ذكر أسماء الأئمة الاثنى عشر ٠

ومن التحف المعدنية التى كثر انتاجها فى العصر الصفوى المقالم النحاس المكفتة ، المزخرفة برسوم السحاب الصينى والكتابة الفارسية على أرضية نباتية عناصرها قريبة من الطبيعة ٠ والشكل العام لتلك المقالم يختلف اختلافا بينا عن أشكالها فى مصر والشام فهى أشبه ما تكون بالمطرقة منها بالعلبة التى توضع بها أدوات الكتابة ٠ كذلك اتخذت الشماعد فى ذلك العصر شكلا خاصا مميزا ، فهى أشبه بالعمود الاسطوانى أو المثمن ، قاعدته مستديرة وتاجه ناقوس مقلوب تعلوه شكل شمعة ٠ ومن التحف المعدنية التى انفرد بها العصر الصفوى (الكشكول) وهو عبارة عن علبة بيضاوية الشكل تعلق من طرفيها بسلاسل وفى وسطها فتحة لهـا غطاء ٠ وهذه العلبة يحملها دراويش الشيعة ويجمعون بها ما يجود به الناس من الصدقات والنذور فاذا امتلأ (الكشكول) يعطيهالدرويش الى سادن العتبات المقدسة عند الشيعة (أى أضرحة أئمة الشيعة فى النجف وكربلاء والكاظمية ومشهد) لكى تعرف عليها ٠

كذلك امتازت أباريق العصر الصفوى بشكل خاص يتكون من بدن كروى ورقبة رفيعة جدا وطويلة تنتهى بفوهة متسعة وغطاء على شكل قبة صغيرة يعلوها ما يشبه الهلال ٠ ويخرج من بدن الأبريق صنبور رفيع يمتد من منتصف البدن وينتهى قرب الفوهة وكذلك يده التى تمتد كذلك من منتصف البدن حتى الفوهة ويكون عادة على شكل الأفعى ٠

وكانت الأسلحة والدروع فى العصر الصفوى تكفت بالفضة والذهب وتزين بالزخارف الجميلة القريبة من الطبيعة والمرصعة بالأحجار الكريمة ٠ وقد ظهر فى ذلك العصر نوع جديد من الدروع اسمه (جهاز آنيه) أى المرايا الأربع ، وهو يتألف من أربع صفائح من الحديد متصلة بواسطة مفصلات ٠ نستخدم احدى هذه الصفائح لحماية الصـدر والأخرى للظهر بينما يستعمل الأثنان الأخريان للجنبين وبهما فتحتان يخرج منهما الذراعان ٠ وكانت هذه الصفائح تبطن عادة بالحرير وتلبس فوق الزرد فى الحيطة أثناء الحروب ٠

المعادن المصرية فى العصر الفاطمى : ويحدثنا المقريزى عن كنوز الفاطميين فيذكر لنا العديد من مخازن المعدن والسلاح وعن أحياء بالقاهرة المضربة عرفت

بتخصصها في صناعة المعادن فقط ٠ ولعل من أشهر التحف المعدنية التى صنعت في أوائل العصر الفاطمى ، تلك التماثيل المعدنية المتأثرة بالأسلوب الساسانى التى عرفت فى العصور الوسطى باسم إكرامانيل (aquamanil) والتى تزخر بها متاحف وكنائس أوربا حتى الآن ٠ وقد أخذت تلك الأوانى المعدنيـة هذا الاسم ، ذلك انه عندما انتقلت هذه الأوانى الى أوربا عن طريق الحروب الصليبية، أو ابان الشدة المستنصرية استعملها رجال الدين والقسس لغسل ايديهم قبل القداس وأثناءه وبعده ومن ثم أخذت اسم آنية ماء الدين (aqua manus) ومن أشهر التماثيل الفاطمية ، تمثال العنقاء الموجود حاليـا فى جبانة مدينة بيزا بايطاليا ٠ (campo Santo Piza) الذى قيل انه جلب من مصر الى شبه الجزيرة الايطالية على يد عمورى ملك بيت المقدس بين عامى ٥٥٩ ــ ٥٦٩ ، وانه كان جزءا من فوارة مائية ٠ وقد زخرف بدن ورأس رقبة هذا الطائر الخرافى بشكل ريش وقشر سمك ، كما أحيطت الجامات الموجودة بظهر الطائر وحول الرقبة والأفخاذ بأشرطة من الكتابة الكوفية تحتوى على عبارات مدح واطراء وأدعية لصاحبه مثل (بركة كاملة ونعمة شاملة) ٠

وقد عثر فى حفائر مدينة أسـوان على مجمـوعة من الشماعد أو حاملة الشماعد أو مواد صغيرة للزينة ، قوامها عمود قاعدته وتاجه على شكل مرمانة وترتكز قاعدة العمود على قاعدة اسطوانية أو مثمنة الشكل تقوم على ثلاث أرجل حيوانية ٠ وتحتوى هذه القاعدة المثمنة على شريط كتابى بالخط الكوفى المزهر نصه عادة (بركة لصاحبه) أو (بركة كاملة ونعمة شاملة) ٠ ويعلو تاج العمود قرص مستدير ، كثيرا ما تتوسطه فتحة لوضع الشمعة (بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ومتحف كلية الآثار جامعة القاهرة) كذلك وجدت مجموعة صغيرة من الصوانى البرونزية حفرت عليها بطريق الحز زخارف حيوانية ونباتية تشبه الى حد كبير تلك الرسوم التى وجدت على الخزف ذى البريق المعدنى الفاطمى ٠

وقد ذكر المقريزى وغيره من مؤرخى مصر الاسلامية كثيرا من الحلى المزخرف بطريقة المينا من بين كنوز الفاطميين ، الا ان ما عثر عليه حتى الآن قليل جدا يكاد لا يذكر بجانب ما ورد وصفه بتلك المراجع ٠ أما عن طريقة زخرفة المعادن بالمينا ، فهناك طريقتان :

أولا : المينا ذات الفصوص émail cioisonné وتتكون هذه الطريقة من صنع حواجز رقيقة ذهبية أشبه بالعلب الصغيرة جدا تصب فيها أكاسيد معدنية سائلة تحرق فى النار فتحف وتعطى بريقا يشبه الأحجار الكريمة ، يتم لصقها بعد ذلك على الحلى أو المعدن المراد زخرفته ٠

ثانيا : مينا الحفر (émailchampllevé) وتتكون من حز الزخارف المرادة على الحلى أو المعدن واحداث تجاويف عريضة وعميقة أولا ثم تصب الأكاسيد المعدنية السائلة بعد ذلك ثم تحرق فى النار ٠ وقد انتشرت هذه الطريقة أكثر من سابقتها لانها لا تحتاج الى مهارة كبيرة كما انها أوفر من الناحية المادية اذ انها لا تحتاج الى حواجز ذهبية ومن أمثلة الحلى المزخرفة بالمينا (الحفر) التى ترجع الى العصر الفاطمى قرص صغير من الذهب عثر عليه فى أطلال مدينة الفسطاط ، قسم وجهه الى ثلاث مناطق زخرفت المنطقة المتوسطة بلون سنجابى وعليه كتابة باللون الأحمر ونصها (الله خير حافظا) أما القسمان الأعلى والأسفل فلونهما أخضر وبهما زخارف نباتية باللون الذهبى (وهو محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة) ٠

المعادن المملوكية : زاد الاقبال زيادة عظيمة على التحف المعدنية فى العصر المملوكى لأسباب عدة منها هجرة كثير من صناع المعادن فى ايران والعراق فرارا من الغزو المغولى والانتعاش الاقتصادى الذى صاحب ورود تجارة الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر بعد أن هجر الطريق البرى عبر ايران خوفا من الغزو المغـولى ٠

ثالثا : قدرة السوق المحلية على شراء التحف المعدنية الغالية الثمن هذا بالاضافة الى فتح أسواق خارجية مثل جنوة والبندقية وغيرها من موانى البحر المتوسط فى أوربا ٠

ولعل من أشهر المنتجات المعدنية التى انتشرت فى العصر المملوكى الأبواب الخشبية المصفحة بالنحاس والبرونز مثل باب الأمير سنقر أحد مماليك السلطان قلاوون سنة ٦٨٩ هـ والذى استخدم فى جامع السلطان برسباى الذى شيده فى الخانقاه الموجودة بشمال القاهرة سنة ٨٤٠ هـ وقد استخدم فى زخرفته عدة طرق فنية من حفر وتكفيف وتخريم وتصفيح وتثبيت بمسامير حديدية رؤوسها على شكل زهرة ٠ وزخارف هذا الباب متعددة بعضها نباتى مخرم وكذا طيور وحيوانات دقيقة تبدو لغير المتخصص وكأنها أوراق نباتية أو زهور ٠ كما يوجد بأعلى وأسفل الباب شريطان عريضان من الخط الثلث المملوكى الجميل (وهو محفوظ بمتحف الفن الاسلامى) ٠

كما وجدت مجموعة كبيرة من الشماعد التى يزخر بها العصر المملوكى وعلب الصماة والمقالم والطسون ، والعلب الكبيرة لحفظ القرآن الكريم والعلب الصغيرة لحفظ المجوهرات وما اليها ٠ كما وجدت بعض أوانى المائدة لم يسبق

وجودها فى أى اقليم آخر مثل (عمود الأكل) وهو مكون من مجموعة طاسات صغيرة يتراوح عددها ما بين ثلاث أو أربع أو خمس يجمعها عمود معدنى من الجانبين ويغطى الطست الأعلى غطاء . وهذه الآنية عليها زخارف نباتية وهندسية وكتابية وهى محزوزة فى معظم الأحيان وقلما تكون مكفتة .

كما حظى العصر المملوكى بمجموعة كبيرة من الثريات المعدنية التى عرفت باسم التنانير ، ولعل من أبدعها تنور من النحاس على شكل منشور مثمن ، يتألف من ثلاث طبقات مخرمة يحيط بها اطار به فتحات للزاقات (القناديل) . ويعلو الطبقة العليا شرفات على شكل زهرة الزنبق . وتحتوى هذه الطبقات على زخارف كتابية وهندسية وقد دون على هذا القنير اسم السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٦٤ هـ (وهو محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة) .

وقد صنع فى مصر فى العصر المملوكى مجموعة نادرة من التحف المعدنية المكفتة والتى سجل عليها اسم بنى الرسول . ومن أهم هذه التحف ابريق من النحاس المكفت ، قوام زخرفته كتابات وزخارف نباتية ورسوم هندسية ورسوم آدمية ونص الكتابة : عز لمولانا السلطان الملك المظفر شمس الدنيا والدين يوسف بن السلطان الملك المنصور عمر . نقش على بن حسين بن محمد الموصلى بالقاهرة فى شهور سنة أربع وسبعين وستمائة (محفوظ بمتحف الفنـون الزخرفية بباريس) .

المعادن الأندلسية والمغربية : لا تختلف التحف المعدنية فى الأندلس عن مثيلاتها من صناعة مصر فى العصر الفاطمى وخاصة تلك التى صنعت على شكل تماثيل الطيور والحيوانات ، مما جعل بعض علماء الآثار ينسبونها الى صناعة مصر فى القرن الرابع الهجرى . لكن الفاحص المدقق يجد بعض الفروق المميزة . فبينما نجد معظم التماثيل المعدنيـة الفاطمية بدنها خال من الزخرفة اللهم الا أشرطة كتابية أو زخرفية محصورة فى أشرطة ، نجد ان بدن تماثيل الأندلس التى عثر عليها فى قرطبة والزهراء قد ملئت بزخارف ذات أسلوب معين قوامه دوائر على شكل فروع نباتية متماسة وبها زخارف نباتية مكررة . كمـا تمتاز تماثيل الأندلس بدقتها وقربها من الطبيعة مما تفتقده التماثيل الفاطمية .

ومن التحف المعدنية التى انفردت بها الأندلس صناديق صغيرة من الخشب مصفحة بصفائح من الفضة زخارفها مصنوعة بطريقة القالب والضغط . وقوام زخارف هذه العلب فروع نباتيه ومراوح نجيلية فضلا عن الأشرطة الكتابية ومن أمثلة هذه العلب علبة ترجع الى القرن الرابع الهجرى عليها شريط من الكتابة

نصه « بسم الله بركة من الله ويمن وسعادة وسرور دائم لعبد الله الحكم أمير المؤمنين المستنصر بالله ، مما أمر بعمله لأبى الوليد هشام ولى عهد المسلمين ٠ تم على يد جوذر فتاة ، وتاريخ العلبة ٣٥٣ هـ ٠ (وهى محفوظة فى كاتدرائية جيرونا) ٠

كذلك ازدهرت صناعة الأسلحة فى الأندلس ومن أهم مراكز صناعتها مدينة طليطلة والمرية وأشبيلية ومرسيه ، ولعل أبدعها تلك التى صنعت فى عصر سلاطين بنى نصر فى القرنين الثامن والتاسع الهجرى ٠

رابعا ـ السجاد الوبرى

لقد تعددت الألفاظ التى تدل على النسيج الوبرى الذى يبسط على الأرض أو على الأرائك أو يفرش على الأسرة والمقاعد فى اللغة العربية فهى البساط فى بعض معاجم اللغة اذ يقول السكيت ، البساط ما بسط ويقول ابن سيده فى مخصصه البساط ما افترشته . وقيل هى الطنافس التى لها خمل رقيق . وجاء فى القاموس النمارق والبسط كل ما اتكىء عليه . وجاء فى الكشاف للزمخشرى ، الزرابى بسط عراض فاخرة ، وجاء فى القرآن الكريم « وزرابى مبثوثه » وفى تفسير الجلالين الزرابى بسط ذات خمل ومبثوثة مفروشة . وزرابى فارسية معربة مكونة من (زر) أى ــ الذهب وآب أى الماء) . وقيل البسط هى الرفرف وقيل هى العبقرى ، من قوله تعالى (متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان) . وقيل للبسط الطنفسة وجمعها طنافس ، وقيل الدرنكة وهى الطنفسة وقيل الزولية وهى البساط . وهكذا نرى أن اللغة العربية غنية بألفاظها ومرادفاتها التى تدل على ما يبسط ويفرش ، وبرغم أن كلمة سجاد لم ترد بينها ، الا أن تلك الألفاظ تستعمل للسجود عليها ، ولما كانت وظيفة السجود أشرفها فى استعمال البسط والطنافس فقد استقر الأمر بين الأثريين على استعمال كلمة السجاد للدلالة على كل تلك الألفاظ السابق الاشارة اليها .

أما عن تاريخ نشأة السجاد الوبرى المعقود فقد تعددت الآراء وتشعبت فقد قال المؤرخون بوجوده ونشأته فى آسيا ومن المحتمل أن تكون قبائل وسط آسيا أول من صنعها اعتمادا على توفر مادة الصوف الضرورية لهذه الصناعة ، هذا بالاضافة الى طبيعة البيئة القارصة البرد شتاء التى تحتاج الى مثل هذه المنسوجات الوبرية السميكة . وقال رجال الآثار بشأنه منذ العصر الفرعونى اعتمادا على قطع من النسيج الوبرى السميك عثر عليها فى مقابر الأسرة الحادية عشرة . ولكن هذه الآراء جميعها لا يمكن الاطمئنان اليها ، فبالنسبة لأقوال المؤرخين ، ليس لها دليل مادى يؤيدها أو ينفيها ، أما عن النسيج الوبرى المصرى فهو من قبيل المنسوجات الوبرية غير المعقودة .

ولعل من الأمثلة الهامة التى يجدر الاشارة اليها السجادة التى عثر عليها المنقب الأثرى الروسى رودنكو Rudenko وبازريك Pazyryk فى أواسط منغوليا فى اقليم الطاى Altia وهى محفوظة فى متحف الهيرميتاج بلننجراد . وقد اختلف مؤرخو الفنون فى تعيين وتحديد تاريخها ولكن كامل خيرو التكريتى استطاع بعد دراستها دراسة دقيقة من حيث طريقة الصناعة ان يثبت انها ليست

سجادا وبريا معقودا بل هى نسيج غليظ منسوج بطريقة السوماك Somak
أنظر لوحة (الهيرميتاج) ٠

وقد أطنب مؤرخو العرب عن الطنافس والبسط التى غنمها المسلمون عند فتحهم للمدائن وخصوا منها سجادة تعرف باسم (بهار كسرى) ومعناها (ربيع كرسى) فقد وصفه الطبرى فقال ان مساحتها ستون ذراعا فى ستين ذراعا ورسومها كالرياض أرضه مذهبة ووشيه بفصوص وثمره بجوهر وورقه بحرير وماء الذهب ، فلما قسم سعد بن أبى وقاص فيئهم لم يقسمها فأرسلها الى عمر ٠ وقد أورد هذه القصة ابن الأثير والبهائى وابن مسكويه وابن العميد وغيرهم كثير ٠ أما عن طريقة نسجها فقد اتفق علماء الآثار على أنها ليست نسيجا وبريا معقودا اعتمادا على ما جاء فى وصفها من أنها تحتوى على خيوط معدنية ، وانها مرصعة بالأحجار الكريمة ، فقد قال بوب pope وكذا شيرمان Schorman أنها منسوجة بالطريقة القباطى Tapestry . ويقول كونل Kuhnel وكذا بود Bode أنهـــا ليست ســجادا وبريا معقــودا ويرجح gadard أنها من أعمال الوشى والتطريز ٠ على أننى لا أستبعد أن يكون بساط (بهار كسرى) سجادا وبريا معقودا وذلك اعتمادا على ما جاء فى وصف المؤرخين العرب ، ذلك أن وجود الخيوط المعدنية والأحجار الكريمة لا يمنع أن يكون البساط منسوجا بطريقة الديباج بالخيوط المعدنية ومرصعا بالجوهر أما الوبرة المعقودة قد تكون منسوجة بخيوط حريرية أو صوفية ، ولدينا أمثلة عديدة من السجاد الوبرى المعقود المحتوى على زخارف منسوجة بطريقة الديباج من خيوط معدنية ومرصعة بالجواهر ٠

وقد عثر المنقبون فى حفائر الفسطاط على قطع من السجاد الوبرى على بعضها بقية كتابات مؤرخة يرجح انها سنة ست ومائتين بعد الهجرة (٨٢١م) ٠ وقد عده متحف الفن الاسلامى وكذا متحف المتروبوليتان بنيويورك من السجاد الوبرى المعقود ، ولكن بالكشف على هذه القطع تبين لى أنه نسيج وبرى سميك لا عقدة له وعلى ذلك فقد استبعدته من موضوعنا ٠

السجاد السلجوقى :

على أن أقدم سجاد عثر عليه حتى الآن يرجع الى العصر السلجوقى ، فقد وجد فى مسجد علاء الدين بقونية الذى بنى (سنة ٦١٦ هـ / سنة ١٢١٩ م محلى بسجادة قديمة العهد من صنع الأتراك السلاجقة فى القرن الســابع الهجرى ، فقد أخبرنا ماركو بولو الذى زار آسيا الصغرى (١٢٧٠ م) ان بلاد التركمان كانت تنتج أجمل وأفخر أنواع البسط ٠ كما عثر على ثلاث قطع بجامع

أشرف أوغلو) في (بايشهر) مماثلة لما عثر عليه في مسجد علاء الدين بقونيه ٠ وهذه القطع مصنوعة بطريقة الوبرة المعقودة اذ تحتوى البوصة المربعة على (٨٣) عقدة ، وهى محفوظة بمتحف الأوقاف باسطنبول ٠

ومما يدعو للدهشة حقا أنه لم يصلنا حتى الآن سجادة من القرنين الرابع عشر والخامس عشر في ايران ، برغم وجود صورها في مخطوطات العصرين المغولى والتيمورى ، كما ظهر في صور مصورى أوربا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر وخاصة هولباين لوحة ٠

السجاد المصرى فى العصر المملوكى :

على أننا قد عثرنا في مصر على سجاد وبرى معقود يرجع الى العصر المملوكى من القرنين الخامس عشر والسادس عشر ٠ وان كان علماء الآثار قد اختلفوا بشأنه فنسبوه أول الأمر الى دمشق والى مراكش والى آسيا الصغرى ، ولكن استقر الرأى أخيرا على أنه من صناعة مصر ٠ ويمتاز السجاد المصرى بمميزات انفرد بها دون غيره من سجاد العالم الاسلامى ٠ فمن ناحية المادة الخام نجد معظمه مصنوعا من الحرير لحمة وسدى ووبرة والبعض نجد لحمته وسداه من الكتان ويندر أن تكون من غير الحرير ٠ أما الألوان المستعملة فى السجاد المصرى ، فنجد أرضيته غالبا من اللون الأحمر وزخارفه باللون الأخضر النافض وأللون الذهبى ٠

وقوام الزخارف فى هذا السجاد الرسوم الهندسية وخاصة الشكل الثمانى الذى يشكل العنصر الأساسى فى مساحة السجادة وقطاعات منه فى الأركان وتحيط بالمثمن من الداخل عناصر نباتية محورة تبدو وكأنها شماعد ، ويحيط بالسجادة اطار عريض مكون من مجموعة من الأشرطة الرفيعة المحتوية على زخارف نباتية محورة كذلك ، وتشبه الرسوم الهندسية لهذا السجاد التى نجدها على التحف المملوكية وخاصة جلود الكتب ٠ وقد أشار الرحالة الأوروبيون الذين زاروا مصر فى نهاية العصر المملوكى فى القرن السادس الى وجود ـ مصانع لنسيج السجاد فى القاهرة كما ذكر المؤرخون الترك بان مهرة صناع السجاد قد نقلوا من مصر الى اسطنبول ٠

السجاد الأندلسى :

كذلك وجدت مجموعة من السجاد الأندلسى الذى يرجع الى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ٠ ولعل التشابه الشديد بين السجاد المصرى والأندلسى من حيث الزخارف هو الذى دعا بعض علماء الآثار الى الاعتقاد ان السجاد المصرى

هو كذلك من صناعة المغرب والأندلس ٠ على أن أقدم ما وصل الينا من سجاد الأندلس يرجع الى القرن الثامن الهجرى وخاصة النوع الذى يحتوى على رسوم وحدات معمارية مصفوفة فى ساحة السجادة وقد عرفت باسم سجاجيد السيناجوج (كنيس اليهود) ويمتاز اطار هذا النوع من السجاد باحتوائه على شريط عريض من زخارف تشبه الكتابة الكوفية ٠

على أن السـجاد الأندلسى الذى يرجع الى القرن الخامس عشر يمتـاز بزخارفه الهندسية وخاصة الشكل المثمن الذى استعمل بكثرة فى السجاد المصرى، وان امتاز السجاد الأندلسى بصغر وحداته الهندسية ودقتها ٠ كما تضم الزخارف رسوم نجوم كثيرة الأطراف تبدو وكأنها ماسة مشعة ولذا عرف هذا النوع من السجاد الأندلسى باسم الماس Diamend ٠ كذلك كان يضم السجاد الأندلسى رسوم طيور وحيوانات وآدميين محورة عن الطبيعة وبأسلوب تجريدى وترى هذه الزخارف فى الاطار الذى يحيط بالسجادة مضافا اليها زخارف من حروف كوفية ٠ ونلاحظ ان الألوان المستعملة فى السجاد الأندلسى كان اللون الأحمر للأرضية فى معظم الأحيان والاطار أزرق داكن ٠ والزخارف الكتابية المستعملة فى اطار هذا السجاد تشبه زخارف السجاد الذى رسمه هولباين فى لوحاته ٠

وقد عثر على مجموعة من السجاد الأندلسى الذى يرجع الى القرن الخامس عشر عليها رسوم رونوك أسرات معروفة فى ذلك الوقت بحيث أصبح من اليسير تاريخ قطع السجاد ٠

وقد امتاز السجاد الأندلسى بطوله العظيم وضيق عرضه ، مما يدل على ضيق عرض الأنوال التى نسجت عليها ٠

السجاد الايرانى :

على أن السجاد الاسلامى لم يصل غايته الا فى العصر الصفوى ، فقد نال شهرة عالمية لم ينله أى نوع من أنواع السجاد الذى سبقت الاشارة اليه ، حتى ان بعض الغربيين اعتقدوا انه ليس هناك من يصنع السجاد فى العـالم غير الايرانيين ٠ ولعل السبب فى ذلك هو أن صناعة السجاد كانت قبل العصر الصفوى فى ايران وغيرها ، صناعة أهلية ولكنها أضحت فى عهد الصفويين صناعة حكومية تخضع للرقابة والاهتمام الشديد ٠ بل ان بعض الملوك والامراء لم يكتفوا بانشاء المصانع فى قصورهم ودورهم ومدنهم فحسب ، بل شاركوا فى صناعة السجاد برسم وتصميم الزخارف فتحدثنا المراجع التاريخية فى هذا الشأن فتقول ان الشاه طهماسب (١٥٢٤ م ــ ١٥٧٦ م) كان يقوم برسم

صور السجاد ومسوداته بنفسه • وكان طبيعيا أن نكون مصانع السجاد من السعة والفخامة وأن تحتوى مخازنها على أجود أنواع الصوف والحرير والخيوط الذهبية والفضية والأصباغ على اختلاف أنواعها ، هذا بالاضافة الى امتلاك تلك المصانع العديدة من قطعان الضأن والابل والماعز وما اليها من الماشية التى تزود المصانع بما تحتاج اليه •

ولما كانت صناعة السجاد ترتبط ارتباطا وثيقا بالرسم والتصوير ، لذلك فقد عنى الملوك والأمراء بالمصورين والرسامين عناية كبيرة ، وأصبحت لهم الحظوة فى البلاط ، فقد عهد اليهم بالاشراف على جميع نواحى الحياة الفنية فى البلاد وكان السجاد يحتل المكانة المرموقة من بينها • ولعل من أشهر المصورين الذين استخدمت رسومه فى السجاد الذى عرف باسم سجاد الأشجار المزهرة بهزاد فى تبريز فى عهد الشاه طهماسب • وكذلك المصور قاسم على الذى اشتهر فى رسم السحب الصينية التى ازدان بها السجاد الايرانى •

أنواع العقد :

تنقسم العقد التى استعملت فى السجاد الاسلامى الى ثلاثة أنواع ، عقدة سينا Sehna أو العقدة الفارسية وهى التى يلتف خيط الوبرة على سدى واحدة ويبقى أحد طرفيها فوق السداة المجاورة والطرف الآخر تحتها وعقدة جوردوس Ghiordes التركية وهى التى يلتف فيها خيط الوبرة على سداتين ويخرج طرفيها من بينهما • أما العقدة المنفردة Single-Warp Rnot أو الاسبانية وهى التى يلف فيها خيط الوبرة على سدى واحدة ويظهر طرفيها فوقها فقط • وكما تعددت العقد تعددت نهايات السجاد Fringe المكونة من نهاية السدى التى تعقد عادة مع بعضها أو ينسج بطريقة زخرفية أو على شكل اشغال الابرة المضفورة (أنظر الشكل) •

زخارف السجاد الايرانى :

وتعتبر معرفة اسم أو مركز انتاج السجاد الايرانى من أعقد الأمور وأصعبها وذلك لكثرة وتعدد مراكز الانتاج وتشعبها ، ومن ثم فقد اختلفت علماء الآثار فى تصنيفه ، فمنهم من صنفه حسب مراكز انتاجه ومنهم من اتخذ الزخارف أساسا للتصنيف ، على ان كلا الأسلوبين يجب ان يؤخذ بشىء كثير من الحذر • ذلك ان كثيرا من أسماء البلدان التى تذكر على أنها مراكز انتاج ما هى فى الواقع الا مراكز تسويق وتجارة ولا يوجد بها مصانع للانتاج على الاطلاق • فضلا عن أن بعض العناصر الزخرفية يمكن أن يتخذ قواما لزخارف سجاد أكثر من

مركز واحد من مراكز الانتاج خاصة اذا علمنا بان الكثير من المصانع الحكومية كانت تنفذ ما يرسمه كبار المصورين ٠

واذا أخذنا برأى الفريق الثانى من علماء الآثار القائل بتقسيم السجاد الايرانى تبعا للأسلوب الزخرفى فانه يمكن تقسيمها الى العناصر والأساليب الآتية : —

١ — السجاجيد ذات الصرة والجامة :

وتتكون زخارف هـذا النوع من صرة أو جامة ترسم فى وسط ساحة السجادة وتكون العنصر الرئيسى الواضح بها ، وقد نجد أجزاء من الجامة فى أركان السجادة ، وقد يتدلى من أسفل وأعلى الصرة اناء على شكل مشكاة أو زهرية ، ومن أهم المراكز التى أنتجت سجاد الصرة مدينة تبريز وقاشان ٠

٢ — السجاد ذو الزخارف الحيوانية :

وتحتوى على مجموعة متنوعة من الرسوم الحيوانية وقد تدخل الرسوم الآدمية فى زخارفها وترسم الصور الحيوانية على أرضية من الزهور والنباتات بحيث لا نكاد تعرف أى العنصرين صاحب الصدارة ٠

وقد يضاف الى ما تقدم وجود الصرة أو الجامة بالسجادة ، ومن أحسن المراكز لانتاج السجاد ذى الرسوم الحيوانية قاشان وتبريز ٠

٣ — سجاد الزهـور :

وقوام زخارف هذا السجاد مراوح تخيلية ورسوم سينية وزهور مركبة Composite كما يمتاز باحتوائه على وريقات طويلة ومشرشرة ٠ وأرضية هذا السجاد فى معظم الأحيان حمراء اللون بينما الاطار أخضر ٠ وأهم مراكز انتاج هذا السجاد هراة فى القرن ١٧ م ٠

٤ — سجاد الأرابيسك :

يزخرف هـذا السجاد فـروع نباتية منثنية وقريبة الشبه من الزخارف النباتية المحورة بأسلوب سامراء التى تعرف باسم (أرابيسك) تتكرر فتغطى ساحة السجاد كلها ٠ ويمتـاز هذا السجاد باحتوائه على اطار عريض يضم بحورا يحتوى بعضها على زهور مركبة وأخرى تحتوى على كتابات فارسية ، وقد تحتوى على جامة فى وسط السجادة ٠

٥ ــ سجاد الزهريات :

لقد امتاز السجاد الذى صنع فى عهد الشاه عباس باحتوائه على عنصر وحدة زخرفية يشبه الزهريات مكونة من مجموعة من الزهور · ولا يتوسط السجادة شىء بل ان رسومها تصف فى توازن وتقابل حولها محورها الأوسط · ويمتاز هذا النوع من السجاد بمتانته ودقة صناعته وكثافه وبره وضيق اطاره ، كما يغلب ان تكون أرضيته زرقاء أو حمراء · كما تمتاز بانها طويلة بالنسبة الى عرضها · وقد صنع هذا السجاد فى أقاليم ايران الوسطى فى القرنين (١٦ ، ١٧ م) ·

٦ ــ سجاد الأشجار :

يحتوى هذا السجاد على رسوم الأشجار ، التى تكون الموضوع الرئيسى فى زخرفة السجادة ، وقد نرى الى جانب الأشجار عناصر زخرفية أخرى من جامات ورسوم طيور وحيوانات وزهور وسحب صينية · وقد ترسم الأشجار فى السجاد بشكل محور فى تكرار زخرفى يبعدها عن أصولها (لوحة) · وقد اشتهرت بصناعة هذا النوع من السجاد شمالى ايران فى القرن (١٦ ، ١٧ م) ·

٧ ــ سجاجيد الصلاة :

لقد امتاز شمال غربى ايران ولا سيما تبريز بصناعة سجاجيد صغيرة للصلاة · ويتميز هذا السجاد باحتوائه على آيات قرآنية مكتوبة بخط النسخ والكوفى والنستعليق فى أرضية السجادة وفى المناطق التى تحيط بها · وتحتوى سجاجيد الصلاة على خيوط معدنية منسوجة بطريقة الديباج ويلاحظ ان الزخارف النباتية فى ساحة السجادة موضوعة بشكل معين على هيئة محراب ·

٨ ــ سجاد الحديقة :

لقد قسمت ساحة السجادة الى أقسام يفصل بينها أشرطة عريضة ملئت بخطوط متعرجة ترمز الى تموجات المياه · أما الأقسام المفصولة فقد ملئت بزهور وأوراق نباتية ، حتى أن السجادة تبدو وكأنها حديقة تفصل بين أحواضها مجارى مائية · وقد راعى صانع السجاد بأن تكون المجارى المائية باللون الأزرق النافض والموج باللون الأسود والأزرق الداكن · كما نلاحظ ان أحواض الحديقة أرضيتها ذات لون برتقالى · وقد كثر صنع هذا النوع من السجاد فى آخر عهد الدولة الصفوية فى القرن (١٨ م) وانه يصنع للسوق الأوروبية · وهى من صناعة شمال غربى ايران وكردستان ·

٩ ــ السجاجيد البولندية :

لقد نسب هذا النوع من السجاد الى بولنده حينا من الزمن ، ولكنها من

انتاج مصانع البلاط فى أصفهان فى نهاية القرن (١٦ م) أما زخارفه فخليط من الزخارف القريبة من الطبعة والمحورة والمركبة • ولعل أبرز ما يمتاز به السجاد البولندى هو ان أرضيته ليست ذات لون واحد بل ذات أرضيات مختلفة الألوان • وأهم الألوان فى هذا النوع من السجاد الأصفر والأخضر النافض والبرتقالى والأزرق الفيروزى والأحمر القرمزى •

طريقة الصناعة

أما من الناحية التطبيقية ، فقد انفردت السجاجيد الايرانية بأسلوب وطراز خاص • فقد اتبعت فى صنعها طريقتان متعارضتان معقدتان ، تمتا فى ذلك الوقت وعلى نول واحد • وقد تطلبت طريقة الصنع هذه نوعين من خيوط السداة ، النوع الأول الخاص بالعقد والوبرة ، والنوع الثانى خاص بنسيج الزخارف غير الوبرية المنسوجة بطريقة الديباج بخيوط فضية وذهبية • وتشبه هذه المجموعة من السجاد من حيث المظهر النسجى مجموعة من الستور • موجودة بالمشهد • كذلك تختلف زخارفها فبعضها منسوج بطريقة الديباج بخيوط من الذهب والفضة والبعض الآخر منسوج بطريقة النسيج الوبرى غير المعقود المعروف باسم (القطيفة) •

وقد ظهر هذا الأسلوب التطبيقى ممتزجا مع الأسلوب الفنى والزخرفى لأول مرة فى ايران فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وخاصة فى عهد الشاه عباس الأول (١٥٨٦ ـ ١٦٢٨ م) ، الذى ظهر اسمه على ثلاث من هذه القطع •

السجاد التركى

ان شهرة تركيا فى صناعة السجاد تلى شهرة ايران ، فهى تحتوى كذلك على كل المقومات التى تساعد على قيام هذه الصناعة ، فبلاد الأناضول تحتوى على مراع وفيرة يجود الصوف فى جوها البارد وأرضها الجبلية وقريبة من المجارى المائية لغسل الصوف فتجود صباغته • على أن أقدم رسوم للسجاد التركى وصلتنا من اللوحات التى رسمها كبار مصورى ايطاليا وهولندا فيما بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر بعد الميلاد ، مما يشهد بأن السجاد التركى كان يصدر الى أوربا فى زمن أولئك الفنانين كما ان الكثير من القصور والكنائس والأديرة فى أوروبا تحتفظ حتى الآن بسجاد تركى قديم •

ومن أهم المصورين الهولنديين والايطاليين والألمان الذين رسموا الطنافس التركية فى لوحاتهم جيوتو (Giotto) ودمنكو دى بارتولو **Domenico di Bartolo** وفرانجلكو (Fra Angelico وكاربتشيو Carpacio وهولباين **Holbein**

أما عن مراكز الانتاج بتركيا فتكاد يتجمع معظمها فى النجاد الواقعة فى الأناضول على مسافة غير بعيدة من شواطىء البحر المتوسط مثل منطقة عصاق وكوردوس وقولا التى ما نزال حتى الآن تنتج مقدارا كبيرا من السجاد التركى ٠ كما تعتبر أزمير قاعدة هامة لتصدير السجاد التركى الى أوروبا حتى نسب اليها نوع من الجساد كان يصنع بالقرب منها ، وان كان معظم القائمين على انتاجه من الجاليات الأجنبية فى أزمير ٠ ويجب أن نتناول زخارف السجاد التركى ومراكز انتاجه بالبحث والدراسة وأن نذكر فى ايجاز وجه الخلاف بين السجاد التركى والايرانى سواء من ناحية الزخارف أو المواد الخام أو المساحات ٠

أما بالنسبة للزخرفة فيمتاز السجاد التركى بانه لا يحتوى على رسوم حيوانية أو آدمية على الاطلاق ، كما ان رسومه النباتية محورة وبعيدة عن الطبيعة وتقرب من الأسلوب التجريدى كما يمتاز السجاد التركى بتعدد الأشرطة الموجودة بالاطار بحيث أصبحت مساحة السجادة صغيرة ٠

أما المواد الخام المستعملة فى صناعة السجاد التركى فتكاد تقتصر على الصوف ويندر أن نجد السدى أو اللحمة من القطن ، أما الحرير فنادر وكذا الخيوط المعدنية فلا يكاد لها وجود فى السجاد التركى ٠

وكذلك تختلف مقاسات السجاد التركى فهى صغيرة بوجه عام اذا ما قورنت بالسجاد الايرانى ، فمعظم السجاد التركى قطع صغيرة تميل الى أن تكون مربعة ، أما اذا كانت السجادة كبيرة فهى ضيقة العرض كثيرة الاستطالة مما يدل على صغر عرض النول ٠ ومن ثم فقد اشتهرت تركيا بصناعة نوع صغير الحجم من السجاد عرف بسجاجيد الصلاة وذلك لاحتواء زخارفه على ما يشبه محراب المسجد ٠

سجاد القوقاز

لقد كانت لبلاد القوقاز شهرة واسعة فى صناعة البسط والكليم والجيلام والسجاد الوبرى المعقود منذ أقدم العهود شأنها فى ذلك شأن ايران وذلك لوجود جميع المقومات التى تحتاج اليها مثل هذه الصناعة ٠ ولعل أهم ما أنتجه اقليم القوقاز ينسب الى أرمينيا وأحيانا الى كوبا جنوب شرقى القوقاز ، الذى يطلق عليه فى كثير من الأحيان اسم سجاد التنين وذلك لان التنين هو العنصر الرئيسى فى السجاد المصنوع فى المنطقة كلها ٠

وبرغم شهرة القوقاز الواسعة فى صناعة السجاد الا أن أقدم ما نعرفه منها يرجع الى القرن (١٥) وهو يحتوى على رسم تنين بشكل بدائى تحيط به مجموعة من الأرجل على شكل الخطاطيف كما تقص الأساطير والروايات ٠ على أن صورة التنين مرسومة بأسلوب تجريدى ويحيط به مربع فبدا وكأنه رسوم هندسية بحتــة والقطعة التى نتحدث عنها كانت محفوظة فى القســم الاسلامى بمتحف برلين ولكن أكبر الظن انها ذهبت ضحية الحريق الذى قضى على مجموعة السجاد التى كان يزخر بها المتحف ٠ ونتيجة القطعة المشار اليها خشن وأرضيتها لونها أصفر ، أما التنين أزرق وأحمر والاطار أسود وأحمر ٠

وقد سجل لنا المصور الايطالى (Lorenzo Lotto) فى احدى لوحاته المحفوظة الآن فى متحف مدينة سينا Seina بايطاليا ، رسم سجادة تنين مماثلة للسجادة التى نحن بصدد وصفها ، ومماثلة للسجادة المحفوظة كذلك بالمتحف التاريخى بمدينة استوكلهم ٠ ويمكن تقسيم سجاد القوقاز الى الأقسام الآتيـــة :

١ ـ سجاد أرمينيا :

ومن أهم المناطق لصناعة السجاد القديم أرمينيا ونمتاز زخارفها المحتوية على رسم التنين كعنصر أساسى باحتوائه على زخارف نباتية قريبة من الطبيعة الى حــد كبير كما تحتوى على الزهرة المركبة والورقة المركبة التى نجدها فى السجاد الايرانى المعروف بالزهرية وفى الخزف التركى ٠ الا انها تتفق مع باقى البراقة والمتعــددة مثــل اللون الأزرق للأرضـــية والزخارف بالألوان الأصفر الا انه يصبح فى سجاد ارمينيا أكثر تحويرا ٠ ويمتاز سجاد أرمينيا بألوانه سجاد القوقاز القديم بأن ساحة السجادة مقسمة معينات ـ يكونها جسم التنين والأحمر ٠ أما الاطار فضيق نسبيا ويتكون من وحدة نباتية مكررة فى معظم الأحيــان ٠

٢ ـ سجاد كازاك :

وهو الذى يصنع فى الجزء الجنوبى الغربى من القوقاز وهو يعرف فى الأســواق أيضــا باســم داغستان وتمتــاز بألوانها البراقة الفاقعة كما تمتاز بوحداتها الزخرفية الكبيرة المرسومة بأسلوب هندسى ٠ وهى تتفق مع سجاد ارمينيا من حيث احتوائها على رسم التنين كعنصر رئيسى الا أنه فى سجاد كازاك أكثر وضوحا فهو يشكل المعينات كمــا أنه يرسم داخلها ٠ كما ان الزخارف النباتية المكونة من زهور مركبة وأوراق مركبة بأسلوب هندسى كذلك ٠ وسجاد

كازاك سميك وألوانه يسودها اللونان الأحمر والأزرق ، أما الاطار فزيدى اللون غالبا ومساحتها صغيرة

٣ ـ سجاد شروان وكوبا :

وهو السجاد الذى يصنع فى الجزء الشرقى من القوقاز وهو أدق صنعة وأقل لمعانا وأقصر وبرة من سجاد كازاك ويكثر بها اللون البنفسجى ، ويكثر بها زخارف الطيور والحيوانات ، الى جانب التنين طبعا الا أنها محورة تحويرا كبيرا • ولعل أهم ما يميز سجاد شروان وكوبا احتواء الاطار على زخارف شبه كتابية تشبه زخارف الهولباين فى السجاد التركى والاسبانى •

سجاد التركستان وآسيا الوسطى

من المعروف ان العشائر الرحل فى بلاد التركستان وآسيا الوسطى كانت من أول الشعوب التى صنعت السجاد الوبرى لاستعماله فى أغراض شتى توائم طبيعة البلاد التى يسكنونها وتتفق وما يملكونه من المواد الخام التى تقوم عليها هذه الصناعة من صوف وصباغة وما اليها •

ومن أحسن الأمثلة لهذا السجاد ما يرجع الى ما قبل القرن الماضى وهى تنسب خطأ الى بخارى ولعل مرجع هذا الخطأ ان بخارى هى المركز التجارى لتسويق سجاد التركمان •

وتمتاز زخارف هذا النوع من السجاد بأن قوام زخرفتها شكل مثمن يعرف باسم (بيلى با) أى (قدم الفيل) بالفارسية والتركية • ويغلب على هذا السجاد اللونان الأحمر القانى والأبيض والأزرق أو الأسود كلون مساعد •

السجاد الهندى الاسلامى

قامت صناعة السجاد فى عصر أباطرة المغول على أيدى الايرانيين كما هو الحال فى باقى فنونهم الاسلامية • ولذلك فاننا نلاحظ فى السجاجيد الاسلامية القديمة بالهند أوجه شبه كبيرة بينهما وبين السجاد الايرانى وخاصة فى اقتصاره على رسوم الزهور والنباتات القريبة من الطبيعة وان كانت تمتاز بلونها البرتقالى الذى لا نعرفه فى غيرها من السجاد وبلون بنى مائل الى الحمرة•وكثيرا ما عرفت هذه السجاجيد باسم السجاجيد الهندية الايرانية•ولكن سرعان ما تحرر الصناع الهنود من التأثيرات الايرانية وأقبلوا على رسم الطيور والحيوانات والصور

الآدمية وان لم يفقدوا الصلة كلية بالأساليب الايرانية . ولعل أهم ما يميز السجاد الهندى قرب رسوم الطيور والحيوانات وكذا النباتات من الطبيعة الى حد كبير مما لا نجده فى السجاد الايرانى اما ان المناظر التصويرية مأخوذة من الأساطير الهندية وكذا رسوم الآدميين هندية السحنة واللباس والأسلوب . ومن حيث الصناعة فهى فى غاية الدقة وكثيرة العقد حتى أن السجاد الصوف الذى صنع فى عصر شاهجهان يبدو من دقته وكأنه مصنوع من الحرير . كما أن الهند اشتهرت منذ أقدم العصور بسجادها المصنوع من الحرير والذى استمر بطبيعة الحال الى العصر الاسلامى وان اختلفت رسومه وأسلوبه الزخرفى .

النقش فى الخشب والعاج

من المعروف ان معظم الأقاليم الاسلامية كانت ولا تزال تفتقر الى الجيد من الأخشاب التى يمكن أن تؤدى عليها رسوم أو زخارف منقوشة أو محفورة ·

ولكن العرب استطاعوا أن يتغلبوا على هذا النقص فى مادة الخشب الجيد ، بجلبه من البلاد الأخرى وخاصة عندما اتسعت رقعة الدولة الاسلامية وأصبحت تضم العديد من المناطق الجغرافية ·

وسرعان ما برز المسلمون فى صناعة التحف الخشبية حتى أصبح لهم أسلوبهم الخاص المتميز فى زخرفة الأخشاب · لقد كان طبيعيا أن تكون الزخارف الأولى التى استعملها المسلمون فى زخرفة أخشابهم متأثرة بالفنون التى كانت سائدة قبل الاسلام ونعنى بها الهلينستية والساسانية ثم أخذت تتطور تدريجيا حتى اذا ما جاء القرن الثالث للهجرة كان الفنان المسلم قد ابتكر له أسلوبا خاصا متميزا لم يسبق اليه والواقع ان الأسلوب الزخرفى الذى ابتكره الفنان المسلم فى القرن الثالث الهجرى لم يكن وقفا على الخشب فحسب بل امتد الى غيره من التحف الفنية الأخرى فقد بدأ ظهور هذا الأسلوب الجديد من الزخرفة على الجدران والسقوف المكسوة بطبقة من الجفن وكانت كلها زخارف قالبية ، بدأت برسوم ونقوش نباتية أخذت تتحور شيئا فشيئا حتى بعدت عن أصولها حيث أصبح من العسير تحديد أسمائها وان كان من اليسير نسبتها الى النباتات ·

وقد أكثر العرب من استعمال الزخارف النباتية المحورة حتى ان علماء تاريخ الفنون لم يجدوا اسم علم يطلقونه على هذه الزخارف التى ابتكرها العرب وأكثروا من استعمالها خيرا من اسم أرابيسك (Arabesque) فى العصر العبـــاسى ·

وقد انتشر هذا الأسلوب المحور فى زخرفة الأخشاب فى العصر العباسى فى جميع بلاد العالم الاسلامى فى ذلك الوقت حتى أصبح من العسير فى كثير من الأحيان على غير المتخصصين تحديد الاقليم الذى صنعت فيه التحف الخشبية ·

فلما تقطعت أوصال الدولة العباسية وظهرت خلافات أخرى فى الأندلس الدولة الأموية الغربية والدولة الفاطمية فى شمال افريقية ومصر تطورت زخارف الأخشاب وأصبح لكل اقليم زخارف معينة تميزها عن غيرها من الأقاليم وان اتحدت جميعها فى الطابع والطراز العام الذى كان يوحده ويضم شمله الخط العربى والكتابات القرآنية ·

الخشب الفاطمي :

فقد تميزت الزخارف المحفورة على الخشب فى العصر الفاطمى فى أنها جمعت بين الطراز العباسى المحور عن الطبيعة وطراز آخر جديد كل الجدة وهو الزخارف الآدمية والحيوانية التى كانت موجودة فى مصر قبل الاسلام والتى كان يمارسها فى الأخشاب المحفورة وبرع فيها أقباط مصر ٠

ومن ثم فقد أطلق على الطراز الفاطمى فى القرنين الرابع والخامس للهجرة طراز انتقال على ان تأثر الطراز الفاطمى بالطراز المصرى القديم الذى وجد قبل الاسلام كان شيئا طبيعيا ذلك ان خلفاء الدولة الفاطمية كانوا قد اعتمدوا عند الاستيلاء على مصر واقتطاعها من الدولة العباسية على أقباط مصر لاعتبارات كثيرة لعل أولها وأهمها هو خوفهم من الاعتماد على المسلمين السنيين المذهب المخالفين لمذهب الفواطم الشيعي الاسماعيلى ٠

هذا فضـــلا عن ان أقباط مصر كانوا أكثر دربة وقدرة على استغلال اقتصاديات مصر التى تقوم أساسا على الزراعة ٠ لذلك فقد أسند خلفاء الدولة الفاطمية الوزارة ووظائف الدولة الكبرى الى أقباط مصر بل وتصاهروا معهم فتزوج الخليفة العزيز بالله مسيحية وأنجب منها ولده الحاكم بأمر الله وهكذا أصبح أخوال الخليفة من الأقباط

وهكذا نستطيع القول بأن القرنين الرابع والخامس للهجرة كانا عصرين لاحياء للفنون القبطية فى مصر وخاصـــة فى صناعة التحف الخشبية والخزف والنسيج ٠

على ان الطراز القبطى الذى انتعش فى مصر فى العصر الفاطمى أخـــذ يضعف شيئا فشيئا منذ نهاية القرن الخامس الهجرى حتى اذا ما بدأ القرن السادس للهجرة كان قد تلاشى تماما وحل محله طراز زخرفى جديد أتى من مشرق العالم الاســـلامى مكون من أشكال هندسية قوامه النجمـــة المتعددة الرؤوس ٠

الخشب فى عصر الأيوبيين والمماليك والعثمانيين :

احتفظ الخشب بطرازه الزخرفى الذى وجد فى نهاية العصر الفاطمى قرابة سبعة قرون أى حتى نهاية العصر العثمانى لم يطرأ عليه تغير جوهرى وان تطور فى دقة الزخارف النباتية التى تملأ ساحة الوحدات الهندسية كما تطور أسلوب الخط فقد بدأ الخط النسخى منذ العصر الأيوبى يحل محل الخط الكوفى فى

معظم الحالات ثم تطور النسخى الى حروف كبيرة فى العصر المملوكى وهو ما عرف باسم الخط الثلث المملوكى (١) ٠

كما استتبع هذا التطور طوال تلك العصور تطور فى الأسلوب التطبيقى للحفر على الخشب ٠ وقد عرفت الوحدات الزخرفية التى استعملت فى زخرفة الأخشاب طوال تلك المدة باسم الحشوات المجمعة التى تكون فى مجموعها باسم الطبق النجمى الذى يحتوى على النجمة فى الوسط والتى يلتف حولها وحدات صغيرة ثلاثية الشكل يبلغ عددها عدد النجمة تعرف باسم (اللوزه) ثم يحبط (باللوزة) وحدات أكبر منها ذات خمسة أضلاع تعرف باسم (الكندرة) وتحيط بالطبق النجمى سدايب خشبية تحبس تلك الحشوات والأطباق النجمية ببعضها البعض ٠

وقد أبدع النجارون فى العصر المملوكى فى زخرفة الحشوات المجمعة فملأوها بأنواع المراوح النخيلية والفروع النباتية والوريقات بأسلوب ووقص قريب من الطبيعة الى حد بعيد وبعيد كل البعد عن الأسلوب المحور (الأرابيك) الذى كان سائدا فى القرون الأربعة الأولى للاسلام ٠

وأقبل الفنانون على انتاج التحف الرقيقة لا سيما المقابر والأبواب والوكلك والكراسى والخزانات الحائطية التى تعرف حاليا فى البلاد الأوربية باسم (Placard) وكذا كراسى العشاء وقد ازدهرت فى عصر المماليك صناعة الشبكيات المصنوعة من الخشب الخرط وهى التى تعرف باسم مشربية وهى مأخوذة لكلمة (شرب) التركية وتعنى الغرفة العلوية البارزة عن سمت الحائط ولما كانت مثل هذه الغرفة البارزة توضع بها أوانى الشراب التى تبرد فقد اختلطت كلمة (شرب) التركية وكلمة الشراب ٠

فأصبحت كلمة مشربية اسم علم على كل النوافذ والفتحات المغطاة بخشب الخرط والتى تكون عادة بارزة عن سمت الجدار الخارجى للدور والمنازل ٠

---

(١) لقد كان يكتب فى الدواوين على لفائف من الكاغد طولها (٣٦) مترا تقريبا (تعرف باسم الطومار) فلما وجدوا أن مثل هذه الفائدة الطويلة معطلة لأعمال الديوان قسموها الى ثلاثة اثلاث فصرف كل جزء من الطومار باسم ثلث الطومار وقد استتبع تفسيم الطومار الى ثلاثة أقسام تصغير حرف القلم (قطه) البسط الذى كان يكتب به الى ثلث وكان ذلك فى العصر المملوكى هكذا عرف الخط الذى كتب بثلث قطة القلم على ثلث طول الطومار باسم الخط الثلث ونسب الى العصر الذى ابندع فيه وهو العصر المملوكى ٠

طريقة الصناعة :

ومن الأمور التى تستدعى الاشتباه فى الطرق التطبيقية التى استعملت فى المنتجات الفنية فى العصر الاسلامى انها كانت تساير تطور الأسلوب والطراز الزخرفى الذى كان يتغير من عصر الى آخر تبعا لظروف سياسية أو دينية أو اقتصادية فقد كان الأسلوب التطبيقى فى الحفر على الخشب فى العصر الأموى وبداية العصر العباسى يوائم ويساير الأسلوب الزخرفى الذى كان يمثل الطبيعة الى حد كبير وخاصة فى الزخارف والرسوم النباتية لذلك نجد الحفر عميقا ومجسما حتى يبرز الزخرفة قريبة من الطبيعة كما أرادها الفنان ٠

فلما تطورت الزخارف النباتية فى القرن الثالث للهجرة وأصبحت محورة الى درجة كبيرة أبعدت العنصر الزخرفى عن أصوله الأولى وهو الأسلوب الذى عرف باسم (رابيك) (Arabesque) ثم تطور فن النحت فأصبح مسطحا اذ لم يجد الفنان ضرورة لتجسيم عناصر غير معروفة كما كان يفصل بين العناصر بحزور غير عميقة وان كان قد عنى بعمل قنوات تفصل الواحدة الزخرفية فقط٠ فلما ازدادت العناصر الزخرفية تحويرا ابتدع الفنان طريقة الحفر المشطوف بحيث لا يجعل للعناصر الزخرفية حافات حادة بل شطفها فجعلها مستديرة مما أكسبها شيئا من الحياة البهجة ٠

أما فى العصر الفاطمى عندما استخدم الفنان الأسلوب المحور السالف الاشارة اليه مع عناصر آدمية وحيوانية المأخوذة عن الفن القبطى كان عليه ان يطور أسلوبه التطبيقى فحفر الزخارف المحورة بطريقة الشطف وحفر الزخارف الآدمية والحيوانية عميقا وبارزا ثم حضر الخليفة التى تقع الزخارف الآدمية والحيوانية حفرا أقل بروزا ٠

وهكذا استخدم الفنان فى زخارف العصر الفاطمى ثلاث مستويات من الحفر فلما تطورت زخارف الأخشاب بعد العصر الفاطمى وأصبحت تتكون من عناصر هندسية قوامه النجمة ٠

تطور الأسلوب التطبيقى بحيث أصبح الفنان يحفر كل وحدة من وحدات الطبق النجمى النجمة واللوزة والكندة كل منها على حدة ثم تجمع هذه الوحدات الصغيرة الى بعضها بطريقة العاشق والمعشوق ٠

دون أن يلجأ النجار الى استعمال المسمار أو أى مادة غروية لاصقة وهو أرقى ما وصل اليه فن صناعة الأخشاب حتى الأن وهو الأسلوب التطبيقى المعروف باسم (الحشوات المجمعة) ٠

وقد كان الفنان يكسو الخشب فى بعض الأحيان بطبقة من قشرة بعض الأخشاب الملونة كالأبنوس أو من العاج أو العظم وما يليها وذلك باستعمال مادة غروية لاصـــقة • ويعرف هذا الأســـلوب التطبيقى باســـم الترصيع (Morquerterie) او تطعيم زائف False Glued كما استعمل فى زخرفة التحف الفنية طريقة التطعيم بالعـاج أو الصدف (Inlay) وفى العصر العثمانى استعمل فى زخرفة الأخشاب بالمعادن وهو الأسلوب المعروف باسم التكفيف • (Jucrustation)

الخشب فى المغرب والأندلس :

الواقع ان الطراز الفنى الذى ساد التحف الخشبية فى الأندلس وبلاد المغرب فى العصر الأموى والعباسى والأموى الغربى كان يتبع الطراز الاسلامى العام الذى ساد العالم الاسلامى مع بعض مميزات فرعية طفيفه لم تغيرا من الجوهر شيئا •

أما عن الطراز الفنى فى عصر المرابطين والموحدين فهو تقليد الأساليب الفنية التى عرفناها فى عصر الأيوبيين والمماليك الذى عرف باسم الطبق النجمى المصنوع بطريقة الحشوات المجمعة وان اختلفت فى بعض التفاصيل مثل شكل النجمة فهى عادة غير منتظمة الرؤوس كما ان شكل (اللوزة والكندة) مقابل لشكل مثيلاتها فى مصر وبلاد الشام • ولعل من أقدم التحف الخشبية التى ما تزال موجودة حتى الآن وتمثل الطراز الأموى خير تمثيل منبر مسجد القيروان بتونس •

واذا كان ما وصل الينا من التحف الخشبية من الأندلس وشمال أفريقية قبل عصر المرابطين تعد قليلة جدا الا ان التحف التى ترجع الى عصر المرابطين كثيرة من • ومن أجملها منبران بديعان يوجد الأول منهما بالمسجد الجامع فى مدينة الجزائر والثانى يوجد بجامع القرويين فى مدينة فاس •

كذلك يرجع الى العهد المرابطى مقصورة المسجد الجامع فى تلمسان • ومن تحف العصر الموحدى منبر جامع الكتبية ومنبر جامع القصبة فى مراكش وكذا منبر المسجد الجامع فى قرطبة •

ومن التحف الأندلسية التى ترجع الى القرن الثامن الهجرى أبواب قائمة الأختين فى قصر الحمراء بغرناطة وأبواب القصر Alcasar بمدينة أشبيلية •

الحفر على الخشب فى العصر السلجوقى :

لم يخرج الطراز الفنى فى الحفر على الخشب فى العصر السلجوقى فى شرق العالم الاسلامى عن الأسلوب الذى ساد مصر وبلاد الشام وكذا الأندلس وبلاد المغرب منذ القرن السادس والسابع ونعنى به طراز واسلوب الطبق النجمى أو الزخارف الهندسية المملوءة بالزخارف النباتية التى أخذت تدب فيها الحياة بعد الأسلوب المحور الذى ساد النصف الأول من العصر العباسى ٠

أما من حيث الأسلوب التطبيقى فلم يصل فى تطوره ودقته ما وصل اليه فى مصر وبلاد الشام اذ لم يتبع أسلوب الحشوات المجمعة وانما اقتصر على الحفر الغائر والبارز ٠

ولعل من أعظم التحف الخشبية التى ترجع الى العصر السلجوقى منبر جامع عـلاء الدين بقونية فهو غنى فى زخرفة كل أجزائه كما وجـد فى جامع علاء الدين على كرسى مصـحف يعتبر تحفة فنية رائعـة وهناك مجموعات من الأبواب ذوات المصراعين المحفوظة فى متاحف العالم مثل متحف برلين الاسلامى وفى متحف فراير بأمريكا Freer Gallery ومتحف المتروبوليتان بنيويورك ومتحف اسطنبول وغيرها من المتاحف تدل على مبلغ ما وصل اليه فن النحت على الأخشاب فى العصر السلجوقى من الدقة والابداع ٠

الحفر على الخشب فى العصر المغولى والتيمورى والصفوى :

لم يتطور الأسلوب الزخرفى ولا التطبيقى فى الحفر على الخشب كثيرا فى العصر المغولى عما كان عليه فى العصر السلجوقى فقد ظلت الرسوم الهندسية المملوءة بالزخارف النباتية القريبة من الطبيعة هى السائدة ٠

على ان ما وصل الينا من العصر المغولى قليل لا يستحق الذكر ولعل أقدم ما وصلنا منها هو أبواب مسجد بايزيد بمدينة بسطام وكذا منبر المسجد الجامع بمدينة نايين على أنه لم يكد ينتصف القرن الثامن للهجرة عندما ثبتت أقدام المغول فى العراق وايران ٠

حتى ظهر طراز مغـولى متميز من حيث الأسـلوب الزخرفى فقـد انفرد باستعمال الرسوم النباتية القريبة من الطبيعة الى حد كبير مع التجسيم ومراعاة الدقة فى أصغر التفاصيل مما يجعله يستعمل طريقة الحفر على عدة مستويات تصـل الى ثلاثة مسـتويات بل وأربعة فى بعض الأحيان اذ نبحث الخلفية على مسـتوى من الفروع والأوراق النباتية ثم يأتى فى المسـتوى الثانى الكتابات

القرآنية أو الأحاديث النبوية أو أسماء الأئمة الاثنى عشر وكذا اسم الصانع وتاريخ الصناعة ثم المستوى الثالث وتأتى فيه العناصر الأساسية فى الزخرفة وهى عادة الزهور والثمار . أما المستوى الرابع فهو الحفر الذي يزخرف الاطار الذى تحيط بالتحفة الخشبية المحفورة .

وليس معنى هذا ان استعمال الزخارف الهندسية قد تلاشى فى العصر المغولى فقد ظل باقيا جنبا الى جنب مع الزخارف النباتية وخاصة فى أخشاب أبواب ونوافذ العمائر وان كان على قلة .

واستمر الاسلوب والطراز للزخرفة والتطبيق فى الحفر على الخشب فى العصر التيمورى وان تطور في مراعاة الطبيعة الى درجة أكبر من العصر المغولى كما ان الفنان أصاب حظا اوفر فى دقة النحت البارز والغائر مما جعل عناصر الزخرفة تبدو اكبر عمقا وأكثر حيوية ودقة .

وقد ظهر فى العصر الصفوى أسلوب جديد فى نحت التحف الخشبية وذلك من الناحيتين الزخرفية والتطبيقية اما الناحية الزخرفية فقد كانت أشبه ما تكون بزخرفة السجاد وجلود الكتب فقد أصبحت الزخرفة تتكون من حرة (أوجامة) تتوسط التحفة المراد زخرفتها خاصة الأبواب والنوافذ وفى أركانها قطاعات ن العرة أو الجامة ثم ازدهر فى القرن الحادى عشر والثانى عشر للهجرة أسلوب جديد فى زخرفة التحف الخشبية فقد أصبحت تحوي مناظر تصورية مأخوذة من مدارس التصوير الصفوية المعاصرة وقد استخدم فى تطبيق هذه الزخارف طريقة اللاكيه المدهون بالرسوم المتعددة الألوان .

وقد استعملت طريقة اللاكيه فى زخرفة الأبواب والخزانات Placard وكذا الدرايا (جمع درئية وهى الرفان) وغيرها ومن أجمل ما وصل اليد من هذه الصناعة بابان يتكون كل منهما من مصراعين يقال انهما كانا فى قصر جهل ستون بأصفهان أحدهما محفوظ بمتحف المتروبوليتان بنيويورك والثانى بمتحف فكتوريا والبرت بلندن .

الحفر فى العاج :

لقد تبع العاج فى زخرفته وطريقة صناعته الى حد كبير الحفر فى الخشب فقد طبق الطراز الأموى والعباسى فى حفر التحف العاجية سواء من الناحية الزخرفية أو أسلوب الصناعة ولما كانت التحف العاجية التى وصلت الينا وترجع الى القرون الثلاثة الأولى من الاسلام قليلة وهى تتبع أسلوب الحفر فى الخشب لذا لم نجد فائدة تذكر فى تكرار ما سبق قوله فى التحف الخشبية .

على ان معظم ما وصل الينا من التحف العاجية في فجر الاسلام بل في العصر الاسلامي كله هي العلب الاسطوانية والصناديق التي صنعت في الأندلس في العصر الأموى والتي يرجع معظمها الى القرن الرابع وبداية القرن الخامس للهجرة ومما يزيد في أهميتها ان معظمها مؤرخ وعليه كتابات تحمل اسم الأمير أو الشخصية التي صنعت له وهي تتبع في جملتها الطراز الأموى في المشرق من حيث الزخارف ومن حيث الأساوب التطبيقي وان كان يكثر بها الرسوم الآدمية والحيوانية المحصورة داخل جامات وتشوبها مسحة مسيحية وبيزنطية واضحة ٠

كما وجد في مصر وصقلية في العصر الفاطمي مجموعة لابأس بها من التحف العاجية محفور عليها زخارف آدمية وحيوانية تشبه الى حد كبير زخارف الوزارات الخشبية التي عثر عليها في القصر الفاطمي الغربي التي كانت تحتوى على رسوم طوب أو موسيقى أو صيد أو قفص وكثيرا ما كانت تصنع حشوات بأكملها من العاج لكي تجمع بعد ذلك مع الحشوات الخشبية ٠

ولعل من أهم التحف العاجية التي ترجع الى العصر الفاطمي أبواق الصيد والتي تحتوى على زخارف بارزة وغائرة من رسوم حيوانات وطيور ومناظر صيد محصورة داخل دوائر أو فروع نباتية متداخلة ٠

كذلك عثرنا على تحف عاجية قليلة ونادرة ترجع الى مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي وقوام زخرفة تلك التحف رسوم هندسية مخرمة تشبه عش النحل الى حد كبير وهي محفورة بدقة بالغة وعليها كتابات بالخط النسخي ٠ بيد ان استعمال العاج والعظم في عصرى الأيوبيين والمماليك كان على الخصوص في التطعيم والترصيع ولا سيما في حشوات المنابر وفي أبواب العمائر الدينية ونوافذها وكذا كراسي العشاء والخزانات والدرايا ٠

أما عن التحف العاجية في ايران فمن المعروف أن فارس قد استعملت العاج منذ أقدم العصور فقد استورده لزخرفة قصورهم في سومس وبيرسولوبرس واكتسفون ومن التحف التي تنسب الى ايران في العصر الاسلامي عليه من العاج محفوظة بمتحف (Musco Diocedano) حفر عليها رسوم أميرات على صهوة الجياد ورسوم نباتات وحيوانات أخرى صغيرة كما توجد عليه بمتحف برلين القسم الاسلامي قوام زخرفتها رسوم طيور وحيوانات وفروع نباتية ورسم أميرة تجلس على عرش يكتنفه طاووسان وهذه الرسوم تشبه الى حد كبير رسوم الخزف الايراني في القرنين السادس والسابع للهجرة ٠ ويوجد بمتحف بناكي صندوق عاجي تشبه زخارفه النباتية زخارف المنسوجات والسجاد الايراني في القرن العاشر والحادى عشر بعد الهجرة ٠

وينسب الى الهند مجموعة من التحف العاجية التى ترجع الى العصر الاسلامى لعل أهمها مجموعة من قطع الشطرنج ظلت محفوظة فى كنوز كنيسة سان دلى Saint Damis حتى القرن السابع عشر ولكن لم يبق منها اليوم الا قطعة واحدة على شكل فيل وتزعم سجلات الكنيسة ان شارلمان قد تلقاها هدية من هارون الرشيد وتمثل القطعة ماح على ظهر فيل تحف به الحراس والفرسان وقد وقف على خرطوم الفيل بهلوان وقد كتب على قاعدة القطعة اسم صانعها « عمل يوسف الباهلى » وقد تردد كثير من الأثريين بين نسبة هذه القطعة الى الهند أو العراق فى القرن السادس الهجرى وان كان معظمهم لا يرى نسبتها الى هارون الرشيد وشارلمان ·

الزجاج والبلور الصخرى

لقد اشتهر الشرق الأدنى بصناعة الأوانى الزجاجية الجميلة ولا سيما مصر والشام منذ العصر الرومانى وقد ظلت الطرز والأساليب الفنية التى عرفها الشرق الأدنى فى صناعة الزجاج قبل الاسلام - سائدة فيه خلال القرون الأربعة الأولى ·

ولما كان اقبال المسلمين على استعمال التحف الزجاجية كبيرا وكان التطور فى ميدان هذه الصناعة أبطأ من غيره من الصناعات التى سادت العالم الاسلامى هذا فضلا عن اشتراك اقاليم العالم الاسلامى فى العهدين الأموى والعباسى فى الأساليب الزخرفية وكذا التطبيقية فى ميادين الفن الاسلامى عامة والزجاج بصفة خاصة كان من الصعب فى كثير من الأحيان نسبة التحف الزجاجية الى اقليم بعينه اللهم الا اذا قام على صحة نسبته دليل يمكن الاطمئنان اليه ·

ولما كان الأمر كذلك فقد وجد الأثريون ان أفضل طريقة لدراسة التحف الزجاجية فى فجر الاسلام هو الطراز الزخرفى والأسلوب التطبيقى أما زخارف الزجاج فى الأربعة القرون الأولى للاسلام فمتنوعة فمنه نوع ذو ثنايا وضلوع وكان ذلك يحدث عن طريق نفخ الزجاج فى قالبين الواحد بعد الآخر وهناك نوع من الزجاج ذى الزخارف المختومة أو المصنوعة بآلة كالملقاط أو المنقاش وأخرى محفورة أو مقطوعة على (الدولاب) كما وجدت زخارف زجاجية على هيئة خيوط أو أقراص مضلفة وقد يركب الاناء فوق حامل زجاجى على شكل تمثال حيوان أو طائر ·

وقد تطورت صناعة الزجاج فى القرن الخامس الهجرى ففى مصر ظهر نوع من الزجاج المزخرف لعله أبدع المنتجات الزجاجية الفاطمية وأعظمها قيمة من الناحية الصناعية هى الزجاج المذهب والمزين بزخارف من طلاء البريق المعدنى ·

وقد أثبتت الكشوف الأثرية التى قامت بها البعثة الأمريكية فى منطقة الفسطاط سنة ١٩٦٥ بان البريق المعدنى قد ظهر على الزجاج المصرى على أقل تقدير منذ أوائل العصر الاسلامى وذلك اعتمادا على كأس من الزجاج عليه زخارف بديعة بالبريق المعدنى ومؤرخة سنة ١٥٥ هـ · ولا شك ان مثل هذا الاكتشاف قد رجح الرأى الذى ذهب اليه الدكتور بتلر (Butler) من ان البريق المعدنى كان معروفا فى مصر قبل الاسلام ·

البللور الصخرى والزجاج السنميك :

وقد ظهر فى العصر الفاطمى نوع من الأوانى تشبه فى مادتها الزجاج وان كانت تختلف عنه اختلافا بينا فبينما نجد ان الزجاج مادة مصنعة قوامها (السيلكا والصوديوم) نجد البللور الذى أطلق عليه البللور الصخرى معدن طبيعى كان يستخرج من مرتفعات بلاد المغرب وقد ذكره ابن جيد فى رحلته ثم جىء ببعضه من مرتفعات البحر الأحمر بمصر وكان هذا النوع الجديد أنقى وأجمل من المغربى ٠

وقد أقبل القوم على اقتناء الأوانى البللورية لجمال شكلها ولاعتقادهم ان للشرب فيها فوائد ولعل العثور على معدن البللور الصخرى فى مصر كان سببا فى انخفاض ثمنه وكثرة انتاجه مما جعل الخلفاء والوزراء وعلية القوم فى العصر الفاطمى يجمعون مقادير كبيرة منه حتى ازدحمت بها خزائنهم التى تحدث عنها الشعراء والأدباء فى تلك العصور ٠

ومن الطبيعى أن يكون للبللور الصخرى أسلوب خاص مختلف تماما عن الزجاج وذلك من الناحية الزخرفية وكذا التطبيقية لاعتبارات كثيرة أولها ان البللور معدن طبيعى فلا يحتاج الى صهر ولا نفخ وثانيها انه معدن صلب جدا ليس من السهل تشكيله أو حفر الزخارف فيه الا بواسطة قطع من الماس ٠

ومن ثم فاننا نعتبر الأوانى المصنوعة من البللور الصخرى تخضع فى أسلوب تصنيعها الى فن النحت حكمها فى ذلك حكم الأحجار والرخام وما اليها من المواد الصلبة-الصعبة المراس ٠

ومن أهم ما خضــع لفن النحت من البللور الصــخرى قنينات كروية أو كمثرية الجسم وكذلك بعض كئوس كمثرية الشكل نحتت فى بدنها زخارف نباتية وحيوانية ذات أحجام كبيرة لصعوبة حفر عناصر صغيرة

ومما يجدر ملاحظته ان الزخارف المنحوتة على البللور الصخرى تتبع من حيث الأسلوب الزخرفى العــام فن النحت على الخشب والعاج الا أنه أقل دقة وتفصيلا لصلابة المادة وصعوبة حفرها ٠

كذلك ظهر فى العصر الفاطمى نوع من الزجاج السنميك يظهر ان صناع الزجاج قد لجأوا لاستعماله لكى يحل محل البللور الصخرى الباهظ الثمن والذى لم يقدر على اقتنائه الا علية القوم فهو أقل نفقة منه وفى نفس الوقت يشبهه فى الزخارف الى حد كبير ٠

وتحدث الزخارف فى الزجاج السميك بطريق القطع والضغط ومن اشهر التحف المصنوعة من الزجاج السميك فى العصر الفاطمى مجموعة من الأقداح يسميها الغربيون (كؤوس القديسة هدويج) (Hedwigsglass) وقد نسبت هذه الكؤوس الى القديسة هدويج لحيازتها لها وتتميز هذه الكؤوس بأنها على شكل الدلو أو السطل وبأن سطحها تغطيه زخارف مقطوعة تمتد على مساحة الآنية كلها حتى انه أصبح من العسير تميز الموضوعات الزخرفية من الأرضية ٠

الزجاج المذهب والمموه بالمينا :

يعتبر القرن السادس الهجرى بداية عصر تطور فى صناعة التحف الزجاجية الاسلامية لم يبلغه من قبل وخاصة فى مصر وبلاد الشام وقد استمر هذا التطور حتى بلغ أوج عظمته فى القرن التاسع للهجرة وذلك بفضل رعاية وتشجيع سلاطين دولة الأيوبين وكان غاية ما وصلت اليه صناعة الزجاج فى ذلك الوقت هو رسم الزخارف بالتذهيب والمينا البراقة الجميلة البارزة المتعددة الألوان ٠

واذا كانت العراق وايران قد تأخرتا فى صناعة هذا النوع من التحف الزجاجية الا انه قد يمتد فى مدينة الرقة على مجموعة من التحف الزجاجية المموهة بالمينا معظمها على شكل كؤوس متسعة الفوهة من أعلاها وهى ترجع الى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للهجرة ٠

ولعل أشهر تلك التحف الكؤوس المنسوبة الى شرطان والمحفوظة بمتحف شارتر (Chartres) وان كان لا أساس للقصة التى تقول ان شرطان أهدى هذه الكؤوس لكنيسة فرنسية ظلت بها حتى سنة ١٧٩٨ م ٠

كذلك ينسب للرقة مجموعة من الكؤوس ترجع الى نهاية القرن السادس للهجرة منها قطعة محفوظة فى متحف مدينة دواى Douai تعرف باسم كأس القسس الثمانية) ٠ وتمتاز زخارف كؤوس الرقة بان قوامها رسوم نباتية قريبة من الطبيعة الى حد ما يحيط بها من أعلى وأسفل شريطان من الكتابة وفى بعض الأحيان تصاحب الزخرفة حبيبات بيضاء وزرقاء تملأ معظم بدن الكأس وهذه الحبيبات منيرة انفردت بها تحف الرقة الزجاجية ٠

وقد أقبل صناع الزجاج فى القرن السابع للهجرة فى بلاد الشام وخاصة فى دمشق وحلب على انتاج أنواع من القوارير والقنينات الزجاجية المموهة بالمينا المزخرفة برسوم آدمية ٠٠ وحيوانية تتبع فى أسلوبها الفنى مدارس التصوير

المعاصر التى تعرف باسم المدرسة السلجوقية أو المدرسة الغربية . وهذه الرسوم قد تكون محصورة فى أشرطة تحيط بالآنية أو موضوع تصويرى تحيط به جامة • والظاهر ان الكثير من هذه القوارير كان يصنع للسوق الصليبية التى كانت موجودة فى بلاد الشام منذ القرن الخامس للهجرة وذلك لاحتوائها على رسوم موضوعات مسيحية مثل صورة السيدة العذراء تحتضن يسوع المسيح والعشاء الربانى وعيسى عليه السلام يتوسط الحواريين وما الى ذلك من موضوعات •

على ان أبدع وأروع ما وصل اليه الزجاج المموه بالمينا انما يتجلى فى فى مثل تلك المشكاة التى تستعمل لاضاءة المساجد الجامعة وقصور السلاطين والأمراء وعلية القوم والمشكاة الزجاجية فى شكلها انما هى تجسيد لآية النور • ذلك انها أغطية مصابيح فهى لا تضاء لوضع الزيت والفتيل فيها مباشرة بل انهما يوضعان فى مسرجة (قرابة) تثبت بأسلاك فى حافة المشكاة • وللمشكاة مقابض أو آذان يبلغ عددها ثلاثة أو أكثر تشبك فيها سلاسل من النحاس أو الفضة تجمع كلها عند كرة مستديرة أو بيضاوية الشكل ومن هذه البيضة تعلق المشكاة فى السقف •

ومما يجدر ملاحظته ان زخارف المينا تملأ فراغ المشكاة كلها بحيث تكاد لا تترك ثغرة بدون رسوم أو زخرفة ولعل السبب فى ذلك الى جانب الناحية الجمالية هو حرص الفنان على تغطية عدم صفاء لون الزجاج وكذا تغطية الفقاقيع الهوائية الصغيرة التى تشوه الى حد ما صفاء الزجاج وان كانت هذه الأشياء من العيوب العامة التى تميز زجاج الشرق •

أما عن المينا التى يدهن بها زجاج المشكاة فمتعددة فمنها الحمراء والخضراء والزرقاء والبيضاء • وكذا وردية اللون • أما عن الزخارف فقوامها كتابات محصورة فى أشرطة أو جامات يتخللها (الرفوك) والشارات الخاصة بالسلاطين والأمراء فضلا عن أسماء وألقاب ••• ونلاحظ ان معظم الكتابات التى سجلت على المشكاوات كانت آيات قرآنية وخاصة آية النور •

كما حظى الكثير من المشكاوات بثروة زخرفية كبيرة قوامها الرسوم النباتية التى تغطى السطح كله والتى يتخللها فى بعض الأحيان رسوم طيور وأسماك صغيرة تبدو وكأنها عناصر نباتية •

ولا يزيد عدد المعروف من هذه المشكاوات عن ثلاثمائة مشكاة كاملة معظمها محفوظ بمتحف الفن الاسلامى فى القاهرة ويليه متحف المتروبوليتان

بنيويورك وجل هذه المشكاوات قد صنع في القرن الثامن الهجرى اللهم الا أربعا منها يمكن نسبتها الى القرن السابع وقلة أخرى ترجع الى القرن التاسع للهجرة .

التحف الزجاجية فى ايران :

لقد قلد الايرانيون مصر وبلاد الشام فى صناعة الزجاج فى فجر الاسلام فقد عثر على سلطانية من الزجاج الأزرق محفور فيها كلمة خراسان محفوظة فى كاتدرائية سان ماركو بالبندقية وقوام زخارفه السلطانية رسوم أرانب محفورة وقد أرجعها علماء الآثار الى الفترة التى تمتد من القرن الثالث الى القرن الخامس للهجرة .

كذلك عثر على زجاج مموه بالمينا فى شيراز وهمذان ونيسابور وساوه والرى تشبه الى حد كبير التحف الزجاجية فى بلاد الشام وتفسير ذلك سهل ميسور فقد جمع تيمور لنك فى شمر وند فى بداية القرن التاسع للهجرة نخبة من أمهر صانعى الزجاج فى ذلك العصر فازدهرت هذه الصناعة على أيديهم .

وقد انفرد الزجاجيون الايرانيون منذ القرن العاشر وحتى القرن الثانى عشر للهجرة على صناعته أنواع من الأباريق والقنينات الزجاجية ذوات الرقبة الممشوقة الممتدة الى أعلى أو التى يمر بها انثناءة رقيقة لينة فى شكل انسيابى بديع وكانت هذه القنينات خالية من الزخارف تماما وتعتمد فى اظهار جمالها على بديع تكوينها وصفاء زجاجها وتناسب أجزائها .

بيان اللوحات

لوحة رقم ١ شكل أ : تصويرة من مقامات الحريرى تمثـل أبوزيد يعظ فى مسجد سمرقند ، محفوظة بالمتحف البريطانى ، سوربا حوالى سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م .

شكل ب : بعض الرسوم التى كانت مستعملة فى تمثيليات خيال الظل محفوظة بالقسم الاسلامى ببرلين ، مصر حوالى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى .

لوحة رقم ٢ شكل أ : ألواح خشبية عثر عليها فى مارستان قلاوون تمثل مناظر شراب وطرب وصيد ، محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، مصر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى .

شكل ب : علبة من العاج باسم المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ، تمثل مناظر شراب وطرب محفوظة بمتحف اللوفر بباريس ، الأندلس سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٨م .

لوحة رقم ٣ شكل أ : اناء من الخزف ذى البريق المعدنى عليه رسم يمثل راقصة ، محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، مصر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى .

شكل ب : صحن من الخزف ذى البريق المعدنى عليه رسم مهارشة الديكة محفوظ باحدى المجموعات الخاصة بلندن ، مصر حوالى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى .

لوحة رقم ٤ شكل أ : تصويرة من مقامات الحريرى تمثل مجالس شراب وطرب وبهلوان ، محفوظة بالمكتبة الوطنية بفيينا ، مصر حوالى سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٤م .

شـــكل ب : تصويرة من أحـد مخطوطات الفروسية تمثـل منظر ملاكمة ، محفوظة بمتحف طوبقا بسراى باسطنبول ، مصر حوالى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ٠

لوحة رقم ٥ شكل أ : بقايا صـــحن من الخزف ذى البريق المعدنى يمثل منظر مصارعة ، محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، مصر حوالى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ٠

شـــكل ب : تصـــويرة من أحـــد مخطوطات الفروسية تمثل أوضاعا مختلفة للتدريب على المصارعة ، محفوظة بمتحف طوبقا بسراى باسطنبول ، مصر حوالى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ٠

لوحة رقم ٦ شكل أ : اناء من الخزف ذى البريق المعدنى عليـــه رســـم للعبة التحطيب أو المطرق أو اللبخـة ، محفـــوظ بمتحف الفن الاســلامى بالقاهرة ، مصر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ٠

شـــكل ب : تصويرة من مخطوط فى العـــاب الفروسية يمثل لعبة التحطيب أو المطرق أو اللبخة ، محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، مصر القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ٠

لوحة رقم ٧ شكل أ : تصويرة من مخطوط المهرجان « سور نامة » تمثل السلطان أحمد الثالث فى مجلس طرب وأنس يحضره بعض المضحكين ، محفوظة فى متحف طوبقا بسراى باسطنبول ، تركيا حوالى القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى ٠

شـــكل ب : تفاصيل من طست من النحاس المكفت بالذهب والفضـــة تمثل لعبة الكرة ، يحمل اسم السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، محفوظ بالمتحف البريطانى بلندن ، مصر القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ٠

لوحة رقم ٨ شكل أ : تفاصيل من طست من النحاس المكفت بالفضة يحمل اسم السلطان الصالح نجم الدين أيوب يمثل لعبة الجوكان ، محفـــوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، مصر القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ٠

شـــكل ب : علبة من البرونز المكفت بالفضة عليها عصوان البولورنك الجوكندار

محفـوظة فى القسم الاسلامى بمتحف برلين ، مصر القرن الثـامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ٠

لوحة رقم ٩ شكل أ : لوحات عاجية عليها رسوم تمثل مناظر صيد ومجالس شراب وطرب ، محفوظة بالقسم الاسلامى بمتحف برلين ، مصر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ٠

شـكل ب : تصويرة من مخطوط فى الفروسية تمثـل الرمى على القبق ، محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس ، مصر سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧١ م ٠

لوحة رقم ١٠ شكل أ : تصويرة من مختصر كتاب البيطرة لابن الأحنف تمثل سباق الخيل ، محفوظة بدار الكتب المصرية ، مصر القرن السـابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ٠

شـكل ب : تصويرة من مخطوط أكبر نامة تمثل بلاط السلطان أكبر وبه بعض الفهادين حيث أمسك كل منهم بمقود فهده وكذا بعض البازادرية ، محفوظة بمتحف فكتوريا وألبرت ، وتنسب الى المدرسة المغولية حوالى القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى ٠

لوحة رقم ١١ شكل أ : تصويرة من المدرسة الهنـدية تمثل الصيد بالفهد ، محفوظة باحدى المجموعات الخاصة ، الهند حوالى القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى ٠

شـكل ب : تفاصيل من طست من النحاس المكفت بالفضة تمثل الصيد بالفهد والباز والكلاب ، محفوظ بمتحف اللوفر بباريس ، مصر القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ٠

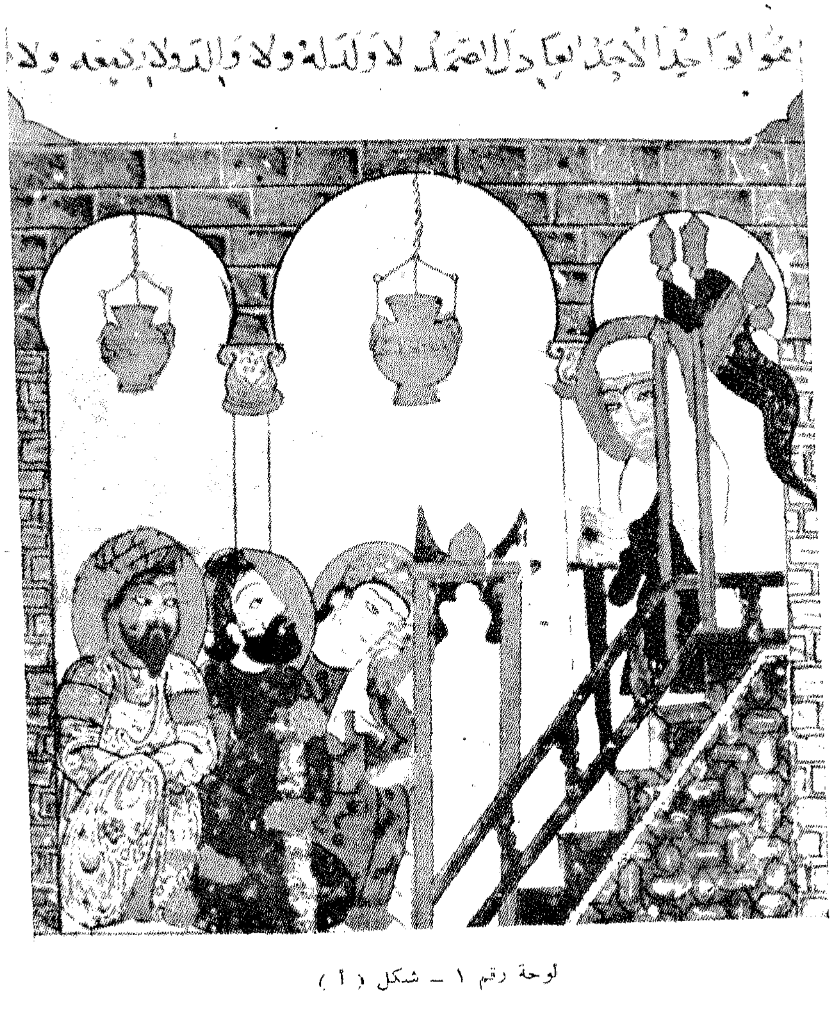
لوحة رقم ١٢ شكل أ : تصويرة من كتاب الدرياق تمثل فى جزئها العلوى مناظر صيد بالباز والكلاب ، محفوظة بالمكتبة الوطنية بفيينا ، العراق حوالى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ٠

شـكل ب : اناء من الخزف ذى البريق المعـدنى يمثل منظر صيد بالبـاز ، محفـوظ بمتحف الفن الاسـلامى بالقاهرة ، مصر القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ٠

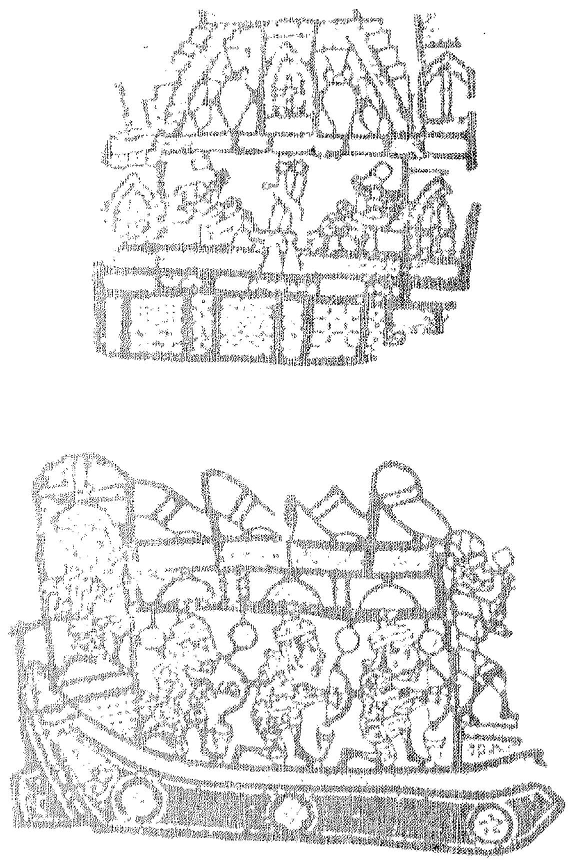
الأشكال الخاصة ببحث

وسائل التسلية عند المسلمين

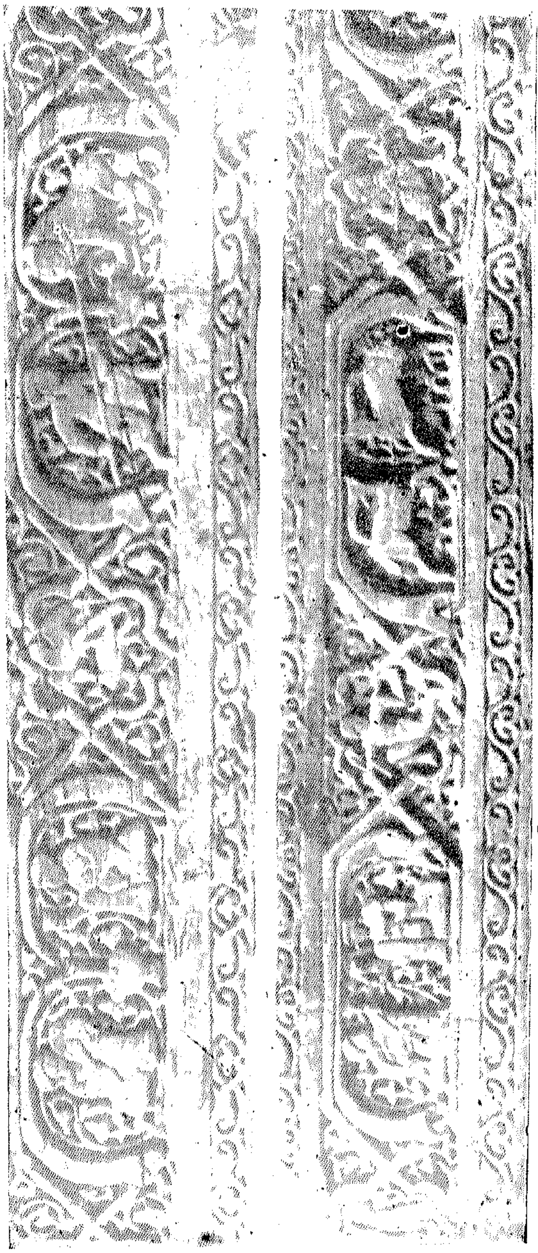
للدكتور عبد الرازق أحمد



لوحة رقم ١ ـ شكل (أ)



لوحة رقم ١ شكل (ب)



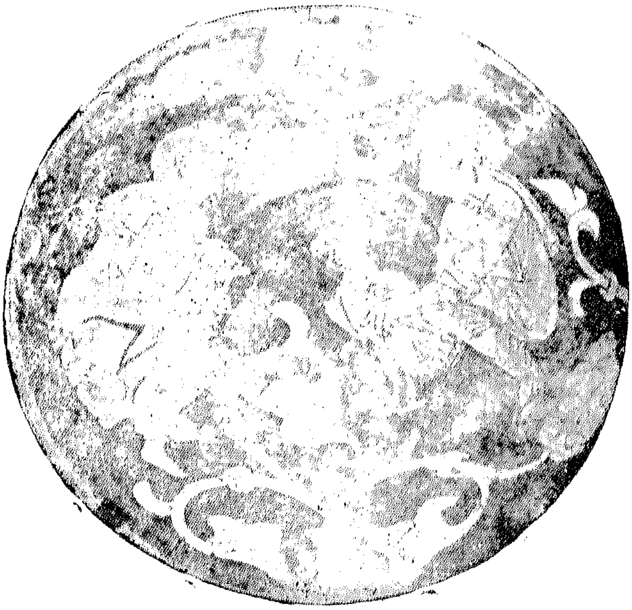
لوحة رقم ٢٠ شكل (أ)



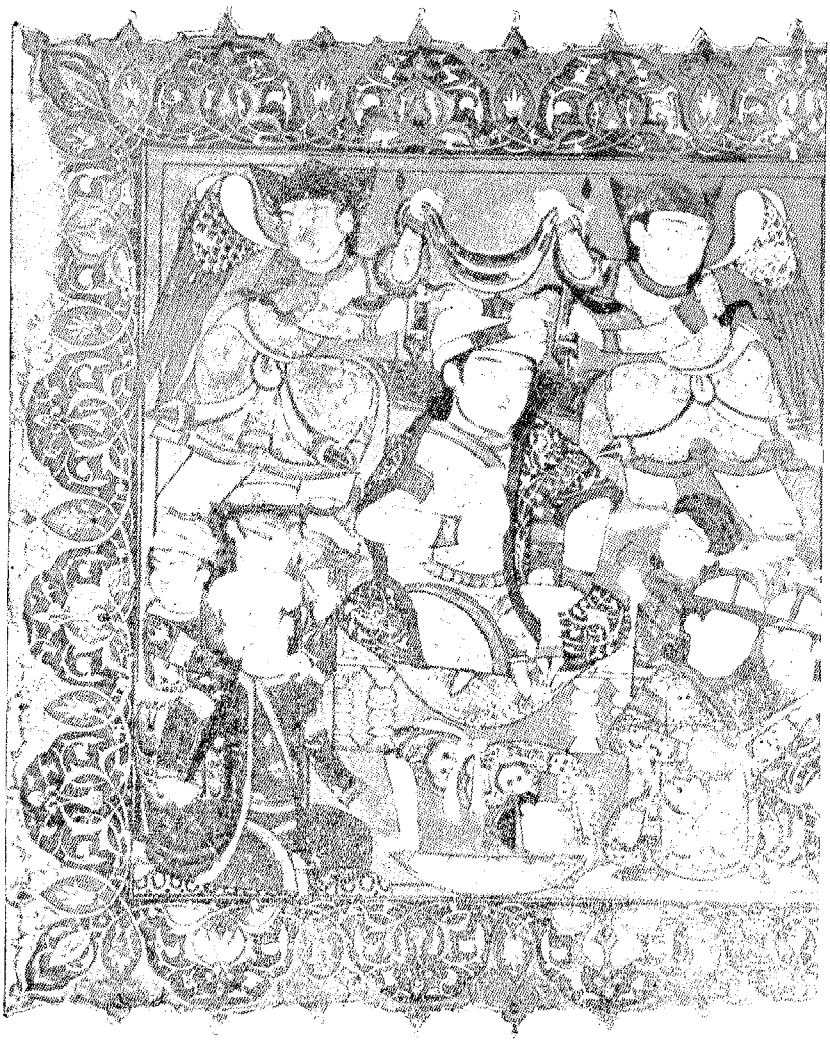
لوحة رقم ٢ شكل (ب)



لوحة رقم ٣ شكل (أ)



لوحة رقم ٣ شكل (ب)



لوحة رقم ٤ شكل (أ)



لوحة رقم ٤ شكل (ب)



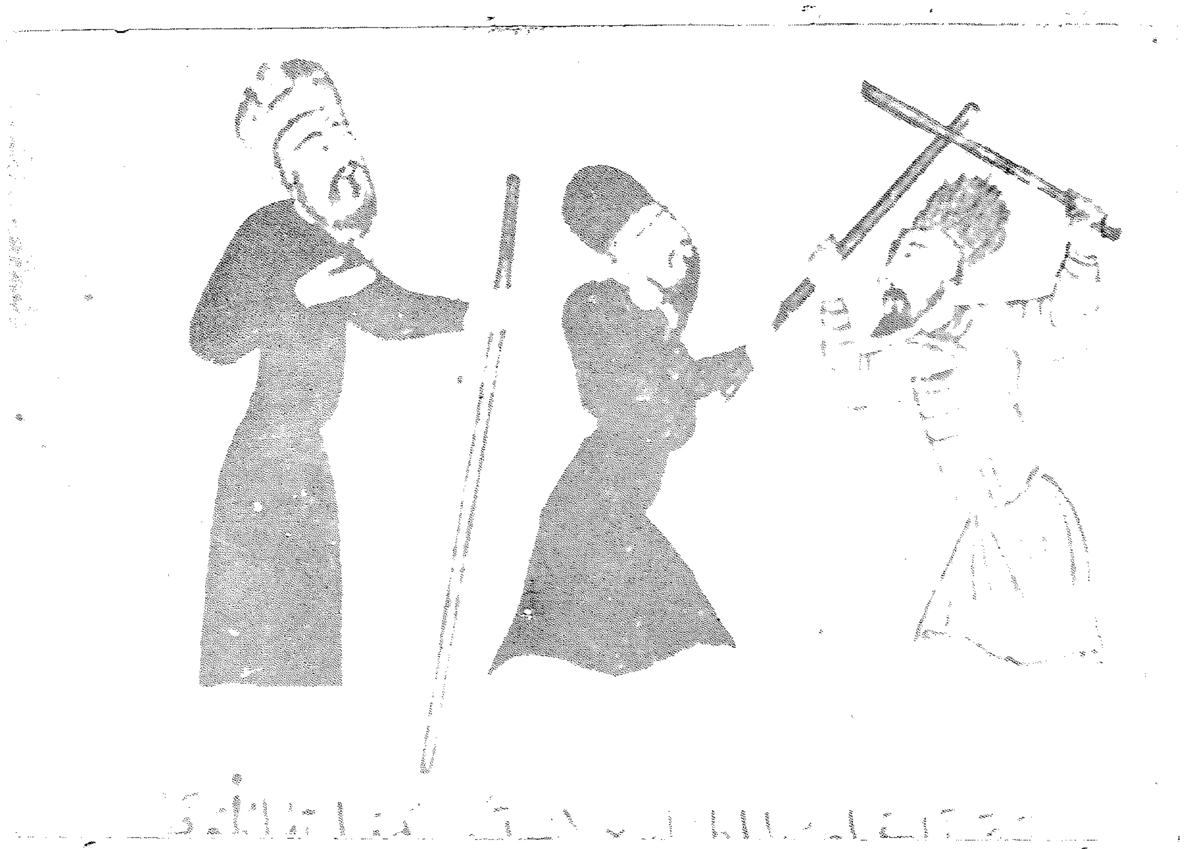
لوحة رقم ٥ شكل (ا)



لوحة رقم ٥ شكل (ب)



لوحة رقم ٦ شكل (أ)



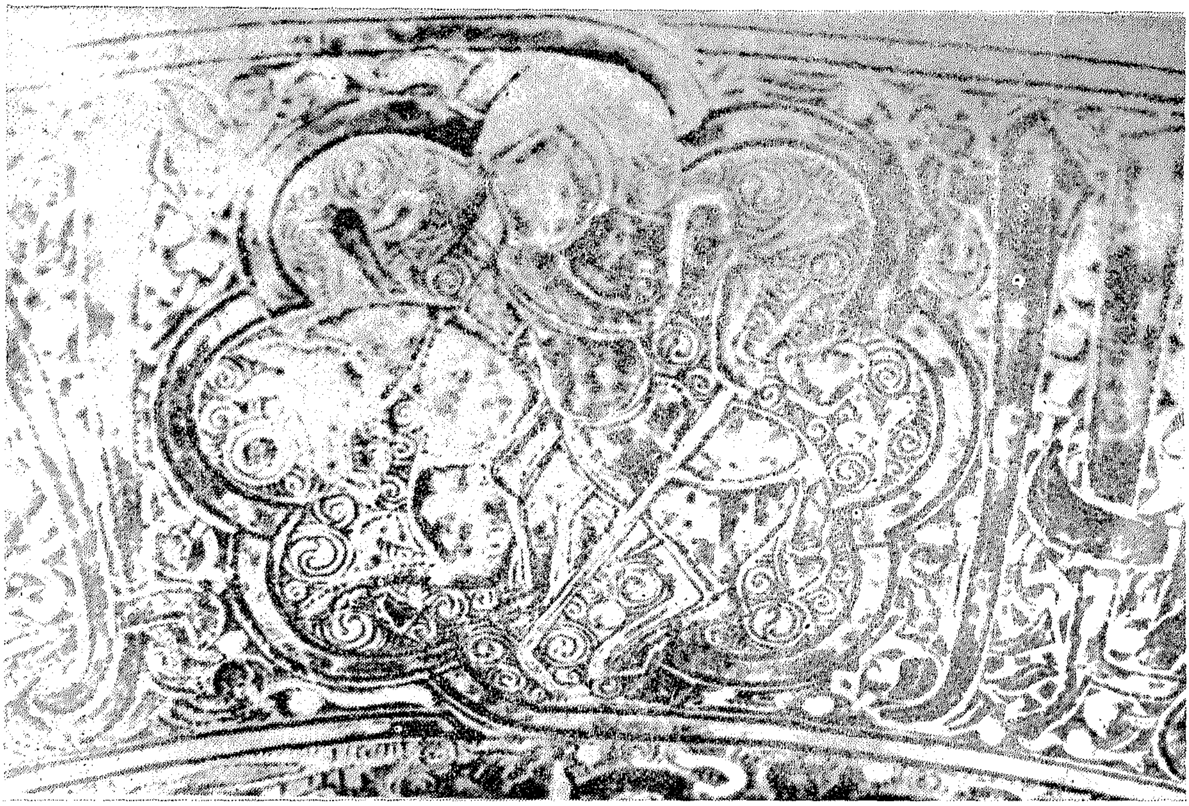
لوحة رقم ٦ شكل (ب)



لوحة رقم ٧ شكل (أ)



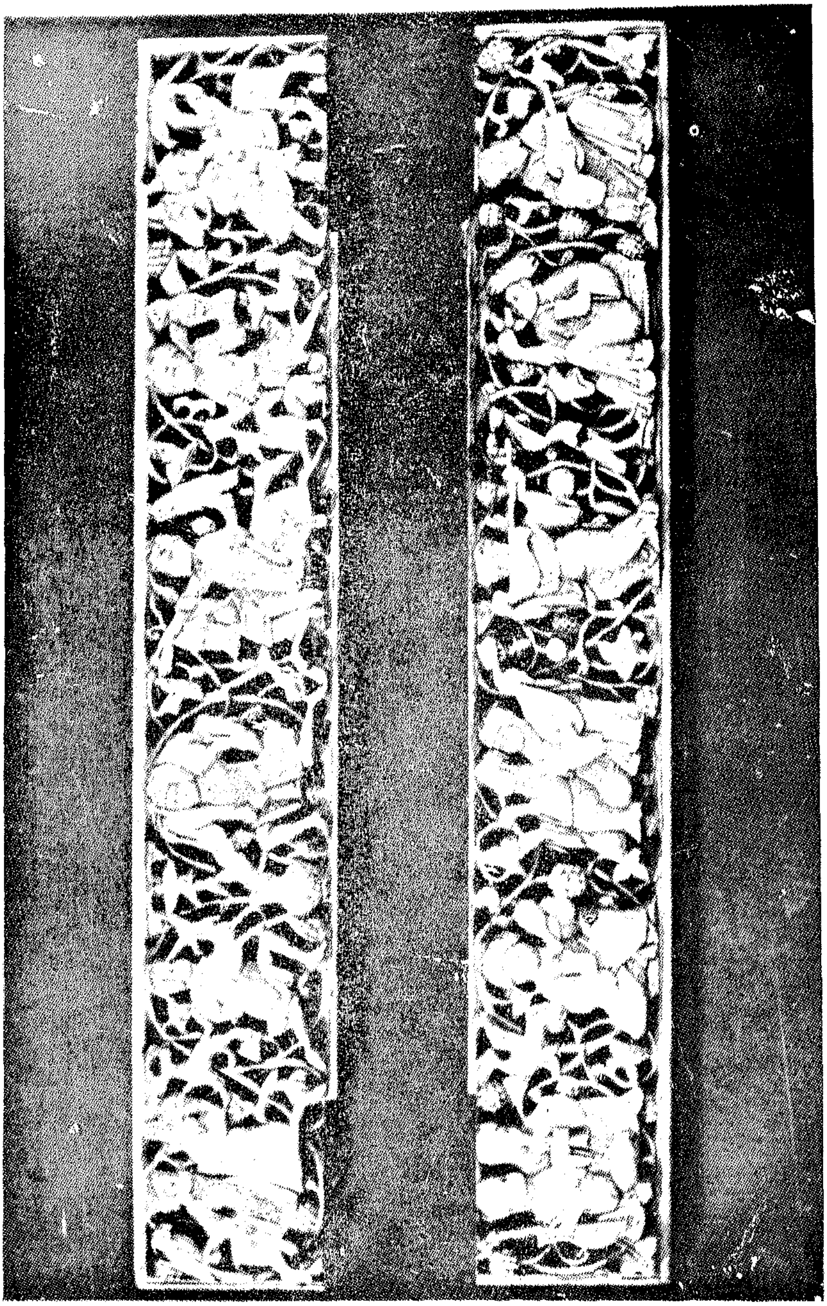
لوحة رقم ٧ شكل (ب)



لوحة رقم ٨ شكل (أ)



لوحة رقم ٨ شكل (ب)



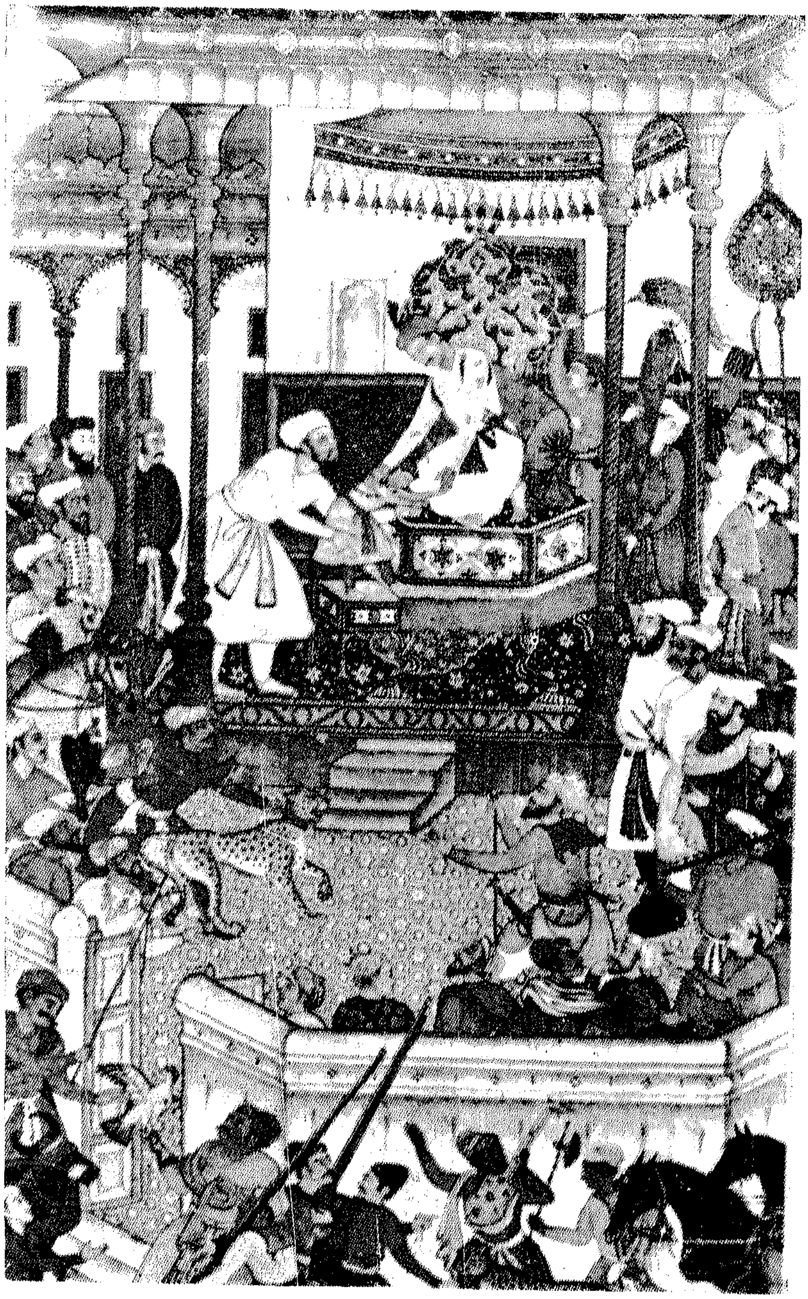
لوحة رقم ٩ شكل (١)



لوحة رقم ٩ شكل (ب)



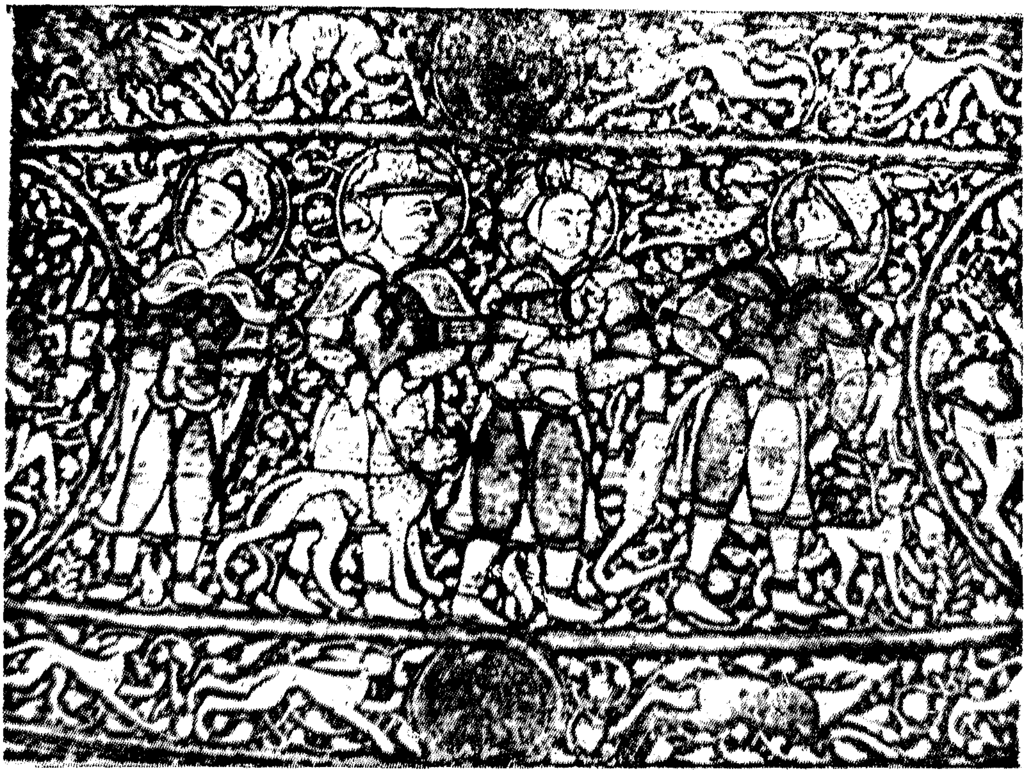
لوحة رقم ١٠ شكل (أ)



لوحة رقم ١٠ شكل (ب)



لوحة رقم ١١ شكل (أ)



لوحة رقم ١١ شكل (ب)



لوحة رقم ١٢ شكل (أ)



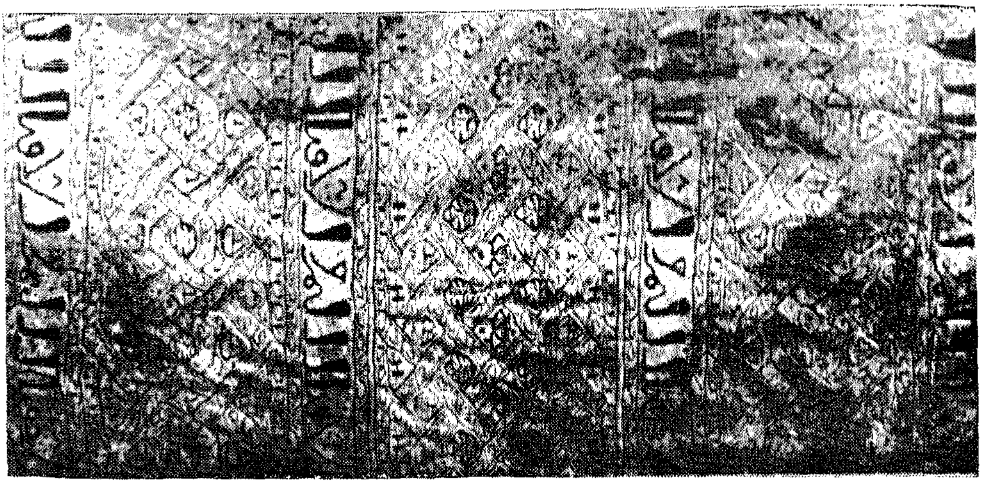
لوحة رقم ١٢ شكل (ب)

الأشكال الخاصة ببحث

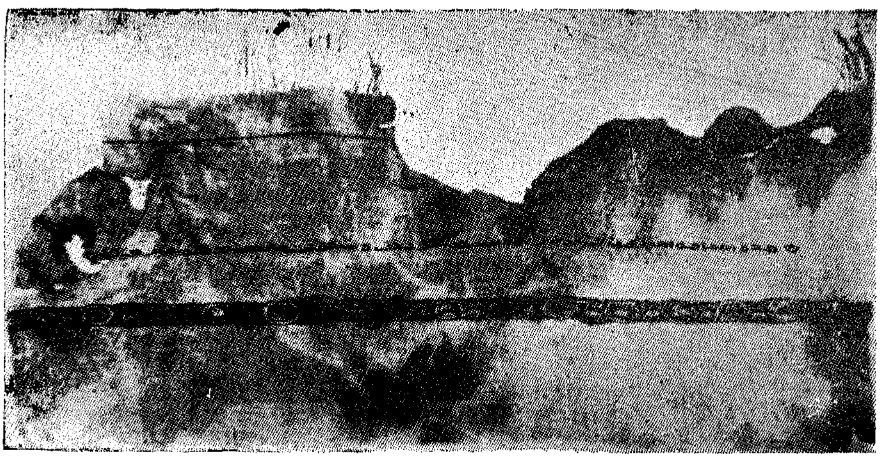
الفنون الزخرفية

للدكتورة سـعاد ماهـر

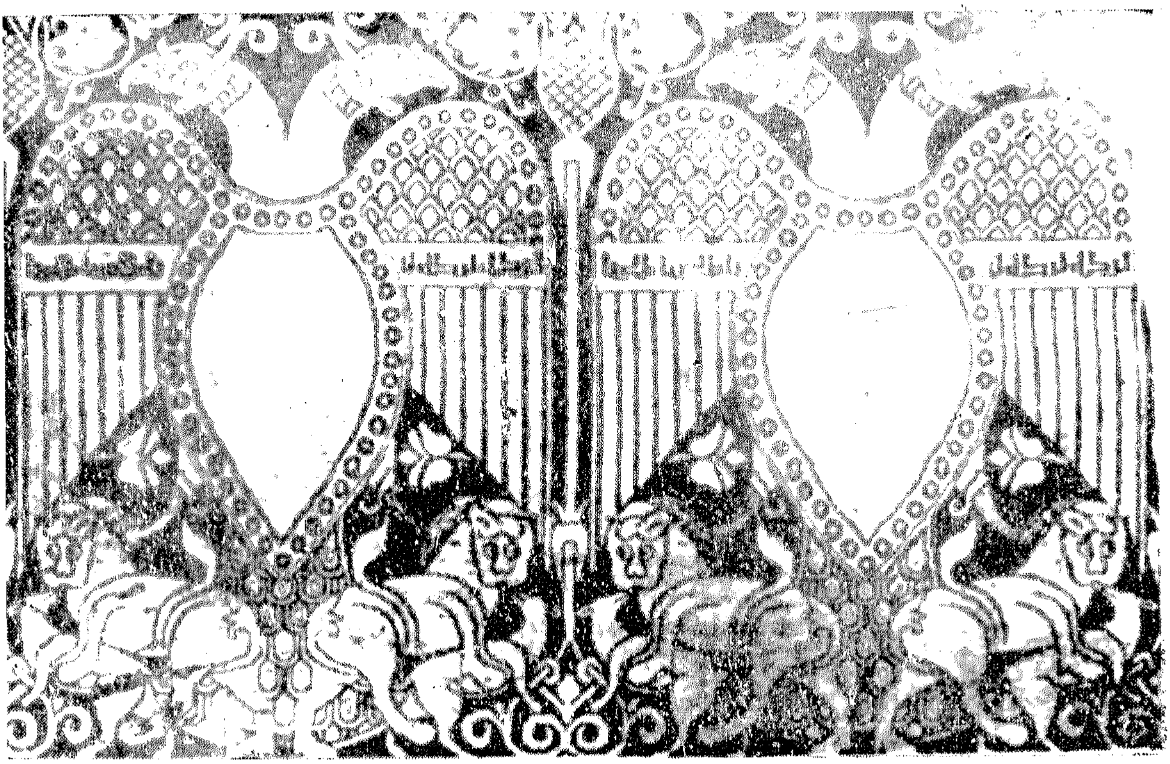
أولا ـ النسيج الاسلامى



قطعة من نسيج القباطى من العصر الفاطمى من صناعة مصر فى القرن (٦ هـ)
(متحف الفن الاسلامى بالقاهرة)



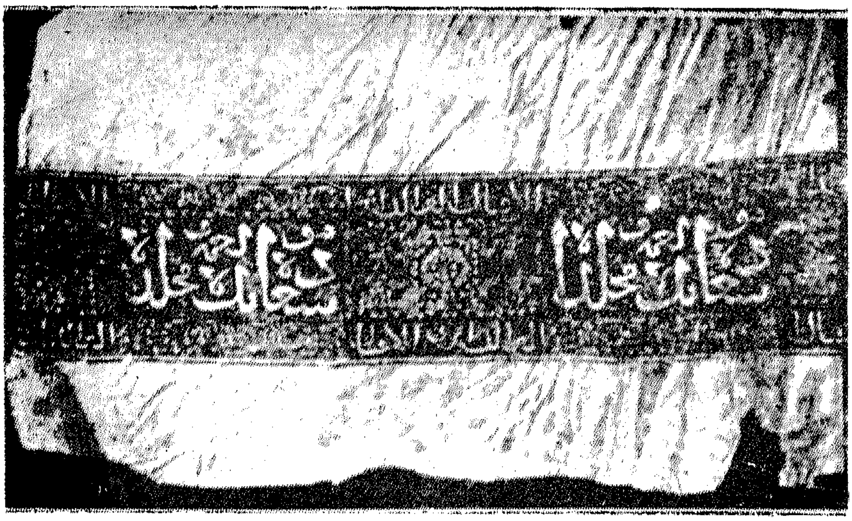
قطعة من نسيج القباطى من عمامة باسم (سمويل بن موسى) ، مؤرخة (٨٨ هـ)
(فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة)



قطعة من نسيج الحرير من صناعة صقلية فى القرن (٦ هـ) (فى متحف القصر ببرلين)



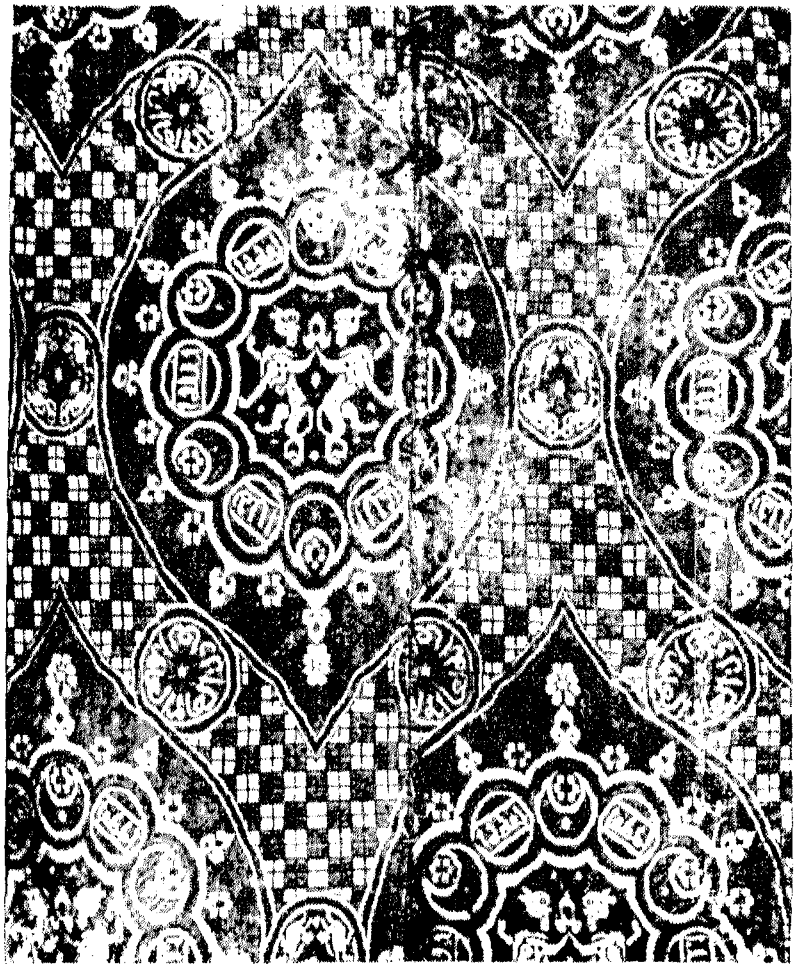
قطعة من نسيج الديباج من صناعة الأندلس فى القرن (٧ هـ)
(بمتحف الفنون التطبيقية فى برلين)



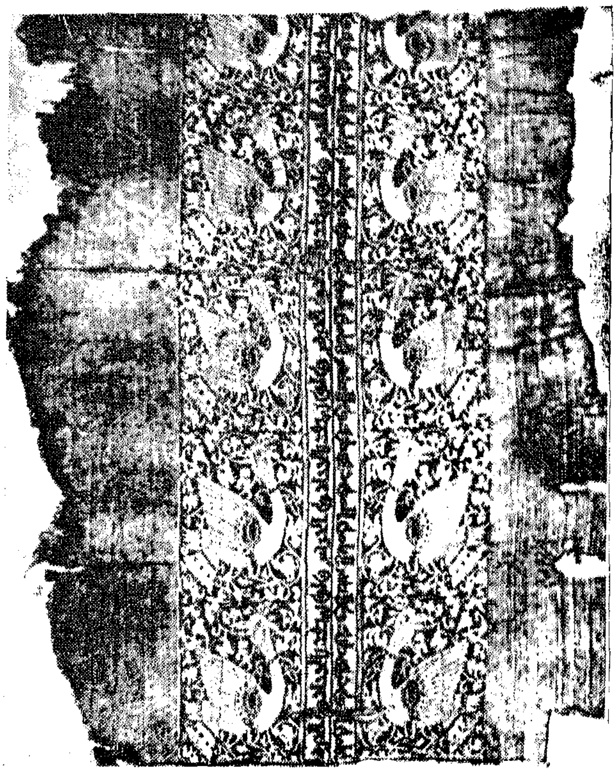
قطعة من النسيج الكتانى عليها ٣ اشرطة كتابية . كتب على السطر الأوسط سعادة مؤبدة ، ونعمـــة مخلدة . وهى صناعة مصر فى العصر المملـوكى
(بمتحف الفن الاسلامى القاهرة)



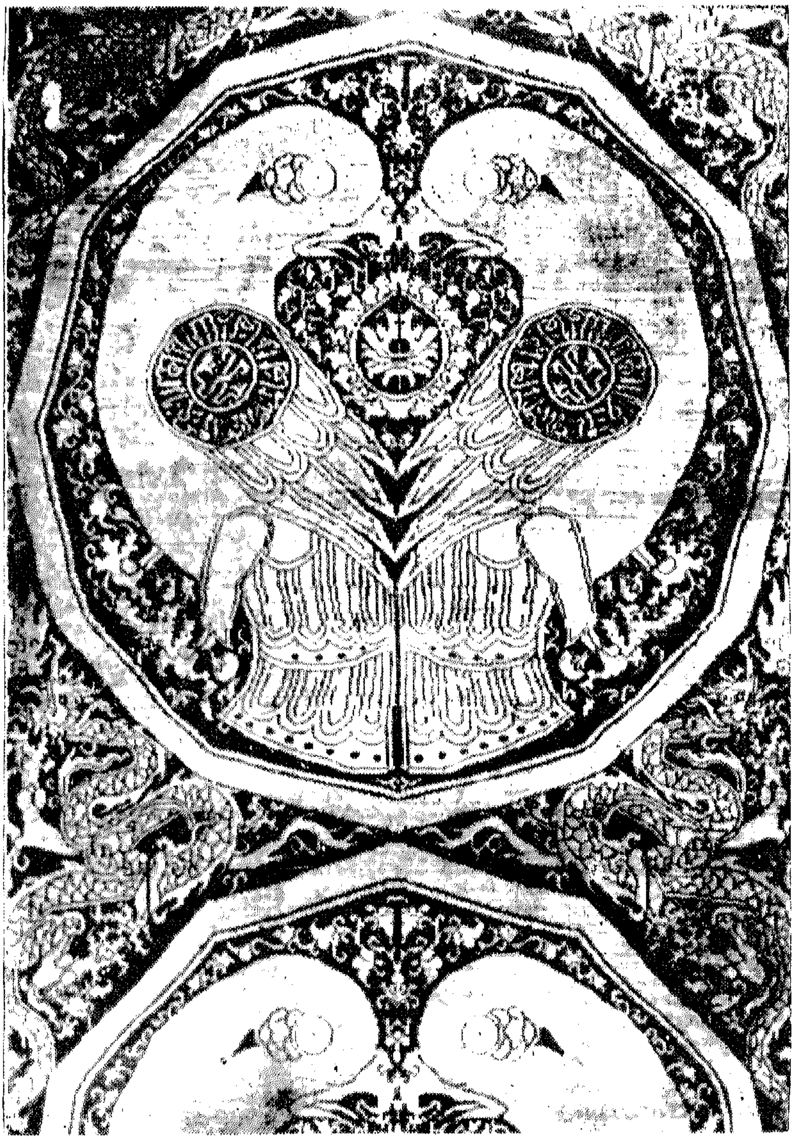
قطعة من نسيج الديباج من صناعة مصر فى العصر المملوكى عليها اسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون من القرن (٧ هـ)
(متحف الفن الاسلامى)



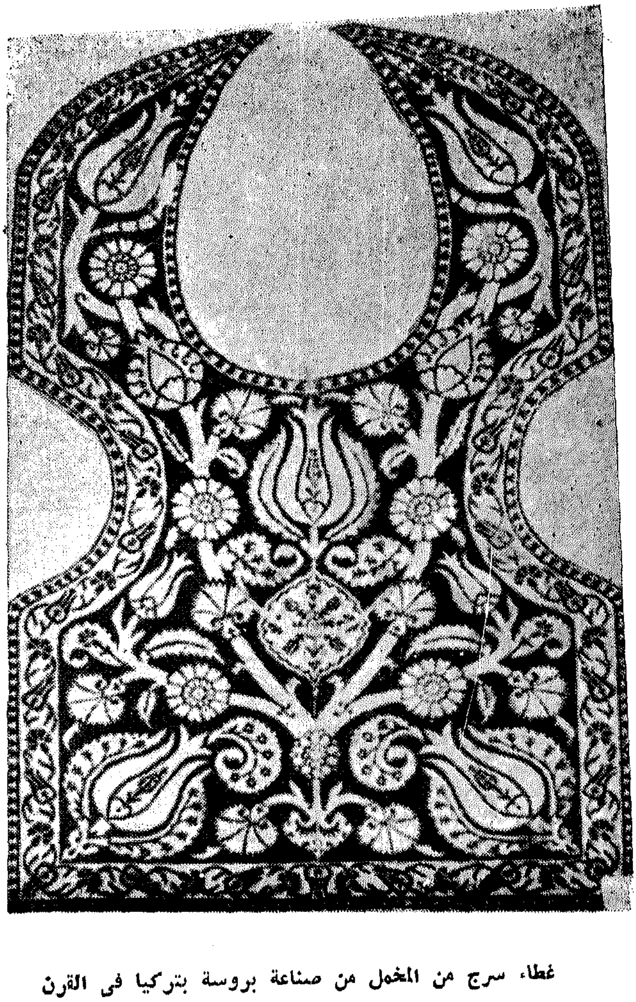
قطعة من نسيج الديباج من صناعة مصر فى العصر المملوكى من القرن (٩ هـ)



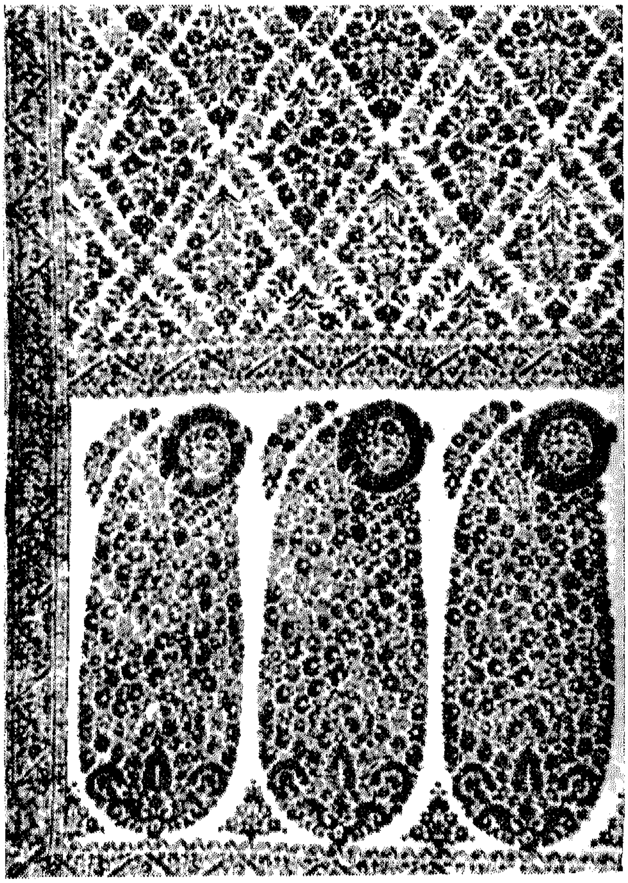
قطعة من النسيج الديباج من صناعة إيران فى القرن (٦هـ)
عليها زخارف حيوانية يفصل بينهما شريطان من الكتـــابة
متعاكسان كتب عليها « لا تأمن المــوت فى طرف ولا نفس
ولو تمنعت بالحجـــاب والحرس » على أرضــــية نباتية .
(من مجموعة رينو)



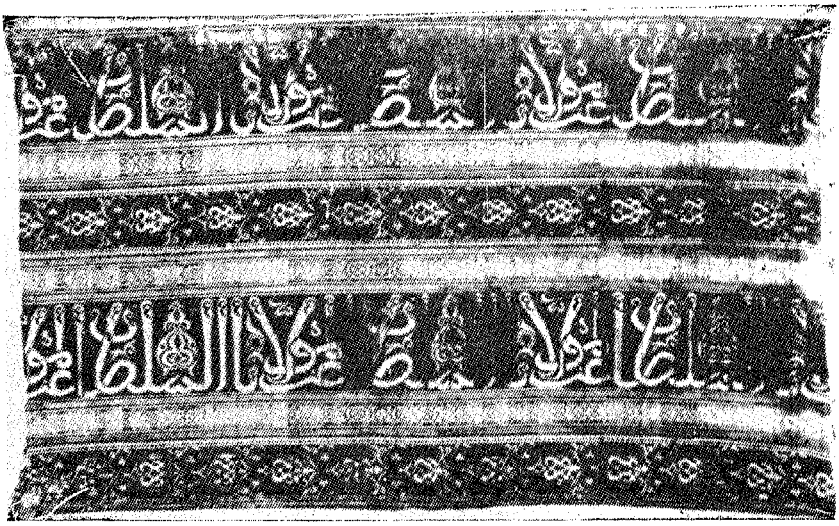
قطعة من نسيج الديباج من صناعة ايران فى العصر المغولى فى القرن
(٨ هـ) (بمتحف برلين)



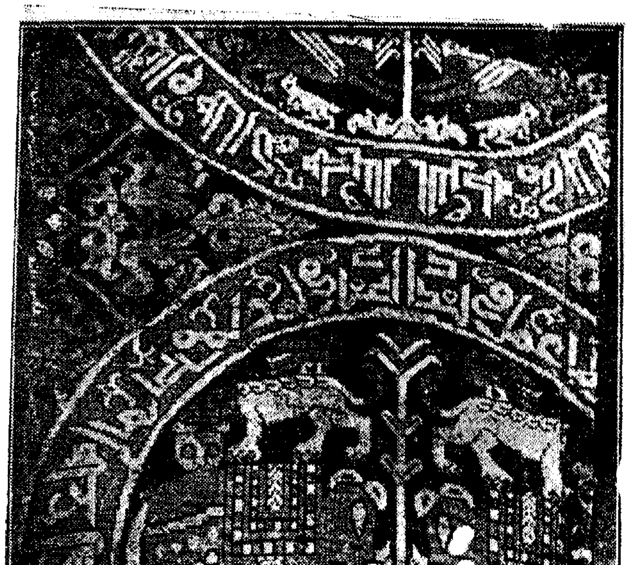
غطاء سرج من المخمل من صناعة بروسة بتركيا فى القرن
(١٠ هـ) (بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة)



شال من نسيج الديباج من صناعة منطقة كشمير بالهند من
القرن (١٢ هـ)



قطعة من نسيج القباطى من القرن (٤ هـ) من صناعة بغداد (فى كاتدرائية ليون بأسبانيا)



قطعة من نسيج الديباج من نسيج الأندلس فى عصر بنى الأحمر فى القرن (أ هـ)
(بمجموعة خاصة بباريس)

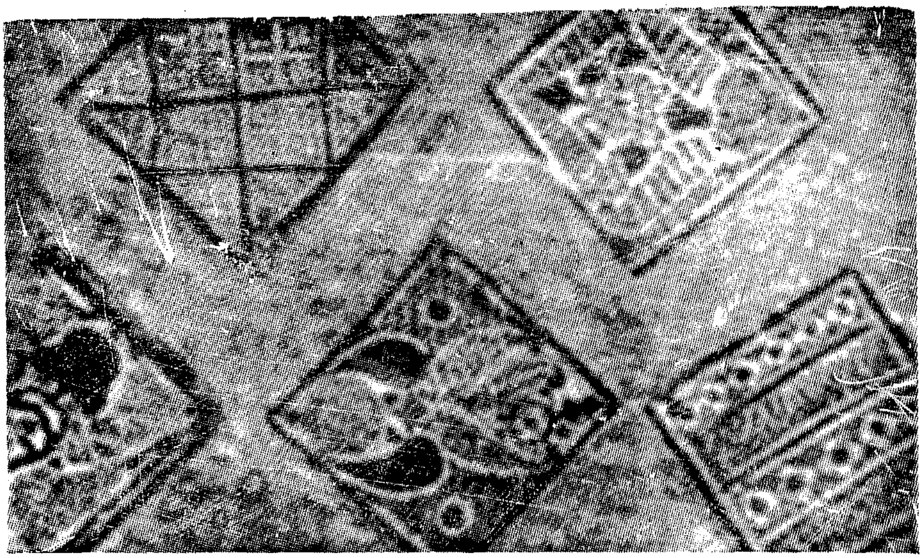
ثانيا ـ الخزف الاسلامى



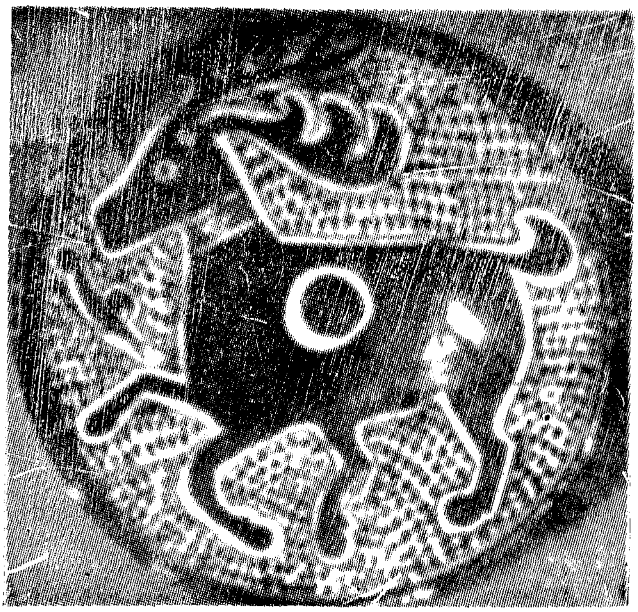
صحن من الخزف ذى البريق المعدنى من صناعة العراق
فى القرن (٣ هـ) من مجموعة شريف صبرى بالقاهرة



صحن من الخزف ذى البريق المعدنى من صناعة ايران فى
أوائل القرن (٤ هـ) بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة



بلاطات من القاشانى ذى البريق المعدنى من صناعة العراق أو شمال أفريقيا
فى القرن (٣ هـ) موجودة بعقد محراب المسجد الجامع فى القيروان



صحن من الخزف ذى البريق المعدنى من صناعة ايران فى
أوائل القرن (٤ هـ) (بمتحف كلية الآثار بالقاهرة)



قدر من الخزف ذى البريق المعدنى من صناعة مصر فى العصر
الفاطمى القرن (٤ هـ) فى مجموعة كلكيان



صحن من الخزف ذى البريق المعدنى من صناعة مصر فى العصر
الفاطمى فى القرن (٥ هـ) بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة



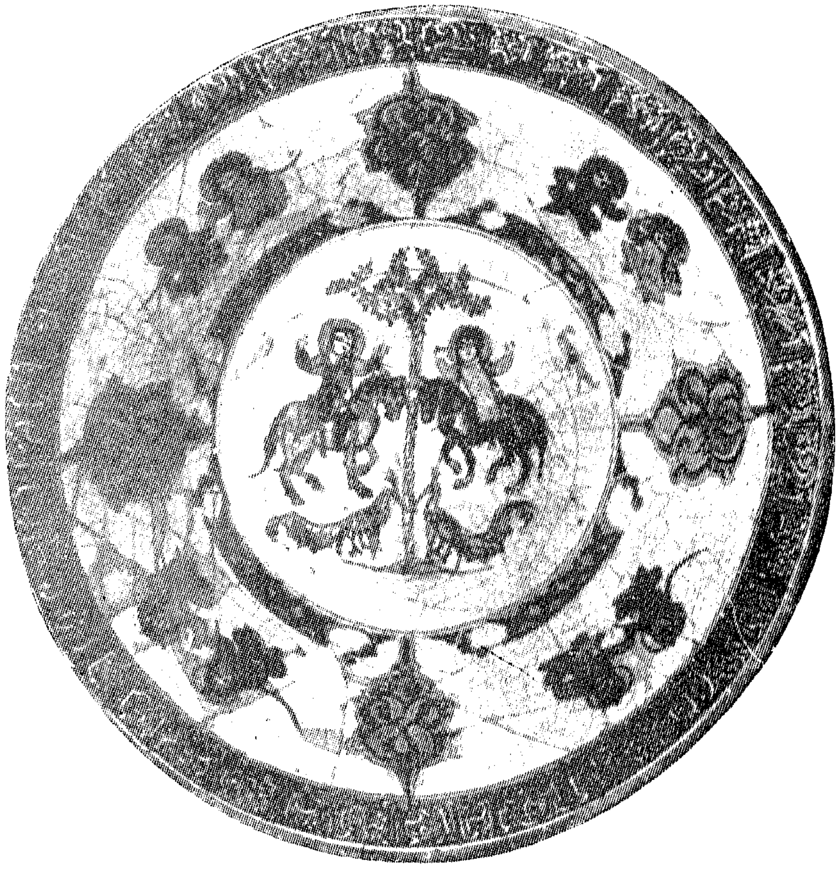
صحن من الخزف ذى البريق المعدنى من صناعة مصر فى
العصر الفاطمى فى القرن (٦ هـ)



جرة من الفخار غير المطلى زخارفه مضافة من صناعة ايران فى القرن (٢ هـ) بمتحف الآثار العربية ببغداد

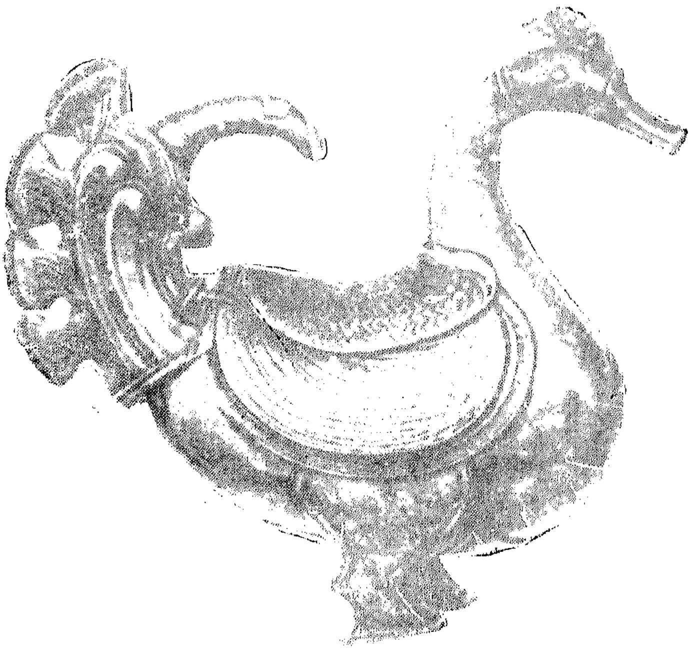


طبق من الخزف الجبرى من صناعة ايران فى القرن (٤ هـ)
قوام الزخرفة رسم بطة ويحيط بالطبق شريط زخرفى مضفور
(بمتحف كلية الآثار بالقاهرة)

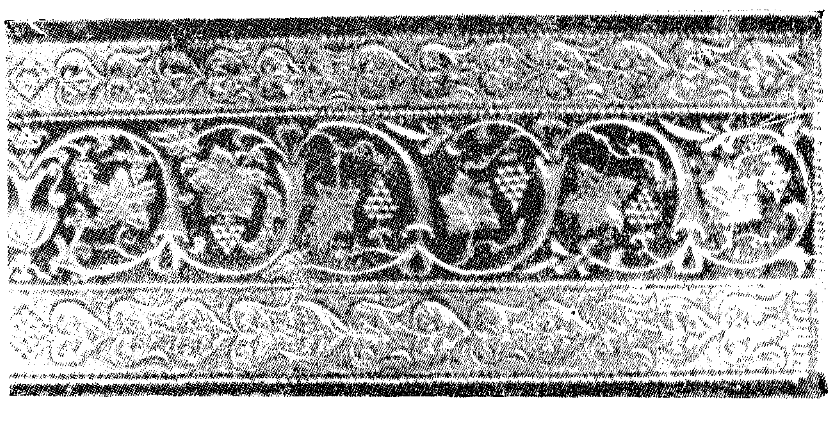


صحن من الخزف المينائى من صناعة ايران فى القرن (٧ هـ)
بمتحف كلية الآثار بالقاهرة

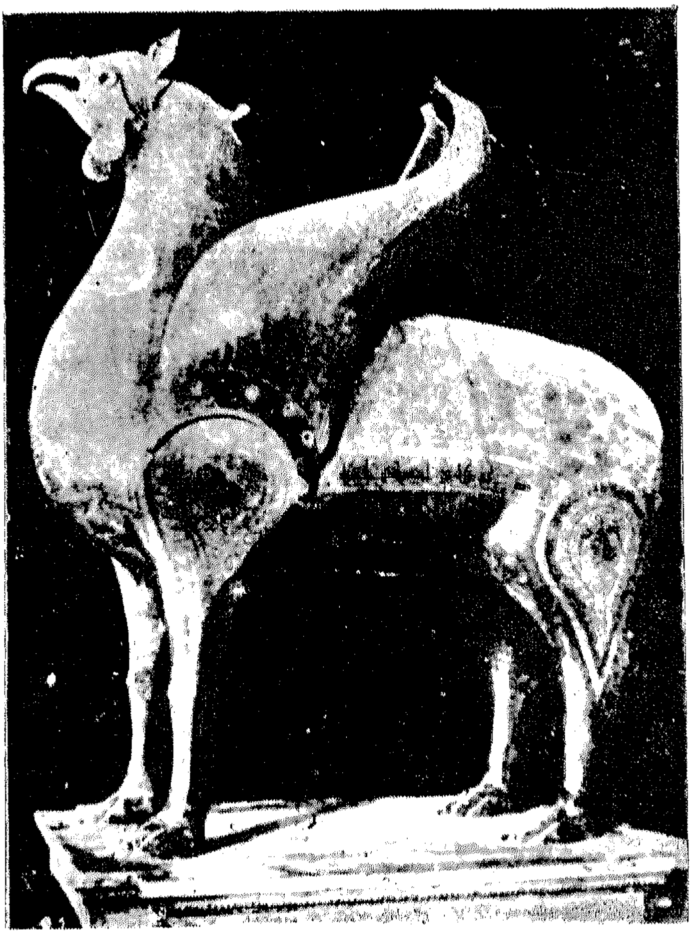
ثالثا ــ المعادن الاسلامية



مبخره من البرونز من صناعة ايران فى العصر الساسانى فى القرن (٦ هـ)
(بمتحف الأرميتاج فى ليننجراد بروسيا)



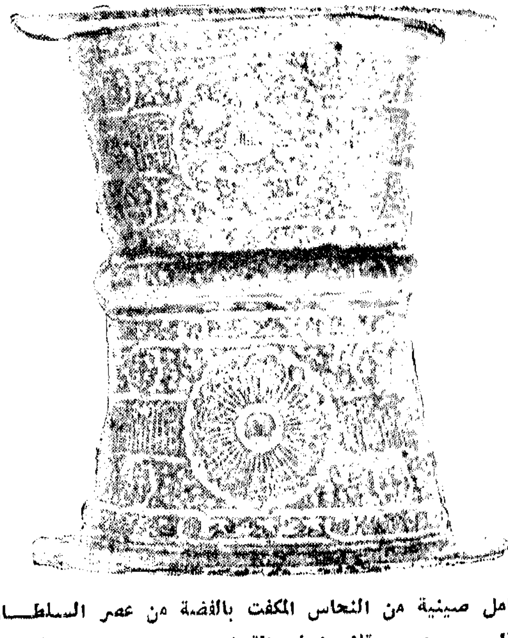
شريط من البرونز المزخرف بطريقة الطرق والضغط بضلف الروابط الخشبية
بقبة الصخرة ببيت المقدس من صناعة الشام سنة ٧٢ هـ



تمثال عقاب من البرونز زخارفه محزوزة من صناعة مصر فى
العصر الفاطمى (بمتحف بيزا بايطاليا)



صندوق من النحاس المطعم بالفضة تحفظ فيه المجوهـــرات والبخور عليه كتابة بالخط الثلث باسم الأمير المملوكى طغاى تمر على أرضية نباتية وأعلاها شريط عليه رسوم حيــوانية يتوسطه رنك الكأس أى أن صاحبها يشــغل وظيفة ســاقى السلطان ، وهى من مصر القرن ـ ٧ ـ ٨ هـ



حامل صينية من النحاس المكفت بالفضة من عصر السلطـــان الناصر محمد بن قلاوون فى القرن (٧ هـ) من صناعة مصر (بالمتحف البريطانى)



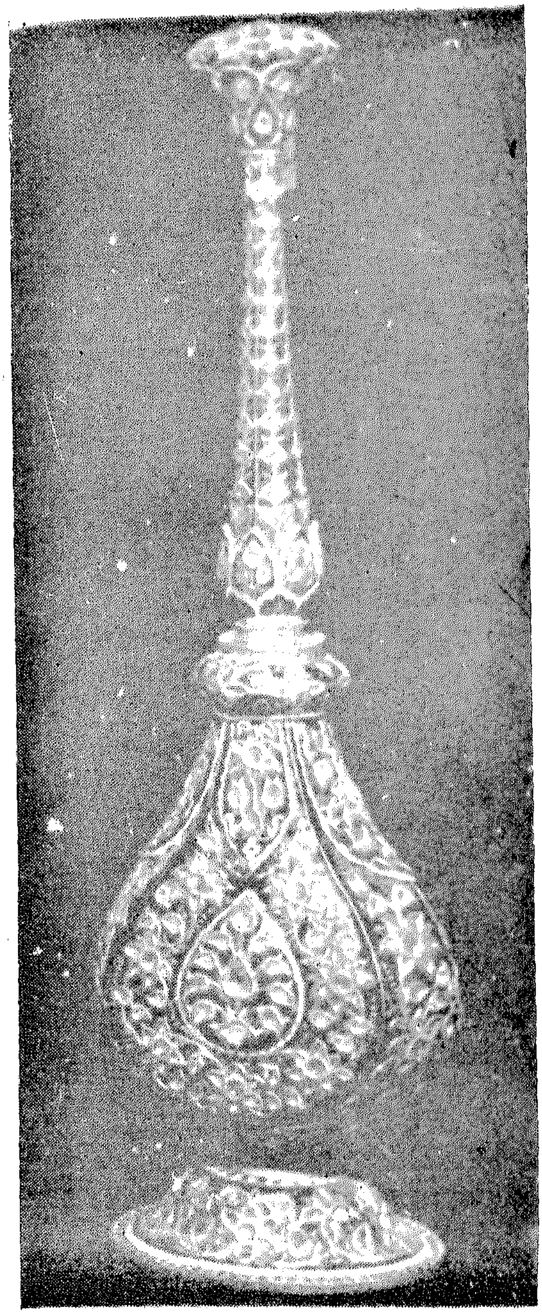
ابريق من النحاس زخارفه مضغوطة ومحزوزة ومضلعة
من صناعة ايران فى القرن (٧ هـ) بمتحف برلين



ابريق من النحاس المكفت بالذهب والفضة من صناعة ايران سنة ٦٧٣ هـ
(فى متحف قصر كلستان بطهران)

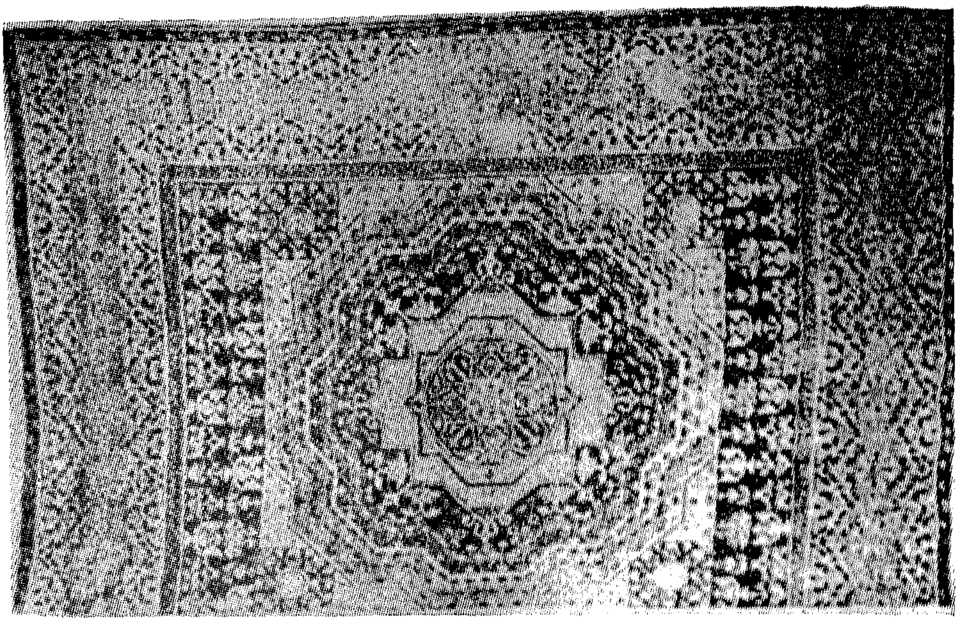


شمعدان من البرونز المكفت بالفضة من صناعة ايران فى
القرن (٧هـ) فى متحف كلستان بطهران

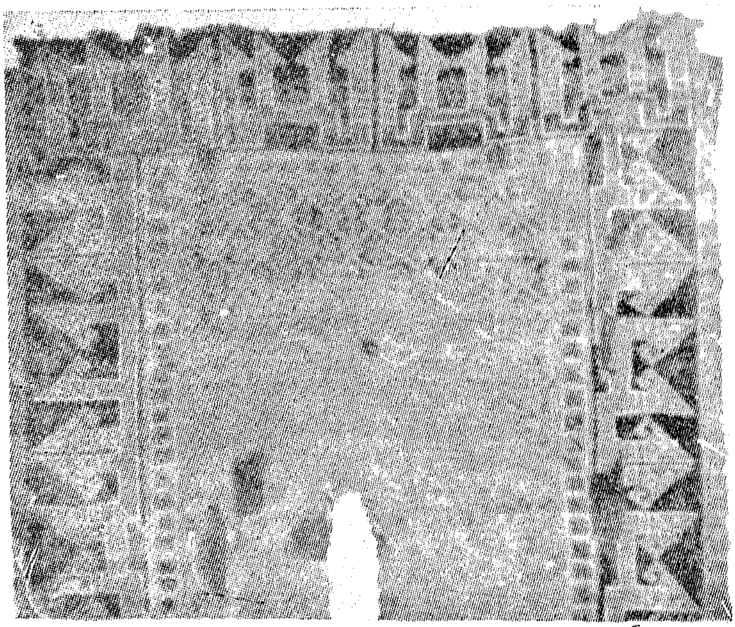


قمقم العطور من الفضة المرصعة بالأحجار الكريمة من صناعة
تركيا فى القرن (١٢ هـ) من هدايا الكعبة المشرفة
بمتحف الحرم المكى

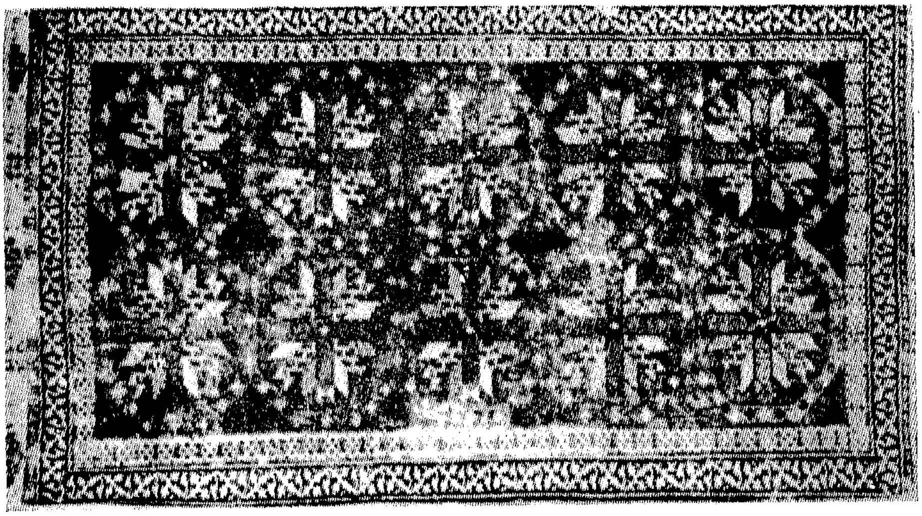
رابعا ـ السجاد الوبرى



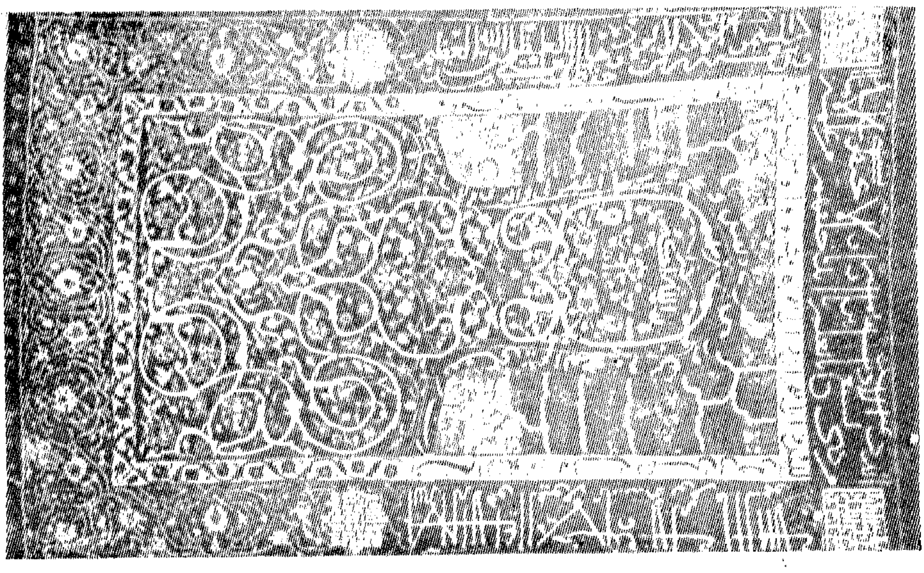
سجادة من صناعة مصر فى العصر المملوكى فى القرن (١٠ هـ) والتى يطلق عليها خطأ سجاد دمشق بمتحف برلين



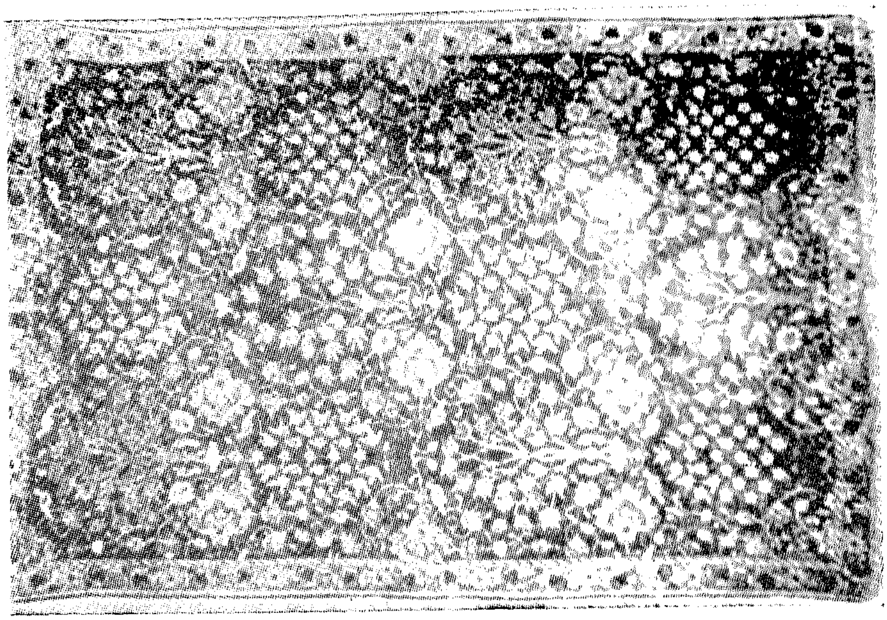
سجادة من مسجد علاء الدين بقونية بآسيا الصغرى من العصر السلجوقى فى القرن (٧ هـ بمتحف الفنون التركية والاسلامية باسطنبول)



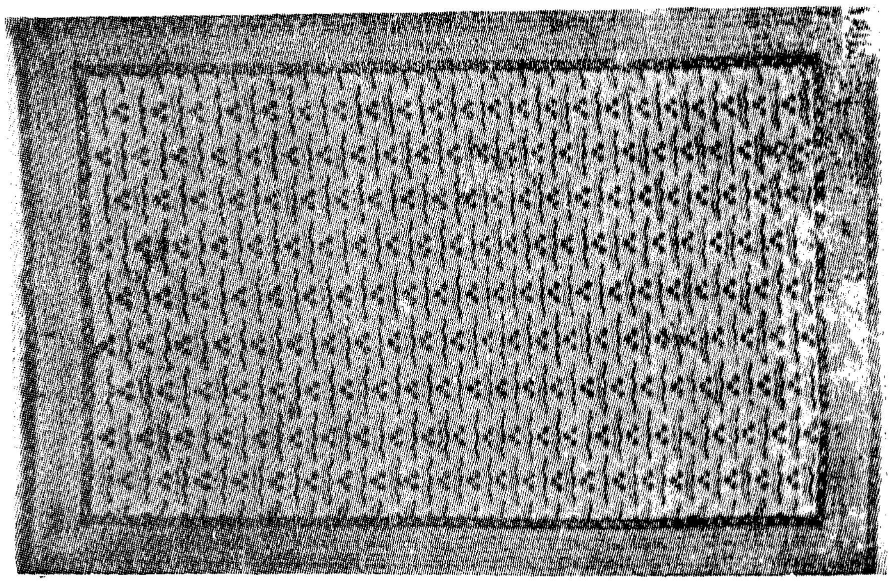
سجادة من صناعة اسبانيا من القرن (١٠ هـ) بمتحف برلين



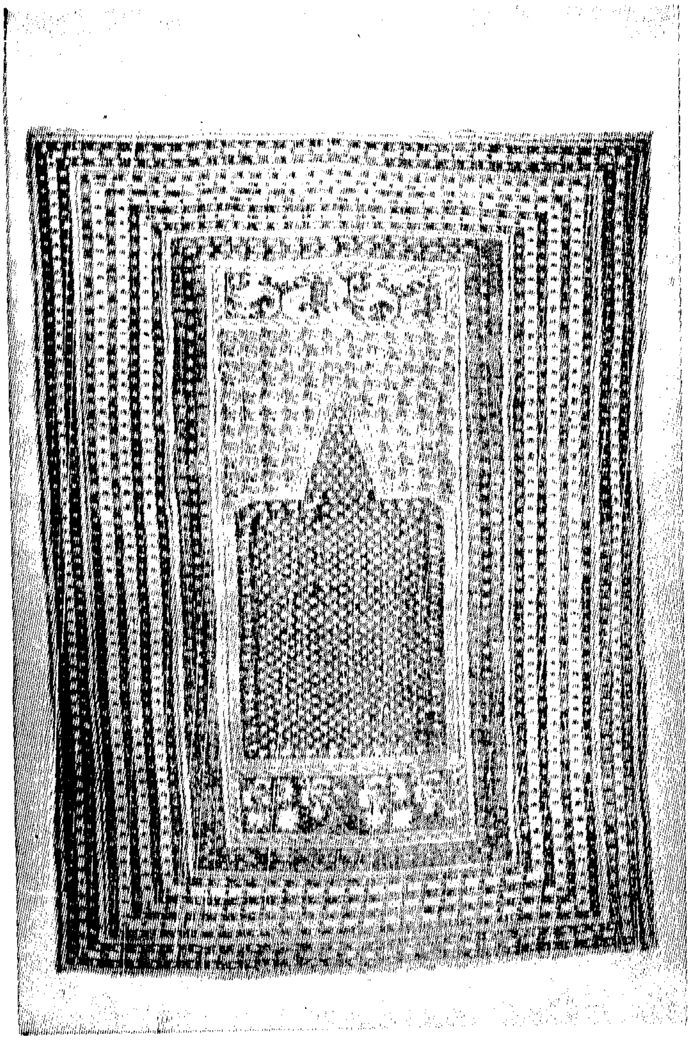
سجادة صلاة من صناعة ايران فى العصر الصفوى من القرن (١٠ هـ)
بمجموعة يوسف كمال بالقاهرة



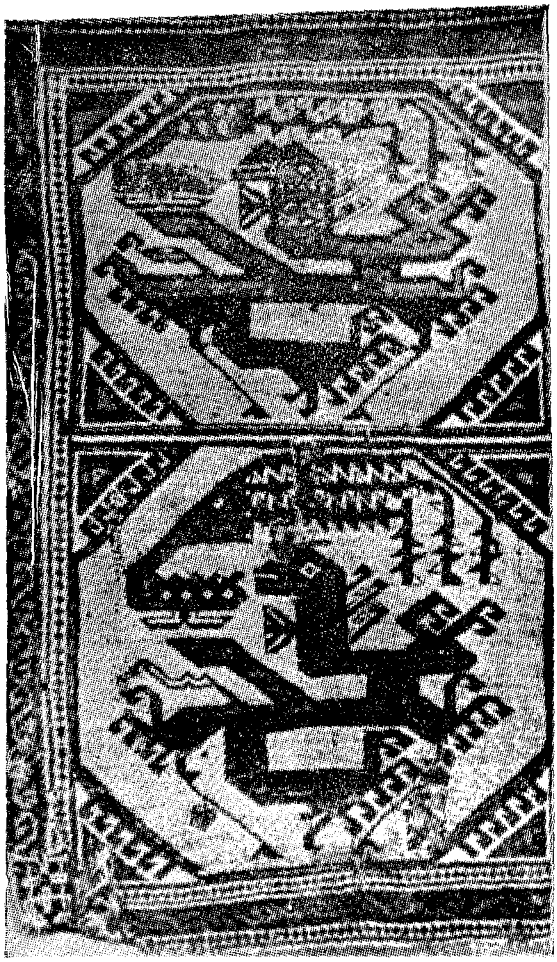
سجادة من صنع ايران فى العصر الصفوى فى القرن (١١ هـ) تعرف باسم سجاد الزهرية (بمتحف برلين)



سجادة من صناعة تركيا فى القرن (١١ هـ) تعرف باسم تشنتمانى أى السحب والأقمار بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة

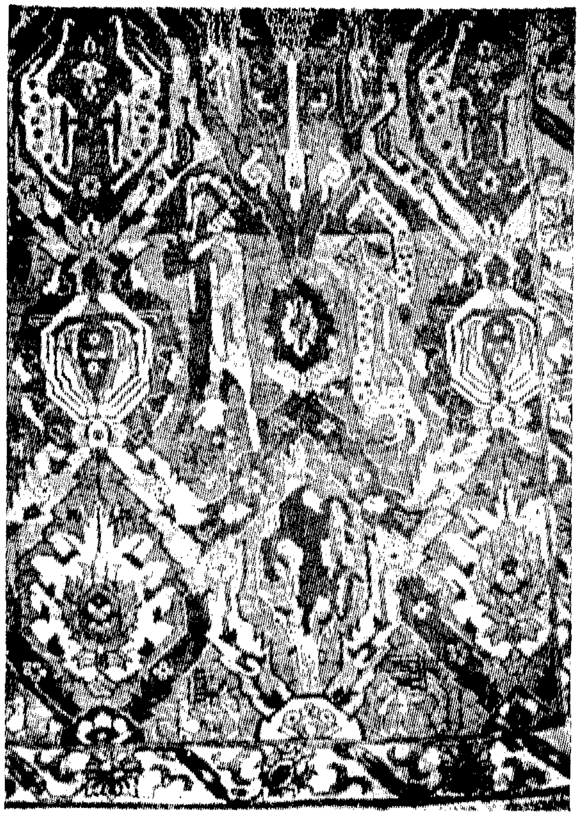


سجادة صلاة من صناعة تركيا من طراز جورديس من نهاية
القرن (١٢ هـ) بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة

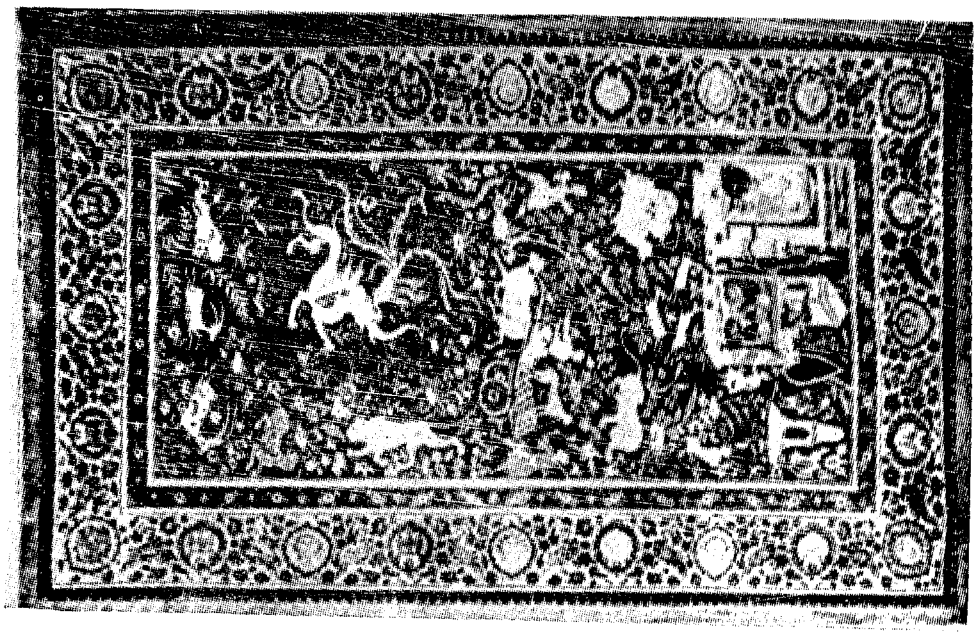


سجادة من صناعة أرمينيا فى القرن (٩ هـ)

(بمتحف برلين)

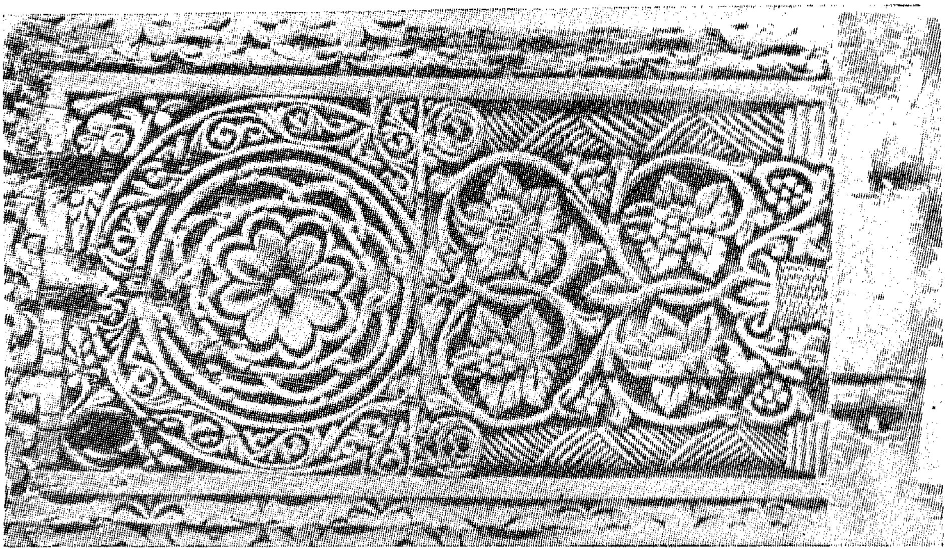


سجادة من صناعة ارمينيا تعرف باسم طراز القوقاز
من القرن (١١ هـ) (بمتحف برلين)

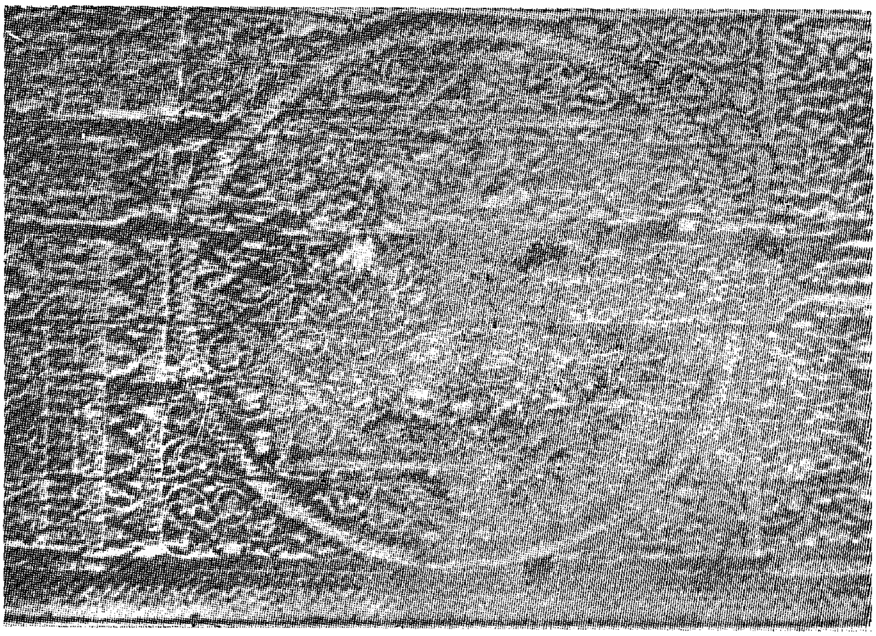


سجادة من الهند من القرن السابع عشر
(بمتحف الفنون الجميلة ببوستن)

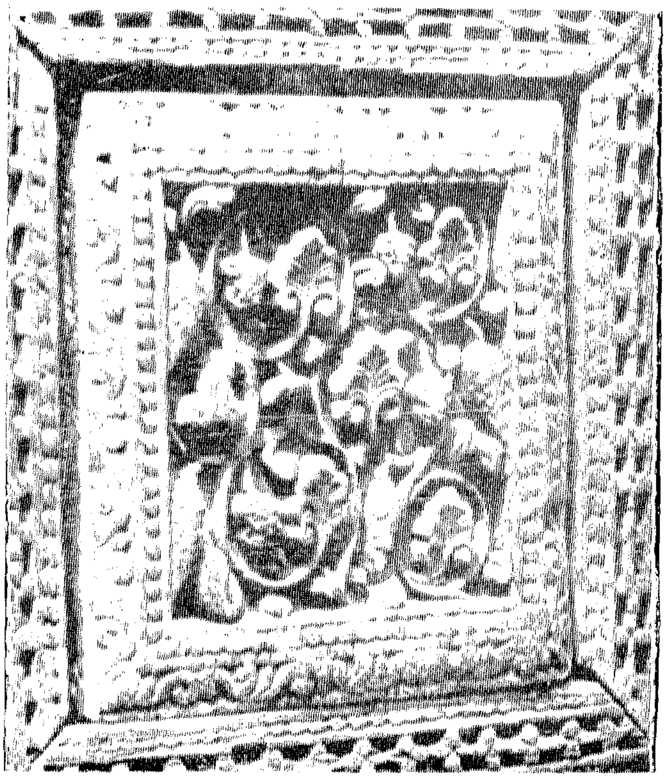
النقش فى الخشب والعاج



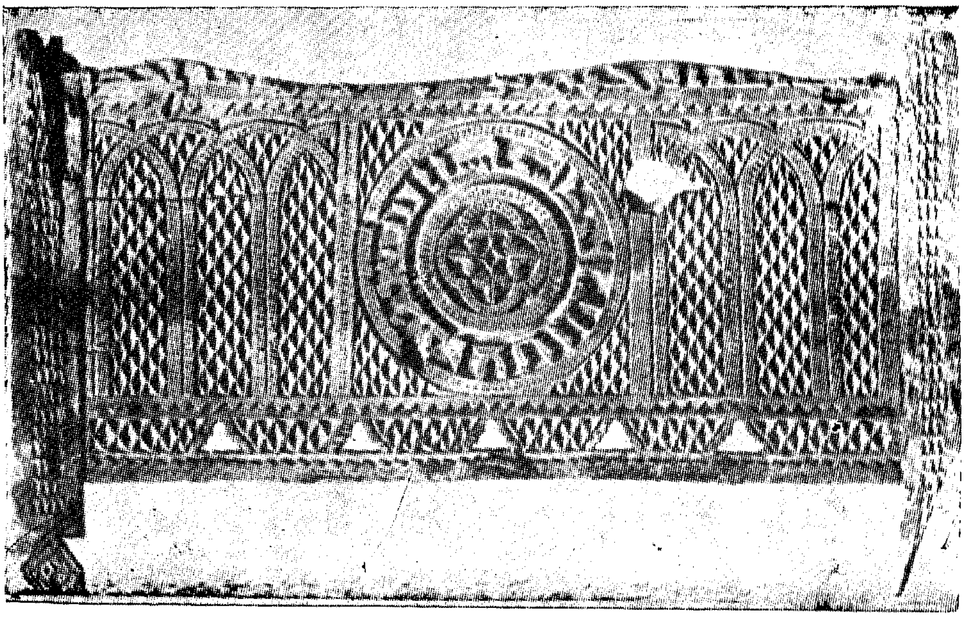
لوح من الخشب محفور حفرا بارزا وغائرا من الطراز الأموى من صناعة الشام حوالى سنة ١٦٣ هـ وهو بسقف الرواق الأوسط بالمسجد الأقصى ببيت المقدس



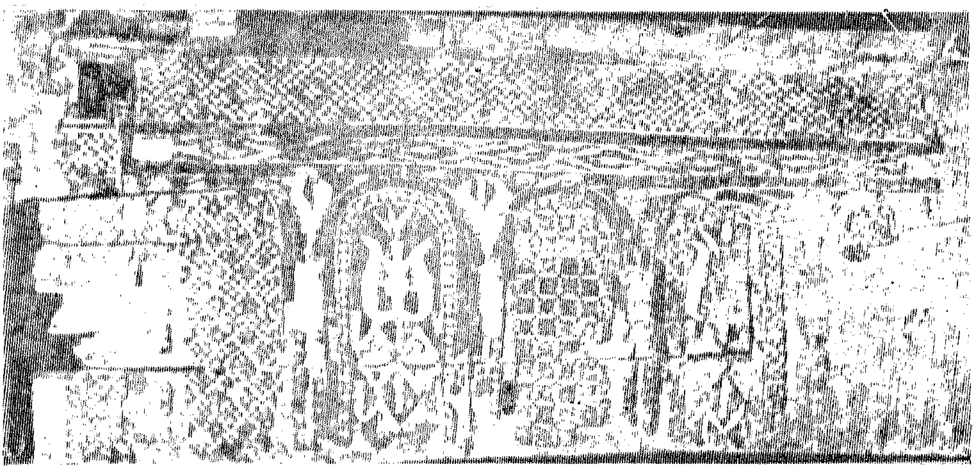
جزء من باب من الخشب وجد فى تكريت فى العراق ويرجع الى بداية العصر العباسي فى القرن (٢ هـ)



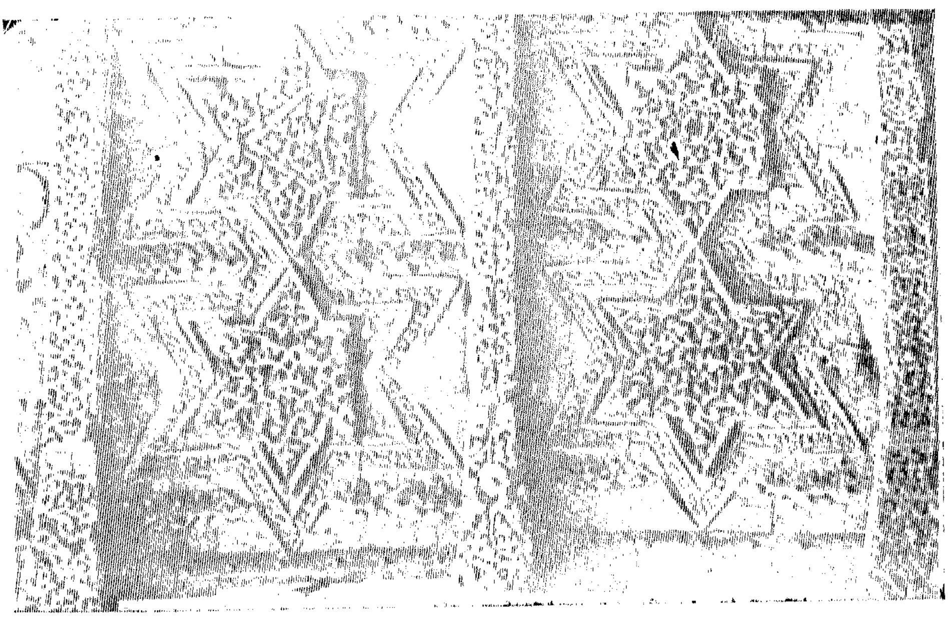
حشوة من الخشب من منبر وجـــد فى تكريت
يرجع الى أوائل العصر العباسى القرن (٢ هـ)
(بمتحف الميتروبوليتان بنيويورك)



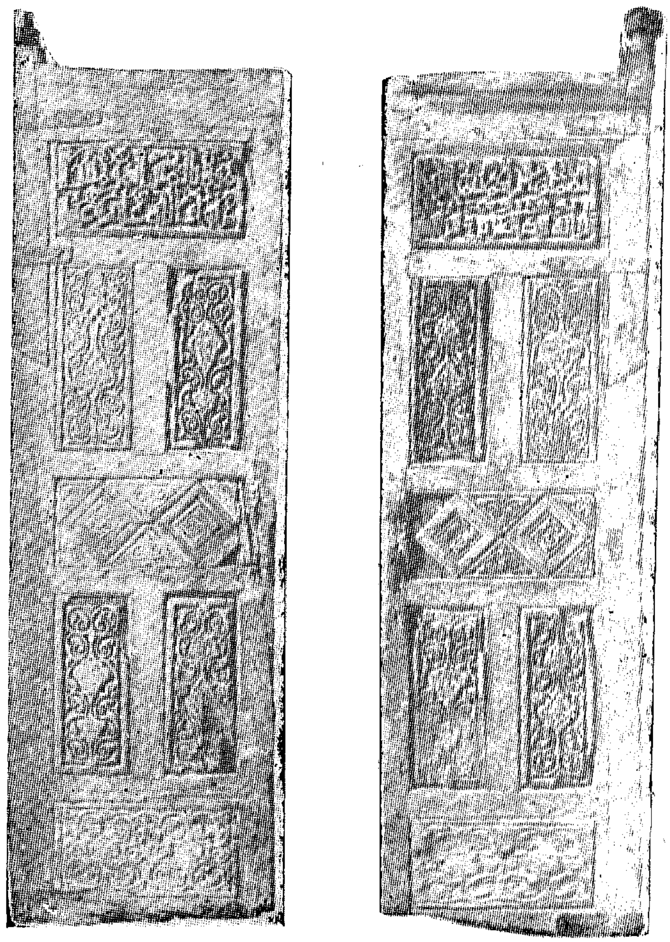
لوح من الخشب من صناعة مصر فى العصر الأموى فى القرن (٢ هـ)
بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة



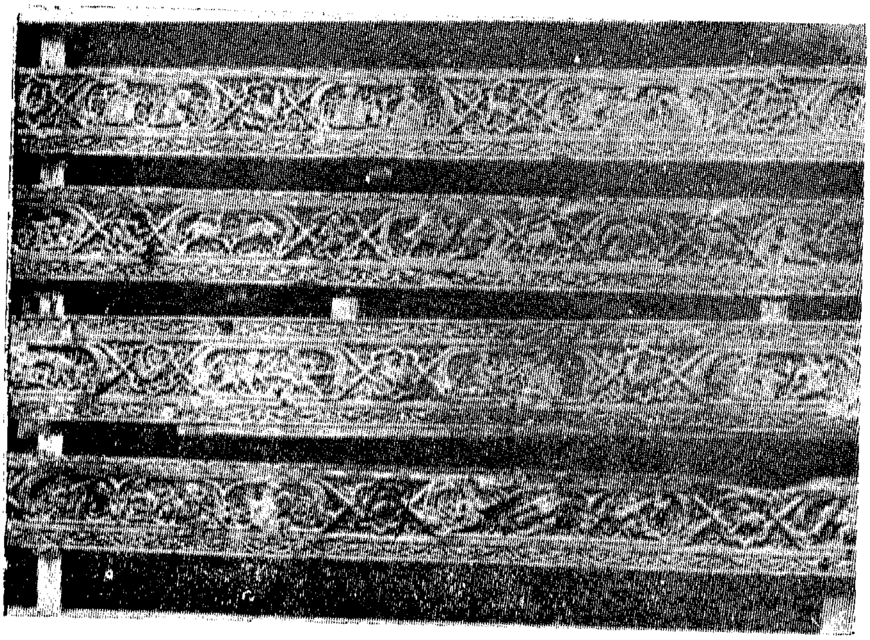
لوح من الخشب مزخرف بطريقة التطعيم المزيف أو طريقة الترصيع من صناعة مصر فى القرن (٣ هـ)
بمتحف كلية الآثار بالقاهرة



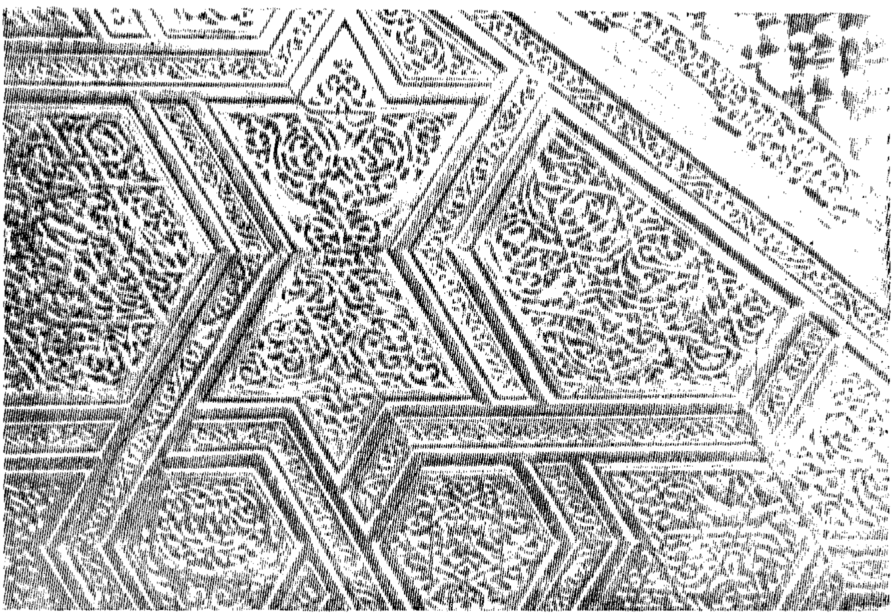
باب خشبى من قبر محمود الغزنوى من صناعة ايران فى القرن (٥ هـ)
(محفوظ بمتحف قلعة آجرا بالهند)



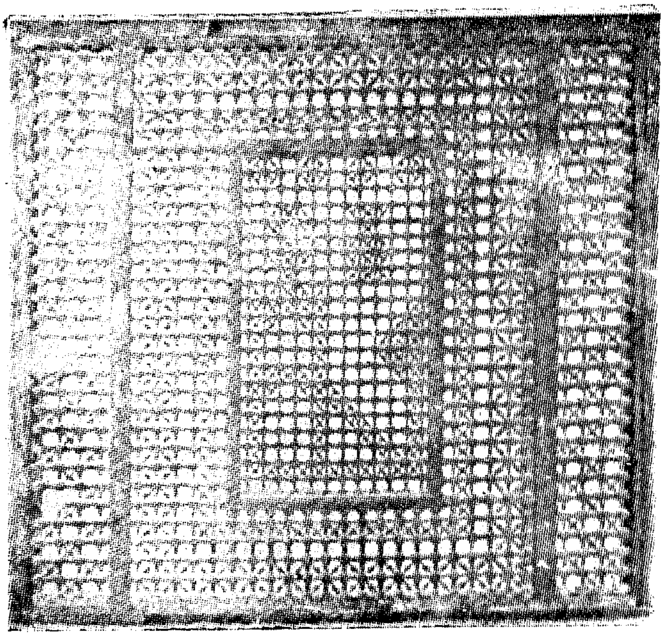
باب خشبى باسم الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٠ هـ
بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة



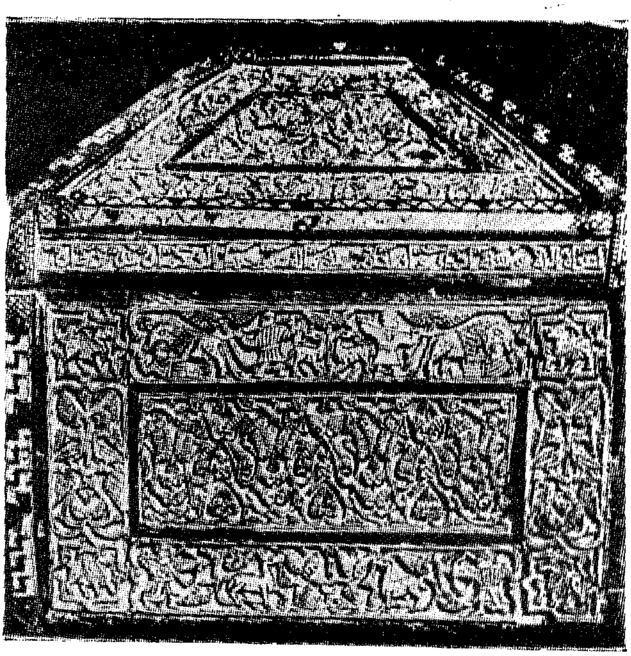
الواح خشبية من القصر الفاطمى الغربى ، عثر عليها فى مارستان قلاوون
(بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة)



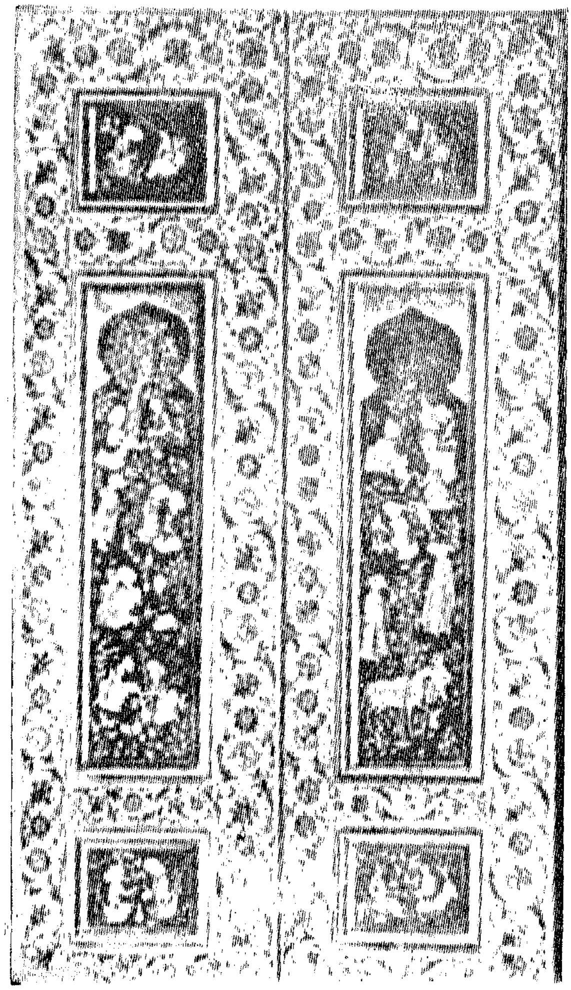
جزء من منبر خشبى عليه كتابة باسم الخليفة الفاطمى المستنصر ووزيره بدر الجمالى سنة ٤٨٤ هـ . صنع لمشهد الامام الحسين فى عسقلان ثم نقل الى حرم الخليل فى فلسطين



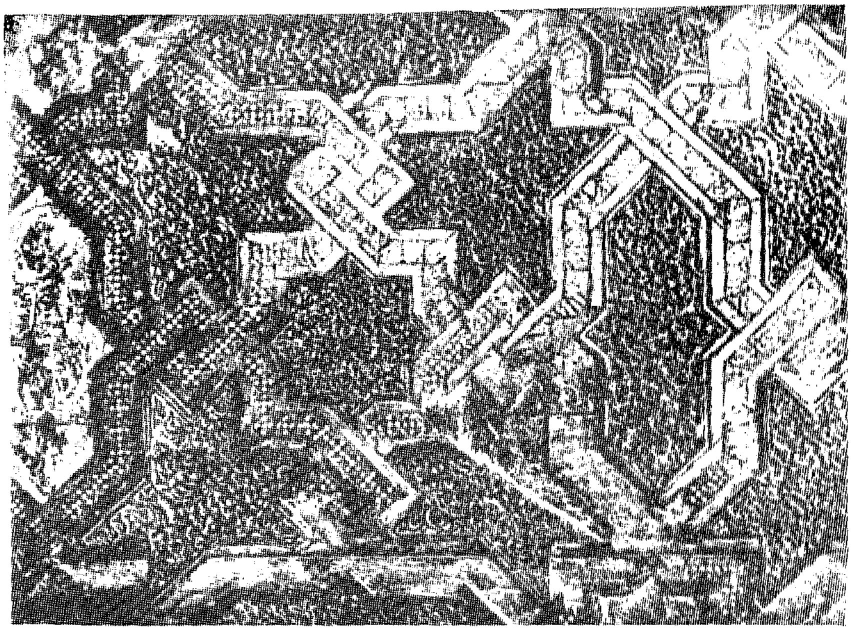
لوح من الخشب مزخرف بطريقة الخرط من صناعة مصر فى العصر المملوكى بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة



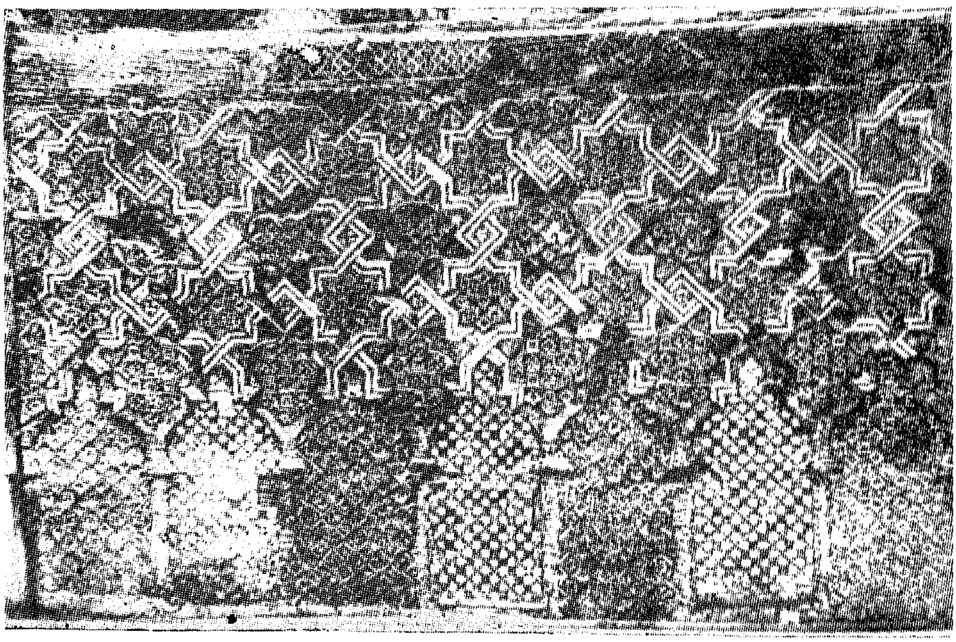
علبة من العاج من صناعة الاندلس مؤرخة سنة ٤٤١ هـ اصلها من كاتدرائية بلنسية وهى محفوظة الآن بمتحف الآثار بمدريد



باب من الخشب من صناعة ايران مزخرف بطريقة اللاكيه .
من قصر جهل ستون فى أصفهان ويرجع الى العصر الصفوى
فى القرن (١١ هـ)

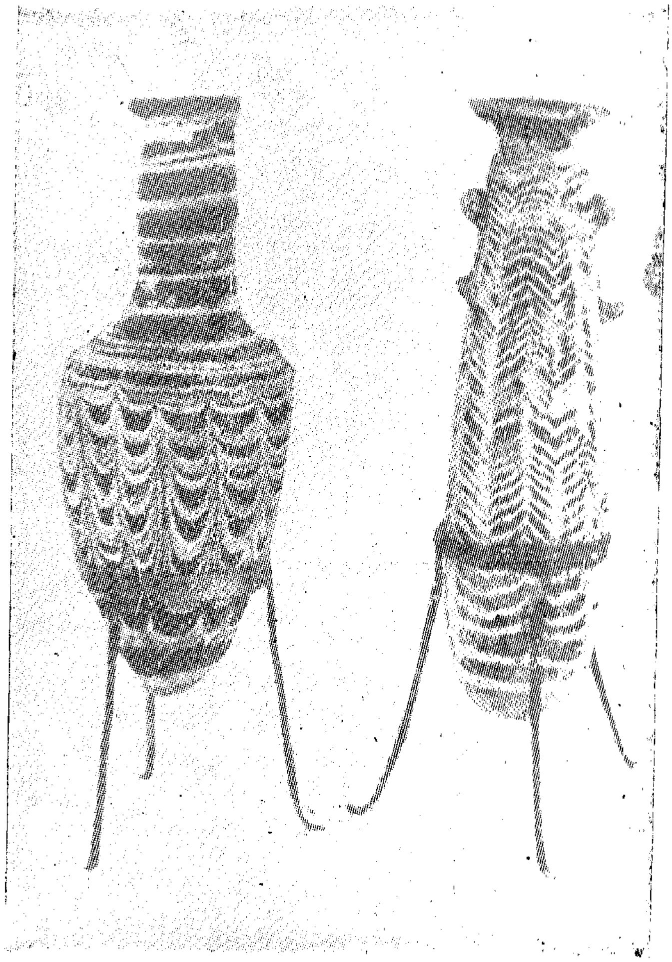


حشوات خشبية من منبر حاكم الكبتية فى مدينة مراكش من القرن (٧ هـ)

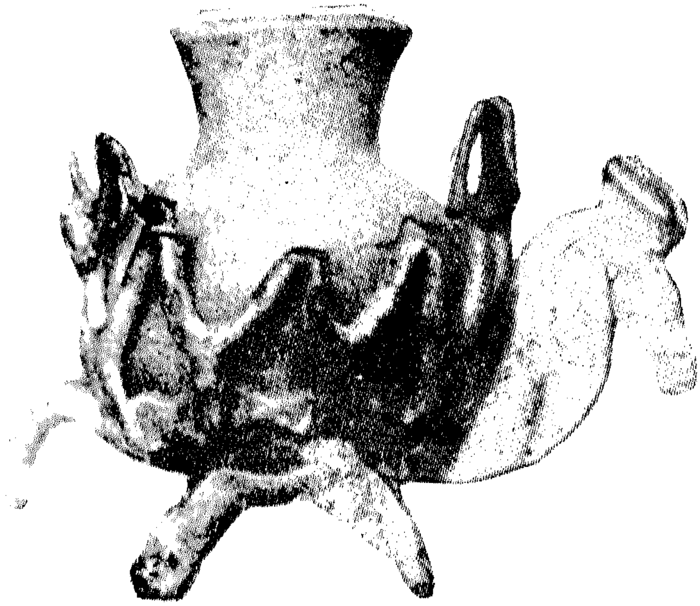


حشوات خشبية من منبر جامع القصبة بمدينة مراكش من القرن (٧ هـ)

الزجاج والبللور الصخرى



قنينتان من الزجاج من صناعة مصر فى فجر الاسلام
(بمتحف كلية الآثار بالقاهرة)



قنينة من الزجاج فى حامل زجاجى على شكل جمل من صناعة مصر فى القرن (٢ هـ)
(بمتحف برلين)



٣ أكواب عليها زخرفة مموهة بالمينا ومنقوطة من صناعة الرقة والشام فى القرن (٧ م)
(بمتحف برلين)



كاس من زجاج مموه بالمينا من صناعة الشام فى القرن (٧ هـ)
(بمتحف المتروبوليتان بنيويورك)



قنينة من الزجاج المموه بالمينا من صناعة بلاد الشام فى القرن (٨ هـ)
(بمتحف اللوفر بباريس)



مشكاة من الزجاج المموه بالمينا
عليها رنك السيف (السلاحدار) من صناعة مصر فى القرن (٨ هـ)
(بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة)



مشكاة من الزجاج المموه بالمينا وهى تقليـد
حـديث لمشكاة الســلطان المملوكى قايتباى .
(بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة)



صحن من الزجاج المموه بالمينا صناعة ايران فى القرن (٩ هـ)
(بالمتحف البريطانى)



قنينة من الزجاج من صناعة الهند فى القرن (١٢ هـ)
(بمتحف فيكتوريا والبرت)



آنية من الزجاج من صناعة الهند فى القرن (١١ هـ) بمتحف فكتوريا والبرت

فهـــرس

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٢٠٢٨

ISBN — ٩٧٧ — ٠١ — ٠٥٥٦ — ٢